سلسلة

« التربية في القرآن الكريم »

(١)

التربية الإسلامية

في

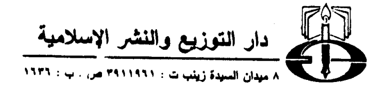
سورة المائدة

الدكتور على عبد الحليم محمود

من علماء الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ — ١٩٩٤ م



إهـــداء

إلى المسلمين الراغبين في أن يربوا أنفسهم وأبناءهم تربية إسلامية . نابعة من مصدري الإسلام الأساسيين القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة .

وإلى العاملين في مجال تربية الأجيال المسلمة .

وإلى رجال الدعوة الإسلامية .

وإلى من يحملون عبء العمل في الحركة الإسلامية المعاصرة .

وإلى المهتمين بالتربية الإسلامية في كل مجال ...

أقدم هذه السلسلة من الكتب : « التربية في القرآن الكريم » محاولاً تعرف المفاهيم التربوية في بعض سور القرآن الكريم ، وتحديد المواقف التربوية فيها ، فإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم – والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

علي عبد الحليم محمود

بَيْن يَدَيْ هذه السِّلْسِلَة

الحمد لله ملء السمٰوات والأرض ، وملء ما شاء من شيء . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله المبعوث هدى ورحمة للعالمين ، القائل : « إنما بعثتُ معلماً » وعلى آله وصحبه ، والسائرين على دربه إلى يوم الدين .

وبعــد :

فإن تربية الإنسان وتعليمه ليصاغ صياغة كريمة تتلاءم مع وظيفته في الحياة الدنيا – وهي عبادة الله وحده وفق ما شرع – كانت وستظل الهدف الأول للأنبياء والمرسلين وجميع الشرائع التي أوحاها الله سبحانه إلى أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، بل كانت وستظل هدف المصلحين الذين جاءوا على فترة من الرسل أو الذين يجددون أمر الدين ، ولا يخلو منهم زمان .

ولقد حاولت البشرية كلها أنبياؤها ورسلها ، ومصلحوها أن تخط لنفسها طريقاً تربوياً يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وأن تربي أجيالها وتعلمهم ، بحيث يؤدون وظائفهم الأساسية وهي عبادة الله ، ويتمكنون من ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة اللائقة بتكريم الله تعالى للإنسان ، وتسخير ما في السمٰوات والأرض له ، وتفضيله على كثير من خلقه .

وعلى الرغم من استمرار هذه المحاولات فإن عقبات كثيرة كانت وما تزال تقف دون تحقيق هذه الأهداف ، عقبات يبثها الكفار والمعاندون والعصاة الذين يجمع بينهم رفض ما جاءت به الأنبياء والرسل والمصلحون ، لما في طريق الأنبياء والرسل والمصلحين من تضحيات وتكاليف ، لأن تربية الناس على منهج الله سبحانه تقوم على حرب الشيطان من الجن كان أو من الإنس ، وعلى حرب الحيوان الكامن في الإنسان – شهواته وغرائزه – تقمع الشياطين وتهذب الشهوات وترسم لها طريق التعبير عن نفسها ، وكل

ذلك يتطلب تضحية بالوقت والجهد والمال والرغائب ، وكل ذلك يتطلب إيثاراً للحق على الباطل ، وصبراً على متاعب التمسك بالحق والدعوة إليه والتواصي بالحق والصبر .

ولقد شاء الله تبارك وتعالى لهذه البشرية أن تحسن أداء وظيفتها ، وأن تبلغ من النضج الروحي والعقلي والبدني الحد الذي يلائم تكريم الله لها ، فأنعم عليها بالشرائع – المناهج – التي جاء بها أولو العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام – وهم أصحاب الشرائع – فكان كل منهم علامة بارزة في طريق الإصلاح للإنسان وبنائه البناء التربوي الصحيح الذي يمكن الإنسان من تناول الحياة الدنيا تناولاً يحقق من خلاله سعادة الدنيا والآخرة .

ولقد ضرب الأنبياء والرسل جميعاً أروع الأمثلة في الصبر على كفر الكافرين ومعاندة الجاحدين وضلال الضالين ، فوضعوا بذلك الصبر معالم بارزة على طريق الدعوة إلى الله وتربية الناس على منهجه ونظامه ، مما لا يزال موضع التقدير والإعجاب والقدوة لكل المصلحين السائرين على الدرب إلى يوم الدين .

ولقد اشتركت جميع الشرائع – المناهج – التي جاءت من عند الله في دعامتين أساسيتين يقوم عليهما بناء التربية والتعليم أو صياغة الإنسان المؤمن الذي يعمل الصالحات هما :

- توحيد الله تبارك وتعالى إلٰهًا وربًّا ، وعبادته وفق ما شرع .
- وطاعته سبحانه وتعالى في كل ما أمر به ، وما نهى عنه .

فما من نبي أو رسول إلا قال لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[1] وقال لهم : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾[2] وما طالبوا بذلك إلا رغبة منهم في أن يصل الناس بهذين الأصلين إلى أن يرضى الله عنهم ويرضوا عنه .

---

(١) نص قرآني كريم ورد في سور كثيرة منها : الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . وهود : ٥٠ ، ٦١، ٨٤ . والمؤمنون : ٢٣ ، ٣٢ .

(٢) نص قرآني كريم ورد في أكثر من سورة منها : آل عمران : ١٣٢ . والأنفال : ١ ، ٢٠ ، ٤٦ . والمجادلة : ١٣ .

وفي مفردات هذه الشرائع – المناهج – أنواع من التربية للإنسان ، تربية روحه ووجدانه ، وتربية عقله وتفكيره ، وتربية بدنه وشهواته ، وكل هذه الأنواع من التربية تستهدف تقوية الإيمان ، وتوجيه العقل ، وتهذيب مطالب البدن ، وقد وضعت الشرائع لكل هذه الأنواع من التربية أطراً وحددت لها معالم ، ورسمت لها أهدافاً ووسائل ، وجعلت لها قيماً وآداباً وفضائل ، وطرحت لها مفاهيم تربوية واضحة ، تدرك وتتعلم من خلال مواقف تربوية تقصها تلك المناهج ، وتدعو إلى التأمل فيها وتدبر ما تنطوي عليه من قيم تربوية ، للوصول من وراء ذلك إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وإن البحث عن أنواع هذه التربية في صورتها الصحيحة لا يكون إلا في مناهج الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا يجوز أن تلتمس في غير هذه المناهج مما وضعه الناس للناس ومما زينه الفلاسفة والمفكرون والمصلحون ، اللهم إلا إذا كان هؤلاء قد استلهموا مناهج الأنبياء والرسل أو أخذوا منها أخذاً مباشراً .

واليوم – وبعد مضي أكثر من أربعة عشر قرناً على منهج خاتم الرسل محمد ﷺ – يحاول العقلاء من الناس أن يلتمسوا منهجاً ونظاماً لتربية الروح والعقل والبدن في الإنسان ، فيفزعون إلى شرائع الأنبياء والرسل فيما أوحى الله إليهم فلا يجدون من هذه الكتب التي حملت المناهج إلا ما حرف أو زيف أو بقى أقله وذهب أكثره ، وذلك أن هذه الكتب غير القرآن الكريم قد استحفظ عليها الأحبار والرهبان والعلماء ، فعجزوا عن المحافظة عليها ، فلا يجد هؤلاء العقلاء من الناس أمامهم سوى منهج واحد تكفل الله بحفظه فبقى لم ينخرم فيه شيء ولم يزد عليه حرف أو ينقص منه حرف إذ هو المنهج الذي أكمله الله وأتمه ورضيه ديناً .

هذا المنهج الوحيد في كماله وتمامه ، والمتفرد بحفظ الله تعالى له هو ما أوحاه الله سبحانه إلى خاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ .

ولهذا المنهج مصادر أساسية هي : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التي شرحت وفصلت وفسرت القرآن الكريم أوفى شرح وأدق تفصيل وأوضح تفسير ، فكانت بذلك مما تكفل الله بحفظه كذلك ، لأنها تفصل ما أجمل القرآن وتقاسمه التشريع ، كما تحدث

بذلك المعصوم ﷺ : « أوتيت الكتاب ومثله معه » و « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال[1] وأعطيت مكان الزبور المئين[2] ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني[3] وفضلت بالمفصل »[4] .

وما رواه الترمذي بسنده عن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكيء على أريكته ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله » .

ومنهج الإسلام كغيره من مناهج الرسل يقوم على توحيد الله وطاعته فيما أمر وفيما نهى ، فإن الوصول إلى تحقيق هذين الهدفين لا يتسنى لأحد إلا إذا رُبّي تربية إسلامية صحيحة منبثقة عن هذا المنهج .

● إن تربية الروح تربية إسلامية تصفيها من الأوضار والشوائب ، وتقربها من خالقها سبحانه وتعالى ، وتسبب إقبالها عليه بعبادته وفق ما شرع بالفرائض والنوافل ، والرضا بقضائه وقدره ، إن تلك التربية للروح هي التي تضعها في الطريق الصحيح إلى الله سبحانه وتعالى .

● وإن التربية الإسلامية للعقل ، تعني تنقيته من الشُّبَه والضلالات والانحرافات والشطحات ، كما تعني توجيه العقل إلى النظر والتأمل والتدبر فيما خلق الله من شيء ، ليزداد بذلك إيماناً ، ويتدرب على ممارسة الفكر الصحيح الذي ييسر له التعامل مع مفردات الحياة الإنسانية ، وما يكتشفه فيها مما يعينه على الاهتداء إلى الحق ، ويزيده تمسكاً بمنهج الله .

إن تربية العقل تربية إسلامية هي التي تمكنه من ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة ،

---

(١) **السبع الطوال** : هن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس .

(٢) **المئين** : كل سورة من القرآن تزيد آياتها عن المائة آية .

(٣) **المثاني** : كل سورة من القرآن تقل آياتها عن مائة آية وتطلق على الفاتحة .

(٤) **المفصل** : من أول سورة الحجرات إلى آخر سورة الناس ، وهذا الحديث رواه الطبراني والبيهقي بسنديهما عن واثلة بن الأسقع .

وتعصمه من الزيغ والانحراف والغرور والسفه ، وتدعوه إلى العلم والكشف والتقدم في ممارسة الحياة .

● وإن تربية بدن الإنسان وما يمور فيه من عواطف وشهوات تربية إسلامية ، يعني تطويع هذا البدن لمنهج الله لممارسة ما أحل ، والامتناع عما حرّم ، وإعطاء هذا البدن فرصة التعبير عن رغباته وشهواته في القنوات الشرعية التي أحل الله ، وحثه على الأخذ بأسباب القوة وتجنب أسباب الضعف ، لينطلق الإنسان في الحياة قوياً قادراً مريداً لفعل الخير رافضاً للشر ودعاته .

إن تربية الإسلام لهذا البدن على هذا النحو هي التي تحافظ على إنسانية الإنسان ، وتلجم فيه الحيوان الكامن الذي يتحين الفرصة للانطلاق .

● من أجل تربية إسلامية للإنسان روحه وعقله وبدنه ، ومن أجل تأصيل مفاهيم التربية الإسلامية ، وربطها بنصوص الإسلام من الكتاب والسنة النبوية المطهرة ، ومن أجل إنقاذ الحياة الإنسانية من الانحراف عن جادة الحق والخير والهدى ، ومن أجل انتقاء أحسن المناهج في التربية الإسلامية وأكملها وأتمها وألزمها للمسلمين لما لهم إليها من حاجة ملحة ومستمرة ، ومن أجل الاستغناء عن مناهج التربية الوافدة على المسلمين من بلاد غير بلادهم ، ومجتمعات ليست لها قيمهم ولا أخلاقهم .

من أجل تربية المجتمع المسلم أو الأمة الإسلامية كلها صغارها وكبارها ، وشبابها وشيبها ، ومدارسها ومعاهدها وجامعاتها ، من أجل الرجل المسلم والمرأة المسلمة والطفل المسلم والعائلة المسلمة .

● من أجل ذلك كله كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نستلهم التربية الإسلامية الصحيحة للإنسان التي تنقله من هذا المعمعان التربوي الوافد الذي يقدم له ما يفقده اعتزازه بدينه وانتماءه إليه ، بل يوشك أن يعلمه ما يفقده الاعتزاز بوطنه ، والأنماع في مجتمعات الغرب التي تتصدى لكل ما هو إسلامي منذ زمن بعيد ، حتى لقد شن المتعلمون في الأوطان الإسلامية حرباً على دينهم ولغة دينهم ، بل لقد طالب

بعضهم بالاندماج في المجتمعات الغربية وأسواقها ونظمها الاقتصادية بغير خجل أو حياء !!!

● إن العلاج بل الإنقاذ عندنا هو أخذ قيمنا ومفاهيمنا التربوية من مصدري الإسلام الأصيلين الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة ، إن ذلك هو الذي يربي المسلمين ويعلمهم ويرقيهم في مدارج السالكين في طريق الحق والصراط المستقيم .

● إن توحيد الله إلٰهاً ورباً يعنى أن نأخذ من كتابه الكريم وسنة خاتم أنبيائه كل ما نحن بحاجة إليه في معاشنا ومعادنا ، وسنجد ، لأن الله تبارك وتعالى وصف كتابه بأن فيه : ﴿ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] ، ولأن النبي ﷺ قال : « قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنة نبيه » .

● وإن طاعة الله هي طاعة رسوله ﷺ في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه ، ومن طاعة الله ورسوله المبلغ عنه أن نلتزم بمنهج الإسلام في الحياة كلها في العسر واليسر والمنشط والمكره ، ولا نستطيع أن نصل إلى طاعة الله ورسوله إلا إذا ربينا أنفسنا وأبناءنا ومجتمعنا كله تلك التربية الإسلامية التي أشرنا إلى مجملها آنفاً .

وسوف نستعين بالله في هذا الكتاب على تفسير بعض سور القرآن الكريم تفسيراً يستهدف التعرف على القيم التربوية الإسلامية في تلك السور الكريمة التي شرحتها سنة النبي ﷺ ، موقنين بأن القرآن الكريم كله مليء بالمفاهيم والمواقف التربوية ، ولكن ليس بوسعنا تفسير القرآن الكريم كله على هذا النحو ، فليكن فيما اخترناه من السور بداية .

وقد آثرت أن أبدأ في هذا التفسير بسورة المائدة وأثنى بسورة النور ، ثم بما يشاء الله لي وييسر من سور أخرى .

وإنما كانت هذه البداية بهاتين السورتين لما رواه البيهقي في شعب الإيمان بسنده

---

(١) سورة يوسف ١١١

عن مجاهد رضي الله عنه مرسلاً : « علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور » .

وأسأل الله تبارك وتعالى العون والسداد والتوفيق .

* * *

المدخل ...

إلى هذا الكتاب

ويتناول كلمات عن الموضوعات التالية :

١ - تميز القرآن الكريم عن الكتب السماوية بخصائص معينة ،
٢ - ومفهوم التربية في القرآن الكريم ،
٣ - ومنهج التربية في القرآن الكريم ،
٤ - ومفردات التربية في بعض سور القرآن الكريم ،
٥ - واختيارنا البدء بسورة المائدة ، ثم سورة النور ،
٦ - ومنهجنا في هذا التفسير التربوي .

١ - تَمَيُّز القرآن الكريم
عن الكتب السماوية بخصائص معينة

لا شك أن الكتب السماوية التي جاءت من عند الله ، تحمل إلى الناس الخير في الدين والدنيا ، ما اتبعوها وعملوا بما جاءتهم به ، ولا شك أن الكتاب الخاتم لهذه الكتب وهو القرآن الكريم متميز على سائر الكتب التي سبقته في النزول بخصائص خصه بها الله سبحانه وتعالى دون غيره من كتبه .

يتبين لنا هذا التميز بصورة عامة في الأحاديث النبوية المطهرة التي نسوقها فيما يلي :

● روى الإمام الدارمي في سننه بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « ... إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون فتن ، قلتُ : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذي مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرّدّ ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ ، وهو الذي من قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم .... » .

● وروى الدارمي في سننه بسنده عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور فتمسكوا بكتاب الله وخذوا به » فحثَّ عليه ورغَّب فيه ثم قال : « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » - ثلاث مرات - .

● وروى الدارمي بسنده عن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه » .

● وروى الدارمي بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « القرآن أحب إلى الله من السمٰوات والأرض ومن فيهن » .

● وروى الدارمي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين » .

● وروى الإمام أحمد بسنده عن عليّ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد أمتك مختلفة بعدك ، قال : فقلت له : فأين المخرج يا جبريل ؟ قال : فقال : في كتاب الله ، به يقصم الله كل جبار ، من اعتصم به نجا ، ومن تركه هلك – مرتين – قول فصل ، وليس بالهزل ، لا تخلقه الألسن ، ولا تفنى عجائبه ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وفصل ما بينكم ، وخبر ما هو كائن بعدكم » .

● وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أُعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيت وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

من هذه الأحاديث النبوية الشريفة نستهدى إلى صفات أساسية في القرآن الكريم قد يغفل عنها بعض المسلمين ، وهم بهذه الغفلة أضيع خلق الله ، وأكثرهم انصرافاً عما ينفعهم في دينهم ودنياهم .

ومن هذه الصفات الأساسية للقرآن الكريم ما يلي :

– أن القرآن الكريم والأخذ بما فيه هو المخرج من كل فتنة تقع بين المسلمين ، أيا كان سببها .
– وأنّه مرجع الأمة المسلمة في التعرف على أنباء ما قد سبقهم من الأمم .
– وأنه يخبر عن كثير من أمور المستقبل فما تفتأ الأيام أن تأتي بما يصدق ما أخبر

عنه .

- وأنه الحكم بين المسلمين في كل ما يكون بينهم من مسائل وقضايا وخلافات فهو منهج كامل للحياة الإنسانية .
- وأن كل من ترك القرآن فلم يأخذ بما فيه قصمه الله مهما كان جباراً .
- وأن من بحث عن الهدى في غيره ضل وضاع ، الهدى في أمور الدين والهدى في أمور الدنيا .
- وأنه الحق والصدق والعدل في الحكم بين الناس .
- وأنه منهج متكامل للدعوة إلى الله ، من التزم به في الدعوة هدى إلى صراط مستقيم .
- وأنه أهم ما أوصى به النبي ﷺ ورغب فيه ، وفي التمسك به والأخذ بما فيه .
- وأنه لا يكون المؤمن على خير إلا إذا تعلم القرآن الكريم وعلمه .
- وأنه أحب إلى الله من السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن .
- وأن التمسك به يؤدي إلى الرفعة ، وتركه يؤدي إلى الذلة .
- وأنه أقوى المعجزات دلالة على صدقه فيما جاء به ، وعلى فلاح من اتبعه وفوزه برضا الله عز وجل .

ثم يتبين لنا هذا التميز للقرآن الكريم على سائر الكتب السماوية بصورة خاصة فيما يلي :

أولاً : أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تكفل الله تعالى بحفظه . فقال عز شأنه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

بينما استحفظ الله أهل الكتاب جميعاً – أهل الكتب السماوية الأخرى التي سبقت القرآن الكريم في النزول، استحفظهم لكتبهم أي جعل مهمة حفظها والمحافظة عليها منوطة بهم، فقال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا

---

(١) سورة الحجر : ٩ .

لِلَّذِينَ هَادُواْ [1] وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ [2] وَٱلْأَحْبَارُ [3] بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [4] .

● والأصل في كل مسلم أن يكون ربانياً أي مقتدياً بالله سبحانه في تيسير الأمور ومن أهل العلم والتعليم ، روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : « ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حر ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حق أن يتعلم القرآن ويتفقه في دينه ، ثم تلا هذه الآية ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ » [5] .

● قال القرطبي في تفسيره : « عن يحيى بن أكثم قال : كان للمأمون – وهو أمير إذ ذاك – مجلس نظر ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم بأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما أن تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلي ؟ قال نعم . قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده ، فقال : ديني ودين آبائي وانصرف ، قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً ، قال : فتكلم على الفقه بأحسن الكلام ، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال : ألست صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى ، قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت تراني حسن الخط ، فعمدتُ إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني ، وعمدتُ إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة فاشتريت مني ، وعمدتُ إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت وأدخلتها

---

(١) هم اليهود .
(٢) الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره ، أو هم : مَنْ يدبرون أمر الناس فيجمعون بين العلم والبصر بالسياسة ، فكأنهم يقتدون بالله سبحانه في تيسير الأمور ، أو هم : العلماء العاملون الأتقياء ، أو هم : العلماء الحكماء .
(٣) الأحبار : العلماء
(٤) سورة المائدة : ٤٤ .
(٥) سورة آل عمران : ٧٩ والحديث أورده القرطبي في شرحه للآية .

الوراقين فتصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي ، قال يحيى بن أكثم[1] فحججتُ تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة[2] فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل ، قال : قلت في أي موضع ؟ قال : في قوله تعالى في التوراة والإنجيل : ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع »[3] .

ثانياً : وأن الله تعالى جعل القرآن الكريم مهيمنا على الكتب السماوية التي سبقته في النزول أي عالياً عليها ومرتفعاً .

● قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[4] قال القرطبي : قال قتادة : المهيمن الشاهد ، وقيل : الحافظ ، وقال الحسن : المصدق ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : مهيمنا عليه أي مؤتمناً عليه ، قال سعيد بن جبير : القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب .

● وأيا كان معنى أنه مهيمن على الكتب التي قبله ، فإن القرآن الكريم قد تميز على الكتب التي سبقته بأنه مؤتمن عليها أي أنه الأصل لها بمعنى أن ما جاء فيها مما يتفق مع ما جاء به القرآن فهو صحيح ، وما جاء فيها مما يختلف مع شيء مما جاء في القرآن فهو من تحريفهم لتلك الكتب التي استحفظوا عليها فضيعوها .

---

(١) يحيى بن أكثم (١٥٩ – ٢٤٢ هـ) : قاضي البصرة ثم قاضي القضاة في عصر المأمون العباسي وولاه تدبير شأن الدولة ، قال عنه ابن خلكان : كانت كتب يحيى في الفقه أجل الكتب ، عزله المعتصم بعد أن مات المأمون وأعاده المتوكل ولكن ما لبث أن غضب عليه وصادر أمواله .

(٢) سفيان بن عيينة (١٠٧ – ١٩٨ هـ) : محدّث الحرم المكي ، كان حافظاً ثقة واسع العلم كبير القدر ، قال عنه الشافعي رحمه الله : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . وكان أعور ، فكان يقال له : سفيان الأعور ، حج سبعين سنة ، ولد بالكوفة ، سكن مكة المكرمة وتوفي بها .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٠ / ٥ ط وزارة الثقافة المصرية ١٣٨٧هـ .

(٤) سورة المائدة : ٤٨ .

● وكذلك الشأن في معنى أن القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتاب ، فإنه يعنى تصديقه لما جاء فيها مما لا يختلف مع ما جاء به القرآن من :

التوحيد ، والنبوات ، واليوم الآخر ، وأصول المعاملات التي تقوم كلها على العدل ، وتحترم حقوق الإنسان وتقدر له كرامته التي كرمه الله بها ، ولا تفاضل بين إنسان وآخر بلونه أو جنسه وإنما بإيمانه وتقواه وعمله الصالح .

ثالثاً : وأن الله تعالى جعل القرآن الكريم أتم الكتب السماوية وأكملها وخاتمها وبكماله وتمامه تمت نعمة الله على الناس ورضى لهم الإسلام ديناً .

● قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1] .

والدين هو الشرائع التي شرع الله لعباده ، وإنما عرف المسلمون الدين من القرآن الكريم وبما فسّر به محمد ﷺ هذا القرآن وأوضح مجمله وفصله .

● وإكمال الدين : إكمال الله للفرائض والحدود والحلال والحرام والأمر والنهي والبيان والتفصيل على لسان محمد ﷺ قال العلماء : كانت هذه آخر آية نزلت من القرآن الكريم .

● وإتمام النعمة : معناه أن الله سبحانه أتم للمسلمين جميع ما هم بحاجة إليه من أمر دينهم ودنياهم ، كما يعنى أن الله سبحانه وتعالى أظهرهم على عدوهم .

● ورضيت لكم الإسلام ديناً ، أي رضي الله تعالى للمسلمين أن يستسلموا لمنهج الله وطاعته في كل ما جاء به الدين ، ولم يزل الله تبارك وتعالى راضياً لخلقه الإسلام ديناً .

● ومن إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الله للناس الإسلام دينا أن انحصرت أصول الدين وقواعده في مصدرين اثنين هما القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكلاهما

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

تكفل الله بحفظه لأن السنة النبوية تفصيل للقرآن الكريم ، وحفظها من حفظ القرآن الذي تكفل الله بحفظه .

رابعاً : وأن الله سبحانه وتعالى قد ميز القرآن الكريم بأن أودعه كل شيء من أمر الدين – وبالدين قوام الدنيا نفسها – فقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] .

● قال الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن : قوله تعالى : **﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾** أي في اللوح المحفوظ ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث .

● وقيل أي في القرآن ، أي ما تركنا شيئاً من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن ، إما دلالة مُبيَّنةً مشروحة ، وإما مجملة يُتَلَقَّى بيانها من الرسول ﷺ ، أو من الإجماع أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] .

● وقال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[3] وقال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[4] فأجمل في هذه الآية وآية النحل ما لم ينص عليه مما لم يذكره ، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً وإما تأصيلاً ، وقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ .

● وفي الآيتين الكريمتين : **﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾** و **﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾** ما يؤكد تفصيل السنة النبوية للقرآن الكريم وشرحها له وبيانها لما أجمل منه .

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .
(٢) سورة النحل : ٨٩ .
(٣) سورة النحل : ٤٤ .
(٤) سورة الحشر : ٧ .

خامساً : وأن الله تبارك وتعالى أراد أن يكون القرآن الكريم معجزة باقية في حين جعل المعجزات الأخرى على أيدى الأنبياء عليهم السلام غير باقية ، وإنما انتهت بانتهاء زمانها .

● والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة ، وهي إما حسية ، وإما عقلية .

وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم .

● ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر ، كما قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء إلا أُعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] ومعنى الحديث كما شرحه العلماء : أن كل نبي أُعطى آية – أي معجزة – أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن لأجلها ، ومعجزة محمد ﷺ الكبرى هي القرآن الكريم .

● وللقرآن الكريم فضل على كل معجزة أخرى أعطيها الأنبياء قبل الرسول ﷺ ، أو أي معجزة أعطيهما محمد ﷺ غير القرآن – وقد أعطى كثيراً من المعجزات – لأن معجزات الأنبياء لا تبقى بعد موتهم إلا بما يحكيه أتباعهم عنهم ، أما القرآن الكريم فمعجزة مستمرة إلى يوم الدين ، ولهذا قال : فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً ، وكذلك وقع ، لعموم رسالته ﷺ ودوام معجزته وهي القرآن الكريم ، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون ، فعم نفعه من حضر ومن غاب ، ومن وجد ومن سيوجد »[2] .

● وقيل في شرح الحديث الشريف :

– « إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها

---

(١) أخرجه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الحافظ ابن حجر : فتح الباري في شرحه لهذا الحديث باختصار وتصرف .

إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة .

وخرق القرآن الكريم للعادة هو في : أسلوبه ، وبلاغته ، ، وإخباره بالمغيبات ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون ، يدل على صحة دعواه .

● وقيل : إن معنى الحديث : أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا - موسى عليهما السلام - ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً »[1].

وهكذا تميز القرآن الكريم بهذه الميزات عن الكتب السماوية التي سبقته في النزول ، وكل واحدة من هذه الميزات إنما تؤكد للمسلمين في كل زمان ومكان وجوب الأخذ بكل ما فيه وبكل ما جاءت به سنة المعصوم ﷺ .

* * *

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن باختصار وتصرف .

٢ - مفهوم التربية في القرآن الكريم

مَنَّ الله على المسلمين بأن جعل في القرآن الكريم من الخير والنفع والبركة ما يعود على قارئه والعامل به بخير الدنيا والآخرة .

فقد ورد في السنة النبوية الشريفة ما رواه أبو بكر الأنباري بسنده عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » .

قال العلماء في تفسير الحديث الشريف : تأويل الحديث أنّه مَثَل ، شبه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه .

● « وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنهما : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة »[2] .

● والأصل أن نتعلم من القرآن الكريم العلم والفقه والعمل جميعاً ، روى أبو عمرو الداني في كتابه « البيان » بسنده عن عثمان وابن مسعود رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً » .

● وذكر عبد الرازق في مصنفه عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها » .

---

(١) سورة طه : ١٢٣

(٢) القرطبي : تفسيره : ٩/١ . مرجع سابق

● وروى البخاري بسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلّمه » وفي رواية أخرى للبخاري بسنده عن عثمان رضي الله عنه : « إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » .

● وإذا كان أهم ما يحتاج إليه الإنسان في التعلم – من أجل أن يَسْعد في معاشه ومعاده – أمورًا ثلاثة هي :

– ما يصحح به عقيدته ويصلحها وينقيها من الشوائب والانحرافات .
– وما يعرف به عبادة الله سبحانه التي خلقه الله من أجلها .
– وما يعرف منه كيف يتعامل مع ربه ومع نفسه ، ومع الناس بل مع شياطين الجن والإنس .

وقد أدمج أسلافنا من العلماء رحمهم الله هذه الثلاثة في أمرين اثنين هما :

– علم التوحيد ،
– وعلم أفعال العبيد – وأفعال العبيد هي العبادات والمعاملات .

أقول : إذا كان ذلك أهم ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده ، فإن القرآن الكريم قد تكفل بذلك ، وجاء فيه بما يغني ويفيد ، إذ فيه تبيان كل شيء كما أوضحنا آنفاً .

● وإن هذه الاحتياجات : العقيدة الصحيحة والعبادة السليمة والمعاملة الحسنة مع الناس والكون ومافيه ، نجدها في صورتها المكتملة في القرآن الكريم ، نتعلم منها ونربي أنفسنا على قيمها ومبادئها .

ولنوضح ذلك في شيء من التفصيل :

● أما العقيدة الصحيحة فهي عقيدة التوحيد ، توحيد الله تبارك وتعالى في ألوهيته ، فلا إله غيره ، وما للناس من إله سواه فهو المعبود وحده بحق ، وتوحيده على أنه الرب الخالق الرازق المحيي المميت القادر الحسيب الرقيب ، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، كما سمى نفسه وكما وصف نفسه دون تشبيه أو تعطيل ، وكل

ذلك من توحيد المعرفة والإثبات .

● قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان :

- توحيد في المعرفة والإثبات ،
- وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه وتكلمه وتكليمه لمن شاء من عباده ، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح كما في :

أول سورة الحديد ، وسورة طه ، وآخر الحشر ، وأول تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك .

والثاني : أي توحيد الطلب والقصد - ما تضمنته سورة : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الكَافِرُونَ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1] وأول سورة تنزيل الكتاب - الزمر - وآخرها ، وأول سورة المؤمن - غافر - ووسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها ، وجملة سورة الأنعام ، وغالب سور القرآن ، بل كل سورة من القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد شاهدة به داعية إليه »[2] .

وفي كلمة جامعة نستشف كثيراً من القيم التربوية القرآنية ، يقول الإمام ابن القيم عن محتوى القرآن الكريم ما يلي :

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٢) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ط القاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م .

« فإن القرآن الكريم :

- إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله ، فهو التوحيد العلمي الخبري .
- وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له ، وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي .
- وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ، فهو حقوق التوحيد ومكملاته .
- وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده .
- وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج على حكم التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه في أهل التوحيد وأهل الشرك... »[1].

ونحب أن نؤكد أن الإنسان لا يتعلم التوحيد ولا العبادات ولا الأخلاق والمعاملات في صورتها الصحيحة إلا من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التي فسرت القرآن وفصلت مجمله .

ولبيان ذلك نقول : إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة إنسانية لائقة بتكريم الله سبحانه له ، إلا بتوحيد الله إلٰهاً ورباً وعبادته وفق ما شرع والالتزام بمنهجه في أخلاقه ، ومعاملاته ، ولكي نزيد ذلك إيضاحاً فلنتأمل فيما يلي :

أولاً : التوحيد ضرورة للصحة النفسية وللسلوك الاجتماعي الراشد ، فالتوحيد يتضمن إثبات الإلهية لله وحده ، بأن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله ، ولا يعبد إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي إلا له ولا يعادي إلا له ، ولا يعمل إلا قاصداً وجهه .

- وهذا التوحيد يتطلب إثبات ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات ، قال

---

(١) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : فتح المجيد شرح كتاب التوحيدط القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م .

الله تعالى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾[2] .

– وهذا توضيح لتوحيد الألوهية ، وهو شأن التوحيد الذي جاء به كل رسول قبل محمد ﷺ كما جاء به محمد ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ... ﴾[3] – والطاغوت هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم هو من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه هي طواغيت العالم ، ولذلك سمي الساحر والكاهن والمارد من الجن والصارف عن طريق الخير طاغوتاً .

● والقيمة التربوية القرآنية في التوحيد هي أن يعرف الإنسان إلٰهه معبوده معرفة صحيحة موثقة ، وتلك المعرفة ضرورة روحية عقلية اجتماعية للإنسان إذ هي توجه الإنسان إلى القيم الرفيعة الفاضلة وهي :

– العلم الصحيح بأسماء الله سبحانه وصفاته وأفعاله واعتقاد أن الله سبحانه وحده هو خالق كل شيء ورب كل شيء وهو الرازق القادر العالم ... أي توحيد الربوبية .

– والعمل الصالح الذي يترجم هذه العقيدة الصحيحة ، لأن من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته وأفعاله لا يعمل إلا عملاً صالحاً ، وحسبه في صلاح العمل أن

---

(1) سورة البقرة : ١٦٣ .
(2) سورة المؤمنون : ١١٧ .
(3) سورة النحل : ٣٦ .

يأخذ من صفات الله ما تطيقه بشريته فيتحلى بها .

- وتحرير العقل من خرافات عبادة آلهة أخرى لا تضر ولا تنفع ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، وبالتالي فهي لا تكلف ولا تثيب ولا تعاقب .
- وتحرير الإرادة الإنسانية من التبعية لغير الله في أي أمر من الأمور أو طاعة من الطاعات ، لأن الطاعة لله وحده دون سواه .
- وموالاة الله وحده وموالاة أوليائه ، ومعاداة أعدائه والبراء منهم ومن كل صلة بهم ومن كل عمل يعملونه وأعداء الله هم الذين كفروا به وعبدوا غيره وعصوا رسله واتبعوا أمر كل شيطان مريد .
- والتوكل على الله والاعتماد عليه دون سواه ، وطلب الخير في الدين والدنيا منه وحده ، دعماً لتوحيده والإيمان به وبأسمائه وصفاته وأفعاله .

ثانياً : والعبادة الصحيحة لله ضرورة للصحة النفسية والبدنية والاجتماعية ، وهي طاعة الله بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه على لسان خاتم رسله محمد ﷺ ، أو هي ما يحبه الله ويرضاه من عباده فيكلفهم به - وهو سبحانه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وما جعل على أحد في الدين من حرج .

● والعبادة : عبادة القلب وعبادة اللسان وعبادة الجوارح .

● والأحكام الشرعية التي يُتَعَبَّد الله بها أنواع خمسة ، هي :

- الواجب وهو ما أمر الله به .
- والمستحب وهو ما ندب الله إليه وحبب فيه .
- والحرام وهو ما نهى الله عنه .
- والمكروه وهو ما كره فيه الله .
- والمباح وهو ما سكت الشرع عنه ، وليس واحداً من الأربعة السابقة .

● والقيمة التربوية القرآنية في العبادة هي : أن يعبد الإنسان ربه وفق ما شرع ، وهذه العبادة توجه الإنسان في عمله وسلوكه إلى قيم رفيعة فاضلة منها ما يلي :

- الاعتزاز بالانتماء إلى الله بالعبودية له ، والخضوع لمنهجه وكل ما تضمنه المنهج من أخلاق وآداب .

- والالتزام في القول والصمت والفعل والترك بكل ما فصله الرسول ﷺ في سننه قوله وفعله وتقريره .

- وإلزام القلب واللسان والجوارح بعبادة الله وفق ما شرع ، فقد شرع سبحانه لكل منها عبادة وطالب بالالتزام بها .

ومن المعروف أن لكل من القلب واللسان والجوارح آفات ، يمكن أن تتخلص منها لو عبدت الله كما شرع ، فمن آفات القلب الرياء والإقبال على الشهوات والجزع والعجز والكسل ... ومن آفات اللسان الكذب والفضول والمراء والغيبة والنميمة وإفشاء السر ... ومن آفات الجوارح مما لا يحصى مما تمارسه اليدان والرجلان والعينان والأذنان من محرمات ، والعلاج الصحيح لكل تلك الآفات هو العبادة الصحيحة .

- والإقبال على التنفل بعبادات من جنس ما فرض الله على عباده ، كالتدبر والتأمل والذكر ، والتنفل بالصلاة ، والصوم والصدقة ، والعمرة .

- ورفض ما يشيعه بعض المبطلين من عبادات مغلوطة يوهمون الناس أنها صحيحة ، كالتشدد في الدين والمغالاة فيه ، وتعذيب الجسد والروح بما يتوهمون أنه عبادة .

ثالثاً : وأما المعاملات التي شرعها الله فهي ضرورة نفسية اجتماعية سياسية اقتصادية حضارية للإنسان ، والمعاملات التي شرعها الله هي داخلة في العبادات ، لأن ممارستها طاعة الله وخضوع لمنهجه ، وإهمالها معصية لله وتمرد على منهجه .

ولم يشرع الله في المعاملات شيئاً يشق على الإنسان أو يدخله في حرج من أمره ، وإنما هي جميعاً في متناول الإنسان وتحقق له مصالحه في دينه ودنياه .

● والمعاملات متنوعة فمنها ما هو معاملة مع الله سبحانه وتعالى ، وما هو تعامل مع النفس ، وما هو تعامل مع الناس ، ومع الشيطان ومع الأشياء ، في ظل إحسان

وإنصاف يسيطر على كل تلك المعاملات .

● والقيمة التربوية القرآنية في المعاملات هي : **أن يحسن الإنسان التعامل مع كل ما يحيط به على وجه الإنصاف** ، وهذه المعاملات توجه الإنسان في خلقه وسلوكه إلى قيم رفيعة فاضلة نشير إلى بعضها فيما يلي :

- جميع المعاملات على كافة مستوياتها يعلمنا القرآن من خلال ممارستها قيمتين رفيعتي القدر في الحياة الإنسانية هما :

  - **الإحسان** بمعنى مراقبة الله ، وبمعنى الإتقان ، وبمعنى نشر الخير في الناس ، فالله الذي كتب الإحسان على كل شيء هو الذي يحب المحسنين وهو مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والإحسان أعلى منزلة من العدل .

  - **والعدل** بمعانيه المتعددة ، العدل الذي هو المساواة ، والعدل بمعنى أن تحسن لمن أحسن إليك ، والعدل بمعنى عدم الميل ، والعدل بمعنى إنصاف الناس من نفسك ، والعدل في الحكم بين طرفين ، والله سبحانه أمر بالعدل والإحسان .

- وقد تمثلت مجموعة كبيرة من القيم التربوية العالية المنزلة في آيات كريمة من سورة الإسراء هي قوله تعالى :

● ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ

● وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤)

● رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥)

- وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ
- وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا
- وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾
- وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾
- وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾
- وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾
- وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾
- وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ
- وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾
- وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾
- وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾
- وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ
- وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾[1] .

(١) سورة الإسراء الآيات : من ٢٣ – ٣٨ .

إنها قيم تربوية لو أخذ الناس بها أنفسهم لعاشوا أكرم حياة إنسانية وأقاموا أرق حضارة في تاريخ البشرية .

ومثل هذه القيم في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ...

- والمعاملات في الإسلام لا تقتصر على الزواج والطلاق والبيع والشفعة والإجارة والمزارعة والمرابحة والشركة والوصية والميراث ، وما تعارف عليه الفقهاء من أبواب للمعاملات ، وإنما يدخل فيها ما يلي :

  - الأمر بالمعروف ،
  - والنهي عن المنكر ،
  - والدعوة إلى الله ،
  - والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ،
  - والأخذ بالأسباب ،
  - والعلم والتقدم فيه إلى أبعد حد مستطاع ، مع اليقين بأن الإنسان ما أوتي من العلم إلا قليلاً ،
  - وبناء الحضارة الإنسانية على أساس من منهج الله .

كل هذه المعاملات وغيرها تمثل قيماً تربوية عالية القدر في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والفنية والحضارية عموماً .

- ومن أهم القيم التربوية في المعاملات التسامح – وهو درجة من الإحسان – فلو تسامح الناس في تعاملاتهم ما شكا أحد ظلماً ولا كان في المجتمع مظلوم أو مهضوم أو مضيع ، بل ما خلا المجتمع من التعاون على البر والتقوى ولا من المجاملات واللمسات الإنسانية التي تعقب راحة في النفس ، وتقوى الأواصر وتزيد الناس حباً في الخير وفي الناس .

روى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل سلامي من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس :

تعدل بين الاثنين صدقة ،
وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ،
والكلمة الطيبة صدقة ،
وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة ،
وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

- حتى التعامل مع الحيوان يخضع في المنهج الإسلامي لقيم تربوية رفيعة القدر .

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر » .

- حتى التعامل مع الأشياء - غير الإنسان والحيوان - يخضع في المنهج الإسلامي لقيم تربوية سامية :

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة » ويرزؤه : ينقصه .

* * *

٣ - منهج التربية في القرآن الكريم

● المنهج هو الطريق الواضح ، ويسمى المنهاج .

● والمنهج هو : الطريقة أو الأسلوب .

● والتربية هي : « الأسلوب الأمثل في التعامل مع الفطرة البشرية ، توجيهاً مباشراً بالكلمة ، وغير مباشر بالقدوة وفق منهج خاص ووسائل خاصة لإحداث تغيير في الإنسان نحو الأحسن والأرضى لله تبارك وتعالى ، والأقدر على تحقيق السعادة الإنسانية في الدنيا والحصول على رضا الله سبحانه في الآخرة »[1] .

● ونستطيع أن نلتمس منهجاً لتربية الإنسان في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التي أوضحته وفصلته ، في ضوء أن القرآن الكريم ينظر للحياة الإنسانية على أنها المجال الأنسب لعبادة الله تعالى وفق ما شرع ، ويعتبرها دار عمل واختبار من نجح فيها باتباع المنهج القرآني حظى برضا الله تعالى ونال ثوابه وجنته في الآخرة .

ولا تستقيم هذه الحياة الدنيا مع الإنسان لتحقيق سعادة الدارين ، إلا إذا ربي الإنسان تربية « قرآنية » إسلامية صحيحة .

● ومن أجل الوصول إلى هذه التربية فلابد من توجيه طاقات الإنسان وتربيتها التربية الصحيحة ، وهذه الطاقات من نعم الله على الإنسان وهي :

طاقة الروح ، وطاقة العقل ، وطاقة البدن .

بحيث تنمي هذه الطاقات في الاتجاه الصحيح ، ولا تنمو واحدة منها على حساب أخرى ، وإنما يكون بين هذه الطاقات انسجام وتواؤم وتناغم .

● ومن أجل الوصول إلى هذه التربية الإسلامية التي تمكن كل طاقة من هذه

---

(١) انظر تفصيل ذلك التعريف للتربية في كتابنا وسائل التربية ... نشر دار الوفاء ط رابعة ١٩٩٠م .

الطاقات من أداء وظيفتها والوصول إلى غايتها ، لابد من النظر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، للتعرف على منهج هذه التربية في القرآن الكريم .

● إن المنهج التربوي في القرآن الكريم له سمات وله ميادين يتحرك فيها ، ونود أن نتحدث عن تلك السمات ، وهذه الميادين فيما يلي :

أولاً : سمات منهج التربية في القرآن الكريم :

يتميز هذا المنهج أو يتفرد من بين المناهج الأخرى بسمات عديدة نذكر منها أهمها من وجهة نظرنا – وهي :

أ – أنه منهج من صنع الله تبارك وتعالى ، ومن اختياره ، بينما سائر المناهج من صنع الناس ، ومادام هذا المنهج من صنع الله تعالى ومن اختياره فلابد أن يكون أولى المناهج بالاتباع وأقدرها على إصلاح حال الإنسان في دنياه وآخرته ، إذ هو منهج رب الناس للناس .

وسوف يظل هذا المنهج يحمل في شكله وموضوعه أدلة تميزه وقدرته على إصلاح الإنسان طالما وجد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وذلك ما تكفل الله بحفظه إلى يوم الدين ، فمنهج التربية في القرآن الكريم متميز وباق إلى يوم الدين ، وستظل الأيام القادمة تحمل علامات وأدلة على فشل المناهج الأخرى التي وضعها الناس ولم يستهدوا في وضعها بالقرآن الكريم .

ولقد سقطت بالأمس البعيد مناهج في تربية الإنسان من صنع البشر كما حدث في اليونان قديماً ، ولدى الروم بعد ذلك ، وفي دياجير عصور الإقطاع الأوربي وسيطا ، وسقطت بالأمس القريب المناهج التي كانت تربي الناس تربية اشتراكية أو شيوعية ، وانهار إلى غير رجعة ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي ، ثم أوربا الشرقية ، ثم ما كان يعرف باتحاد يوغوسلافيا .

وسيتوالى سقوط سائر المناهج التي يضعها الناس للناس ، لأن رب الناس سبحانه وتعالى أدرى بما يُصلحهم وما يُصلح بهم .

ب – وأنه منهج شامل متكامل .

أما شموله فلأنه يعالج ويصحح كل ما للإنسان صلة به من حياة دنيوية وحياة أخروية فلا يدع صغيرة ولا كبيرة مما يصلح هذه وتلك إلا اشتمل عليها بل أوجبها في ضوء قدرات الإنسان وإمكاناته ، ودون إحراج له أو مشقة عليه فالإنسان في حركته أو سكونه ، ورضاه أو غضبه ، وإيمانه أو كفره ، وانفراده أو اجتماعه ، وعلمه وعمله ، وصحته ومرضه ، وكل ما يصدر عنه ؛ قد وصفت له التربية القرآنية ما يصلحه ويعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة .

وأما تكامله فلأن جميع أجزائه ومفرداته مترابطة متوائمة لا يمكن أن يغني بعضها عن بعض فضلاً عن أن يغني عنها سواها من المناهج .

وهو منهج متكامل من الناحية الاجتماعية ومن الناحية السياسية ومن الناحية الاقتصادية ومن كل ناحية يشتمل عليها ، وهذا التكامل في منهج التربية القرآنية يحقق التوازن والانسجام بين الإنسان ونفسه ، وبينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه بل بينه وبين ماضيه ومستقبله .

إنه التكامل الذي يصوغ من المسلمين أمة لا تعرف التفرقة اللونية أو العرقية ، ولا تفاضل بين الناس بقواهم المادية ، وإنما تجد في منهج تربيتها الميزان الصحيح الذي يوزن به الإنسان وهو : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

إنه التكامل الذي يقضي على فكرة الصراع بين الإنسان والطبيعة أو بين الإنسان والإنسان أو بين الطبقات .

ج – وأنه منهج متوازن .

ومعنى توازن منهج التربية الإسلامية أنه يقوم على قوى ومؤثرات متساوية ، لا يطغى جانب منها على آخر ، فالروح والعقل والبدن يتيح منهج التربية لها أن تعبر عن نفسها وأن تحقق حاجاتها وتشبعها في ظل هذا التوازن ، فلا تطغى طاقة منها على أختها ، وفي ظل شرعية التعبير عن هذه الحاجات الشرعية التي رسم الإسلام حدودها بنظام الواجب والحرام والمكروه والمستحب والمباح .

إن الإسلام يربي هذه الطاقات تربية متوازنة ، ويضع لكل منها منهجاً - على نحو ما سنبين بعد ذلك - بحيث لو التزمت بهذا المنهج لحققت التوازن بينها وبين غيرها ، وصاغت إنساناً قادراً على التوازن أيضاً بين مطالب روحه وعقله وبدنه ، بل قادراً على التوازن بين مطالبه ومطالب مجتمعه الصغير - أسرته - ومجتمعه الكبير - وطنه - ومجتمعه الأكبر - عالمه الإسلامي - .

هذا هو التوازن أو الاستقرار أو التلاؤم الذي تستهدفه التربية الإسلامية وهي تضع منهجاً للإنسان .

د - وأنه منهج إيجابي عملي .

فقد طالب هذا المنهج كل من يتربى على أسسه وبرامجه أن يكون إيجابياً فاعلاً مع نفسه ومع الناس ، فلابد أن يعمل العمل الصالح الذي يترجم به عن إيمانه ، فلا إيمان في ظل التربية الإسلامية بغير عمل صالح .

والعمل الصالح هو العمل الذي أوجبه الله أو ندب إليه ، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تطالب المسلم بالعمل الصالح أكثر من أن تحصى في هذا السياق .

وعلى قدر ما أوجب الإسلام العمل وطالب بأن يكون صالحاً ، على قدر ما نهى عن الكسل والتواكل واعتبر ذلك من السلبيات الضارة بالفرد والمجتمع .

إن إيجابية المسلم أوضح ما تكون في إماطته الأذى عن الطريق وفي تعاونه على البر والتقوى ، وفي أن يكون مرآة لأخيه ، وأن يغيث ذا الحاجة الملهوف .

وقمة هذه الإيجابية هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو واجب شرعي لا يقعد عنه إلا مقصر في حق دينه مقصر في حق دنياه ، لأن إقامة الناس على المعروف والخير ، وحجزهم عن المنكر والشر ، إصلاح للدين والدنيا معاً .

وكذلك الشأن في الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا فهو إيجابية تمهد للحق وتمكن لدين الله في الأرض ، وكل ذلك في ظل شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وآدابها .

إنه منهج يضفى الحيوية والحركة والفاعلية على كل مفردة من مفردات الحياة الإنسانية .

هـ - وأنه منهج يجمع بين المثالية والواقعية .

يتصور بعض الناس أن ما يدعو إليه منهج التربية الإسلامية من قِيَم يدخل في إطار المثالية ، ويبعد بالناس عن الواقع الذي يعيشون فيه .

وهذا تصور قاصر إن لم ندخله في حيز الاتهام والتعصب ، إذ الأصل أن منهج التربية الإسلامية كمنهج الإسلام كله في الحياة لا ينبغي أن يوصف بمثالية أو واقعية مما تواضع الناس على أن يصفوا به الأمور أو النماذج والأنماط ، إنه الإسلام أو منهج الإسلام وكفى .

غير أننا - جريا على ما اعتاد الناس أن يرددوه من مقولات - نحب أن نرد الأمور إلى نصابها ، ونبطل دعاوي المدعين فنقول :

إن المثالية مذهب عند الفلاسفة قدامى ومحدثين يرى أن العقل أو الفكر هو الحقيقة النهائية أو أساس التجربة والمعرفة ، وذلك أن هؤلاء يتجاهلون الوحي وشرائع السماء ويبلغ افتتانهم بالعقل حدّ الخروج عن العقل .

وبالتالي فنحن نرفض وجود الإنسان المثالي - الذي لا يخطىء - أو الإنسان الأنموذج ، لأن كل ابن آدم خطاء ولأن السعيد الناجي هو من كان الصواب في عمله أكثر من الخطأ .

والواقعية مذهب فلسفي كذلك يجعل للواقع المادي المحسوس الاعتبار الأول ، وذلك غير مقبول لأن هذا الواقع الذي احتل عندهم الاعتبار الأول قد يكون مشوباً بالأخطاء ، ويحتاج إلى الإصلاح والتقويم فكيف يكون له الاعتبار الأول ؟ وهل جاءت الأنبياء والرسل إلا من أجل تغيير الواقع الذي صنعه الإنسان وتجاوز فيه وبه حدود ما أحل الله وما حرم ؟ .

إن منهج التربية في القرآن الكريم يحاول أن يربي الإنسان ليكون كما أمره الله وكما

نهاه مؤمن يعمل الصالحات ويتعاون على البر والتقوى ولا يتعاون على الإثم والعدوان ، يدعو إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتي هي أحسن ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد في سبيل الله .

ولا يسمى الإنسان وهو يفعل ذلك مثالياً ، لأن المثالية تعنى الكمال ولا كمال إلا لله ، والإنسان المسلم وهو يربى على تلك القيم يعترف الإسلام له بواقعه الذي يعيش فيه وما يشتمل عليه هذا الواقع من مطالب مادية يجب أن يستجيب لها الإنسان في حدود ما شرع الله .

فمن باب مجاراة الخصم ليهتدي وجداله بالتي هي أحسن : أقول : إن منهج التربية الإسلامية مثالي واقعي معاً ، يحاول أن يمزج بين المثال والواقع في تناسق وتلاؤم لا يؤدي إلى اعتبار الإنسان ملاكاً ولا شيطاناً وإنما هو إنسان يخطىء تارة ويصيب أخرى ، وكلما أخطأ تاب وأناب وكلما أصاب تعرض لرحمة الله ومثوبته ، إنه المزج بين ما تصبو التربية الإسلامية إلى تحقيقه في الإنسان وبين ما يزين الشيطان للإنسان من خروج من منهج الله .

ثانياً : ميادين منهج التربية في القرآن .

وهذه الميادين هي في تصورنا ما يلي :

أ – الإنسان نفسه .

ب – المجتمع المحلي الذي يعيش فيه الإنسان .

جـ – المجتمع الذي يضم الأمة الإسلامية .

د – المجتمع العالمي الذي يشمل غير المسلمين .

ولنتحدث عن كل بكلمات وجيزة نرجو أن يكون فيها النفع والغناء والله المستعان :

أ – الميدان الأول للتربية في القرآن الكريم هو الإنسان .

لسنا بحاجة إلى أن نذكر بأن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأتمها وأكملها

قد ارتفع بمفهوم الدين عن عقائد زائفة سبقته مثل عقائد الكهنة وما يرونه من وساطة وألغاز ، ومثل عقائد من قالوا إن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ومثل عقائد من قالوا إن الإنسان مسير بالقدر لا يملك حرية ولا إرادة ولا اختيارا . ذلك كان تصور هذه العقائد للإنسان .

فماذا قال القرآن الكريم في الإنسان ؟

قال إن الإنسان هو المخلوق المسئول من جميع ما خلق الله مسئول عن عمله أولاً ولا يؤاخذ عن عمل سواه : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[1] وعمل الإنسان عبادة الله وفق ما شرع ودعوته إلى الله على بصيرة ، ولا يسأل الإنسان إلا إذا كان مستوفيا لشروط التكليف من بلوغ وعقل وأن تبلغه الدعوة إلى الله .

والإنسان في القرآن هو أكرم المخلوقات على الله وهو مسئول عما يفعل من خير أو شر وهو مؤمن أو كافر ، صالح أو طالح ، فهو ذو حرية وإرادة وعقل وبهذا كان التكليف .

ولا يسقط التكليف عن الإنسان بطاعته للمتحكمين فيه بسلطان الحكم ولا بسلطان الكهانة إذ لا طاعة لأحد إلا أن يأمر بأمر فيه طاعة الله .

إن القرآن الكريم وضع الإنسان بأكرم موضع بأن جعله المخلوق المميز الذي يهتدي بالعقل فيما علم ، ويهتدي بالإيمان فيما خفي عليه ، وجعل فيه الاستعداد لفعل الخير وفعل الشر ، وبهذا الاستعداد كان الإنسان أكرم على الله من سائر مخلوقاته ، وبخاصة إذا أطاع الله ورسوله باتباع المنهج واتباع سبيل المؤمنين .

إن التربية القرآنية للإنسان تستهدف تحقيق الإيمان والتعبير عنه بالعمل الصالح ، وطاعة الرسول في كل ما أمر به أو نهى عنه ، إن ذلك هو الذي ينضج الإنسان ويمكنه من التحلي بالفضائل ، والتخلي عن الرذائل ، والقيام بواجب الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان بقدرته

---

(١) سورة الطور : ٢١ .

ب تحمل أعبائها .

قال الإمام ابن كثير في كتابه تفسير القرآن العظيم عند تفسير الآية الكريمة : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ .. ﴾ الآية .. عن ابن عباس رضي الله عنهما : يعني بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فلم يطقنها ... فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب : وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ... » .

ب - الميدان الثاني للتربية القرآنية هو المجتمع المحلي « الوطن » .

هذا الوطن الذي ولد فيه الإنسان ونشأ وتعلم وعمل وجرت عليه فيه المقادير بما تحمل مما يسر أو يحزن ، هذا الوطن بهذا الوصف قد ركز الله حبه في فطرة الإنسان السوي ، وقلما يتجرد قلبه من حبه ، بل استحال ذلك .

ولقد كان رسول الله ﷺ يحب وطنه مكة على الرغم مما لاقاه فيها من عنت المشركين وإيذاء عباد الأصنام وعندما سمع أُصيلاً الغفاري وقد قدم من مكة إلى المدينة - قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي ﷺ - فسألته عائشة : كيف تركت مكة ؟ قال : اخضرت أجنابها ، وابيضت بطحاؤها ، وأعذق إذخرها وانتشر سَلَمها ... فقال له رسول الله ﷺ : « ويها يا أصيل دع القلوب تقر » وفي رواية أنه قال له : « حسبك يا أصيل لا تحزنا »[1] .

وهذا بلال رضي الله عنه بلغ به حب وطنه مكة ما جعله يحن إليها وإلى مرابعها وأشجارها وجبالها - على الرغم مما لاقاه فيها من تعذيب - فيفيض قلبه بالحنين إليها وتجري على لسانه كلمات من أعذب الشعر وأرقه يقول فيها :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً   بـوادٍ وحولـي إذخـر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مِجَنَّةٍ   وهل يَبْدُوَنْ لي شـامةٌ وطفيل

---

(١) رواه الخطابي بسنده في غريب الحديث ، وأصيل هذا صحابي اسمه أصيل بن سفيان وقيل ابن عبد الله الهذلي وقيل الغفاري وقيل الخزاعي كما جاء ذلك في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١ / ٦٨ ط القاهرة ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م .

والإسلام يدعو إلى حب الوطن إذ يدعو إلى حمايته والدفاع عنه ، وبذل الجهد والوقت في سبيل خدمته بل بذل المال والنفس في الذود عنه .

وليس أدل على دعوة الإسلام لحب الوطن من دعوته إلى الإحسان إلى الأقارب والأرحام والجيران ، وتقديم العون لهم ، حتى إن الزكاة لا يجوز أن تنقل من الوطن إلى أبعد من مسافة القصر في الصلاة إلاّ لضرورة ، ويحسب أي وطن إسلامي أهميةً أنه جزء من الوطن الإسلامي .

وعلى المسلم أن يخدم وطنه ويعمل على نفعه ما وسعه ، والله سبحانه وتعالى طالبنا بإعمار الأرض وأول هذا الإعمار يكون في الوطن الذي يعيش فيه الإنسان ، وإن مطالب الوطن من المواطن عديدة نذكر منها :

- أن يكون حراً لا تدنسه يد عدو غاصب أو معتدٍ .
- وأن يكون متقدماً في مجالات العلم والمعرفة والحضارة وكل ما من شأنه أن يرفع قدره .
- وأن يكون آمناً في داخله مستقراً في أمنه ، يطبق فيه شرع الله ولا يعتسف به حاكم ظالم[1] .

والمسلم أولى الناس بأن يستجيب لهذه المطالب تقرباً بذلك إلى الله سبحانه وتعالى واستجابة لمطالبته إياه بالعمل والإصلاح .

جـ - والميدان الثالث للتربية القرآنية هو :

مجتمع الأمة الإسلامية « الوطن الإسلامي » .

الأمة الإسلامية أجناس من البشر وألوان وأصقاع وأوطان ، لكنها تجتمع على عقيدة واحدة هي « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتدين لإله واحد وتخضع لمنهج واحد في مختلف شعب الحياة ، مهما اختلفت الأجناس والألوان والأوطان ، فجنسيتنا معشر المسلمين هي عقيدتنا ، ووطننا هو وطن هذه العقيدة مهما تناءت الأوطان وتباعدت

(١) للتوسع انظر لنا : تربية الناشيء المسلم ص ١٤٠ ط دار الوفاء ونشرها الطبعة الثانية ١٩٩٢ م .

الأقطار تربط بيننا الأخوة في الإسلام وتجمع قلوبنا الوحدة على دين الحق ، والعمل بمنهج هذا الدين ، ولا نعترف ولا ينبغي أن يعترف المسلم بهذه الحدود والحواجز التي مزق بها الأعداء وطننا الإسلامي ، بل يجب العمل على إزالة هذه الحدود ، فنحن المسلمين أولى الناس بالاتحاد والوحدة ، فأمتنا أمة واحدة .

إن التربية الإسلامية تحرص على غرس هذا المعنى وتعميق الإحساس به لدى المسلمين في كل زمان ومكان ، ومن أجل ذلك كان وسيظل على كل مسلم أن يعمل ما وسعه على تأكيد وحدة الأمة الإسلامية ، مستعيناً على ذلك بوحدة الوطن أولاً ووحدة الأمة العربية ثانياً .

التربية الإسلامية تؤكد للمسلمين أن يعتبروا أنفسهم – بما يحملون من منهج وما يلتزمون به من أخلاق إسلامية – أمناء على رسالة الإسلام ودعوته حتى تبلغ أقصى الأرض فيسمع الناس جميعاً صوت الحق والهدى ، والناس بعد ذلك أحرار فيما يختارون ، ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1] .

إن التربية الإسلامية تحرص تمام الحرص على أن يعرف كل مسلم أن العالم الإسلامي هو وطنه الحقيقي الكبير ، وأن هذا الوطن له صفات أساسية لابد أن يعرفوها وله إمكانات عليهم أن يستوعبوها وهي في اختصار :

– هو كل بلد يعيش فيه المسلمون ويمثلون أكثرية من سكانه .

– وأن قيم الإسلام وأخلاقه في هذا الوطن هي المعول عليه في التعامل ، وليس ما يستورده الغافلون من هنا وهناك ، ويصرفون بها المسلمين عن أخلاق دينهم وقيمه .

– وأنه وطن زاخر بالثروات والمقدرات الاقتصادية ، سواء منها ما كان في باطن الأرض كالمعادن والنفط ، أو كان على ظهر الأرض كالزروع والثمار ، والأنهار

(١) سورة الكهف : ٢٩ .

العذبة ، وأن ذلك كله ملك المسلمين ، وأنه قادر على أن يحقق لهم الاكتفاء الذاتي لولا مكائد الأعداء وخداع من يزعمون أنهم أصدقاء ، الذين يستغلون خبرات العالم الإسلامي لأنفسهم أولاً ، ويحولون بين المسلمين وبين الزراعة وتنمية ثرواتهم الحيوانية والنفطية ليكبلوهم بالديون ويوقعوهم في الحروب ويثيروا بينهم العداوات .

- وأنه وطن واحد ، يجب الجهاد من أجله إن اعتدى على شبر أرض منه ، وأن قضايا العالم الإسلامي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هي قضايا كل مسلم على وجه الأرض .
- وأن أعداء أي وطن مسلم هم أعداء الأمة الإسلامية كلها ، ويجب أن ينفر المسلمون لمواجهة هؤلاء الأعداء .
- وأنه وطن يجب أن تسوده شريعة الإسلام وأن يأخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية ما يصلح حاضره ومستقبله وأن يعطى ذلك الصدارة والأهمية والأولوية .
- وأن مستقبل هذا العالم الإسلامي هو الوحدة والتكامل ، وأن تلك مسئولية كل مسلم ، يعمل من موقعه – مهما كان – ما وسعه على أن يصل العالم الإسلامي إلى هذه الوحدة وهذا التكامل ، وأن هذه الوحدة يجب أن تسبقها وحدة ثقافية واقتصادية وعلمية وتعليمية ، حتى يمكن أن نصل إلى وحدة سياسية ، هي أمل الأمة الإسلامية المنشود في عصر التكتلات .

د – والميدان الرابع للتربية القرآنية هو : المجتمع العالمي .

وهذا المجتمع العالمي هو ميدان واسع للتربية الإسلامية بل هو أرحب ميادينها من حيث المكان والناس .

وإذا كان الإسلام قد تميز بأنه انتشر انتشاراً سريعاً في العالم كله شرقه وغربه ، فإن هذا الانتشار لم يكن نتيجة لرغبة في التحكم في الناس أو السيطرة عليهم أو استغلال خيرات بلادهم وحرمان أهلها منها – على نحو ما فعل ما يسمونه الاستعمار – لم يكن الإسلام نتيجة لذلك وإنما كان من أجل إعلاء كلمة الحق ، وتحقيق العدل ، ونقل الناس

من الضلال إلى الهدى ومن ظلم « الأباطرة » و « القياصرة » والحكام الظالمين إلى عدل الإسلام ومرحمته ، وكان من أجل غرس معاني الإخاء الإسلامي لكل من دخل في دين الإسلام طائعاً مختاراً ، ومن أجل التعامل بالعدل والإحسان مع غير المسلمين ممن ظلوا على أديانهم .

لقد انتشر الإسلام في العالم كله بهذه السرعة لسببين هما :

- تميز منهج الإسلام عن سائر المناهج بمبادئه الإنسانية وبرجاله المؤمنين بهذه المباديء المضحين في سبيل نشرها بالوقت والجهد والمال .
- وإقبال الناس على هذا المنهج الجديد لما يحمله إليهم من عدل وإحسان ومرحمة ، فدخلوا في دين الله أفواجاً .

وإذا كان خلاص العالم اليوم من مشكلاته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وحروبه الساخنة والباردة ضرورة ملحة – بعد فشل توازن القوتين الكبيرتين بانهيار الاتحاد السوفيتي ، وبعد فشل النظام العالمي الجديد وكشفه عن سوءاته بسيطرة الولايات المتحدة الأمريكية به على العالم كله – فإن العالم لن يجد ما يخلصه من كل تلك العيوب إلا بأن يفزع إلى الإسلام ومنهجه ونظامه يستقى من ذلك أصول العدل وأساس الحرية ، وعنصر تكريم الإنسان .

هذا المجتمع العالمي ، تحاول التربية القرآنية أن تنشر فيه العلاقات الإنسانية الراشدة التي جاء بها الإسلام ، بل التي تفرد بها بين الأديان والنظم جميعاً .

إن الإسلام ينظر إلى العالم كله وإلى جميع أممه ودوله من غير المسلمين نظرة إسلامية إنسانية تقوم على دعائم أصيلة من :

- التعاون الإنساني ،
- والكرامة الإنسانية ،
- وحسن التعامل مع الجميع ،
- ودعم الفضائل ومقاومة الرذائل ،
- وتحقيق العدل والإحسان ،
- والوفاء بالعهود والمواثيق .

ولكل واحدة من هذه الدعامات للعلاقة بين المسلمين وغيرهم أحاديث مستفيضة دلت عليها شريعة الإسلام وأيدتها ممارسة المسلمين للإسلام ممارسة صحيحة عدداً من القرون ، ولم يقلل من شأنها تجاوزات حدثت هنا وهناك من بعض المسلمين حكاماً ومحكومين لجهلهم بالإسلام أو لخروجهم عن منهجه ونظامه ، ولولا الخروج بهذه الأحاديث عن سمت هذا الكتاب ومنهجه لذكرنا كل ذلك ، ولكن حسبنا هنا إشارات دالة ولمحات خاطفة .

فالتعاون الإنساني بين المسلمين وغيرهم يبرز في إقرار الإسلام للتعاون بين الناس جميعاً على فعل الخير عموماً ، وعلى البر والتقوى أي ما يرضي الناس ، وما يرضي الله تعالى ، يؤكد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[1] في حين يحظر التعاون على الإثم وأسبابه من ممارسة الرذائل في حق النفس وفي حق الغير ، كما يحظر عدوان أحد على أحد في قوله سبحانه : ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] .

وإن ما شرعه الإسلام من جواز التحالف والتعاهد مع الدول التي لا تدين بدين الإسلام إذا دعت إلى ذلك حاجة ، كما حالف رسول الله ﷺ اليهود والمشركين ، إن ذلك لهو دعم للتعاون الإنساني بين المسلمين وغيرهم ، وفي القرآن ما يطالب بذلك ويجعله أساساً ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[2] وهذا التعارف الذي هو نتيجة لاختلاف الناس شعوباً وقبائل هو داعية التعاون وانتفاع الناس بعضهم بخيرات بعض ، إذ الخيرات كلها في الأرض جميعاً مما سخر الله للإنسان ، وما على الناس إلا أن يتعارفوا ويتعاونوا ليستفيدوا منها .

---

(١) سورة المائدة : ٢ (٢) سورة الحجرات : ١٣

ويعزز الإسلام التعاون بين الناس ويقويه باحترامه لكرامة الإنسانية كلها ، وذلك أن الإسلام كرّم الإنسان عموماً – بني آدم كلهم – قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1] ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما ،بسنديهما عن سهل ابن حنيف وقيس بن سعد رضي الله عنهما قالا : إن النبي ﷺ مرّت به جنازة فقام ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ، فقال : « أليست نفساً » .

وأما حسن التعامل مع غير المسلمين ، فقد قام على أساس أن الإسلام يعتبر كل إنسان حرًّا في عقيدته ، وفي عمله وكسبه ما لم يضر بغيره ، ومن هنا لم يكن اختلاف الدين فضلاً عن الجنس أو اللون سبباً عند المسلمين في إساءة معاملته ، لأن الإساءة على كل صورة مما حرم الإسلام وأوعد عليها بالعقاب، قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾[2] .

وثمرة حسن التعامل مع الناس هي التعاون على غرس الفضائل ومقاومة الرذائل ، لأن فضائل الأخلاق عامة وثابتة بين كل الناس ، وفي كل الأديان ، فالصدق والعفة والوفاء بالعهد وغيرها فضائل لن تتحول بمرور الزمن إلى رذائل ، ورذائل الأخلاق عامة وثابتة أيضاً ، فالكذب والفحش والبذاء والزنا ونقض العهد وغيرها رذائل لن تتحول بمرور الزمن إلى فضائل أبداً ، ولا يدعم حسن التعامل بين المسلمين وغيرهم مثل إقرار هذه الفضائل ، ومقاومة تلك الرذائل .

وأما العدل فإن الإسلام جاء به وأمر به وأقره بكل صوره بين كل الناس ، فلا يجيز لأحد من المسلمين أن يوقع ظلماً على أحد من غير المسلمين ، وإنما لهم معاملة حسنة في السلم وفي الحرب تؤكد تحقيق العدل والمساواة ، والعدل مع حسن التعامل هما ما أمر الله تعالى به في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٠ (٢) سورة النجم : ٣١ . (٣) سورة النحل : ٩٠ .

وأما الوفاء بالعهد فهو أبرز ما ركز عليه الإسلام في المعاملة عموماً ومعاملة غير المسلمين على الخصوص في مجال المعاهدات والمواثيق ونحو ذلك من العهود ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾[2] وقال : ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾[3] .

وتأثير الوفاء بالعهد بين الدول أجل وأنفع للإنسانية كلها في حربها وسلمها ، وأعون لها على أن تنصرف إلى تنمية ثروتها وإمكاناتها وحياتها كلها نحو الأحسن لها في الحاضر والمستقبل ، هذا في حالة الحرب والصراع الذي توجبه ظروف لا يمكن دفعها أما في السّلم فالإسلام ينظر إلى السلام على أنه الأصل ، وإلى الحرب على أنها نفثة شيطان تحرك طمع إنسان في أخيه الإنسان ، ولا يقر الإسلام الحرب إلا عند الضرورة .

وفي الحرب نفسها لا يتخلى الإسلام عن قيمه الأخلاقية الفاضلة في التعامل مع الأسرى والجرحى والنساء والأطفال والشيوخ أثناء الحرب وبعد انتهائها ، كما أن للإسلام شروطه وآدابه في الصلح والمعاهدات وما يتعلق بالحرب من أسباب .

* * *

---

(١) سورة الإسراء : ٣٤ .
(٢) سورة النحل : ٩١ .
(٣) سورة الأنعام : ١٥٢ .

٤ – مفردات التربية في القرآن الكريم

نعني بالمفردات تلك الأجزاء التي تتكون منها التربية العامة للإنسان ، على اعتبار أن الإنسان أكرم مخلوقات الله وأهمها في هذا العالم الذي يعيش فيه الإنسان .

ومن أجل هذا التكريم وتلك الأهمية حظى الإنسان في الإسلام وفي القرآن بتربية تمكنه دائماً من أن يبلغ من درجات الكمال والاكتمال ما يلائم مكانته من جانب ، وما ييسر له وسائل تناول الحياة الإنسانية وما تذخر به من معطيات من جانب آخر ، على أن يكون هذا التناول في توسط واعتدال دون إسراف ولا تقتير .

إن التربية القرآنية تمكن الإنسان من الإفادة من كل ما في هذه الحياة مما سخر الله له فيها لنفسه ولمجتمعه ، لحاضره ولمستقبله ، لدنياه ولآخرته .

وما من شك في أن الحياة الإنسانية في عمومها ، وفي مختلف عصورها وأصقاعها يستهدف منها الإسلام أن يعيش الإنسان كريماً فيها ، بالمعنى الذي كرمه الله به وفضله على كثير ممن خلق ، وحمله أمانة التكاليف .

ولقد حاولت فلسفات عديدة ومذاهب اجتماعية مختلفة أن تحقق للإنسان هذه الكرامة ، فنجح بعضها في جانب من جوانب حياة الإنسان ، وفشلت في باقي الجوانب .

ولقد استمر الإنسان – على مدى تاريخه في هذه الدنيا – موضعا وموضوعاً لتجارب هذه الفلسفات وتلك المذاهب ، ومع ذلك لم يحظ في ظل واحدة منها بالكرامة الإنسانية التي يستحقها ، بل لم يستطع في ظل هذه الفلسفات والمذاهب أن يوائم بين طاقاته ، ولا بين رغباته ورغبات من يحيطون به من الأقارب فالأباعد ، فالمجتمع الذي يعيش فيه ، وإنما تنازعته في ذلك كله تيارات عصفت به حينا فسحقت روحه لحساب عقله حينا ، أو سحقت روحه أو عقله معاً لحساب جسده حيناً آخر ، أو سحقت بدنه

لحساب روحه أو عقله أو لحسابهما في بعض الأحيان .

ثم اضطرب الإنسان في ظل هذه الفلسفات والمذاهب في علاقته بالمجتمع ، فبعضها طغى على الإنسان وحريته وكثير من حقوقه باسم المجتمع حيث سخره لهذا المجتمع وجعل منه تُرساً مجرد ترس في آلة ضخمة هي المجتمع ، وما على هذا الترس إلا أن يدور أو يتوقف كما تريد منه هذه الفلسفات والمذاهب ، وبعضها جامل الإنسان على حساب المجتمع فجعله محور كل شيء في المجتمع فطغى الإنسان أن رأى نفسه قد ساد المجتمع ، وتاه المجتمع وضاع والإنسان يركله ويقضي على قيمه ويصبح إقطاعياً باغياً أو مالكاً مستبداً لوسائل الإنتاج ، واستعبد الإنسان من هو أقل منه ناصراً وأضعف عدداً .

والسبب في ذلك كله أن الإنسان كيان كلي مركب من مفرادت وكائن اجتماعي يعيش في مجتمع ، ومخلوق لله أوجب عليه أن يعمل لدنياه وآخرته ، ولابد من التواؤم والتلاؤم بين كل هذه الاعتبارات لكي يطغى جانب من حياته على جانب فيفقد الحياة الإنسانية الكريمة اللائقة به في هذه الحياة الدنيا .

ومن أجل أن نوضح – في إجمال مفردات هذا الإنسان ، ومفردات التربية القرآنية ، ونشير إلى مفردات التربية القرآنية في بعض سور القرآن الكريم ، سوف نعالج هذا كله تحت عنوانين :

أحدهما : مفردات الإنسان ومفردات التربية القرآنية .

والثاني : التربية القرآنية للإنسان في بعض سور القرآن الكريم .

مؤكدين أن التربية القرآنية هي وحدها القادرة على أن تلائم وتوائم بين جميع طاقات الإنسان ورغباته ، وتوائم بين مطالبه ومطالب المجتمع الذي يعيش فيه ، وتوائم بين مطالب دنياه ومطالب آخرته .

ونسأل الله التوفيق والسداد .

* * *

أولاً : مفردات الإنسان ومفردات التربية القرآنية

نحاول هنا أن نفصل هذه المفردات في إجمال تاركين شرح هذه التفاصيل لكتاب آخر أوشكنا على الانتهاء منه[1] .

ولنلق الآن ضوءًا على هذا التفصيل المجمل والله المستعان .

أ – مفردات الإنسان :

ليس غريباً أن نتصور الإنسان مركباً ذا مفردات ، لأن تلك حقيقة مؤكدة ، بل إن القول بأن الإنسان أكثر مخلوقات الله تعالى تركيباً وأولاها بالتعرف على مفرداته لا يتجاوز الصواب في قليل أو كثير .

وعند التأمل في طبيعة الإنسان نجده أشرف مخلوقات الله بما أودع الله سبحانه فيه من روحه سبحانه وتعالى ، حيث يقول : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[2] وحسب الإنسان للدلالة على تركيب خلقه أن أنعم الله عليه بنعمة العقل والتفكير والإدراك ، وما لهذا الإدراك من وسائل كالسمع والبصر والشم والتذوق واللمس ، وما شاء الله من وسائل ربما لم يكتشفها العلم بعد .

وحسبه للدلالة على تركيب ذاته ما أودع الله بدنه من قدرات لا تستقيم حياته إلا بها ، وعند التأمل في قدرات الإنسان العضلية والحركية ، وما هيىء به من أسباب القوة وأسباب القدرة على التحمل والتكيف مع الحياة والأحياء .

وحسبه دلالة على تركيب خلقه أنه أكثر مخلوقات الله قدرة على الإرادة والحرية في أن يؤمن أو يكفر ، وأن يطيع ربه أو يعصيه في حين أن المخلوقات الأخرى سواه مسخرة لعبادة الله وطاعته .

---

(١) هو كتاب : المدخل إلى التربية الإسلامية .

(٢) سورة الحجر : ٢٩ .

هذا الإنسان المركب بهذه الصورة ، نود أن نشير في إجمال إلى تفصيل تركيبه على النحو التالي :

- روح الإنسان ، وهي نفخة من روح الله ، وللروح مطالبها ، ولها إمكاناتها وقدراتها ، ووسائل رقيها وقربها من خالقها عز وجل .
- وعقل الإنسان وهو من أكبر نعم الله على الإسلام ، وبه كلف الله الإنسان وحمله الأمانة ، وله وسائله الإدراكية ، وبه يهتدى الإنسان إلى الحق وإلى الخير ، وإلى ما دعته إليه الرسل من شرع الله ونظامه ، وبينه وبين العلم علاقة وثيقة ، وللعقل مصادر تمده بأنواع المدركات والمعارف ، وله شطحاته وجنوحه ، ومن لا يستعمل عقله ليهتدى به إلى الحق والخير فقد عطَّل هذه النعمة وألحق نفسه بغير العقلاء .
- والبدن[1] أو الجسم أو الجسد ، وهو جزء من الإنسان له مطالبه المشروعة أحياناً وغير المشروعة أحياناً أخرى ، وبصحته يصح العقل ، وبانحراف الجسد إلى شهواته غير المشروعة تتكدر الروح ويصدأ العقل وتغيم على الإنسان رؤية الحق والخير والهدى ، ويخالف ما جاءت به رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه .

ولهذا الجسم متطلبات تجعله في أحسن ظروفه وأكفأ أحواله وأدعاها لخدمة الروح والعقل ، وبذلك يتمكن الإنسان من ممارسة حياة إنسانية كريمة .

- وحِسٌّ أُسَرى عائلي ، لا يستطيع الإنسان أن يعيش حياة سوية آمنة إلا إذا عاش في كنف الأسرة : الأبوين والإخوة والأخوات والأقارب ، وكلما حرم من شيء من ذلك نقص إحساسه بالأمن والرضى ، وسهل عليه الانحراف عن الصراط السوي ، فكان عدوا لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه ، ولابد من رعاية هذا الحس الأسري وتوجيهه نحو ما يصلحه ويصلح به سواه .
- وحِسٌّ اجتماعي ، يمكنه من أن يتعايش مع المجتمع الذي يحيط به ، وهو مجتمع

---

(١) البدن ما سوى الرأس والأطراف من الجسم ويُكنى به عن الجسم أو الجسد .

يتدرج في الكبر بادئاً بالنسبة لنا معشر المسلمين بالمجتمع المحلي البيئي ثم مجتمع الوطن كله ، ثم المجتمع العربي ، ثم المجتمع الإسلامي ، ثم المجتمع العالمي ، ولكل مجتمع من هذه المجتمعات المتدرجة مطالب وآداب وقيم خلقية يجب أن تسود الناس ليحسنوا التعامل مع هذه المجتمعات كلها ، ويمكن دمج هذه القيم جميعاً – على كثرتها – في كلمتين هما : الحقوق والواجبات .

ولا يمكن ممارسة الحقوق وأداء الواجبات إلا في ظل الحرية والشورى والعدل والإحسان .

وهذا الحس الاجتماعي من أهم مكونات الإنسان ومن أبرز مفرداته ، ولهذا الحس الاجتماعي وسائل لتنميته وترقيته وتوجيهه .

- وحِسٌ ديني ، تهفو إليه روحه ، ويتوجه إليه عقله ، ويلتزم بتكاليفه جسمه ، ومن خلال هذا الحس الديني يتطلع الإنسان إلى الإيمان وإلى تقبل ما جاء من عند الله على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، ومن خلال هذا التقبل للحق الذي جاءت به الأديان السماوية تسود حياة الإنسان تلك القيم الخلقية الفاضلة التي توفر ممارستها للناس تعايشاً كريماً يحقق صالح الدنيا والآخرة .

- وحِسٌ سياسي ، ينزع به الإنسان إلى قيادة غيره وتولي رياستهم وتدبير أمورهم ، وهذا الحس السياسي ضروري في حياة الإنسان ، ولولاه ما صلح أمر الناس في الدين ولا في الدنيا ، ولعاشوا فوضى لا يعرفون انضباطا خلقياً أو سلوكياً على مستوى أنفسهم أو أسرهم أو المجتمع الذي يعيشون فيه ، ولولاه ما قامت لهم دولة ولما كان في استطاعتهم رد كيد ولا دفع عدو .

ولهذا الحس السياسي وسائل تنميه وترقيه وتوجهه نحو الخير والصلاح في الدين والدنيا .

وهو جزء من الإنسان لا ينفصل عنه إلا وتحدث الخسائر والتجاوزات .

- وحِسٌ اقتصادي يتضمن التوسط والاعتدال في النفقة وفي كل أمر من أمور الحياة ، بحيث ينفق الإنسان إنفاقاً في حدود ما يَسَّر الله له من رزق بحيث

لا يسرف ولا يقتر ، وكل إنسان يجب أن يحرص على ذلك حتى يعيش سعيداً هانئاً ، قادراً على تأمين حاضره ومستقبله ، فلا عال من اقتصد ، ولأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ، وهذا الحسّ الاقتصادي بحاجة دائماً إلى تنمية وتوجيه .

- وحِسٌ جمالي ، وذلك أن الإنسان السوي يميل بطبعه إلى أن يكون جميل الثوب جميل النعل جميل الرائحة ، جميل الصورة ، جميل المسكن والأثاث والمركب ، لأن كل ذلك من أنواع الزينة التي أحلها الله ، بل استنكر أن يحرمها أحد على أحد ، بل طالب بأخذ هذه الزينة عند كل مسجد ، وفي الحديث الشريف « إن الله جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة » - كما سنذكر ذلك ونحن نتحدث عن التربية القرآنية ومفرداتها بعد قليل .

وبعد : فهذه مفردات للإنسان اعترف بها الإسلام ورعى كل واحدة منها ووجه إليها اهتماماً ملائماً - وعمل على تربيتها وتنميتها على النحو الذي سنوضحه مجملاً في الصفحات التالية إذا أذن الله .

ب - مفردات التربية القرآنية :

نستطيع أن نقول مطمئنين إن التربية القرآنية كل متكامل وأن لهذا الكل مفردات كذلك - على نحو ما رأينا في حديثنا عن مفردات الإنسان - وهو اجتهاد منا في تجزيء التربية القرآنية إلى مفردات نرجو ألا نحرم فيه أجر المجتهدين الذين وفقوا إلى الصواب .

ولقد حاولنا ونحن نتعرف مفردات التربية القرآنية أن نستهدي في هذا التقسيم بأمور كثيرة نذكر منها ما يلي :

- التأميل والتدبر في كثير من سور القرآن الكريم ، وفي بعض آياته التي تتوجه بالخطاب والرعاية والعناية إلى روح الإنسان أو إلى القيم الخلقية التي يدعو إليها الإسلام أو إلى مطالبة الإنسان بتنظيف عقله من شوائب الخرافة وإعماله في مجال النظر والتفكر والتدبر ، أو إلى مطالبته برعاية بدنه وجسمه ... إلخ .

- والتأمل والتدبر في كثير من الأحاديث النبوية التي تخاطب كل إنسان لتصحح عقيدته وعبادته ومعاملته ، ولتجعله مستقيماً على صراط الله المستقيم لا يطغى فيه جانب على جانب ، مثل الأحاديث التي تطالب بإخلاص القول والعمل لله ، والتي تطالب بالاستقامة والصدق والمبادرة إلى فعل الخيرات والدلالة عليها ، والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ، والمطالبة بحق الروح والبدن والأهل والولد والقريب والجار وسائر المسلمين ، وغير المسلمين .
- واعتبار ما سبق أن قلناه من أن الإنسان كل مركب ، وأن لهذا التركيب مفردات ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .
- وتيسر أخذ العظة والتعلم ، والوصول إلى أهداف التربية القرآنية بهذا التقسيم وذلك التجزيء .
- وكل ما ذهبنا إليه من تقسيم أو توضيح مفردات للتربية القرآنية مؤصل ومستند إلى آيات قرآنية أو أحاديث نبوية شريفة .

وقد استقر بنا المقام ، وآل بنا البحث والتوفيق - في حدود ما منحنا الله من قدرة وما أنعم به من توفيق إلى رصد مفردات التربية القرآنية على النحو التالي :

أولاً :

التربية الروحية :

ولهذه التربية في كثير من سور القرآن الكريم مفردات وأقسام يمكن أن نشير إليها فيما يلي :

١ - تقوية الإحساس بوجود الله سبحانه في كل أمر من الأمور .
٢ - ودعم الشعور بمراقبته سبحانه وتعالى لنا في كل ما نأتي وما ندع .
٣ - وضرورة مراقبتنا نحن لله سبحانه في كل قول أو صمت وفي كل عمل أو تُرك .
٤ - والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد أداء الفرائض التي فرضت علينا ، ومن رحمته

سبحانه بنا أن جعل لنا من جنس كل فريضة نافلة نزداد بأدائها قرباً من الله تعالى .

٥ – والإقبال على الله سبحانه بحب الخير وحب الناس والبذل لهم ، لنصل بذلك إلى حب الله والأنس به في كل حال .

٦ – والثقة في الله سبحانه وفي بره بنا ونعمه علينا واستجابته لدعائنا ، وقبوله لأعمالنا .

٧ – ودعم الرضا بقضائه وقدره على كل حال ، لأن السخط على القضاء والقدر مزعزع أو مزلزل للإيمان كله .

ولكل مفردة من هذه المفردات أصلها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولولا الخروج عن سمت الكتاب لذكرنا تلك النصوص وشرحناها .

ثانياً :

التربية الخلقية :

وتشتمل هذه التربية في القرآن والسنة النبوية على مفردات كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ – مطالبة الناس جميعاً بحسن الخلق في التعامل مع النفس بحيث لا يخدع الإنسان نفسه أو يبرر لها ما توسوس به من شر ، حتى لا يقع في دائرة الحمق والسفه إذ يتبع نفسه هواها ويتمنى على الله الأماني .

٢ – والمطالبة بحسن الخلق في التعامل مع الناس ، والمعيار الدقيق في ذلك هو أن يحب الإنسان لغيره ما يحب لنفسه ، فإن أراد أن يسمو عن هذا المستوى فعليه أن يؤثر إخوانه على نفسه فإن تلك منزلة المحسنين .

٣ – ومطالبة الإنسان بالتحلي بالفضائل وبخاصة الفضائل الأساسية وهي : الصدق والعفة والشجاعة والعدل ، ثم التحلي بسائر الفضائل والصفات التي أثنى عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

٤ – ومطالبة الإنسان بالتخلي عن الرذائل كبيرها وصغيرها ، وكراهية الشر ، والامتناع عن فعله وعما يؤدي إليه .

٥ – والمطالبة بالرجاء في الله ليعيش الإنسان على أمل ، والخوف منه سبحانه ليعيش الإنسان على حذر .

٦ – ووجوب حب الخير للناس جميعاً ، والمبادرة إلى فعل الخيرات دون انتظار .

٧ – ووجوب الإسراع إلى التوبة عند الوقوع في أي معصية مهما كانت صغيرة ، حيث من المقرَّر في الإسلام أنه : « ما أُصرَّ من استغفر » .

ثالثاً :

التربية العقلية :

وقد حرص الإسلام على هذا النوع من التربية حرصاً شديداً ، إذ الخلل في العقل أو الانحراف عنه ضياع للإنسان في دينه ودنياه ، وربط الإسلام هذا العقل بالتكليف وتحمل التبعة ، ولهذه التربية العقلية مفردات نذكر منها ما يلي :

١ – احترام الإسلام للعقل وتقديره واعتباره من أهم نعم الله على الإنسان التي فضله بها على كثير من خلقه .

٢ – ودعوة الإنسان إلى تنقية عقله من الخرافات والشوائب وكل المسلمات المبنية على تلك الخرافات ، ليصبح العقل نقياً قابلاً لتقبل الحق والخير والهدى .

٣ – ومطالبة هذا العقل بالنظر في ملكوت الله سبحانه والتفكر فيه والتدبر والاعتبار ، والتأمل في سنن الله في الأولين من آمن منهم ومن كفر .

٤ – والإشادة بالعقل بوصفه وسيلة من وسائل تحصيل العلم والمعرفة ، وتقدير العلم والمعرفة والمطالبة بهما ، وتقدير العلماء ، أكبر أنواع التقدير ، واعتبار علمهم ومعرفتهم طريقاً لاحبا لمعرفة الله تعالى والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر .

٥ – ووجوب تعليم الآخرين على العلماء ، واعتبار ذلك فريضة على كل قادر عليه ، وليس فضيلة إن شاء تحلى بها أو تركها ، لأن الله تعالى أخذ الميثاق على أهل العلم أن يبينوه للناس .

٦ - وتأكيد أن الإيمان بجميع مفرداته ، وأن كل الحقائق التي جاء بها الدين لا يمكن أن تتعارض مع العقل السليم وأنه إن بدا في بعض الأحيان تعارض فإنما يكون غالباً مرده إلى أن هذا العقل قد شابته شوائب حالت بينه وبين النظر الصحيح أو التفكير المستقيم .

٧ - واعتبار العلم وطلبه والتعمق فيه لبعض فرق المسلمين واجباً شرعياً دعا إليه الدين حين دعا إلى إعمار الأرض ، وأن كل جهد أو مشقة ، وأن كل ما ينفق في سبيل تحصيل العلم والتعمق فيه ، اعتبار ذلك كله جهاداً في سبيل الله تعالى ، لا يقل عن جهاد العدو .

تلك التربية العقلية التي دلت على جميع مفرداتها التي ذكرناها هنا ، هي التي تمكن المسلمين من فقه الدين وفقه الدنيا .

ولقد توسط الإسلام في تربية العقل تلك الوسطية التي عرفت عنه ، فلم يغال في تقدير العقل إلى حد الافتتان به وادعاء أنه قادر وحده - دون وحي - على معرفة ما يصلح الدين والدنيا كما زعم الفلاسفة ، ولم يقلل من شأن العقل فيلغيه ويعطل وظائفه فيطلق للروح العنان، فتصل في نهاية الطريق إلى تقسيم الناس تقسيمات لم يرد بها الشرع كالعارفين والواصلين والإشراقيين والذين انكشفت عنهم الحجب والذين اتحدوا مع الخالق والذين حل بهم الخالق ، كما زعم ذلك عدد غير قليل من أهل الملل والنحل ، ومن يعتبرون أنفسهم بهذا الفهم متصوفين ، وما هم منهم في شيء .

رابعاً :

التربية الجسمية :

وقد عنى بها المنهج الإسلامي في التربية ، على اعتبار أن الجسم وعاء الروح والعقل ، ولا صحة لهذين إلا بصحة الجسم ، ولهذه التربية مفردات نشير إلى بعضها فيما يلي :

١ - التأكيد على أن الجسم بهذه القدرات والطاقات التي منحها الله له من نعم الله العظيمة التي تمكن الإنسان من عبادة الله ، وتعينه على ممارسة حياته ، ومن هنا

أوجب الإسلام المحافظة على هذا الجسم الذي استحفظنا الله تعالى عليه .

٢ - ووجوب الأخذ بكل الأسباب التي تؤدي إلى قوة الجسم وتقويته ، من غذاء متكامل ورياضة بدنية مستمرة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، وما يحقق تقوية الجسم من أعمال وممارسات .

٣ - وترك كل الأسباب التي تؤدي إلى إضعاف الجسم ، وهي أسباب كثيرة منها : قلة الغذاء أو إهمال تكامله ، وهجر الرياضة ، والسهر وتناول المكيفات كالشاي والقهوة إذا أسرف فيهما شاربهما ، وكل ما يضعف هذا الجسم .

٤ - ووجوب نظافة الجسم بالطهارة والأخذ بسنن الفطرة وحماية الجسم بستر ما أمر الله بستره منه عند الرجال وعند النساء ، إذ في الأخذ بذلك التربية الصحيحة لجسم الإنسان .

٥ - وتحريم إيذاء الجسم أو كبت مطالبه ، تحت أي تسمية خادعة ، إذ أباح الإسلام للجسم أن يعبر عن حاجاته الأولية في الطعام والشراب والملبس والمسكن ، والمنكح من خلال القنوات الشرعية التي أباحها الله تعالى ، فلا يجوز كبت هذه الحاجات ، حتى لا يلحق الضرر والأذى بالجسم .

٦ - ونبذ الإسراف والتبذير في التعامل مع مطالب الجسم وحاجاته حتى في مجال ما أحلّ الله ، لأن الله تبارك وتعالى نهى عن الإسراف وأعلن أنه لا يحب المسرفين ، وكره المبذرين وأعلن أنهم إخوان الشياطين .

٧ - وإعانة هذا الجسم على أن يؤدي وظائفه التي وظفه الله تعالى لها وأبرز هذه الوظائف ما يلي :

- عبادة الله وفق ما شرع وبخاصة أن كثيراً من هذه العبادات عبادات بدنية .
- وإعمار الأرض بجعلها ملائمة لأن يعيش عليها الإنسان أكرم أنواع العيش وأفضله لأن ذلك هو اللائق بتكريم الله تعالى للإنسان .

– وتعاون الناس فيما بينهم على البر والتقوى ، ورفض التعاون على الإثم والعدوان .

– وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بالنفس لتكون كلمة الله هي العليا ، وسوف نفصل الحديث في الجهاد عند حديثنا عن المفردة العاشرة من مفردات التربية القرآنية وهي : التربية الجهادية .

هكذا ينظر الإسلام إلى تربية الجسم لا يترك له الانكباب على ملذاته وشهواته حتى لا يغلب فيه الحيوان على الإنسان ولا يقهره فيفقده القدرة على أداء وظائفه .

خامساً :

التربية الدينية :

التديّن غريزة في الإنسان السوي ، تحقق له نوعاً من الأمن النفسي والرضا بالحياة الدنيا ، والتعلق بالحياة الآخرة .

ولهذه التربية مفردات نشير منها إلى ما يلي :

١ – التأكيد على أهمية الإيمان بمعناه الشامل المتكامل الذي يضم :

– الإيمان بالله إلهاً خالقاً رازقاً لهُ صفاته وأسماؤه وأفعاله ، على نحو ما جاء في الكتاب والسنة .

– والإيمان بملائكته من سماهم منهم بالاسم ومن سكت عن تسميتهم والإيمان بأن لهم وظائف بعينها وأن بعض هذه الوظائف لها صلة بالإنسان في هذه الأرض .

– والإيمان بكتب الله التي أنزل على رسله إجمالاً والإيمان بآخر هذه الكتب وهو القرآن الكريم تفصيلاً .

– والإيمان برسل الله جميعاً إجمالاً ، وبآخرهم وخاتمهم محمد ﷺ وبما جاء به من عند الله تفصيلاً ، وترك كل دين سابق على دين الإسلام .

– والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وثواب وعقاب .

- والإيمان بقضاء الله وقدره خيره وشره .

٢ - والتأكيد على أهمية الإسلام بمعناه الشامل المتكامل الذي يضم عديداً من المفردات على النحو التالي :

- النطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما ، إذ هما وحدهما عند التأمل منهج حياة متكامل وهما : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .
- وإقام الصلاة بشروطها وآدابها وفق ما شرعها الله وما حددها رسوله ﷺ .
- وإيتاء الزكاة وفق شروطها ومقاديرها ومواعيدها ، بدفعها إلى مصارفها الذين حددهم الله تبارك وتعالى .
- وصوم شهر رمضان وفق شروط الصوم وآدابه .
- وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه السبيل .

٣ - ومطالبة الإنسان بالإحسان بمعانيه المتعددة وهي :

- مراقبة الله تعالى في كل قول أو صمت أو فعل أو ترك .
- والإتقان والتجويد لكل عمل يقوم به الإنسان .
- وبذل الخير للناس ومعونتهم في كل ما يحتاجون إليه .

٤ - والالتزام بالعدل بكل معانيه المتعددة مثل :

- الإنصاف وإحقاق الحق ولو على النفس .
- والعدل مع الله باتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه .
- والعدل مع النفس بإلزامها بشرع الله ومنهجه .
- والعدل مع الناس في التعامل والتخاصم والتصالح .

٥ - والالتزام بقضية الشورى بكافة أبعادها وتلك الأبعاد هي :

- أنها صفة من صفات المؤمنين الأساسية كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

والإنفاق في سبيل الله إذ وصفهم بذلك ووصفهم سبحانه بأنهم : ﴿أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ .

- وأنها ضرورية ولازمة في كل أمر من أمور الدين والدنيا حيث أمر الله تعالى بها نبيه ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ فأمر المؤمنين بها من باب أولى ، فليس لمسلم أن يقوم بعمل ذي بال يخصه أو يعم المسلمين إلا وجب عليه أن يشاور الأمناء النصحاء من المسلمين .
- واعتبار أن الشورى ملزمة ، لأنها تمثل رأي الأغلبية الناضجة الأمينة الناصحة ، إذ لا يستشار أو يشاور إلا هؤلاء .
- وتأكيد أن الشورى مع العدل هما صماما الأمن والأمان في الحياة الدنيا ، وهما الأمن والأمان مع الله في الحياة الآخرة .
- وتأكيد أن الدين الإسلامي هو دين الشورى ، لأن الشورى فيه هي قاعدة النظام كله اجتماعياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو فكرياً ...
- وتأكيد أن الأمة الإسلامية التي اختصها الله بأنها أمة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام وأمة خاتم الكتب السماوية وهو القرآن الكريم ، هي أمة الشورى التي لا تملك أن تتخلى عنها بحال ، ففي التمسك بالشورى ضمانات كبيرة لكل أنواع الحريات على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .
- والتأكيد على أن الشورى وممارستها ممارسة صحيحة هي الأسلوب الأمثل لبناء المجتمع الإسلامي .

٦ - ومطالبة الإنسان بأن يمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على اعتبار أنهما من أبرز ركائز الحركة الإسلامية ، لكن بشرط أن يكون ذلك وفق شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وآدابهما .

٧ - وإحياء حب الجهاد في سبيل الله في نفوس المسلمين جميعاً ، الجهاد بمختلف أنواعه ومراحله - كما سنبينه بإذن الله تعالى في المفردة العاشرة من مفردات التربية القرآنية .

سادساً :

التربية الاجتماعية :

وقد اهتم الإسلام بها واعتبرها أساساً ركيناً من أسس تربية الإنسان ، إذ الإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير مجتمع من الناس ، ولهذه التربية الاجتماعية مفردات عديدة نذكر منها ما يلي :

١ – التأكيد على أن الإنسان اجتماعي بطبعه يحتاج إلى المجتمع ليستعين بما فيه ومَنْ فيه على تلبية مطالبه المشروعة ، ويحتاج إليه المجتمع ليحمي قيمه ويصونها ، ويحافظ على موارده ومصادره .

٢ – وتأكيد أن الإنسان لا يجوز له أن يعتزل المجتمع ويعيش منفرداً معتزلاً ، إلا في حالات الفتن ، انطلاقاً من أن الاختلاط بالناس حتى مع الصبر على أذاهم أحسن للإنسان وأجدى عليه في كل مجال من رفض مخالطتهم أو الضيق بأذاهم .

٣ – واعتبار أن الأسرة هي وحدة المجتمع والتشجيع على تكوينها وتيسير ذلك على من أراده ، وهذا التيسر مسئولية الفرد ومسئولية المجتمع .

٤ – والإلزام بكل ما لهذه الأسرة من حقوق معنوية أو مادية ، واستيفاء كل ما للأسرة المسلمة من شروط وآداب ، وحقوق وواجبات .

٥ – والاهتمام بالمجتمع المحلي – الوطن – وبث الخير فيه وتشجيع أفراده على العمل الصالح من جانب ، ووجوب الدفاع عنه ضد أي معتد من جانب آخر ، وتحريره من كل سلطان أجنبي أيا كان هذا السلطان .

٦ – والإلزام بواجبات الوطن العربي ، ودعم العروبة واللغة العربية لغة القرآن ، واعتبار الوطن العربي ووحدته بداية للوحدة الإسلامية ، وللوطن الإسلامي من الحقوق والواجبات ما يجب على كل مسلم الالتزام بواجبه فيه ، مع الاهتمام بالأقليات المسلمة اهتماماً بدفع عنها الغوائل ويرد عنها كيد أعدائها .

٧ – وتأكيد أن على المسلم أو المسلمين جميعاً واجباً نحو المجتمع العالمي كله ، بحيث

يربى الإسلام المسلمين على أن يتعايشوا مع العالم كله في ظل أساسيات إسلامية منها :

- تحقيق الأمن الذي يسمح للمسلمين بالدعوة إلى الله حتى تصل إلى كل الناس في كل زمان ومكان .
- وتأكيد أن الدعوة إلى الله طريقها الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وأن المدعوين مخيرين من شاء منهم أن يؤمن ومن شاء أن يكفر إذ لا إكراه في الدين .
- وأن الإسلام في نظامه الاجتماعي لا يقهر أحداً أو يظلمه أو يحمله ما لا يطيق في ظل الحكومة الإسلامية التي تحكم بما أنزل الله .

سابعاً :

التربية السياسية :

كل ما في الإسلام سياسة مادامت السياسة هي التدبير أو حسن تدبر الأمور ، حتى العبادات في الإسلام تخضع لحسن التدبير فما بالك بالتعامل مع الناس ؟ وما بالك بحسن تدبير الدولة والحكم والناس ؟ .

لذلك كانت التربية السياسية إحدى مفردات التربية القرآنية وكان لهذه التربية السياسية مفردات نشير إليها فيما يلي :

١ - توضيح أبعاد السياسة التي وضعها الإسلام في تعامل الإنسان مع ربه ومع نفسه ومع من يليه من الناس ، وتأكيد الالتزام بها ، فقد وضع الإسلام تدبيراً حسناً لكل نوع من التعامل مع الله ومع النفس ومع الأسرة التي يلي الإنسان أمرها من أهل وولد ومن في حكمهم ، انطلاقاً من قوله تعالى ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[1] وغيرها من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة .

---

(١) سورة التحريم : ٦ .

٢ - والإلزام بالسياسة التي وضعها الإسلام للتعامل مع الناس ، والأقارب والجيران وغيرهم المؤمنين منهم وغير المؤمنين ، وهي سياسة واضحة المعالم في أي مجتمع يعيش فيه المسلمون في ظل حكومة إسلامية تطبق شريعة الله وتعيش في دار الإسلام ، مع الالتزام بسياسة الإسلام التي وضعها للتعامل بها في دار الحرب ، مع التأكيد على أن للإسلام سياسة في التعامل مع كل الناس وكل الملل والنحل والمشركين وعبدة غير الله .

٣ - والالتزام بالسياسة التي وضعها الإسلام للمعاهدات والمحالفات والمواثيق الدولية .

٤ - والالتزام بسياسة الإسلام في السلم والحرب ، ومع ظروف الصلح والأمان ، والالتزام بأحكام الإسلام وأدبه في الحرب وكل ما يترتب عليها .

٥ - وتأكيد أن سياسة الإسلام في وحدة الأمة الإسلامية تبدأ بوحدة الكلمة بين أبناء الأسرة الواحدة ثم وحدة الصف بين أبناء المجتمع الواحد ، ثم وحدة الأهداف بين أبناء الأمة العربية كلها ، ثم وحدة الأمة الإسلامية بعد ذلك ، مع الأخذ الدقيق بوسائل الإسلام السياسية في الوصول إلى هذه الوحدة العربية أو الإسلامية .

٦ - والالتزام بسياسة الإسلام في الدعوة إلى الله ، وفي الحركة بالإسلام في كل مكان وزمان ، وفي التنظيم الذي يجب أن يسبق عمل الدعوة والحركة ، وكل ذلك في إطار الأخوة في الإسلام والتعاون على البر والتقوى في مجال الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وفي مجال الحركة بالدعوة الفردية والحلقة الخاصة ، وتقديم العون والخدمة للناس وإحسان تصنيفهم والتجاوب مع متطلباتهم .

٧ - والتأكيد على وجوب اتباع سياسة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين على مستوى العالم كله ، وهي سياسة واضحة متدرجة لها خطواتها المعروفة من :

- دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وجدال بالتي هي أحسن إن دعت الحاجة إلى جدال .

- وحركة بالإسلام إلى البقاع دون انتظار للمدعو حتى يحضر إلى مقر الداعي ، وما يتبع هذه الحركة من حب للمدعو وبذل الخدمات له والتحبب إليه ... إلخ .
- وأمر بالمعروف والخير والهدى والعمل الصالح في ظل شروط الأمر بالمعروف وآدابه .
- ونهي عن المنكر والشر والضلال والعمل الفاسد أو المفسد ، في ظل شروط النهي عن المنكر وآدابه .
- وجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا في إطار شروط الجهاد وآدابه .

ثامناً :

التربية الاقتصادية :

الإسلام دين التوسط والاعتدال في كل شيء حتى في العبادة وهي أشرف ما يقرب الإنسان إلى ربه حيث ينهى عن المغالاة فيها أو التشدد ، والاقتصاد توسط واعتدال في المعيشة وأسبابها ، ومن طولب بالاقتصاد في العبادة فمطالبته بالاقتصاد في المعيشة أولى .

وللتربية الاقتصادية في الإسلام مفردات كثيرة نشير منها إلى ما يلي :

١ - الأخذ بمبدأ الإسلام ومنهجه في التوسط والاعتدال في كل شيء ، بدءًا من الحياة الشخصية للإنسان ومروراً بالحياة الأسَرية فالحياة العامة ، في مجالات الطعام والشراب والملبس والمسكن وسائر المتاع ، في ضوء قول الله تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[2] .

٢ - والأخذ بمبدأ الاقتصاد بمعنى الإدخار ، ومقاومة الإسراف أو الإنفاق فوق

(١) سورة الأعراف : ٣١ .　　(٢) سورة الإسراء : ٢٩ .

الحاجة ، في ظل مبدأ إسلامي جامع هو : « لا عال من اقتصد » .

٣ – والالتزام بأحكام الشريعة في المعاملات المالية كلها ، وهي لب الاقتصاد وجوهره ، كتحريم الربا ، والاحتكار ، وتحريم بيع أحد على بيع أخيه ، وتحريم الغش والربح الفاحش ، وغير ذلك مما هو معروف في الفقه الإسلامي .

٤ – والالتزام بأحكام الإسلام في الإقراض والاقتراض ، لأن القرض من وجهة نظر الإسلام وإن قدم للمقترض إلا أنه قرض لله تعالى ، كما تنبىء بذلك الآية الكريمة ﴿ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[1] .

٥ – والالتزام بسياسة الإسلام الاقتصادية على مستوى المجتمع المحلي أو العربي أو الإسلامي وهي بصورة عامة :

– العمل على زيادة الإنتاج بحيث يحقق الاكتفاء ، أو يتجاوزه إلى تغطية احتياج الآخرين ، في ظل الاستعاذة بالله من العجز ومن الكسل ومن الدَّيْن .

– والعمل على إجادة الإنتاج كيفا ونوعاً ، بحيث يستطيع المنتج أن يجذب المتعاملين في تنافس شريف ، انطلاقاً من القاعدة الإسلامية الهامة : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » والقاعدة الأخرى وهي : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » .

٦ – والعمل والتعاون بين دول العالم الإسلامي على إيجاد تكامل اقتصادي على مستوى العالم العربي أولاً ، ثم على مستوى العالم الإسلامي بعد ذلك ، لأن ذلك وحده هو المخرج للمسلمين من دائرة الاحتياج للأعداء ، ودائرة الغرق في الديون الربوية وفوائدها المتفاقمة ودائرة التبعية الثقافية والسياسية نتيجة لذلك .

وذلك تسبقه دراسات على أيدى المتخصصين لمعرفة ما يلي :

– الخامات والمواد الأولية الموجودة في العالم الإسلام .

---

(١) سورة المزمل : ٢٠ .

- والأرض الصالحة للزراعة ، والمياه العذبة .
- والخامات والمواد الثانوية أو المساعدة في الزراعة أو الصناعة .
- وما يكنه باطن الأرض في العالم الإسلامي من معادن ونفط وغابات وغيرها .
- وأهم الموارد المالية في العالم الإسلامي .
- وعدد الأيدي العاملة في العالم الإسلامي .

ثم تقوم على هذه الدراسات خطط ومشروعات لإيجاد التكامل الاقتصادي على مستوى العالم العربي ، ثم على مستوى العالم الإسلامي .

٧ - والأخذ بكافة الأسباب العلمية والعملية التي تؤدي إلى إحداث اكتفاء ذاتي على مستوى العالم الإسلامي في (الطعام والشراب والملبس والمسكن والسلاح) وتلك ضروريات أساسية ، ثم الانطلاق من ذلك إلى إحداث الاكتفاء في السلع الثانوية فالكماليات ، وتلك كلها مطالب توجبها سياسة الإسلام في الاقتصاد .

تاسعاً :

التربية الجمالية :

يحرص الإسلام من خلال نصوصه ، ومن خلال عمل النبي ﷺ على أن يربي في المسلم الإحساس بالجمال في نفسه وفي كل ما حوله من ناس وأشياء ، معتمداً في ذلك عل أمور تعد أساسية هي :

- رقة الشعور وسرعة الاستجابة الصحيحة لكل ما يحيط بالإنسان من مظاهر الجمال من مخلوقات الله .
- وتنمية الإحساس بالنظافة المعنوية ، « الطهارة » في القلب والعقل ، والنظافة الحسية في الجسد والملبس والمأكل والمسكن والمسجد والمجتمع كله .
- وتنمية الإحساس بالنظام والتنسيق والترتيب ابتداء من الإنسان ذاته ثم ما يحيط به في دوائر تتسع فتشمل الأسرة ثم تتسع فتشمل المجتمع كله .

وتنمية الإحساس بقيمة الوقت في حياة الإنسان ، لأن ذلك من الجمال الذي يتحلى به الإنسان المسلم .

- وتنمية الإحساس بقيمة المال والولد في حياة الإنسان ، فإن الإنسان الذي يقدر هاتين النعمتين المال والبنين إنسان يتحلى من صفات الجمال بأهمها وأجداها على الإنسان والمجتمع .

ولهذه التربية الجمالية في الإسلام مفردات نشير إلى بعضها فيما يلي :

١ - تأكيد المفاهيم الأساسية للتربية الجمالية في الإسلام ، وهي أن يكون المسلم جميلاً في قلبه وعقله ونفسه وجسمه وملبسه وبيته ، والمجتمع الذي يعيش فيه ، انطلاقاً من الحقيقة الإسلامية الكبرى وهي « أن الله جميل يحب الجمال » .

٢ - وتأكيد مبدأ أن أخذ الزينة في الحياة الإنسانية كلها وبخاصة عند التوجه إلى المساجد من صميم ما دعا إليه الإسلام ، وكل انصراف عن الأخذ بهذا المبدأ تضييق لما وسَّع الله ، وتعطيل لما أمر به من غير دليل أو برهان عند أولئك المضيقين أو المضيعين ، مهما تمسحوا بأن ترك الزينة زهد أو تواضع ، لأن الزهد والتواضع في الإسلام ليسا متروكين لأن ينحرف بهما أحد عن القصد الذي شرعا له ، وأخذ الزينة ينطلق من قول الله : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾[2] .

٣ - وتأكيد الالتزام بالنظافة على اعتبار أنها مظهر من مظاهر الجمال من جانب وهي مطلب شرعي في حد ذاتها من جانب آخر ، والنظافة تعني الطهارة المعنوية والحسية ، انطلاقاً من مبدأ إسلامي معروف هو : « إن الله نظيف يحب النظافة » وانطلاقاً من قوله الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .
(٢) سورة الأعراف : ٣٢ .
(٣) سورة المائدة : ٦ .
(٤) سورة البقرة : ٢٢٢ .

٤ – ودعوة الناس إلى التفكير والتأمل والإحساس بجميل صنع الله في الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، والسماء وما فيها ، والأرض وما عليها ، والبحار والأنهار وما يجري فيهما من نعم الله على الإنسان ، وذلك التأمل والإحساس بالجمال هو الذي يزكي الإيمان ويقويه ويدفع إلى العمل الصالح ، انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

٥ – والتنبيه على أن الأخذ بأسباب الجمال يجب أن يمتد إلى النفوس والمشاعر ، وأن يشحن فيها بما يمكنها من الانطلاق إلى كل مرافق المجتمع .

٦ – وتوضيح أن القيم الجمالية في الإسلام كما تشمل الشكل والعرض ، فإنها تمتد إلى المضمون والجوهر ، وتنساب لتشمل كل الفضائل ، وتعتبر التحلي بها قيمة جمالية ، ثم تنداح فتشمل موقفاً من كل الرذائل وتعتبر التخلي عنها قيمة جمالية .

٧ – وتوضيح أن من التقرب إلى الله تعالى ممارسة الجمال وغرسه فيما يحيط بالإنسان ، سواء أكان غرساً لجمال معنوي أخلاقي ، أو غرساً لجمال حسي مادي ، أي إعطاء القدوة في الجمال للآخرين .

وهكذا تؤكد التربية الجمالية في الإسلام على تكوين الإنسان الجميل في خلقه وشكله وقوله وعمله وبيته ومسجده والمجتمع الذي يعيش فيه .

عاشراً :

التربية الجهادية :

حياة الإنسان في هذه الأرض جهاد مستمر من يوم يبلغ حد التكليف إلى أن يلقى

---

(١) سورة الأنعام : ٩٩ .

الله تعالى ، يجاهد نفسه لتلتزم بما ينفعها في الدنيا والآخرة ، ويجاهد شيطانه ليحول بينه وبين أن يزين له الشر والباطل والضلال ، ويجاهد أهل الظلم والفسق والبدع ، ويجاهد الكفار والمنافقين ، يجاهد كل ذلك في الله حق جهاده ، وما عليه في ذلك كله أو في بعضه من حرج ، انطلاقاً من النصوص الإسلامية في الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة التي أوجبت الجهاد بكل أنواعه على المسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ...... ﴾[1] .

ولهذه التربية الجهادية في الإسلام مفردات عديدة نذكر منها ما ييسرُ الله لنا فيما يلي :

١ - تأكيد أن الجهاد في سبيل الله فريضة ، دلت على فرضيتها آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وسيرته النبوية المطهرة ، وأنه كسائر الفرائض ماضٍ في المسلمين إلى يوم القيامة لا يقعد عنه إلا العصاة لله تبارك وتعالى إن كانوا من أهل الجهاد - على نحو ما سنبين - وأن من جحد فرضية الجهاد فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فكفر بما أنزل الله على خاتم رسله وأنبيائه محمد بن عبد الله ﷺ ؛ وقد أنزل عليه : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده** ... ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[3] وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الحج : ٧٨ .
(٢) سورة المائدة : ٣٥ .
(٣) سورة التوبة : ٤١ .
(٤) سورة الحجرات : ١٥ .

٢ - وتوضيح أهداف الجهاد في سبيل الله في نفوس المسلمين جميعاً حتى لا يحدث لبس أو خلط في تلك العبادة - الجهاد - وهذه الأهداف هي :

- إعلاء كلمة الله ، وإخمال كلمة الذين كفروا بجعلها السفلى .
- وتأمين حاضر المسلمين ومستقبلهم ضد أي عدو حاضر أو غائب .
- وإرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين والآخرين الذين يكونون من دون أعدائنا يؤلبون علينا في الخفاء .
- وأن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .
- وعبادة الله عن طريق هذه الفريضة والتقرب إليه بأدائها كاملة غير منقوصة .

٣ - والتأكيد على أن الجهاد يحتاج إعداداً واستعداداً ، وأن هذا الإعداد قد طالب به الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .... ﴾[1] وهذا الإعداد يتناول ما يلي :

- إعداد النفس لتحمل أعباء الجهاد وتنقيتها من المعاصي والذنوب ، وإقبالها على الطاعات وهذا جهد شخصي .
- وإعداد المال وهو عصب الجهاد ، المال الذي يجهز به المجاهدون في سبيل الله وتؤمن به حاجاتهم ويدفع به كيد أعدائهم .
- وإعداد الرجال بتبصيرهم بواجبهم في الجهاد وتعريفهم بالمعارك التي يجب أن يخوضوها وإعدادهم جسمياً ونفسياً وخلقياً للقيام بأعباء الجهاد ، وذلك جهد جماعي تقوم به الجماعة أو الدولة المسلمة .
- وإعداد السلاح بصناعته أو توفيره بالشراء والتدريب على استعماله .

٤ - وتفقيه المسلمين في الجهاد ، وتعريفهم أنه أنواع ، وأن هذه الأنواع كلها مطلوبة

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

مرغوبة وأنها هي :

أولاً : جهاد النفس بنهيها عما نهى الله عنه ، وإلزامها بما أمر الله به ، ولأسلافنا من العلماء في جهاد النفس مراتب هي :

- جهاد النفس بإلزامها بالعلم والمعرفة فيما يتصل بأصول الدين وقواعده .
- وجهادها بإلزامها بالعمل بمقتضى هذا العلم وتلك المعرفة بأصول الدين .
- وجهادها بإلزامها بتعليم ما تعلمته ، ونشر هذا العلم في الناس ، لأن الله سبحانه قد أخذ المواثيق على الذين أوتوا العلم أن يبينوه للناس .
- وجهادها بإلزامها بالصبر على متاعب الجهاد .

ثانياً : جهاد الشيطان ، وإنما يكون ذلك بأمرين :

- جهاد الشيطان بدفع ما يلقى في النفس من شُبَه وشكوك ، حول الإيمان والإسلام والعدل والإحسان ... إلخ .
- وجهاده بدفع ما يزين به للإنسان المعاصي والآثام والشهوات .

ثالثاً : جهاد أهل الظلم والبدع والمنكرات من المسلمين ، وجهادهم بطرق عديدة منها :

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- وتغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب في ظل ما وضع الإسلام لذلك الإنكار من شروط وآداب .

رابعاً : جهاد الكفار والمنافقين ، ولكل منهما أساليب في الجهاد نوضحها على النحو التالي :

- جهاد الكافرين ينبغي أن يتدرج على النحو التالي :
  - جهادهم بالقلب ببغض الكفار والبراءة منهم ومن كفرهم .
  - وجهادهم باللسان والقلم ، بدعوتهم إلى الحق ، وفضح كفرهم وعنادهم ، بالأدلة والبراهين والحجج .

- وجهادهم بالمال ، بالإسهام في إعداد المجاهدين وإعداد السلاح ، وتأمين كل ما يلزم المجاهدين .
- وجهادهم بالنفس أي قتالهم من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، مع الحرص على تحقيق إحدى غايتين من هذا الجهاد هما : النصر على العدو أو الحصول على الشهادة في سبيل الله « إحدى الحسنيين » .

● وجهاد المنافقين ، وينبغي أن يكون كما يلي :
- باللسان بدفع الشبه والشكوك إن صرحوا بها .
- وبالقلم والكتابة وبيان وجه الحق إن أضمروا تلك الشبه ولكن المسلمين أحسوا بها منهم .

٥ – وإشاعة فقه الجهاد بين المسلمين ، وتوضيح أحكامه الشرعية وخلاصة هذه الأحكام كما يلي :

● في الأصل أن الجهاد واجب على كل مسلم بالغ عاقل مستطيع ، وإنما كانت هذه الشروط لأن الجهاد عبادة وللجهاد في الإسلام أحكام أربعة :

الأول : أنه فرض عين على الأنواع الآتية من المسلمين :
- على كل من حضر القتال .
- وعلى كل من حصر العدو بلده .
- وعلى كل من استنفره ولي أمر المسلمين .

والثاني : أنه فرض كفاية أي إذا قام به من تتحقق بهم الكفاية سقط الإثم عن الباقين .
وذلك النوع من الجهاد واجب على كل من طلب منهم إمام المسلمين أن يجاهدوا في مكان ما لإعلاء كلمة الله .

والثالث : أنه مستحب ، وذلك لكل من أذن له والداه أو الموجود منهما بالخروج في جيش المسلمين ، لأنه من بين من تحصل بهم الكفاية .

والرابع : أنه مكروه ، ذلك لمن لم يأذن له والداه أو الموجود منهما بالخروج مع من تحصل بهم الكفاية ، وبشرط أن يكون الوالدان مسلمين .

٦ – والتبصير بأعداء الأمة الإسلامية الذين يجب جهادهم ، وهؤلاء الأعداء أنواع نذكر منهم ما يلي :

– المعتدون على أرض للمسلمين من أهل الكفر .
– والذين يكيدون للإسلام والمسلمين من أهل الكفر .
– والذين ينكرون معلوماً من الدين بالضرورة من المسلمين أوالذين يستهزئون بالله ورسوله أو مبادىء الإسلام وقيمه .
– أو الذين خرجوا على إمام المسلمين وقتلوا نفساً أو سلبوا مالاً أو جمعوا بين القتل والسلب .

٧ – وتربية الأمة الإسلامية كلها على حب الجهاد في سبيل الله وحب التضحية من أجل الإسلام بالجهد والوقت والمال والنفس ، وتلك التربية يجب أن تبدأ مع الطفولة في البيت ثم تنتقل هذه التربية من البيت المهد الأول للطفل المسلم إلى المسجد والمدرسة بمختلف مستوياتها ، فالجامعة ، فكل مرافق المجتمع ، لأن الأمة الإسلامية هي أمة الجهاد ، لأن الله تعالى اجتباها من بين الأمم ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ .. ﴾ .

إن تربية الأمة الإسلامية على الجهاد في سبيل الله تعالى يجب أن تؤكد في نفوسهم أن الجهاد في سبيل الله هو سبب عزة الأمة الإسلامية ونصرها على أعدائها ، وسبب رضا الله تعالى عنها ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[1] ويقول جل شأنه : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

وبعد فهذه مفردات التربية القرآنية أشرنا إليها في إجمال يحتاج إلى تفصيل في غير هذا الكتاب نرجو أن يوفقنا الله إلى كتابته إنه نعم المعين .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٢ .
(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .

٥ – اختيارنا البدء بسورة المائدة ثم سورة النور

من أجل أن نأخذ من القرآن الكريم تلك القيم التربوية في توجيه سلوك الإنسان في علاقته مع ربه ، ومع نفسه ، ومع المجتمع الذي يعيش فيه ...

ومن أجل أن يصطبغ المجتمع المسلم بتلك الصبغة الإسلامية بأن تسوده هذه القيم التربوية القرآنية ...

ومن أجل أن تستطيع الأمة الإسلامية أن تشق طريقها في هذه الحياة وفق قيم صحيحة تحقق بها صلاح الدين والدنيا ، وتواجه بها حملات التشويه والتشكيك الموجهة للإسلام ونظمه وقيمه ...

ومن أجل أن يجد المشغولون بالتربية والمهمومون بقضاياها أمام أنظارهم منهج التربية القرآنية ومفردات هذا المنهج واضحة جلية ...

ومن هذا وغيره من قضايا التربية الإسلاميةعقدت العزم على أن أتتبع هذه التربية القرآنية ومفرداتها في القرآن الكريم سائلاً الله تبارك وتعالى التوفيق والسداد .

ولقد كانت لدى رغبة قديمة في ذلك العمل الذي أعده جليلاً وهامًّا منذ سنوات عديدة تمتد إلى أكثر من ربع قرن من الزمان منذ كنت أعمل في التدريس ، ولقد عبَّرت هذه الرغبة عن نفسها أولاً في محاضرات عامة كنت ألقيها هنا وهناك في عديد من البلدان الإسلامية التي زرتها أو ترددت عليها ، وفي كل محاضرة كنت أركز على قيمة تربوية أو أكثر لأوضح أبعادها وأعماقها وفاعليتها في الحياة الإنسانية عموماً وفي حياة المسلمين على وجه الخصوص .

ومن خلال إعدادي لهذه المحاضرات ، ومحاورة السامعين لي فيما قلت ، تكون لديّ رصيد من هذه الأفكار وتلك القيم التربوية في بعض سور القرآن الكريم ، يمكن أن يضم بعضه إلى بعض ، في كتاب ، ليكون نفعه أعم وفائدته أرْجَى ، وليصبح التحرير

لهذه القيم وتعمد البحث عنها في بعض سور القرآن الكريم ، وجمع بعضها إلى بعض بداية تهدى في طريق التربية الإسلامية أو التربية القرآنية من أراد أن يرتاد هذا الطريق .

ولقد بدا لي في حين من الزمان أن أتتبع هذه القيم التربوية في القرآن الكريم كله بادئاً بفاتحة الكتاب مستمرا في العمل حتى أفرغ من استخراج هذه القيم من القرآن الكريم كله كما هو مرتب في المصحف الشريف ، ثم هالنى الأمر ورأيتني أعجز من أن أقوم بهذا العمل الكبير ، فعدلت عن ذلك ، واستخرت ربي ، فحبب إلى أن أبدأ ببعض سور القرآن الكريم ، ففعلت داعياً وراجياً عفو ربي ومغفرته .

ثم قلت بماذا أبدأ من سور القرآن الكريم ؟

وجاءني الرد على لسان التابعي الجليل مجاهد بن جبر فيما رواه عنه البيهقي بسنده – في كتابه « شعب الإيمان » قال : قال مجاهد – مُرْسلا – : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » .

ورواه سعيد بن منصور في سننه .

فقلت تلك هي البداية .

ولكي أعزز لدى القاريء حسن الابتداء بسورة المائدة ثم بسورة النور كما قال ذلك التابعي الجليل مجاهد ، فلابد لي أن أوضح للقاريء الأمور التالية :

١ – من هو مجاهد بن جبر ؟

٢ – وما معنى الحديث المرسل ؟

٣ – ومن هو سعيد بن منصور الذي روى هذا الحديث في سننه ؟

٤ – ثم من هو البيهقي الذي روى الحديث عن مجاهد ؟

١ – مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي :

ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١٠٤ هـ وهو ساجد كما ذكر بعض المؤرخين .

قال عنه أبو نعيم في الحلية : العالم الحبر ، ذو الأحلام والصبر أبو الحجاج مجاهد ابن جبر ، أسند عن عدة من علماء الصحابة رضي الله عنهم وأعلامهم منهم :

عبد الله بن عباس ، ٣ قبل الهجرة - ٦٨ هـ .
وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، ١٠ قبل الهجرة - ٧٣ هـ .
وجابر بن عبد الله ، ١٦ قبل الهجرة - ٧٨ هـ .
وأبو سعيد الخدري ، ١٠ قبل الهجرة - ٧٤ هـ .
وأبو هريرة ، ٢١ قبل الهجرة - ٥٩ هـ .
ورافع بن خديج ١٢ - ٧٤ وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين - .

وحَدَّث عنه :

طاووس بن كيسان ٣٣ - ١٠٦ هـ .
وعطاء بن دينار ، ... - ١٢٦ هـ .
وعكرمة البربري ، ٢٥ - ١٠٥ هـ .
وعمرو بن دينار ، ٤٦ - ١٢٦ هـ ، وغيرهم .

وقال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال : مجاهد بن جبير المقرىء المفسر أحد الأعلام الأثبات ، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قرأه عليه ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله : فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ .

٢ - ماذا يعني الحديث المرسل ؟ :

الحديث المرسل هو حديث التابعي الكبير الذى أدرك جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم وجالسهم ، كعبيد الله الخياري ، ثم سعيد بن المسيب وأمثالهما إذا قال : قال رسول الله ﷺ .

تلك صورة الحديث المرسل التي لا خلاف فيها كما يرى ذلك ابن الصلاح ، أي ليس في الحديث المرسل ذكر الصحابي .

أما قول التابعي الصغير قال رسول الله ﷺ كذا أو فعل كذا ، فليس مرسلاً ، فالمرسل مختص بالتابعي الكبير عن النبي ﷺ .

وحكم الحديث المرسل في الاحتجاج به فيه تفصيل على النحو التالي :

أ - أنه حجة مطلقاً ، كما يرى ذلك مالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل في رواية حكاها النووي وابن القيم وابن كثير وغيرهم من الفضلاء .

ب - ويرى بعض العلماء الاحتجاج بالحديث المرسل إذا كان قد قاله أحد كبار التابعين ، كما ذهب إلى ذلك الشافعي وشرط فيه شروطاً مثل : أن يكون الحديث قد أسند من جهة أخرى ، أو أرسله من أخذ عن غير رجال الأول ، أو وافق قول الصحابي ، أو أفتى أكثر العلماء بمقتضاه ، فإن لم تتوافر هذه الملاحظ أو الشروط فلا يأخذون به .

جـ - ومنهم من يرى أن المرسل ضعيف مطلقاً - والضعيف يعمل به في رأي أبي داود وأحمد بن حنبل لأنهما يريان ذلك أقوى من رأى الرجال ، أو يؤخذ بالضعيف في الفضائل بشرط أن يندرج تحت أصل من الأصول المعمول بها[1] .

والحديث الذي رواه البيهقي بسنده عن مجاهد ودعا فيه مجاهد إلى تعليم الرجال سورة المائدة وتعليم النساء سورة النور حديث مرسل .

والذي انتهيت إليه من رأى في هذا الحديث أنه يعمل به لأنه تضمن وصية بتعليم سورتين من سورة القرآن الكريم ، وذلك مقبول بل محمود .

ومجاهد تابعي جليل كما أسلفنا .

وقد روى هذا الحديث سعيد بن منصور في سننه .

٣ - سعيد بن منصور بن شعبة المروزي الخراساني أبو عثمان ... - ٢٢٧ هـ :

محدّث حافظ ولد بجورجان ونشأ ببلخ وطاف البلاد وسكن مكة المكرمة وتوفي بها ، قال عنه ابن حبان في الثقات : « يروى عن هشيم وخالد ، وحدثنا عنه محمد ابن عبد الرحمن الشامي ، مات بمكة سنة سبع وعشرين ومائتين ، وكان ممن جمع وصنف من المتقنين الأثبات » وله كتاب السنن جمع فيه الحديث النبوي .

---

(١) تراجع مذاهب العلماء في الأخذ بالحديث الضعيف في كتاب لنا بعنوان : التعريف بسنة الرسول ﷺ ط مطبعة السادة القاهرة ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م وهو كتاب مبسط أو يراجع في كتاب مقدمة ابن الصلاح أو غيره من كتب مصطلح الحديث .

وقال عنه الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال : « الحافظ الثقة صاحب السنن ، سمع مالكاً وطبقته » .

وقد أحسن أحمد بن حنبل الثناء على سعيد بن منصور ، وفخّم أمره ، وقال عنه أبو حاتم ابن حبان : « من المتقنين الأثبات » وأغلب علماء الحديث يقولون عنه : ثقة .

٤ – البيهقي أحمد بن الحسين بن علي ، ٣٨٤ – ٤٥٨ هـ :

فقيه شافعي محدّث سكن خراسان وإليها ينسب وتوفي بنيسابور في العاشر من جمادي الأولى سنة ٤٥٨ هـ ، ونقل إلى بَيْهق ودفن بها .

ومن مؤلفاته :

- السنن الكبير في الحديث في عشر مجلدات .
- والمبسوط في نصوص الشافعي في عشر مجلدات .
- والجامع المصنف في شعب الإيمان في مجلدين .
- ودلائل النبوة في ثلاث مجلدات ، ثم صدر في سبع مجلدات .
- ومناقب الشافعي ، وغيرها من الكتب .

وبعد: فهؤلاء هم الذين عنوا بهذا الحديث المرسل عن مجاهد : « علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور » أليس يجدر بنا بعد ذلك أن نجعل بدايتنا في معرفة القيم التربوية القرآنية بسورة المائدة ثم سورة النور ، ثم ما يشاء الله لنا استنباط القيم التربوية منه من سور القرآن الكريم ؟

بلى والله إن هذا لجدير بأن نبدأ به .

والله نسأل من التوفيق والسداد ، ما يكافيء أهمية ما نبحث عنه من مفردات التربية القرآنية ، إنه على ما يشاء قدير .

* * *

٦ – منهجنا في هذا التفسير التربوي

هدفنا من هذا التفسير لبعض سور القرآن الكريم ، الذي نبدؤه بسورة المائدة أن نستلهم آيات القرآن ما هدتنا إليه من قيم تعليمية وتربوية ، توجهنا بها إلى حياة إنسانية كريمة تراعى فيها الحقوق والواجبات ، وتقوم على الشورى والعدل ، وتستهدف صالح الإنسان في دنياه وآخرته .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، كان لنا منهج في تفسيرنا هذا نستطيع أن ندل على خطواته فيما يلي :

أولاً : عرض موجز للقضايا والموضوعات التي تضمنتها السورة الكريمة كلها محاولين في هذا العرض أن نركز على أبرز هذه القضايا في حياتنا الإنسانية ، ومدى ما تناولته موضوعات السورة من إصلاح لعيوبنا ، وتحديد للأمور التي يجب أن يتمسك بها المسلم ، والأخرى التي يجب أن يتخلى عنها في حياته ، حتى تسلم له من خلال هذا التبصير والتحديد سبل العيش في الحياة الدنيا ، فلا يدخلها باطل أو شر أو ظلم أو خنوع أو خضوع لغير منهج الله سبحانه ، تسلم له حياته الدنيا ، بالتسلم له بهذا الالتزام بالمنهج الإسلامي حياته الأخرى ، دعماً وتأكيداً لمصداقية قدرة الإسلام على إصلاح الدنيا والآخرة ، وتحقيق السعادة في المعاش والمعاد .

ثانياً : تسجيل الآية أو الآيات موضوع التفسير ، لتكون أمام القارىء للنظر والتأمل والتدبر ، وليكون على ذكر لها كلما قلنا : إن هذه الآية تعنى كذا ... أو تأمر بكذا ... أو تنهى عن كذا .. و تخبر بكذا .. أو تعد بكذا .. أو توعد بكذا ....

ثالثاً : إلقاء الضوء على معاني الآيات الكريمة الذي يستهدف توضيح مقاصدها ، وتأكيد فاعليتها وتأثيرها في روح الإنسان وعقله وبدنه وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه ، والأمة الإسلامية التي ينتمى إليها ، والعالم الذي يحيط به ، وما يعج به هذا العالم من تيارات ومذاهب ومؤمنين وكافرين ووثنيين ، وكيف يتعامل

المسلم مع هذا العالم وما فيه ، تعاملاً يحقق فيه العدل والخير ، ويبلغ دعوة الله إلى عباد الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مجاهداً في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .

رابعاً : استنباط المواقف التعليمية التربوية التي تستفاد من الآية الكريمة أو الآيات ، في صورة نقاط ترصد وتعد ، لتكون الفائدة أكبر والتحصيل أيسر ، وليكون المسلم على بينة من أمر نفسه ، في كل ما من شأنه أن يتعلم من هذه الآيات .

تأكيدا لفكرة أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما الهدى للناس ، وهما الصراط المستقيم وهما النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة .

خامساً : تحديد المواقف التربوية التي توحي بها الآية أو الآيات فيما يتصل بمجالي الدعوة والحركة في العمل من أجل الإسلام الذي يفضي إلى تربية الناس تربية إسلامية .

وربما كان هذا الهدف هو أبرز ما تعمدت بذل الجهد في الوصول إليه ، لأن الدعاة إلى الله في حاجة ماسة إلى ذلك ، بل إن ذلك هو الزاد الذي يتزودون به في طريق الدعوة إلى الله الطريق الذي سلكه الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن تصور أن طريق الدعوة إلى الله معبد أو ممهد دون عقبات أو عراقيل ، فقد غفل عن التأمل في سنة الله سبحانه وتعالى في الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر ، وأولياء الله وأعدائه .

ومن تصور أن يدعو إلى الله دون أن يمسه من أذى الباطل والشر ، ما بمثله يمحص ويبتلى فقد نسي ما لا ينبغي أن ينسى وجهل ما لا يسع المسلم جهله ، فقد قص الله علينا في القرآن قصص الدعاة من الأنبياء والرسل وأخبرنا بما نالهم في سبيل الله من أذى ، ليكون في ذلك عزاء وتأس لكل من يتصدى للدعوة إلى الله .

فإذا انتقلت الأعمال من أجل الإسلام من مجال الدعوة إلى مجال الحركة ،

ولم يكتف الدعاة بأن يسمعوا أصواتهم للناس ، وإنما ذهبوا إلى الناس واختلطوا بهم وأحبوهم وتحببوا إليهم ، وفعلوا الخير لهم وبهم محاولين نقلهم من الكفر إلى الإيمان أو من الضلال زاد التحدي للحق وعظم التصدي لأهل الحركة الإسلامية وزادت الحاجة إلى التواصي بالصبر والاحتساب ، فإذا انتقلت الأعمال من أجل الإسلام إلى مجال التربية وما تتطلبه من توجيه وتخطيط وتنسيق وتوظيف وترشيح وتوريث ، كلما ضَرِيَت عداوة أعداء الإسلام وتفاقمت شرارهم المعبرة عن أحقادهم على الحق وأهله ، وهنا لا يكون العزاء والتأسي إلا بما في القرآن الكريم من مواقف معلمة ومربية هادية إلى طريق الحق وإلى صراط مستقيم .

ومن أجل تحديد هذه المواقف التعليمية التربوية وتوضيح أهدافها وأبعادها ووسائلها كان هذا التفسير التعليمي التربوي في بعض سور القرآن الكريم .

وكان البدء بسورة المائدة والله ولي التوفيق .

* * *

سورة المائدة ...

والقيم التربوية التي تستفاد منها

عرض للقضايا والموضوعات التي تضمنتها سورة المائدة .

● لهذه السورة الكريمة أسماء أخرى هي :

- سورة : « العقود » ، لأن هذا اللفظ قد جاء في أول آية منها .
- سورة : « المنقذة » ، روى ابن الفَرَس عبد المنعم بن محمد ٥٢٤ - ٥٩٩ هـ في كتابه : « أحكام القرآن » بسنده أن النبي ﷺ قال : « سورة المائدة تدعى في ملكوت السموات : المنقذة » أي أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب.
- وسورة : « الأخيار » ، قال الجرجاني أبو العباس أحمد بن محمد ... - ٤٨٢هـ في كتابه : « كنايات الأدباء وإشارات البلغاء » « يقال فلان لا يقرأ سورة الأخيار ، أى لا يفي بالعهد ، وذلك أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يسمون سورة المائدة سورة الأخيار ، قال جرير الشاعر :

إن البعيث وعبد آل مقاعس ... لا يقرآن بسورة الأخيار

ولكن أشهر أسمائها : سورة المائدة .

● وفي عرض ما تضمنته هذه السورة الكريمة من قضايا وموضوعات نستطيع - بعد التأمل والتدبر الطويلين في السورة - أن نقول : إنها تناولت موضوعين كبيرين هما :

الأول : حديث عن المؤمنين :

وهذا الحديث قد اشتمل على جملة أصول وثوابت - تتصل بالعقيدة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، والأحكام الملزمة التي يمكن أن نشير إليها في السورة كلها فيما يلي :

أولاً : العقائد وأصول الدين ، وقد جاء في السورة من ذلك :

١ - بيان إكمال الله تعالى للمسلمين هذا الدين وإتمامه ورضاه عنه للبشرية كلها

دينا : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ الآية الثالثة .

٢ – وبيان أن هذا الدين الذي رضيه الله للبشرية ديناً مبني على العلم واليقين ولا يجدي فيه تقليد أحد ولو كان هو الآباء والأجداد فضلاً عن غيرهم من العلماء : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ.... ﴾ الآية الرابعة بعد المائة .

٣ – وأن هذا الدين الكامل التام قد بينه القرآن الكريم والسنة النبوية ، وأن القرآن الكريم مهيمن على كل كتاب سبقه : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ... ﴾ الآية الثامنة والأربعون .

٤ – وبيان أن أصول الدين الحق على ألسنة الرسل جميعاً هي : الإيمان بالله واليوم الآخر وممارسة العمل الصالح ، فمن أقام ذلك فله الأجر عند الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الآية التاسعة والستون .

٥ – وبيان أن الله تعالى قد حفظ رسوله الخاتم وعصمه من أن يناله القتل أو الصد عن تبليغ دعوة الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ الآية السابعة والستون .

٦ – وتأكيد أن تقوى الله هي ملاك صلاح أمر الدين والدنيا حيث طالبت آيات هذه السورة بتقوى الله في اثنتى عشرة آية كريمة هي الآيات : الثانية والرابعة والسابعة والثامنة والحادية عشرة والخامسة والثلاثون والسابعة والخمسون والثامنة والثمانون والسادسة والتسعون والمائة والآية الثامنة بعد المائة والثانية عشرة بعد المائة.

٧ – وتفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله تعالى وحده وأن أنفع ما ينفع المؤمنين يومئذ هو الصدق : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الآية التاسعة عشرة بعد المائة .

ثانياً : الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة :

وهي كثيرة في السورة الكريمة نذكر منها ما يلي :

١ – الوفاء بالعقود والعهود والمواثيق التي يتعامل بها الناس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ .. ﴾ الآية الأولى .

٢ – والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ .. ﴾ الآية الثانية .

٣ – ووجوب العدل والقسط بين الناس حتى أهل البغضاء منهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ...... ﴾ الآية الثامنة .

٤ – وبيان الفارق بين الخبيث والطيب من الأقوال والأعمال والأموال : وهما لا يستويان أبداً ، وإنما الطيب هو المقبول ولو كان قليلاً ، والخبيث مرفوض ولو كان كثيراً معجباً ، وذاك معيار تقاس به كل الأقوال والأعمال والأموال وغيرها : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ .. ﴾ الآية المائة .

٥ – وتأكيد وجوب النهى عن المنكر ، وأن ترك التناهي عن المنكر يوجب لعنة الله كما حدث ذلك من أهل الكتاب : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ

﴿ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ الآيتان الثامنة والسبعون والتاسعة والسبعون . .

٦ – وبيان أن السؤال عن أشياء من شأنها أن تسوء المسلمين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف والأعباء محرم شرعاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْـَٔلُوا عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ الآية الواحدة بعد المائة .

٧ – وتأكيد أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفراداً وجماعات ، وأن ترك ذلك يوقع في الإثم والحرج ويوجب العقاب ، وأن إصلاح الآخرين لا يستوجب غير الدعوة إلى الحق والهدى وأن هؤلاء إذا لم يستجيبوا للحق والهدى فلا يضر ذلك الدعاة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الآية الخامسة بعد المائة .

ثالثاً : الأحكام الشرعية الملزمة :

وهي في هذه السورة كثيرة كثرة ملفتة إذ إن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، وسوف نكتفي بسرد بعض هذه الأحكام وسوف نذكرها جميعاً ، ونحن نفسر السورة الكريمة .

من هذه الأحكام :

١ – تفصيل أحكام الطهارة الوضوء والغسل والتيمم ، مع طهارة الظاهر والباطن ، وأن هذه الأحكام وغيرها لا تتضمن أبداً أن في الدين أو التدين أي حرج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ...... ﴾ الآية السادسة .

٢ – وبيان أحكام ما أحله الله وما حرمه من الطعام مع توضيح أسباب التحريم وعلله :
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ... ﴾ الآيتان الرابعة والخامسة .

٣ – وبيان أحكام الحرابة أو السرقة الكبرى ، ويسمى أهلها الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ......... ﴾ الآيتان الثالثة والثلاثون والرابعة والثلاثون .

٤ – والنهي عن موالاة المؤمنين للكافرين ، وبيان تحريم هذه الموالاة ، وكونها دليلاً على النفاق ومرض القلب : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ... ﴾ الآيتان الحادية والخمسون والثانية والخمسون .

٥ – وتحريم الغلو في الدين أو التشدد فيه ، ولو كان ذلك بأن يحرم أحد الناس على نفسه ما أحل الله له ، أو أن يسرف أحد الناس على نفسه في التمتع بالطيبات :
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ الآيتان السابعة والثمانون والثامنة والثمانون .

٦ – وتحديد الأيمان وبيان أنواعها وتوضيح كفارة كل نوع منها والمطالبة بحفظ الأيمان : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ.. ﴾ الآية التاسعة والثمانون .

٧ – وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وبيان أنها رجس من عمل الشيطان

يجب اجتنابه .. الآيات التسعون والحادية والتسعون والثانية والتسعون .

والموضوع الثاني الذي تناولته هذه السورة الكريمة هو :

حديث عن أهل الكتاب من يهود ونصارى .

وقد تشعب هذا الحديث عن أهل الكتاب إلى شعب أربع :

الأولى : الحديث عن أهل الكتاب عموماً ووصفهم ووصف كتبهم وبيان جزائهم .

فمن أوصاف أهل الكتاب عموماً ما يلي :

١ - غلوهم في الدين وما أدى إليه هذا الغلو من تعصب .

٢ - وغرورهم في دينهم وفي أنفسهم وزعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه .

٣ - ونقضهم ميثاق الله سبحانه ونسيانهم بعض ما ذكروا به على ألسنة أنبيائهم .

٤ - وأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل كما أوجب الله عليهم مع أن التوارة والإنجيل قد أنزلهما الله هداية للناس .

٥ - ووصفهم بأنهم اتخذوا الإسلام هزوا وسخرية .

٦ - وأن جزاءهم الدنيوي هو أن ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء .

٧ - وأن جزاءهم الأخروى هو تعذيب الله تعالى لهم بذنوبهم .

والثانية : الحديث عن اليهود خاصة وقد تضمن هذا الحديث ما يلي :

١ - أنهم قساة القلوب خونة ماكرون .

٢ - وأنهم يبالغون في سماع الكذب وأكل السُّحْتِ .

٣ - وأنهم يفسدون في الأرض ويوقدون نار الحرب .

٤ - وأنهم كانوا يقتلون الأنبياء والرسل .

٥ - وأنهم أشد عداوة للمسلمين من غيرهم .

٦ - وأنهم حكموا النبي ﷺ في بعض قضاياهم ثم لم يرضوا بحكمه .

٧ - وأن الله تعالى عاقبهم على ذلك وأمثاله باللعن على ألسنة الرسل ، وبالغضب والمسخ .

ولكن القرآن الكريم في هذه السورة ينصف الصالحين منهم ، فيقول : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

والشعبة الثالثة : حديث عن النصارى بصفة خاصة ، وقد وصفتهم الآيات في هذه السورة الكريمة بما يلي :

١ - أنهم نقضوا عهد الله وميثاقه ونسوا حظا مما ذكروا به .

٢ - وأنهم زعموا أن الله هو المسيح بن مريم .

٣ - وأنهم زعموا أن الله ثالث ثلاثة .

٤ - وأنهم لم يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل فكانوا من الفاسقين .

٥ - وأنهم غالوا في دينهم وفي رسولهم حتى عبدوه من دون الله .

٦ - وأنهم قلدوا غيرهم ممن ضلوا قبلهم فكفروا بمحمد وبما جاء به من عند الله .

٧ - وأنهم أقرب مودة للمسلمين من اليهود ومن الذين أشركوا .

والشعبة الرابعة : حديث عن الأحكام التي تتعلق بأهل الكتاب جميعاً ، وهذه الأحكام كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ - أمر الله رسوله ﷺ والمسلمين جميعاً بأن يعاملوا أهل الكتاب جميعاً بالعدل فلا يظلموا منهم أحدًا .

٢ - وأمرهم بأن يحكموا بينهم بالقسط والعدل .

٣ - وحكم بحل طعامهم وحل مؤاكلتهم .

٤ - وحكم بحل التزوج من نسائهم .

٥ - وحكم بقبول شهاداتهم :
٦ - وأمر بالعفو والصفح عنهم .
٧ - وبيان جزاء من كفر منهم بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله وهو تعذيبهم يوم القيامة بكفرهم .

ولنشرع بعد ذلك في تفسير آيات السورة الكريمة ملقين الضوء على معاني الآيات ومقاصدها ، ثم نستوحى الآيات ما فيها من قيم تربوية تعليمية عامة ، وما فيها من قيم تربوية تعليمية تفيد الدعاة إلى الله في عملهم في الدعوة والحركة والتربية والتنظيم في مجال العلم الإسلامي كله .

والله ولي التوفيق .

روى الحاكم في مستدركه بسنده عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة رضي الله عنها ، فقالت يا جبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه » ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .. ورواه الإمام أحمد ... » .

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب وعطية بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : « المائدة من آخر القرآن تنزيلاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » .

وقال القرطبي : قال أبو ميسرة : « المائدة من آخر ما نزل من القرآن الكريم ، ليس فيها منسوخ .

وفيها ثمان عشرة فريضة ليست في غيرها وهي :

١ – المنخنقة .
٢ – والموقوذة .
٣ – والمتردية .
٤ – والنطيحة .
٥ – وما أكل السبع .
٦ – وما ذبح على النصب .
٧ – وأن تستقسموا بالأزلام .
٨ – وما علمتم من الجوارح مكلبين .
٩ – وطعام الذين أوتوا الكتاب .
١٠ – والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم .
١١ – وتمام الطهور ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .
١٢ – والسارق والسارقة .
١٣ – و ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

١٤ - وما جعل من بحيرة .

١٥ - ولا سائبة .

١٦ - ولا وصيلة .

١٧ - ولا حـام .

١٨ - وقوله تعالى : ﴿ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ الآية .

قال القرطبي : وفريضة تاسعة عشر وهي قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة ، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة ، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات »[1] .

وهذه السورة الكريمة في مجموع آياتها تستهدف تكوين أمة التوحيد ، الأمة الوسط الشاهدة على الأمم ، الأمة التي اعتبرها الله سبحانه خير أمة أخرجت للناس لإيمانها وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر .

هذه الأمة الإسلامية التي تتكون من أجناس متعددة ولغات كثيرة وألوان مختلفة هي أمة واحدة على الرغم من ذلك كله ، بل هي أمة قادرة على التعامل بل أحسن أنواع التعامل - بما لديها من منهج - مع سائر أمم الأرض ، على أساس من العدل وحسن العلاقة وحسن الجوار .

وهذه الأمة من داخلها أعطيت المنهج الذي ينظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الفرد وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه والعالم الإسلامي الذي ينتمي إليه ، في ظل تفاصيل تعجز عقول البشر عن أن تأتي بمثلها فضلاً عن بديل عنها ، كما ينظم العلاقات السياسية بين الحاكم على أي مستوى كان وبين المحكوم في ظل تبادل فاعل مخلص للحقوق والواجبات .

وهذا المنهج الذي ميزت به أمة خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام ينقسم إلى

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٠٢٧ ط الشعب القاهرة دون تاريخ .

قسمين رئيسيين هما :

- القسم الخاص بالثوابت الراسخة مثل العقائد والعبادات والأخلاق والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله بعد دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

- والقسم الخاص بالمتغيرات التي تطرأ على حياة الناس باعتبار أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وهذا القسم أعد له المنهج وسائل عديدة للتعامل معه في كل عصر ومصر وتلك الوسائل هي : الإجماع والقياس والمصالح المرسلة وسد الذرائع .

والتعامل بالمنهج في هذين القسمين معاً يستهدف تحقيق مصالح الدنيا والآخرة ، وأن يعيش الناس حياة إنسانية لائقة بتكريم الله سبحانه للإنسان .

أما تفصيل تفسير الآيات الكريمة وإلقاء الضوء على ما تضمنته من معان ، واستنباؤها عما فيها من قيم تربوية تعليمية عامة أو قيم تربوية تعليمية يستفاد منها في مجالي الدعوة والحركة والتربية في ميادين العمل الإسلامي المتعددة فهو ما نشرع فيه الآن والله المستعان .

* * *

الآية الأولى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ .

● ضوء على معنى الآية ومقاصدها وأثرها في الإنسان :

هذه الآية خطاب للمؤمنين يتضمن أمرًا وخبرًا وتقريرًا .

– **أما الأمر فهو** : الوفاء بالعقود .

● والوفاء والإيفاء هو الإتيان بالشيء وافياً تاماً لا نقص فيه .

● والعقود هي العهود والمواثيق ، وأصلها اللغوي : الجمع بين أطراف الشيء أي ربط بعضها ببعض ، ثم استعير للدلالة على المعاني كعقد الإيمان أو عقدته بين العبد وربه ، وعقد النكاح وعقد البيع ، وعقد العهد وعقد الحلف ، وقد قسم العلماء العقد إلى ثلاثة أنواع :

● عقد بين العبد وربه بأن يفي بكل ما أمره الله به ، ويجتنب كل ما نهي الله عنه ، ومن تعاقد الله مع عبده أن أحل له وحرَّم عليه .

● وعقدٌ بين الإنسان ونفسه ، بأن يلزمها أداء ما يجب عليها بحيث تكون بذلك الالتزام في موضع التكريم الذي كرمها الله بها ، فلا يراها على معصية لله ، ولا على عمل يكرهه الله ، فإن ذلك هو الذي يحفظ له إنسانيته كريمة معززة .

● وعقدٌ بين الإنسان وغيره من الناس ، حكاماً أو محكومين بحيث يؤدي كل أحد ما عليه من واجبات ويستمتع بما له من حقوق ، كل ذلك من خلال المنهج الإسلامي الذي لم يترك خيراً إلا أمر به ، ولم يترك شرا إلا نهي عنه .

– والوفاء بالعقود معناه – كما قال ابن عباس رضي الله عنهما – : « أوفوا بما أحلّ وبما حرّم ، وبما فرض وبما حدّ في جميع الأشياء » .

– والشروط مثل العقود يجب الوفاء بها ، لما روى الترمذي بسنده عن عمرو ابن عوف المزني عن أبيه عن جده رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « الصلح جائز بين السلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً ، والمسلمون على شروطهم إلا شرط حرّم حلالاً أو أحل حراماً » .

ولما رواه البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر وقال : « ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له ، وإن اشترط مائة شرط » .

– وقول الله تعالى : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ هو الأساس الثابت للعقود في الإسلام ، وهذا اللفظ القرآني يفيد وجوب الوفاء على كل مسلم بما ارتبط من عقد أو عهد أو شرط بما لا يُحل حراماً أو يُحرِّم حلالاً .

– والعقود أو العهود أو الشروط في الإسلام تشمل كل ما مِنْ شأنه أن يضبط حياة الناس في جميع سعيها مما أمر الله به أو ما نهى الله عنه ، وكلمة العقود بناء على ذلك أوسع بكثير من المعاني التي ذكرناها للعقود ، لأنها في الواقع هي كل الضوابط الاجتماعية التي شرعها الإسلام وألزم الناس الوفاء بها ، سواء أكانت هذه الضوابط لتنظيم علاقات المسلمين بعضهم ببعض أو علاقاتهم بغير المسلمين ، ويمكن إجمال هذه العقود في ثلاثة أنواع :

- **عقْد الإيمان** : الذي يقتضي توحيد الله وعبادته إلٰهًا وربًّا ، والقيام بواجب استخلاف الله للناس في الأرض ومطالبتهم بإعمارها ، وإنما يكون ذلك بالإيمان بالله والإقرار بما جاء به محمد ﷺ .
- **وعقْد الإسلام** : الذي يقتضي طاعة الله وعبادته وفق ما شرع ، والحكم والتحاكم إلى منهجه ، والرضا بكل ما جاء به هذا المنهج التام الكامل .

- **وعقد العدل والإحسان** : الذي يقتضي أن يكون كل فرد من المسلمين ملتزماً بالعدل مع ربه ومع نفسه ومع الناس ، وأن يكون راغباً في الإحسان في كل ذلك ، إذ الإحسان درجة أعلى من العدل .

وهذا مجمل ما اشتملت عليه الآية الكريمة من الأمر .

وأما الخبر الذي تضمنته الآية الكريمة ، فهو أن الله تبارك وتعالى أخبر في هذه الآية بأنه أحل للناس بهيمة الأنعام .

- والبهيمة اسم لكل ذي أربع .
- والأنعام الإبل والبقر والغنم ، وهي التي حددتها الآية الكريمة بالثانية الأزواج : من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين .

وقد استثنى الله من هذه المأكولات التي أباحها ما أخبر به المسلمين في هذه السورة الكريمة وغيرها أو ما حرمه رسول الله ﷺ : ﴿ **إلا ما يتلى عليكم** ... ﴾ .

كما استثنى حل صيد هذه البهائم لمن كان محرماً : ﴿ **غير محلي الصيد وأنتم حرم** ﴾ سواء أكان هذا الإحرام بحج أو بعمرة ومعنى الآية الكريمة : أحلت لكم بهيمة الأنعام مطلقاً إلا ما حرم عليكم كالميتة ونحوها ، كما حرم عليكم الصيد وأنتم حرم .

ويمكن أن يكون المعنى : أوفوا بالعقود غير محلى الصيد ، وأحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم من المحرمات من المطعومات ، وهذا هو ما أخبر الله تعالى به في هذه الآية .

وأما التقرير الذي تضمنته الآية الكريمة فهو :

تقرير أن الوفاء بالعقود ، وحِلَّ بهيمة الأنعام إلا ما استثنى منها أو ما مُنع المحرمُ من صيده ، كل ذلك إنما حرمه الله تبارك وتعالى لأن له وحده حق تشريع النظم والقوانين التي تكفل للمؤمنين صلاح الدنيا والآخرة إن التزموا بها : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ .

● استنباط المواقف التعليمية والتربوية من الآية الكريمة :

توحي هذه الآية الكريمة بعدد من المواقف التعليمية التربوية التي يجب أن يلتزم بها المسلمون في حياتهم وفي تعاملهم مع غيرهم من الناس ، ومن هذه المواقف ما نعدده فيما يلي :

١ - أن المؤمن مطالب من قبل الله عز وجل بأن يفى بكل عقد أو عهد أو شرط ، سواء أكان ذلك مع الله أو مع النفس أو مع الناس ، إذ المؤمن عند شرطه ، وعند كلمته وعند ما وعد به أو ألزم به نفسه ، وأن كل إخلال بشيء من ذلك هو إخلال بالإيمان نفسه وإدخال للنقص عليه .

٢ - وأن ما أحله الله لنا ليس لغيره أن يحرمه علينا ، وما حرمه علينا ليس لأحد غيره أن يحله لنا ، مهما كان ذلك الأحد حاكماً أو كبيراً أو ذا جاه وسلطان ، وأنه ليس لنا أن نفعل ذلك ، لأن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه وتعالى .

٣ - وأن ما استثناه الله مما أحلّه لنا يجب أن نحرمه على أنفسنا دون انتظار سلطة زمنية تحاسب أو تتابع ، ودون خوف أو رهبة ، وإنما يكون استجابة لما أمر الله به وامتناعا عما نهى عنه ، مع اليقين بأن ما يصلح معاش الإنسان ومعاده هو هذا الالتزام .

٤ - وأن بناء الإنسان بناءً صحيحاً روحيًّا وعقليًّا وبدنيًّا واجتماعيًّا ، إنما يكون في ممارسة خلق الوفاء ، وفي التعامل الدقيق مع الحلال والحرام وأن الله تعالى قد حكم بما أراد للإنسان في هذا التشريع من الخير في الدنيا والآخرة .

● وأما استنباط المواقف التعليمية والتربوية من الآية الكريمة في مجال الدعوة إلى الله ، ومجال الحركة الإسلامية في مختلف ميادينها ، فهذه الآية الكريمة توحى لنا في هذين المجالين مجال الدعوة ومجال الحركة بما يلي :

١ - على كل داع إلى الله أن يلتزم الوفاء للدعوة ومتطلباتها إذ الدعوة إلى الله هي سبيل رسول الله ﷺ ، وسبيل من اتبعه من المسلمين ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟

إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

والوفاء للمدعو بحيث لا يدخر وسعاً في هدايته والتنقل به من حال إلى حال أحسن وأرضى الله .

والوفاء لأدبيات الدعوة إلى الله المتمثلة في الالتزام بوسائلها ومراحلها وأهدافها وشروطها وآدابها .

٢ - والوفاء بمتطلبات الحركة الإسلامية وشروطها وآدابها من : حب للاختلاط بالناس وحبهم والتحبب إليهم وتقديم العون لهم ، والقدرة على تصنيفهم والاستجابة لما يحتاج إليه كل صنف منهم وجمع قلوبهم وعقولهم على الالتزام بالإسلام وبحقوق المسلم وواجباته نحو أخيه ، وبحب الخير للناس وتقديمه لهم على كل حال .

٣ - والوفاء بكل ما تتطلبه التربية الإسلامية من مفردات وشروط وآداب إذ لابد لها من توجيه وتخطيط وتنسيق وتوظيف وترشيح وتوريث[2] إذ بغير ذلك لن تستطيع التربية الإسلامية أن تكون الإنسان المؤمن الذي يعمل الصالحات ، إذ التربية الإسلامية هي الصياغة الصحيحة للإنسان المؤمن الصالح القادر على إعمار هذه الحياة ، وعلى التعامل الحسن مع كل ما فيها ومن فيها تعاملاً يحقق للإنسان كرامته التي كرمه الله بها وفضله على كثير من خلقه .

* * *

---

(١) سورة يوسف : ١٠٨ .

(٢) للوقوف على معاني هذه المفردات انظر لنا ص ١١٥ وما بعدها من كتاب : فقه الأخوة في الإسلام - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

الآية الثانية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

● ضوء على معنى الآية ومقاصدها وأثرها في الإنسان :

هذه الآية الكريمة تضمنت عدداً مما نهى الله عنه وتضمنت إباحة ونوعين من الأمر ، وتقريراً .

أما ما نهى الله عنه فقد جاء في الآية الكريمة عدة منهيات عنها هي :

- النهي عن أن يحل الناس شعائر الله وهي فرائضه وحدوده وما أحلّ وما حرّم ، ومنها مناسك الحج : ﴿ **لا تحلوا شعائر الله** ﴾ .
- ونهيهم عن أن يحلوا القتال في الشهر الحرام ، والشهر الحرام يشمل الأشهر الحرم كلها وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب : ﴿ **لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام** ﴾ .
- ونهيهم عن أن يحلوا الهدى ، وهو ما يهدى إلى البيت الحرام للتوسعة على العاكف فيه والباد ، تقربا بذلك إلى الله ، فنهاهم عن أن ينزعوا من هذا الهدى قلائده التي يقلد بها حتى يعرف فلا يتعرض له ، أو نهاهم عن أن يحلوا الهدي مقلداً

أو غير مقلد : ﴿ **ولا الهدي ولا القلائد** ﴾ .

ونهاهم عن قتال من يقصدون البيت الحرام ، لأن البيت الحرام حَرَمٌ آمن لكل من قصده ودخله ، مهما كان أولئك الذين يؤمون البيت الحرام حُجَّاجاً أو طلاب تجارة وربح : ﴿ **ولا آمين البيت الحرام** ﴾ .

- والنهي عن العدوان على أحد في الأشهر الحرم ، ولا في الأماكن التي حرم فيها القتال مهما كان هؤلاء قد صدوكم عن المسجد الحرام في الماضي – أي في يوم الحديبية – أو يصدوكم في أي وقت آتٍ ، فمهما كرهتموهم لذلك فأنتم منهيون عن الاعتداء عليهم ، إلا إذا قاتلوكم في الحرم فلكم قتالهم – كما دلت على إباحة هذا القتال الآية الكريمة التي تقول : ﴿ **وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ** ﴾ أما النهي عن العدوان على أحد في الأشهر الحرام فقد تضمنته الآية التي نحن بصدد شرحها وهي : ﴿ **ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا** ﴾ .

- والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان ، والإثم : المعصية أو الذنب ، والعدوان : تجاوز حدود الشرع والعرف في المعاملة والخروج عن العدل فيها : ﴿ **ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ .

- **وأمّا الإباحة**: فهي إباحة الصيد لمن خرج من إحرامه بالحج أو العمرة وأنهى مناسكه ، وخرج من أرض الحرم إن كان في حاجة إلى هذا الصيد ، حيث كان هذا الصيد محرماً على المحرم فإذا أحل فقد رفع عنه الحظر : ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ أي تحللتم من إحرامكم .

- **وأما الأمر** في الآية الكريمة فقد تناول شيئين :

- الأمر بالتعاون على البر والتقوى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ والبر : هو التوسع في فعل الخير ، والتقوى : هي إتقاء كل ما يضر صاحبه في دينه ودنياه ،

فعلا كان ذلك أو تركاً أو كلاماً أو صمتاً عن قول الحق في موطنه .

● والأمر الواضح الصحيح بتقوى الله على كل حال : ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي اتقوا أيها المؤمنون ربكم بالسير على منهجه الذي بينه لكم فيما أحل وما حرم في كتابه وعلى لسان نبيه ، لكيلا تستحقوا عقابه الذي يستحقه كل من خالف منهجه وأعرض عن هداه .

● **وأمّا التقرير** : فهو تأكيد أن الله تبارك وتعالى شديد العقاب لمن خالف أمره وجانب تقواه ولم يتبع شرعه ويراع سننه في خلقه ، ولم يلتزم منهجه الذي نظم به حياة الناس : ﴿ **إن الله شديد العقاب** ﴾ فهو لا يحابي أحدًا في ذلك وكل من زعم هذه المحاباة فهو كاذب ، لأن من استحق عقاب الله فقد استحقه لخروجه عن أمره وإضراره في ذلك الخروج بنفسه وبغيره ، وترك هذا المخالف دون العقاب الشديد إضرار بالمخالف وبالمجتمع الذي يعيش فيه بل بمستقبل هذا المجتمع ، وهذا العقاب منه ما هو دنيوي تكفلت به نظم الحدود الشرعية - وهي العقوبات المقدرة - ومنه ما هو أخروي يجزى به مستحقه يوم القيامة .

ومن المسلم به أن الأفراد أو المجتمعات لا يستقيم لهم أمر إلا إذا كانت هناك مثوبة دنيوية أو أخروية للملتزم بالمنهج وعقوبة دنيوية أو أخروية للخارج عليه .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآية الكريمة :

١ - شعائر الله وهي فرائضه وحدوده ، وكل ما أمر به أو نهى عنه يجب أن تراعى بغاية الدقة والاحترام ، بحيث لا يترخص أحد في شيء منها مهما بدا صغيراً أو بسيطاً أو هيّناً - ولو كان قلادة تعلق على بعير - لأن صغار المخالفات تجر إلى كبارها ، ومن المسلّم به بيننا معشر المسلمين أن مقدمات الذنوب ذنوب فما بالنا بصغار الذنوب : ﴿ **لا تحلوا شعائر الله** ﴾ .

إن تربية الرجال المؤمنين تستدعي أن يوصد كل رجل أمام نفسه باب المعصية وباب التساهل والاستهانة بأي ذنب مهما صغر ، إن تلك هي الشخصية الإسلامية القادرة على بناء الحضارة الإسلامية في كل مجال .

٢ - ومن شعائر الله التي حرم في هذه الآية أمور هي :

- تحريم القتال في الأشهر الحرم إلا إذا قوتل المسلمون فيها .
- وتحريم التعرض للهدى والقلائد .
- وتحريم التعرض لمن قصدوا البيت الحرام حتى لو كانوا قد قصدوه للتجارة لا للنسك .
- وتحريم التعاون على الإثم والعدوان .

والالتزام بالامتناع عن هذه المحرمات هو تربية للرجال على الطاعة والامتثال ، وفي هذا صقل لشخصية المسلم وإنضاج لها ، وتعويد على التسامح وتناسي الإساءة وبخاصة في البيت الحرام والأشهر الحرم ، وتبصير وتوعية للمسلمين بأنه لا يجوز أن يتم بينهم تعاون على إثم أو عدوان وهذا يوضح للمسلم دائماً أهدافه ووسائله في التعامل مع الناس والأحداث .

٣ - وأن التعاون على البر والتقوى مطلب مأمور به دائماً ، وذلك أن حياة البشر على هذه الأرض لا تستقيم ولا تعطى عطاءها إلا إذا كان بين الناس تعاون على البر والتقوى فذلك الذي يصلح لهم معاشهم ومعادهم .

ومن هذا نتعلم أن العمل الإسلامي كله في مجالاته العديدة لا يتم ولا ينمو ولا يركو ولا يستطيع أن يحقق أهدافه إلا أن يتعاون عليه المؤمنون[1] .

ويكمل التعاون على البر والتقوى التعاون على دفع واتقاء كل ما يضر الناس في دينهم ، ودنياهم ، فلولا هذا التعاون على اتقاء الشرور ما سُدَّ باب شر فتحه الأعداء على الإسلام والمسلمين ، ولا زالت عقبة من العقبات الكثيرة المبثوثة في طريق العمل الإسلامي .

٤ - وأن تقوى الله مطلب مستمر على كل حال وفي كل حين ، لأن تقوى الله تعنى اتقاء غضبه وعقابه ، ولا تكون هذه التقوى إلا بالإيمان والعمل الصالح والالتزام بالمنهج .

---

(١) للتوسع : انظر لنا : فقه الأخوة في الإسلام - نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م .

والإنسان المتقي لله هو أصلح الناس لممارسة الحياة الإنسانية الكريمة النظيفه ، وهو أقدر الناس على زرع الخير ومقاومة الشر ، وحسبه نجاحاً في هذا وذلك أن الله تبارك وتعالى : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1] ولا تسأل كيف يكون ذلك ؟

ولكن استمع إلى الآيات الكريمة التالية في عاقبة التقوى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾[3] .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[4] .

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾[5] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[6] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ... ﴾[7] .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[8] .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[9] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[10] .

---

(١) سورة النحل : ١٢٨ .
(٢) سورة يوسف : ٩٠ .
(٣) سورة الطلاق : ٤ .
(٤) سورة الطلاق : ٢ .
(٥) سورة الطلاق : ٥ .
(٦) سورة الأعراف : ٩٦ .
(٧) سورة الأنفال : ٢٩ .
(٨) سورة البقرة : ١٩٤ .
(٩) سورة البقرة : ٢٨٢ .
(١٠) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

إن المسلمين اليوم بحاجة إلى رجال متقين صالحي الأعمال ، يجرى الله على أيديهم الخير ، ويعمرون الأرض بالإيمان والعلم والعمل والأخذ بكل الأسباب التي شرعها الله وطالب بالأخذ بها ، لبناء الحضارة من جانب ، ولمواجهة أعداء الإسلام والمسلمين الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم من جانب آخر والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

● **وأما استنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية ففي هذه المواقف وهي :**

١ - **على العاملين في مجال الدعوة إلى الله - وهم من المؤمنين الصالحين ، ولا نزكي** على الله أحداً ولكننا نحسبهم كذلك - **أن يتلطفوا بالمدعوين مهما حاول هؤلاء** المدعون أن يصدوا أنفسهم أو غيرهم عن الحق ، وأن يضعوا في طريق الدعاة العقبات والعراقيل ، وألا تحملهم كراهية من يضعون أمامهم العراقيل على تحديهم أو معاملتهم بالمثل ، إذ الأصل في الداعي إلى الله أن يكون حليماً واسع الصدر يرد السيئة بالتي هي أحسن ، تجاوباً مع قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ .

ذاك أدب الدعوة وخُلق الدعاة إلى الله .

٢ - وعلى العاملين في مجال الدعوة والحركة أن يتعاونوا فيما بينهم على البر بالمدعوين وبمن يتحركون إليهم بالإسلام من الناس ، في كل ما شأنه أن ييسر لهم فهم الإسلام ويجمع قلوبهم على حبه والتمسك به ، والمعرفة الجيدة بأولياء الإسلام وأعدائه والاستعداد للتعامل معهم بنهج الدعوة إلى الله وأسلوب الحركة في سبيل

---

(١) سورة الحشر : ١٨ .

الله ، فإن ذلك هو التعاون على البر والتقوى ، ولأن نكسب عدوا يتحول إلى صفوف الموالين خير لنا وللإسلام من أن ندعه يناصبنا العداء !! إننا مطالبون بالبر به – والبر كما قلنا هو التوسع في فعل الخير ، ولا برَّ أفضل من تحول العدو إلى وليّ فإن لم نستطع حولناه إلى رجل يكف عنا عداءه ، فإن لم نستطع حولناه إلى رجل أقل عداء لنا ، مما كان عليه ، ذلك هو الفقه الصحيح للدعوة والحركة والتربية الإسلامية ، بل ذلك هو الفقه الصحيح للإسلام كله : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1] .

أما البر بالأولياء فعلامة النجاح فيه أن يزداد الولي ولاء لربه ودينه وأمته الإسلامية التي ينتمي إليها .

٣ – وعلى الدعاة إلى الله والمشغولين بالحركة الإسلامية وبكل مفردات العمل فيها ، وعلى المشغولين بالتربية الإسلامية أن يكونوا دائماً على تقوى من الله في هذه الأعمال .

والتقوى في هذه الأعمال تقتضي التحلي بالصفات التالية :

- مراقبة الله تعالى في كل عمل أو ترك وفي كل قول أو صمت .
- والتواصي بالحق والاستمرار على نشره في الناس .
- والتواصي بالصبر على متاعب الدعوة والحركة والتربية وعلى متاعب الناس الذين تشملهم الدعوة والحركة والتربية .
- والدعاء وطلب النصر والتأييد والثبات على الحق من الله تبارك وتعالى ، واحتساب الأجر عنده على كل ما يصيب العاملين في الحقل الإسلامي من ضرر مادي أو معنوي ، إذ تلك سنة الله تبارك وتعالى في الذين يعملون في سبيل دعوته يبْتليهم ليزدادوا إيماناً على إيمانهم !!!

* * *

(١) سورة فصلت : ٣٤ .

الآية الثالثة

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

الخطاب في هذه الآيات للمؤمنين كالآيتين السابقتين ، لأن الضمير في ﴿ **عليكم** ﴾ من : ﴿ **حرمت عليكم** ﴾ خطاب للمؤمنين الذين خوطبوا بالوفاء بالعقود في الآية الأولى وخوطبوا بالنهي عن أن يحلوا شعائر الله في الآية الثانية .

والخطاب للمؤمنين في هذه الآية الثالثة من السورة الكريمة يتضمن : أخباراً ، ونهياً وأمراً ، وتقريراً .

ــ أما الأخبار فهي :

- إخبار الله المؤمنين بما حرم عليهم من المطعومات وهي : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما ذبح لغير الله ، والمنخنقة ، والموقوذة[1] ، والمتردية[2]، والنطيحة[3]، وما أكل السبع[4] . وما ذبح على النصب[5] ، كل هذه مما يحرم أكلها .
- وإخبارهم بما حُرّم عليهم من العادات الراذلة الداخلة – في الغالب – في الخرافات

---

(١) التي ضربت بغير محدد حتى ماتت .
(٢) التي تقع من علو فتموت .
(٣) التي تنطحها أخرى فتموت .
(٤) التي قتلها السبع ليأكلها .
(٥) أي البهيمة التي ذبحت على نصب آلهة المشركين التي كانوا ينصبونها لآلهتهم للعبادة والذبح عندها .

وهي :

الاستقسام بالأزلام[1] أن يطلبوا من الأزلام عِلْمَ ما قسم لهم في الغيب أوترجيح بعض على بعض كما كان يفعل أهل الجاهلية .

قال العلماء : كانت الأزلام ثلاثة :

كتب على أحدها : أمرني ربي ،

وعلى الثاني : نهاني ربي ،

والثالث : غُفْل ليس عليه شيء .

فإذا أراد أحدهم سفراً أو زواجاً أو أي أمر ، وضعوا هذه الأزلام في وعاء ، ثم أجال هذه الأزلام ووضع يده يخرج أحدها فإن خرج له الزلم المكتوب عليه : أمرني ربي مضى لما أراد ، وإن خرج له الزلم المكتوب عليه : نهاني ربي أمسك عن ذلك ، وإن خرج الغُفل الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام .

- وأخبرهم سبحانه وتعالى في هذه الآية بأن تناول شيء مما حرم الله من المطعومات ، أوعمل شيء مما نهى الله عنه من العادات الجاهلية فسق وخروج عن الحق والهدى وطاعة الله تبارك وتعالى وحسب الفاعل لشيء من ذلك خساراً أن الله تبارك وتعالى صرح في كتابه بأنه لا يهدى القوم الفاسقين ، وأنه لا يرضى عن القوم الفاسقين ، وأنه يخزي الفاسقين ، وأنه ما يكفر بالآيات التي أنزلها على خاتم رسله محمد ﷺ إلا الفاسقون بكل معنى من هذه المعاني وردت آية قرآنية كريمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[2] .

وقال عز وجل : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[4] .

وقال جل شأنه ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[5]،

---

(١) جمع زلم وهو قطعة خشبية يكتب عليها أمر أو نهي أو تترك دون كتابة .

(٢) سورة المائدة : ١٠٨ . (٣) سورة التوبة : ٩٦ .

(٤) سورة الحشر : ٥ . (٥) سورة البقرة : ٩٩ .

والآيات في ذلك كثيرة .

- وأخبرهم بأنه سبحانه وتعالى قد أعزهم بهذا الدين وهيأ لهم من الإيمان به وإعزازه ما جعل الكفار ييأسون من زوال دين الإسلام أو القضاء عليه كما يؤملون ويرجون ، والمفسرون يرون أن اليوم في قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ﴾ هو يوم عرفة الذي حج فيه رسول الله ﷺ ،ولكن ذلك لا يمنع أن يطلق على أي يوم بعد ذلك من الأيام التي نصر الله فيها المسلمين وأيد بهم الإسلام .

- وأخبرهم جل شأنه بأنه أكمل لهم هذا الدين وأتمه ورضيه للبشرية كلها دينا تدين به وتعمل وفق منهجه في الدنيا وتلقى الله على الإيمان به في الآخرة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

وإكمال الدين هو إكمال العقيدة والشريعة ، لأن الدين عقيدة وشريعة ، وبهذا الإكمال لم يعد الدين بحاجة إلى زيادة من عند الله ، فضلاً عن أن تكون هذه الزيادة من عند غير الله ، ولم يعد أحد قادراً على أن ينقص من هذا الدين شيئاً كائنا من يكون هذا الأحد ، وكائنا ما يكون هذا الشيء ، ومع هذا الكمال والتمام نفي عن هذا الدين وصفه بمحلية الزمان والمكان، وحلت محلها العمومية والشمول والعالمية ، ومخاطبة الإنسانية كلها بهذا المنهج العظيم .

- وأخبرهم سبحانه وتعالى بأنه قد أباح لهم عند الضرورة الطعام مما حرم عليهم ، بشرط ألا يكون هناك جور أو ميل في التعامل مع هذا الاضطرار أو هذه الضرورات ، عندئذ لا إثم على المضطر ، لأن الله تبارك وتعالى يغفر في مثل هذه الظروف ويرحم : ﴿ **فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

— **وأمـا النهـي :**

فهو نهي المؤمنين عن خشية أحد غير الله ، سواء أكان هؤلاء الذين قد تتسرب

الخشية منهم إلى نفوس المؤمنين كافرين يتحدون الإسلام صراحة ، أم معاندين يتحدونه ببث العراقيل وإثارة الأباطيل والشبهات ، هؤلاء جميعاً ما ينبغي أن يخافهم المؤمنون لا على أنفسهم ولا على الدين ذاته ، لأن الله لن يمكنهم من ذلك مادام المؤمنون لم يتخلوا عن شيء من عناصر إيمانهم ، لأنه سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بالنصر ووعده الحق : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ هذا هو النهي الصريح عن خشية غير الله في هذه الآية الكريمة .

ــ أما الأمــر :

ففي قوله تبارك وتعالى : ﴿ **واخشون** ﴾ حيث أمرهم بخشيته وحده .

والخشية خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن عِلْمٍ بما يُخشى منه ، ولذلك اختص العلماءُ بهذه الخشية من الله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2]، لأنهم يعلمون ويعرفون ما يخشى وهو الله تبارك وتعالى ، كما أن الدعاة إلى الله وهم في الغالب من العلماء ينطلقون في دعوتهم وعملهم من حقيقة أنهم : ﴿ .... يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾[3] .

والذين يخشون الله إنما يصلون بهذه الخشية إلى الفوز – والفوز هو الظفر بالخير مع حصول السلامة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الروم : ٤٧ .
(٢) سورة فاطر : ٢٨ .
(٣) سورة الأحزاب : ٣٩ .
(٤) سورة النور : ٥٢ .

وأمــا التقــرير :

فهو تقرير أن الله سبحانه وتعالى غفور لكل من اضطر أن يأكل مما حرم الله عليه من المطعومات بهذه الشروط التي ذكرنا آنفاً والتي هي :

- أن تكون هناك مجاعة .
- وأن لا يكون مائلا إلى أن يطعم منه .
- وألا يكون متجاوزا قدر الضرورة .

وفي ظل هذه الشروط إذا توفرت فإن الآية الكريمة تقرر بل تؤكد أن الله غفور لمن فعل هذا رحيم به : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

تلك أضواء كاشفة لما تضمنته الآية الكريمة من معانٍ ومقاصد أرجو أن تكون قد وضحت للقارىء الكريم .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآية :

١ – على المؤمن أن يوقن بأن ما حرم الله من المطعومات هو ما يترتب الضرر على تناوله ، الضرر في المادي والمعنوي ، لأن الله تبارك وتعالى لا يحرم علينا إلا ما فيه ضرر بنا ، وتناول أي شيء من هذه المطعومات يلحق ضرراً بالبدن كالميتة والدم .. إلخ .

وتناول أي شيء مما ذبح لغير الله يلحق ضرراً بالروح .

وممارسة شيء مما لا يقبله الشرع أو العقل يلحق الضرر بالعقل ؛ كالاستقسام بالأزلام ونحوها ، حيث يفسح ذلك العمل المجال لسيطرة الخرافة على العقل ، فيضيع .

وهذا يعلمنا أن نترك كل ما يلحق الضرر بأبداننا وأرواحنا أو عقولنا مما لم ينص عليه إذا تيقنا من ضرره ، إذ الأصل عندنا هو قول النبي ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار » .

٢ – ونتعلم من الآية الكريمة أن نترك ونرفض كل قول أو فعل لا يقصد به وجه الله تبارك وتعالى ، وأن نرفض من المأكولات كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، لأنه صار بترك التسمية خبيثاً ، وهذا يدعم في نفس المؤمن الإخلاص لله وحده في كل قول أو صمت وفي كل فعل أو ترك .

٣ – ونتعلم من هذه الآية الكريمة الانضباط مع ممارسة ما أحل الله والامتناع عما حرم ، وهذا يبعث في النفوس ثقة في أحكام الإسلام وآدابه ، وكيف لا وكلها من عند الله ؟

وإذا حدثت هذه الثقة انطلق المسلم ينفذ كل صغير وكبير مما أمر الله به ، وينتهي عن كل صغير وكبير مما نهى الله عنه وفي هذا وذاك سعادته في الدنيا والآخرة في الدنيا بتحقيق إعمارها وفي الآخرة بثواب الطائعين .

٤ – ويتعلم المؤمن من هذه الآية الكريمة أن يكون شجاعاً في الحق وفي التعبير عن رأيه – مادام لا يؤذي أحداً – وليس له أن يخشى أحداً في ذلك ، إذ الخشية إنما تكون لله وحده .

٥ – ونتعلم من الآية الكريمة أن أكبر نعم الله علينا هي أن هدانا للإسلام الذي أكمله وأتمه ورضيه لنا دينا ، وأننا في مقابل ذلك يجب أن نعتز بانتسابنا لهذا الدين أكثر من اعتزازنا بأي شيء آخر ، نسب أو صهر أو جاه أو مال ، وهذا الاعتزاز يولد حب هذا الدين وحب التمسك بمنهجه والعمل وفق ما جاء به ، ورفض أي منهج سواه ، لأنه لا كمال ولا تمام في منهج آخر من صنع البشر .

٦ – ونتعلم من الآية الكريمة أن من رحمة الله بنا أن عفا عنا عندما نمارس عملاً مما حرم الله علينا أو كره لنا ما دمنا مضطرين لذلك ، بشرط أن يكون الاضطرار بظروفه التي شرحنا آنفاً من عدم الميل إلى الحرام وعدم تجاوز الحد فيه .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية في هذه الآية الكريمة يوقفنا على ما يلي :

١ – أن نباعد ما استطعنا بين المدعوين إلى الله وبين أن يقارفوا شيئاً أدنى شيء

مما حرم الله لأن صغار الذنوب تفضي إلى كبارها ، وأن نبذل في سبيل ذلك من الجهد والوقت بل المال ما نحتسبه عند الله تعالى يوم القيامة لأننا بذلناه لكي نحول بين الناس وبين الوقوع فيما حرم الله عليهم ، وحسب الدعاة إلى الله نجاحاً وفلاحاً أن يكون المجتمع بعيداً عما حرّم الله ، إنه سيكون مجتمع الطهر والعفة والاستقامة والإنتاج والرشاد .

٢ – وأن على الدعاة والعاملين في حقل الحركة الإسلامية أن يكون رائدهم في القول والفعل والصمت والترك الإخلاص لله تعالى وابتغاء وجهه ، وأن يكون لديهم من الورع في التعامل مع الناس ما بمثله ينجحون في نقلهم من حال إلى حال أحسن وأرضى لله تعالى ، فالإخلاص والورع من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها الدعاة إلى الله ، فقد روى البيهقي في الشعب بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ملاك الدين الورع » .

٣ – ويتعلم العاملون في الحقل الإسلامي من هذه الآية ألاّ يتهيبوا في الحق أحداً ، وألاّ يخشوا في الدعوة إلى الله سلطاناً ولا ظالماً ، طالما هم ملتزمون بشروط الدعوة وآدابها ، وأن يدعو إلى الله على بصيرة وأن تكون دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

٤ – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن ينظروا إلى المدعوين نظرة الرحمة والعطف ، وأن يتجاوزوا لهم – وهم يدعونهم ويربونهم – عما اضطروا إليه من قول أو عمل ، ماداموا قد أخلصوا النية لله ، ولم يميلوا إلى الإثم أو يتجاوزوا في اقترافه حدود الضرورة ، لأن ذلك هو أدب القرآن وخلق الإسلام .

ومن المعروف أن العمل من أجل الإسلام ذو شعب عديدة وتفاريع كثيرة ، وإن طريقه ذات منعطفات ومنحيات وإن بها من العقبات والعراقيل ما من شأنه أن يحمل السالكين في هذه الطريق على أن يبذلوا أقصى قدر من الجهد ، وأوسع حول وطول ، وأن يتحملوا من التضحيات والمشاق شيئاً كبيراً ، وكل ذلك قد يدعو إلى بعض التقصير أو يصيب ببعض الفتور ، وقد يكون معه بعض الخلل .

ومع كل ذلك فإن القاعدة التربوية القرآنية في مثل هذه الظروف هي التسامح والمغفرة في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾ تلك قيمة تربوية رفيعة ، جديرة بأن تدفع العمل الإسلامي إلى الأمام خطواتٍ وخطوات .

* * *

الآية الرابعة

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى النبي ﷺ ، والحديث في الآية عن تساؤل المؤمنين ماذا أحل لهم ؟ وقد تضمنت الآية الكريمة : سؤالاً وجواباً وأمراً وتقريراً .

أما السؤال :

فهو سؤال المؤمنين للنبي ﷺ عما أحل لهم ؟ بعد أن بينت لهم الآية السابقة ما حرم عليهم ، ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم** ﴾ .

ووجه ورود هذا السؤال ، أنهم التزموا بما حرم الله عليهم في المطعومات والعادات ، فخشوا أن يقعوا في خطأ من ذلك سكتت عنه آية التحريم في مطعوم أو عادة من عادات الجاهلية فكان سؤالهم دليلاً على أن الدرس الإلهي في التحريم قد بلغ من نفوسهم أعمق مبلغ .

أما الجواب :

فقد جاءهم مباشراً ليكونوا على يقين مما أحل الله لهم ، فقال لهم رب العزة : ﴿ **أحل لكم الطيبات** ... ﴾ والطيب ما تستلذه النفس والحواس ، وهذا توسع فيما أحل الله ، إذ قد أحل لهم كل الطيبات وهي أكثر من الخبائث التي حرم عليهم - والخبائث هي كل ما تستقذره النفس ويحمل إلى فاعله ضرراً - وهذا من لطف الله ورحمته بالمؤمنين .

وقد كان العرب أهل صيد وقنص ، وكثيراً ما كانوا يصيدون بالكلاب ،

وما تصيده الكلاب تقتله حتى تعجزه عن الحركة والفرار فهل يعد بحكم هذا القتل ميتة ، وهم قد سمعوا ﴿ **حُرِّمَت عليكم الميتة** ﴾ ولذلك جاء سؤالهم : ماذا أحل لنا عموماً وماذا أحل لنا من هذه الميتة التي صادتها كلاب الصيد ؟

فجاءهم على ذلك التساؤل الجواب ، وهو : ﴿ **وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه** ﴾ .

والجوارح : جمع جارحة وهو الصائدة من الكلاب والفهود والطيور ومكلبين : أي معلمين الكلاب طريقة الصيد ، وهو تعليم ألهمكم الله إياه ، وما صادته هذه الجوارح فهو حلال بشرطه والشرط هو : أن تكون الجارحة معلمة بحيث يكون قتل الجارحة للصيد تذكية له ، وأن تكون الجارحة قد أمسكت الصيد على صاحب الجارحة ، ولم تأكل منه ، فإن أكلت منه لم يكن حلالا لأنه يصبح كالذي أكل منه السبع وهو محرم في الآية السابقة ، وأن يُسمى صاحب الجارحة الله على ذلك وهو يرسل جارحته ، وتكون هذه التسمية بمثابة تذكية له لأن الجارحة قد تقتل الصيد بنابها أو ظفرها وقد روى الشيخان وأحمد بسندهم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أرسلت كلبك المعلَّم فاذكر اسم الله ، فإن أمسك عليه فأدركته حَيًّا فاذبحه ، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله ، فإنّ أَخذَ الكلب ذكاة » .

وأما الأمر في الآية الكريمة فأكثر من واحد :

- فهناك أمر بالأكل مما أمسكت عليهم الجوارح من الصيد ﴿ **فكلوا مما أمسكن عليكم** ﴾ والأمر هنا للإباحة وبيان الحِلّ ، وليس للوجوب .
- وأمر بالتسمية وذكر الله تعالى : ﴿ **واذكروا اسم الله عليه** ﴾ والتسمية تكون عند الإرسال بمثابة التسمية عند الذبح ، وقد تكون عند الأكل ، وقد ذكرت ذلك بعض الأحاديث النبوية الشريفة .
- وأمر بتقوى الله عموماً : ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي اتقوا الله فيما أمركم به ، بأن تأتمروا

به ، وفيما نهاكم عنه بان تنتهوا عنه ، وهو امر يؤكد ان الله وحده هو الامر الناهي المشرع .

وأمـا التقـرير :

فهو تقرير أن الله سبحانه محاسب من أطاع فالتزم ، ومن عصى ففسق عن أمر ربه : ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ ومجاز كل أحد بما قدم من خير أو شر .

ومعنى أن الله سريع الحساب أنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، فلا يحتاج إلى محاولة عدٍّ ولا عقد ، كما يفعل الحاسبون من الناس ، وهذا وجه السرعة .

وربما يكون وجه السرعة في حسابه سبحانه أن حسابه للناس سوف يكون يوم القيامة ، ويوم القيامة قريب .

أو يكون الحساب بمعنى المجازاة ، فكأنه سبحانه قد توعد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوه كما أمرهم .

وهذه الآية الكريمة يتعلق بها حكم شرعي يخص اقتناء الكلاب ، فقد دلت الآية الكريمة على جواز اتخاذ الكلب للصيد – كما ثبت ذلك بأكثر من حديث نبوي شريف بالإضافة إلى هذه الآية الكريمة – ولا يتخذها أحد للصيد إلا إذا كان قد اقتناها ودربها وعلمها مما علمه الله في الصيد .

وهذا الحكم قد جاء بعد حكم آخر للكلاب كان في أول الإسلام حيث كان الأمر بقتل الكلاب ، حتى كان المسلمون يقتلون كلب المُرَيَّة – أي المريئة تصغير المرأة – من البادية يتبعها ، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ومن اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان » وفي رواية قيراط ، وقد جعل النقص من أجر من اقتنى كلباً لغير هذين السببين ، بسبب أن الكلب يروع المسلمين ، أو يزعجهم بنباحه ، أو لنجاسته ، أو لعدم دخول الملائكة بيتاً فيه كلب ، أو لأن متخذ الكلب قد اتخذ ما لا منفعة فيه .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآية الكريمة :

نستطيع أن نتعلم من هذه الآية أموراً تربوية عديدة منها :

١ - أن على المسلم أن يتحرى في أمر دينه حتى لا يقع فيما حرم الله تعالى فيبادر بالسؤال عما لا يعرف كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم .

والسؤال والتحرى في أمور الدين دليل على خشية الإنسان لربه وعلى رغبته في أن يباعد بين نفسه وبين الحرام ، تقرباً بذلك إلى الله تعالى .

ذلك أدب المسلم الذي يتعلمه من القرآن الكريم ، لكن يضاف إلى هذا لتكتمل أبعاد أدب الإسلام في السؤال ، ألا يكون مع السؤال إلحاف ، ولا يكون السؤال عما لم يقع بعد .

٢ - ويتعلم المسلم من هذه الآية الكريمة أن السائل عن شيء مادام قد التزم بأدب السؤال من حقه أن يجد الإجابة عند المسئول دون تسويف أو استهانة بالسؤال ، لأن هذه الإجابة واجبة شرعاً على المسئول إن كان السؤال في دائرة اختصاصه وإلا وقع تحت طائلة الوعيد .

وربما كان هذا الدرس للمسئول أكثر منه للسائل ، والتأمل في التعبير القرآني الكريم : ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات...** ﴾ ﴿ **يسألونك** ﴾... ﴿ **قل ...** ﴾ يدرك ما مدى مسئولية من يؤخر إجابة يعلمها أو هو أهل لأن يسأل عنها .

٣ - ويتعلم المسلمون أن مصدر العلم ومانحه هو الله سبحانه ، مهما بذل الإنسان من جهد في تحصيل علم أو بمعرفة أو وصل إلى اكتشاف لأن ذلك كله من الله منحة وهداية ، وبحسب من يتصور غير ذلك أن يعلم أن الله هو الذي خلق الإنسان ووهبه العقل وفضله به وحمله أمانة التكليف ، ويفهم ذلك ويتعلم من قوله تعالى : ﴿ **تعلمونهن مما علمكم الله** ﴾ .

٤ - ونتعلم من هذه الآية الكريمة أن الله رحيم بعباده يوسع عليهم في مجال العمل

والرزق حين يبيح لهم الطعام من صيد صادته الكلاب او الجوارح مادام قد ذكر اسم الله عليه ومادامت الجارحة معلّمة مما علمنا الله تبارك وتعالى ، إن ذلك لتأكيد لُيُر هذا الدين بالمتدينين به ، وأن الله تعالى لم يجعل على المتدين بهذا الدين من حرج .

٥ - ونتعلم أن تقوى الله مطلوبة على كل حال ، وأنها الرقيب الحقيقي على الإنسان في كل أمره ، فقد طالب الله بها عباده عقب كل التكاليف الشرعية ، فالقيام بأي تكليف ما لم تصاحبه تقوى الله لا يؤدي على صورته الطيبة الجيدة المرضية لله تعالى ، وفي هذه الآية الكريمة قد صاحب طلب التقوى التخويف من سرعة حساب الله تعالى لمن يتقه : **﴿ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾** .

٦ - ونتعلم من هذه الآية الكريمة الثقة في شرع الله عندما يحرم شيئاً أو يحله ، لأنه بهذا التحريم والتحليل يختار لعباده ما يعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة ؛ لأنه خالقهم العليم بما يصلحهم ، فالعاقل الموفق هو من استجاب لكل ما جاء به منهج الله ، والغافل الخاسر هو الذي يتخذ منهجاً آخر في حياته .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في هذه الآية يهدينا بفضل الله إلى ما يلي :

١ - أن الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية ، عليهم - مهما كانت مكانتهم ومهما كان علمهم وخبرتهم - أن يسألوا غيرهم ممن سبقوهم في مجالي الدعوة والحركة ، وذلك أدب العمل من أجل الإسلام ، والسائلون لأهل الخبرة على خير دائماً بهذا السؤال ، لأنهم إما أن يجدوا عند المسئول ما يؤكد لهم سلامة عملهم وصدق توجههم ، وإما أن يجدوا اقتراحا بتبديل أو تعديل أو ترشيد ، وفي كل خير .

٢ - وأن الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية مطالبون باعتماد لغة الحوار بينهم وبين من يدعونهم ، لأنها اللغة الناجحة في تربية الناس وتعليمهم ما ينفعهم مع ما فيها من احترام الرأي الآخر وتقديره وتقدير صاحبه ، وهذا الحوار من صوره

السؤال والجواب ، السؤال في ظل أدب السؤال في الإسلام والجواب في ظل حرص الداعية الشديد على أن يزيل من نفس من يدعوه أي لبس أو شبهة أو غموض .

٣ – وعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يكونوا رفقاء بالمدعوين ، لأن الله تبارك وتعالى رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، ومادام رأس الدعوة إلى الله هو الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ورأس الحركة من أجل الإسلام هو التودد إلى الناس بحيث يكون الداعية مألفا أي يألف الناس ويألفه الناس ، ومادام الأمر كذلك فليس لواحد من الدعاة أو العاملين في الحركة الإسلامية أن يفارقه الرفق أو تفارقه صفة التودد إلى الناس روى أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : قالت رسول الله ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله » .

وروى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « عليك بالرفق ، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » .

وروى الدارقطني في الافراد بسنده عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس » .

* * *

الآية الخامسة

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

لا يزال الخطاب في هذه الآية موجهاً للمؤمنين الذين خاطبهم الله تعالى في أول السورة بقوله سبحانه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ... ﴾ وحرف الخطاب الدال عليهم في هذه الآية هو : « الكاف » في قوله تعالى : ﴿ **اليوم أحل لكم** .. ﴾ .

وهذا الخطاب للمؤمنين في هذه الآية يتضمن أخباراً عديدة وتقريراً هامًّا فاصلاً .

ــ أما الأخبار العديدة فنذكر منها ما يلي :

- إخبار المؤمنين بأن الله قد أحل لهم الطيبات جميعاً ، والطيبات – كما قلنا هي – ما تستلذه النفوس والحواس عند ذوى الفطرة السليمة ، ونحن نعرف أن كل حلال طيب ، كما أن كل حرام خبيث ، ويفهم من هذا أن كل طيب حلال وأن كل خبيث حرام : ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات** ﴾ والمقصود هنا هو استثناء ما كان يأكله أهل الجاهلية من الميتة ونحوها ، ويدخل في هذا الاستثناء ما كان يذبحه المشركون لغير الله ، وأما غير ذلك فحلال مادام طيباً وحرام مادام خبيثاً .

- وإخبار المؤمنين بأن طعام أهل الكتاب حلال للمؤمنين وأن طعام المؤمنين حلال لأهل الكتاب ، وأهل الكتاب في الأصل هم أهل توحيد ، ثم سرت إليهم نزعات الشرك من مخالطتهم المشركين وترك التحرز من أنواع شركهم وأدرانه ، وكان المتوهَّم أن يعامل المؤمنين أهل الكتاب كما يعاملون المشركين في المؤاكلة فأباح الله

للمؤمنين طعام أهل الكتاب في هذه الآية : ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم** ﴾ .

والطعام المقصود حله في هذه الآية هو الذبائح واللحوم ، لأن غيرها كالطيور ، غير الجارحة - والحبوب والفواكه حلال بحكم قاعدة أن الأصل في الأشياء الإباحة ، وليست هذه الأشياء محل تحليل أو تحريم ، وإنما الحيوان واللحوم هم اللذان يعرض لهما ذلك لوصفٍ حِسّي فيهما كالموت وما في معناه ، أو لوصف معنوى كذبحه لغير الله .

- وإخبار المؤمنين بأن الله أحل لهم الزواج بالمحصنات - أي العفيفات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب .

وللعلماء في تفسير كلمة المحصنة آراء منها ما ذكرناه من أنها العفيفة ، وقال بعضهم العفيفة العاقلة ، وقال آخرون : هي التي تحصن فرجها فلا تزني وتغتسل من الجنابة .

وهؤلاء حل للمؤمن بشرط دفع المهر ، وبشرط أن يكون الزوج محصناً غير مسافح أي زان ولا متخذا خدينة ، وأن تكون المرأة كذلك ، لأن الأصل في الزواج أن يعف كل من الزوجين الطرف الآخر .

والسفاح أن تكون المرأة لأكثر من رجل ، والمخادنة أن تكون المرأة لخدين أي صاحب من غير زواج .

فالطيبات من النساء المؤمنات أو من نساء أهل الكتاب هن العفيفات الحرائر ، وتلك مسامحة من الإسلام ليست في دين سواه .

وأمـا التقـــرير :

فهو أن من خالف عن أمر الله تعالى ونظامه في أكل الطيب من الطعام وتزوج الطيبات من النساء كان كافراً بما أنزل الله من نظام ، فيحبط عمله في الدنيا ويكون من الخاسرين في الآخرة : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ أي أن الذي ينحرف عن الإيمان فهو يكفره ويستره ويجحده ،

ومن جحد الإيمان بطل عمله وأصبح ردا عليه لا يقبل منه ولا يقر عليه ، فضلاً عما يناله في الآخرة من خسران .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآية الكريمة .

توحي لنا هذه الآية الكريمة بمواقف تربوية كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ - اليقين بأن الله تبارك وتعالى وقد أكمل هذا الدين وأتمه ورضيه للبشرية كلها ديناً ، وسع على المؤمنين دائرة الحلال في مجال الاحتياجات الأساسية للإنسان كالطعام والزواج فأباح كل طيب من الطعام وأباح الزواج من المحصنات من أهل الكتاب - على نحو ما أوضحنا آنفاً .

وهذا يعلمنا أن المؤمن محاط دائماً برعاية الله وعنايته ، وبمنهجه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي ينظم له كل مرافق حياته ، ويستجيب لكل حاجاته في إطار أن تكون حاجات مشروعة ، وهذا يعني أن يقبل كل مؤمن على هذا المنهج يتمسك به ولا يرضى به بديلاً ، مهما زيّف أصحاب المناهج الأخرى مناهجهم وأحاطوها بهالة من التزويق والتحسين .

٢ - والتأمل الواعي في أن الله سبحانه قد أحل للمسلمين طعام أهل الكتاب ، كما جعل طعام المؤمنين حلالاً لأهل الكتاب ، حيث يفضى هذا التأمل إلى الاقتناع بأن هذا الدين الخاتم يؤكد إنسانية المنهج الإسلامي في الحياة ، بل يؤكد عالميته ، إذ يتيح للمسلمين أن يكوّنوا مجتمعهم المؤمن الملتزم بالمنهج ، وهم يتعاملون مع أهل الكتاب يزورونهم ويستضيفونهم ويأكلون طعامهم ، ويطعمونهم مما يأكلون ، لأن أهل الكتاب أهل توحيد في الأصل ، ومهما خرج منهم من خرج عن هذا التوحيد وحرّف كتابه ، فإن وجودهم في المجتمع المسلم تحت ظله لا يحرمهم من أن يلقوا أحسن المعاملة من المسلمين .

والموقف الذي نتعلمه من ذلك أن التعامل مع من يختلفون معنا في الدين هو حسن المعاشرة إلا إذا حدث نقض لعهد أو عدوان ، غير أن حسن المعاشرة لا ينبغي أن تؤدي إلى اتخاذهم أولياء ونصراء لأن ذلك منهى عنه كما سنبين ذلك

في الآية الحادية والخمسين من هذه السورة الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...... ﴾ الآية .

٣ – وعلى المسلم أن يتدبر في منهج الإسلام في الحياة وممارسة ضرورياتها وحاجياتها بل كمالياتها ، فسوف يجد من خلال هذا التدبر أن الإسلام هو دين الحياة الصحيحة الفاعلة المنتجة ، وعليه أن ينظر في مكانة الزواج من هذا المنهج إذ يعتبره من صميم التدين بل يعتبره نصف الدين أو نصف الإيمان ، روى الطبراني في الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان ، فليتق الله في النصف الباقي » فمن استطاع الزواج من المسلمين فلم يتزوج فقد خالف الإسلام ، ورغب عن سنة النبي ﷺ ، وفي ذلك تطهير للمجتمع من عبث العابثين وفساد المفسدين .

وقد وسع منهج الإسلام دائرة الزواج للرجل ، فأباح له التزوج من المحصنات من الذين أوتوا الكتاب بالإضافة إلى المحصنات من المؤمنات .

وعلى كل مسلم أن يتعلم من ذلك كيف ينضبط مع المنهج في التعبير عن غرائزه وفطرته التي فطره الله عليها من خلال ما أحل الله .

٤ – وعلى المسلم أن يستيقن أن المنهج الذي أنعم الله به على أمة الإسلام هو الذي يحق لها خير الدنيا والآخرة ، وأن الالتزام بهذا المنهج هو الترجمة الحقيقية للإيمان ، وأن الخروج عليه كفر بما أنزل الله على خاتم رسله عليه الصلاة والسلام .

ويتعلم المسلم من ذلك أن الخروج على شيء من هذا المنهج هو تمرد ورفض لشرع الله وما قدّم لعباده من نظام وفي ذلك خسران للدنيا لأنها لا تستقيم بغير هذا المنهج وخسران للآخرة لعصيان الله تعالى فيما أمر ، واستحقاق للعقاب الأخروي ، والعياذ بالله من ذلك كله .

● وأما استنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة إلى الله والحركة بهذا الدين وما تستلزمه من مفردات .

فنستطيع أن نتعلم من هذه الآية الكريمة في هذين المجالين ما يلي :

١ – أنَّ مبنى هذا الدين على اليسر والتسامح ، لكثرة ما أحله الله للمسلمين من مطعم ومشرب ومنكح ، ومعنى ذلك أن التشدد في الدعوة إلى الله مخالف لروح الإسلام ومقاصده ، ومعنى ذلك أن يقبل الداعية من المدعو نوعاً من البساطة والمياسرة ، وأن يصبر عليه حتى يستقيم على الجادة .

وأن ينظر العاملون في مجال الحركة الإسلامية إلى العمل على أنه يسر لا عسر وتبشير لا تنفير ، وقبول لكل عمل صالح يتمكن منه الأفراد مهما كان قليلاً أو جزئياً ريثما يصبح العمل الحركي على صورته المتكاملة بمضي الوقت وتطاول الزمان .

٢ – وعلى الدعاة إلى الله وأهل الحركة الإسلامية أن يتعلموا من حل طعام أهل الكتاب وحل طعامنا لهم ، وحل التزوج من الكتابيات وفق ما جاء في الآية من شروط ، عليهم أن يتعلموا من ذلك أن التعامل مع أهل الكتاب مبني على اليسر وحسن المعاملة ، وأن معاداتهم لأنهم أهل كتاب غير جائزة شرعاً ، وكل ما يحظر في التعامل مع أهل الكتاب هو اتخاذهم أولياء على نحو ما بينا آنفاً وعلى نحو ما سنوضح فيما بعد ، وفي الآية الكريمة : ﴿ **وطعامكم حل لهم** ﴾ إشارة إلى أن الحاجة قد تكون ماسة إلى مخالطة أهل الكتاب .

٣ – ويتعلم الدعاة إلى الله من الآية الكريمة أموراً في غاية الأهمية منها – كما نص على ذلك بعض المفسّرين – ما يلي :

- أن أهل الكتاب وإن حلت مخالطتهم ومؤاكلتهم والتزوج منهم ، إلا أنهم يعدون ببقائهم على دينهم بعد أن جاء محمد ﷺ بالدين الخاتم كافرين يحبط عملهم بهذا الكفر ويستحقون عقاب الله في الآخرة .
- وأن المؤمنين الذين لا يتقيدون بما أحل الله وما حرم هم في حالة إحباط للعمل لكفرهم بما أنزل الله بتعطيله وترك التقيد به ، وذلك خسران في الدنيا والآخرة .
- والتحذير الشديد للمدعوين من ترك شيء مما يقتضيه الإيمان وإلا

تعرضوا لحبوط العمل ، والترغيب في ممارسة كل صغير وكبير مما جاء به الرسول ﷺ .

٤ - وأن يهتم الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية بأن يربطوا للناس بين الدنيا والآخرة ، وأن يقنعوهم بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء ومتاع زائل ، وأن الآخرة هي الحياة الباقية أبداً والمتعة المستمرة أبداً إذا التزم الناس بمنهج الله ومفرداته ، واتبعوا ما يتطلبه الإيمان من عمل صالح .

الآيـة السادسة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

- النداء على الذين آمنوا يوضح استمرار الخطاب لهم من أول هذه السورة الكريمة حتى هذه الآية ، وهو سبحانه ينادي عليهم ليعلمهم الطهارة الحسية لاستباحة العبادات ، ليكون بذلك قد أتم نعمته عليهم .

ويتضمن هذا الخطاب تشريعاً يوضح كيفية الطهارة ، وأكثر من أمر وأكثر من خبر ، ولتوضيح ذلك نقول :

ـــ أما البيان الذي يوضح كيفية الطهارة فيتناول ما يلي :

- وجوب الطهارة على من أراد الصلاة ، لأن الطهارة شرط في صحة الصلاة ، والطهارة البدنية من الحدثين الأصغر والأكبر ، مع بيان كيفية الوضوء : ﴿ **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ .
- وبيان أن من كان جنباً أو مريضاً أو مسافراً أو فقد القدرة على استعمال الماء ، أو لم يجده أصلاً ، فقد شرع الله له التيمم ليجزئه عن الغسل إن وجب عليه الغسل ، وعن الوضوء إن وجب عليه الوضوء ، ثم بين كيفية التيمم : ﴿ **وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط**

فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ .

- وبيان أن هذا التشريع مما يسر الله به على عباده وخفف عنهم : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ﴾ فليس في كل أمور الدين والتدين شيء يدخل الإنسان في حرج من أمر نفسه أبداً ، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

ـ وأما الأمر ، فقد تناول أكثر من واحد :

- فهناك أمر بالوضوء ، وتحديد للأعضاء الواجب غسلها من الجسم والواجب مسحها .
- وهناك أمر بالتيمم في ظروف بعينها يمكن إجمالها في وجوب التيمم عند وجوب الغسل أو الوضوء مع فقد الماء حقيقة لعدم وجوده أو فقده حكماً لعدم القدرة على استعماله ، أو خشية خروج وقت الصلاة عند بعض الفقهاء انتظاراً للماء .

ـ وأما الخبر فقد تناول أموراً :

- **الأول** : إخبار المؤمنين بأن الله سبحانه يخفف عنهم ولا يدخلهم بهذا الدين في حرج أو مشقة .
- **والثاني** : إخبارهم بأن الله تعالى بهذا التشريع من وضوء وغسل وتيمم تطهير المؤمنين تطهيراً حسياً وتطهيراً معنوياً ، الحسي بطهارة البدن والمعنوي بطهارة الروح .
- **والثالث** : إخبارهم بأن هذه النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين من هذه التشريعات الميسرة ، التي لا حرج فيها على أحد ، إنما كانت رجاء أن يشكر الناس ربهم على تلك النعم ، فينالوا بهذا الشكر ثوابه ، بعد أن نالوا بهذا التخفيف رحمته .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآية الكريمة :

١ – أن التطهر الحسى من الحدثين الأصغر والأكبر للوقوف بين يدي الله في الصلاة أو غيرها من العبادات ، يستتبع تطهراً معنوياً لا يقل أهمية عنه ، ذلك التطهر

المعنوي الذي يبدأ بالنية ، وطرح كل ما من شأنه أن يشغل عن الوقوف بين يدي الله من أمور الدنيا ، للإقبال على الله بروح صافية على هذه العبادة الجليلة « الصلاة » .

والفائدة التي تجتني من ذلك هي وجوب الاستعداد لكل عمل بما يناسبه وييسره ويبيحه ، أي الأخذ بالأسباب والاستعداد والإعداد .

٢ – وأن إباحة التيمم عند فقد الماء – حقيقة أو حكماً – رحمة من الله تعالى وتوجيه إلى التنبه بأن من الطهارة طهارة بالتراب – وإن كان الأصل فيه التلويث لا التطهير – شرعها الله للتيسر على المسلمين في عباداتهم ، وهذا مما يؤكد أن فريضة الصلاة – وهي صلة الإنسان بربه خمس مرات في اليوم والليلة – لا يمكن أن تتوقف مهما كانت الظروف المانعة ، إذ ينبغي التغلب على هذه الظروف بما يسرته الشريعة ، فالصلاة بالتيمم كالصلاة قاعداً ومضطجعاً ومستلقياً وموميًا ، كل ذلك يؤكد أنها لا يجوز أن تتوقف الصلاة بحال ، حتى في الحرب وخوف العدو للصلاة نظام تؤدي به ... وكيف تتوقف الصلاة وفيها وبها يكون المدد الذي يستمده المصلي من ربه وهو واقف بين يديه يدعوه يرجو رحمته ويخشى عذابه ويسأله العفو والعافية في الدين والدنيا ؟ .

٣ – ومن خلال مطالبة المؤمن بالطهارة المادية والمعنوية ، نتعلم أن المؤمن يجب أن يكون طاهرا على كل حال طاهر القلب والبدن ، لأن كل عمل المؤمن يجب أن تصحبه نية عبادة الله به ، ومن اعتاد هذا التطهر ، اعتاد التطهر من الذنوب والآثام فإنها رجس وقذر ، وفي هذا التطهر أو ذاك فلا حرج على المسلم ولا تضييق وإنما هو اليسر الذي شرعه الله لعباده ، ليعلمهم به أن لا تشدد في الدين ولا تطرف ولا مغالاة ولا تنطع .

٤ – وأن يوقن كل مؤمن أن الله تبارك وتعالى أراد – تفضلاً منه – أن يتم نعمتة على المسلمين بهذه التشريعات الميسَّرة وهو لا يريد من الناس سوى الإحساس بهذه النعم لعلهم يعرفون واجب شكرها ، وشكر النعم عرفانها وإظهارها والثناء عليها ، وما ذلك إلا بالإقبال على الله في العبادة وترك أي معصية والانشغال بطاعة الله .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة من هذه الآية الكريمة ، يضع أيدينا على الحقائق التالية :

١ - أن الإعداد والأخذ بالأسباب في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية واجب ، والعاملون في حقل الدعوة مطالبون بإعداد أرواحهم وقلوبهم لهذا العمل ، وإعداد كافة الأسباب المادية حتى يكونوا على مستوى الدعوة التي يتصدون لها بشرط ألا يمسَّ ذلك الأخذ بالأسباب مصداقية التوكل على الله ، لما رواه الشيخان بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله ، أعطاه أو منعه » .

ولفض الاشتباك بين التوكل والأخذ بالأسباب أذكر كلمة للإمام أبي حامد الغزالي يقول فيها : « ... وقد يُظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبر بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال ، فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف يُنَال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ... »[١] .

٢ - ويستفيد الدعاة من هذه الآية الكريمة في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية أموراً كثيرة نذكر منها ما يلي :

- أن مبنى العمل في الإسلام على اليسر لا العسر ، وأن كل تعنت أو تشدد لا يقره الدين .
- وأن كل عامل من أجل الإسلام يجب أن يكون عمله في حدود إمكانياته ، وما يحسن لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .
- وأن طهارة القلوب من الغل والحسد في أهميته طهارة الأبدان من النجاسة والقذر .
- وأن إرادة الله سبحانه أن يتم نعمته على المؤمنين تتضمن رضاه عنهم

(١) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين : ٤ / ٢٢٨ ط الحلبي مصر ١٩٣٣ م .

وتأييدهم في مجال العمل الصالح الذي يمارسون من أجل الإسلام ، وما عليهم إلا أن يكونوا أهلاً لإتمام النعمة والرضا والتأييد .

وتأهيل النفس لهذه النعم معروف محدَّد الخطوات واضح السمات ، له مفردات نذكر بها هنا وهي :

- تحقيق مفردات الإيمان ،
- وتحقيق أركان الإسلام ،
- وأخذ النفس بممارسة الإحسان ،
- والالتزام بالعدل ،
- وتطبيق الشورى ،
- وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق شروطهما وآدابهما ،
- والمضي في طريق الجهاد في سبيل الله بكل أنواعه جهاد النفس وجهاد الشيطان والهوى وجهاد العدو ، والترقي في مراتب الجهاد من الجهاد بالكلمة إلى الجهاد بالعمل إلى الجهاد بالحرب والقتال ، وفق ظروف كل زمان ومكان .

* * *

الآية السابعة

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

المخاطبون بهذه الآية الكريمة هم المؤمنون الذين نودي عليهم في الآية السابقة ، والذين تتحدث إليهم آيات السورة الكريمة من أولها حتى هذه الآية .

وقد تضمن هذا الخطاب : أمرًا وخبرًا وتقريرًا .

— **أما الأمر** : في هذه الآية الكريمة فيتناول شِقَّين :

الأول : أمر بذكر نعمة الله على المسلمين وميثاقه معهم .

والآخر : أمر بتقوى الله .

– أما الأمر بذكر نعمة الله على المؤمنين وذكر ميثاقه الذي واثقهم عليه فسمعوا وأطاعوا ، فنوضحه فيما يلي :

- على المسلمين أن يتذكروا دائماً نعم الله عليهم – وهي كثيرة – منها في هذه الآية : نعمة الإيمان والإسلام والأخوة في الدين ، وتذكر النعم يستدعي شكر الله عليها وشكر الله تعالى يستوجب طاعته والتزام منهجه .
- وعلى المسلمين أن يتذكروا ميثاق الله الذي واثقهم به ، وهو عهده الذي عاهدهم عليه حين بايعوا رسول الله ﷺ على النصرة والسمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر ، حين قالوا له : سمعنا ما أمرتنا به ، وما نهيتنا عنه ، وأطعناك في هذا وذاك .

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ العهد على النساء ، كما جاء ذلك في سورة الممتحنة

في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

فذكر في هذه الآية عهد النساء و لم يذكر عهد الرجال وهو في معناه إلا أنه يتضمن العهد على القتال لحماية الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه ، إذ قد عاهد الرجال رسول الله ﷺ أكثر من عهد وبايعوه على السمع والطاعة في المنشط والمكره في أكثر من موقف ، وقالوا في كل ذلك : سمعنا وأطعنا ، كما حدث ذلك في بيعتي العقبة وفي بيعة الرضوان تحت الشجرة .

ففي بيعة العقبة الأولى :

روى ابن إسحاق بسنده عن عائذ بن عبد الله الخولاني أبي إدريس أن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه حدثه أنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر »[2] فبايع أهل العقبة رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم وأن يرحل إليهم هو وأصحابه ، وكان أول من بايعه البراء بن معرور رضي الله عنه ، وكان له في تلك الليلة المقام المحمود في التوثق لرسول الله ﷺ ، والشّدِ لعقد أمره »[3] .

وفي بيعة العقبة الأخيرة :

روى ابن إسحاق بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، وكان أحد النقباء قال : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب – وكان عبادة من الاثنى عشر الذين بايعوه

---

(1) سورة الممتحنة : ١٢ . (2) ابن هشام : السيرة النبوية : ١ / ٤٣٤ ط الحلبي مصر ١٩٥٥م .

(3) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن الكريم : ٣ / ٢١٠٦ ط الشعب مصر .

في العقبة الأولى على بيعة النساء - على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومُنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » .

قال ابن إسحاق : وكانت - أي بيعة العقبة الأخيرة - بيعة الحرب ... وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسول الله ﷺ في الحرب ، فلما أذن له فيها ، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة »[1] .

وفي بيعة الرضوان - تحت الشجرة :

نزل قول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[2] .

- وأما الأمر الآخر ، فهو أمر بتقوى الله - وقد شرحنا معنى التقوى فيما مضى من الآيات الكريمة - ويلحظ أن الأمر بالتقوى تكرر ثلاث مرات في الآيات السبع الأولى من السورة الكريمة ، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يطالبنا بالتقوى على كل حال وفي كل الظروف .

ومعنى الآية : اتقوا الله أيها المؤمنون و خافوا أن تنقضوا عهده بمخالفة ما أمركم به أو نهاكم عنه ، أو أن تزيدوا عليه أو تنقصوا منه أو تحرفوا شيئاً فيه فتكونوا كالذين أخذ عليهم الميثاق من أهل الكتاب فنسوا حظا - أي جزءًا - مما ذكروا به.

- وأما الخبر :

فهو يخبرهم بأن من أخذ عليهم الميثاق يوم أخذ قالوا سمعنا وأطعنا ، وهذا هو الميثاق الذي أخذه رسول الله ﷺ على المؤمنين في المواقف العديدة التي أشرنا إليها في بيعة النساء وبيعتي العقبة وبيعة الرضوان . ومثل هذا الميثاق ، الميثاق الذي أخذه

---

(1) ابن هشام : السيرة النبوية : ١ / ٤٥٤ مرجع سابق .
(2) سورة الفتح الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

كل نبي على قومه أن يسمعوا له ويطيعوا .

ومعنى ذلك أن كل من دخل دين الإسلام وقبل الدعوة فيه ، والتزم بمنهجه فقد سمع وأطاع هذا الميثاق .

وهذا الإخبار بأن الصحابة رضوان الله عليهم قد سمعوا وأطاعوا هو خطاب لكل مسلم في حاضر الزمان وآتيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومطالبته بأن يتذكر نعمة الله عليه إذ وفقه إلى السمع والطاعة .

وأمـا التقـــرير :

فهو تقرير أن علم الله تبارك وتعالى شامل ومحيط ولا يخفى عليه شيء مما يضمره الناس من الوفاء بالعهد أو النكث به لأن الله تبارك وتعالى : ﴿ **عليم بذات الصدور** ﴾ .

إن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى عليم بذات الصدور ازداد إحساساً بأن الله تعالى يرقبه ويراقبه ، فكان ذلك حافزاً له على أن يراقب هو ربه ويخافه فيحرص ألا يكون على معصية من معاصيه .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآية الكريمة :

١ - نتعلم من الآية الكريمة أن نذكر نعم الله علينا - وهي أكثر من أن تحصى ، يستوجب شكرها وشكر واهبها سبحانه وتعالى وما الشكر إلا طاعة الله سبحانه وامتثال أمره واجتناب نهيه ، والشكر في حد ذاته عبادة لله وهو في الوقت نفسه نتيجة للعبادة ، قال الله تعالى : ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1]، وخُلُق الشكر من أفضل الأخلاق إذ هو صفة من صفات الربوبية ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2] .

والإنسان الشاكر لربه شاكر للناس ، روى البيهقي بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « التحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر

(١) سورة النحل : ١١٤ . (٢) سورة التغابن : ٧ .

الله ، والجماعة بركة والفرقة عذاب » .

وروى أحمد وأبو داود بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » .

فأي خلق أحسن وأجدي في المجتمع من خلق الشكر ؟

٢ – ونتعلم من الآية الكريمة أننا جميعاً علينا موثق من الله أن نسمع له ونطيع في كل ما أمر به وما نهى عنه ، ومعنى ذلك أن كل مؤمن مطالب بأن يستوثق من نفسه قوله وعمله ، بحيث يكون دائماً عند حد الوفاء بهذا الميثاق ، لا يفرط في شيء منه ، فهذا الميثاق الذي أخذه الله علينا أن نسمع له ونطيع من نعم الله علينا التي تستوجب الشكر أيضاً ، بل إنه من أكبر النعم فمن أخذ الله عليه الموثق بسمعه سبحانه وطاعته فهو المفلح الفائز في الدنيا والآخرة .

وأعود فأكرر – ما قلته آنفاً – من أن الإنسان السامع المطيع لربه سبحانه وتعالى لبنة صالحة في بناء مجتمع صالح ، وحسبنا بالمجتمع صلاحاً أن يكون الناس فيه سامعين لربهم مطيعين له !!! .

هذه هي التربية الحقة للمجتمع .

٣ – وأن على المؤمن أن يراجع نفسه وأمره كله ليتأكد كل ساعة أنه على تقوى الله تبارك وتعالى ، أي حفظ نفسه عما يؤثمها ، وطريق تلك التقوى أمران :

الأول : ترك المحظورات حرامها ومكروهها .

والآخر : ترك بعض المباحات ، أي ترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس .

وللتقوى معان عديدة نذكر منها ما يلي :

– الخوف والخشية قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء : ١ .

- والطاعة والعبادة ، قال الله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[1] .
- وترك المعصية والزّلة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[2] أي اتركوا خلاف أمره .
- والتوحيد والشهادة ، قال جل شأنه : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[3] أي وحدوا الله .
- والإخلاص ، قال الله تعالى : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[4] .

والمجتمع الذي يكثر فيه المتقون هو المجتمع الآمن المنتج الذي يعيش فيه الناس حياة إنسانية كريمة تلائم تكريم الله لهم .

● واستنباط المواقف التربوية من الآية الكريمة في مجالي الدعوة والحركة يمكن أن نشير منه إلى ما يلي :

١ - على الدعاة إلى الله ، ورجال الحركة الإسلامية أن يتذكروا دائماً أن وجودهم في مجالي الدعوة والحركة من أجل هذا الدين ، وتوفيقهم للعمل هو من نعم الله الكبري عليهم ، وهي نعم تستوجب الشكر ، وأن ما قد يتعرضون له من بلاء ومحن هو في الحقيقة نعمة من الله عليهم إذ حسبهم أن اختارهم الله ليؤذوا في سبيله ، وما دامت تلك نعمة فهي تستوجب شكر الله سبحانه وتعالى ، وأن نجاحهم وتوفيقهم في أن يهدي بهم أحداً إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، نعمة

---

(١) سورة النحل : ٥٢ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٩ .
(٣) سورة الأحزاب : ٧٠ .
(٤) سورة الحجرات : ٣ .

كذلك تستوجب شكر الله تعالى .

إن العاملين في مجال الإسلام قد أنعم عليهم بهذا الاصطفاء وجزاء هذه النعم هو شكر الله ، بطاعته وحسن عبادته .

٢ - وأن على الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يعلموا أن عملهم وجهدهم وجهادهم في سبيل الإسلام إنما هو واجب عليهم بمقتضى ميثاق السمع والطاعة لله تبارك وتعالى ، وليس تفضلاً أو تبرعاً أو نافلة عمل .

وإذا استدعى العمل الإسلامي من أحد العاملين فيه جهداً أو وقتاً أو مالاً ، فإن ذلك كله واجب عليه مادام قادراً عليه ، وليس له أن يمن أو يستكثر ما بذله من جهد أو وقت أو مال .

إن المسلمين لو فقهوا هذا المعنى ما تعثر عمل إسلامي في ساحة من الساحات ، لأنهم عندئذ يكونون قد أخذوا بكل الأسباب ، وما يؤتي العمل الإسلامي إلا من جهة نقص في الأخذ بالأسباب ، على فرض أن التوكل على الله قائم دائماً في نفوس المسلمين .

٣ - وعلى الدعاة إلى الله وأهل الحركة الإسلامية أن يتقوا الله ويخافوه ، فينضبطوا في أقوالهم وأعمالهم وما يقدمونه للعمل الإسلامي من جهد ، إذ إن متطلبات العمل الإسلامي كثيرة ، ومستمرة ، ولا يتصور فيها التوقف أو التهاون ، وذلك أن آفة من الآفات التي تؤدي إلى فشل العمل من أجل الإسلام هي أن يقدم العاملون فائض جهدهم ومالهم ووقتهم ، على حين الحاجة ماسة دائماً إلى أن نعطي جزءًا رئيساً من الجهود والأوقات والأموال .

كذلك كانت - ولا تزال - حاجة العمل الإسلامي إلى التعارف والتفاهم والتعاون بين العاملين ، بل التناصر والتآزر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ...

وما يؤتي العمل من أجل الإسلام من داهية أدهى من فقد التعارف والتفاهم والتعاون والتناصر والتواصي بالحق والصبر بين العاملين .

ولا يسر أعداء الإسلام وأهله شيء مثل ما يسرهم أن يفقد العاملون من أجل الإسلام هذه الصفات ، كان ذلك – ولا يزال – شأن أعداء الإسلام في الماضي والحاضر ، وسوف يكون كذلك في المستقبل ، وليس أمامنا ما نواجه به كيد أعداء الإسلام والمسلمين من سلاح معنوى أمضى من التحلى بهذه الصفات .

* * *

الآية الثامنة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

النداء في هذه الآية الكريمة للذين آمنوا ، والخطاب لهم ، وهذا الخطاب يتضمن أنواعاً من الأمر ، كما يتضمن نهياً وتقريراً :

أما الأمر : **فقد تناول أموراً عديدة هي** :

- الأمر بأن يكون المؤمنون قوامين لله ، والقوام لله هو الكثير القيام بما أوجب الله عليه ، أو القوام الذي يأتي بالعمل مقوماً تاماً لا نقص فيه ، سواء أكان هذا الأمر من أمور الدين أم من أمور الدنيا .

والمعنى أن على المسلمين أن يقوموا بكل ما كلفوا به من تكاليف أخذ عليهم فيها العهد والميثاق ، على أن يخلصوا هذا العمل لله ويريدوا به الخير .

- والأمر بأن يكونوا شهداء بالقسط ، أي بالعدل دون محاباة مشهود ولا مشهود عليه ، أيا كان الدافع لهذه المحاباة ، إذ حسبها سوءا أنها محاباة ، وأنها لا تتفق مع العدل .

وكل مجافاة للعدل مرفوضة لما فيها من تضييع حق الضعيف والفقير ومن لا جاه له ولا مال .

والشهادة في حقيقتها إظهار للحق أمام المشهود عنده كالحاكم والقاضي ونحوهما ، ليعين من يستمع إلى شهادة الحق أن يحكم بالقسط – أي العدل – لأن القسط هو ميزان الحقوق ، وإذا ضاعت الحقوق انتشرت المفاسد وشاع العدوان وتقطعت الروابط الاجتماعية .

وتعبير : ﴿ **كونوا قوامين بالقسط** ﴾ تعني أن المؤمنين هم أمة القوامة على

الناس وأمة الشهادة عليهم أمام الله يوم القيامة والمطلوب ممن هم كذلك أن يكونوا مع العدل دائماً .

- وأمر صريح بالعدل : ﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ في جميع الأحوال مع الأولياء والأعداء .

واعتبار العدل أقرب إلى تقوى الله يغرى به أو يلزم ، لأنه ما من مؤمن إلا يرغب في أن يكون عمله أقرب إلى تقوى الله تعالى ، أي إلى اتقاء سخطه وغضبه سبحانه وتعالى ، ولذا كان العدل وما يزال مطلب كل مؤمن بالله تعالى .

- وأمر أخير في هذه الآية ، وهو الأمر صراحة بالتقوى ، ولقد تكرر الأمر بتقوى الله سبحانه في هذه السورة الكريمة ثنتي عشرة مرة بينما ورد لفظ : ﴿ **اتقوا الله** ﴾ في القرآن الكريم كله تسعاً وستين مرة ، ولهذا عندي دلالة على أن هذه السورة بما تضمنته من تشريعات عديدة ومن المعروف أن التشريع إلزام والتزام وحرب للشيطان والشهوات ، ومن أجل هذا تكرر لفظ : ﴿ **اتقوا الله** ﴾ على هذا النحو اللافت للنظر حتى يتذكر المؤمنون في كل تشريع وجوب المسارعة إلى تقوى الله تعالى .

وأما النهـي : في الآية الكريمة :

فهو نهي المؤمنين عن أن يحيدوا عن العدل تحت ضغط أي ظروف ، حتى لو كان الذين لا يمارس معهم العدل من أعداء المؤمنين بل لو كانوا ممن يكرههم المؤمنون أشد الكراهية ويتجنبونهم تقذراً لهم - وهذا هو معنى الشنآن في الآية الكريمة - كل ذلك لا يبيح للمؤمنين أن يتخلوا عن العدل : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا** ﴾ ومن معاني الآية الكريمة : لا يدخلكم في الجريمة - وهي ترك العدل - كراهيتكم لقوم مهما بلغت درجة هذه الكراهية .

فالمؤمنون مطالبون بالشهادة لأعدائهم بالحق إن كانوا أصحاب حق ، والحكم لهم بالحق ماداموا أصحابه وذلك هو العدل الذي جعله الله تعالى في هذه الآية الكريمة فوق حظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة .

وتلك هي عظمة الإسلام وإنسانية منهجه التي لا نجدها في أي نظام آخر أو نظام مما هو بين أيدينا اليوم .

وأمـا التقــرير :

فهو تقرير أن الله سبحانه وتعالى خبير بكل ما يعمله المؤمن من عمل مما أمر به أو نهي عنه فمجازيه عليه ، وكلمة خبير تعنى العلم الدقيق المؤيد بالمعرفة والاختبار ، وهو سبحانه الحكم العدل القائم بالقسط ، فاحذروا أن يجزيكم بالعدل على ترككم العدل .

وقد جرت سنة الله سبحانه بأن يجزي من ترك العدل والقسط بذل وصغار في الدنيا بالإضافة إلى الجزاء الأخروي الذي هو أخزى وأشد وأبقى ، فقد روى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وروى الطيالسي في مسنده بسنده عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الظلم ثلاثة ، ظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره ، وظلم لا يتركه ، فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك ، قال الله : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وأما الظلم الذي يغفره فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدبر لبعضهم من بعض » .

● واستنباط المواقف التربوية من الآية الكريمة هي :

١ – أن على المؤمنين أن يكونوا قوّامين لله أي ليتكرر منهم القيام بحقوق الله – والتضعيف للمبالغة – أي يكثر منهم القيام بحقوق الله دون نقص منها أو انحراف عنها ، وإنما يتقربون بذلك إلى الله ، أي أن يكون المؤمن مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر ، روى الطبراني في الكبير عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « عند الله خزائن الخير والشر ، مفاتيحها الرجال ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر ، وويل لمن جعله الله مغلاقاً للخير

مفتاحاً للشر ، وهذا من معاني : ﴿ قوامين لله ﴾ .

٢ – ويتعلم المؤمن في هذه الآية أن يكون من الشهداء بالقسط وهي منزلة رفيعة تستدعي أن يشهد الإنسان بالقسط حتى على نفسه التي بين جنبيه فضلاً عن أقاربه وأوليائه فضلاً عن أعدائه ومن يكرههم أشد الكراهية ، وذلك أصل عظيم من أصول الإسلام الأخلاقية .

ولا يمكن لمجتمع إنساني أن يعيش آمناً ما لم تكن فيه هذه الصفة وهي الشهادة بالقسط في كل حال ، ولو توفرت هذه الصفة لحفظت الحقوق وقل التنازع والتخاصم وقل التقاضي ، وعاش الناس في ظل عدل الإسلام ورحمته .

٣ – ويتعلم المؤمنون من هذه الآية الكريمة أن ما يكون بينهم وبين بعض الناس من غضب أو كراهية أو عداوة ، أو اختلاف في الدين لا يبيح لهم ترك العدل والإنصاف في التعامل معهم ، لأن أخلاق الإسلام وتشريعاته وأحكامه لا تسمح بذلك .

نعم إن التزام الإنسان بالإنصاف مع أعدائه صعب ولكنه يسيرٌ على أصحاب النفوس الكبيرة الملتزمة بأخلاق الإسلام وإن هذا الخلق في الإسلام لهو من العلامات البارزة على إنسانية القيم التربوية في الإسلام وعالميتها وصلاحها لكل زمان ومكان .

● واستنباط المواقف التربوية من الآية في مجالي الدعوة والحركة يوحي إلينا بالقيم التربوية التالية :

١ – على الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يهتدوا بهدي : ﴿ كونوا قوامين لله ﴾ في مجالي الدعوة والحركة ، ومعنى ذلك أن الداعي إلى الله ما ينبغي أن يدخر وسعاً في مجالات الدعوة التي يمارس العمل فيها ، وأن يحرص كل الحرص على أن يكون قواماً بأمر الدعوة إلى الله يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل – عند الحاجة إلى الجدال – بالتي هي أحسن ، وأن يكون قواماً على حمل الأعباء في مراحل الدعوة من تمهيد إلى تعريف إلى تكوين .

وعلى الذين يحملون عبء الحركة أن يكونوا قوامين لله في مجالات الاختلاط بالناس وحبهم والتحبب إليهم ، والقدرة على تصنيفهم والاستجابة لكل صنف بما يناسبه ، وأن يجتهدوا في إعداد الناس للتنفيذ والتمكين بل وما وراء التمكين من حراسة لأهداف الحركة الإسلامية وحفاظ على كل ما تأمر به الشريعة من أحكام وأخلاق وآداب .

٢ – وعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يتحرروا جميعاً من كل ما يحول بينهم وبين العدل والقسط في العمل من أجل الإسلام ، بادئين بأنفسهم ثم بإخوانهم ثم بمن يعملون معهم من الناس .

وإن العاملين من أجل الإسلام كثيرا ما تعتريهم ظروف متعددة وبخاصة في مجالي التوظيف والترشيح « التوثيق والتضعيف » قد تحول بينهم وبين العدل والقسط ، فليتقوا الله في ذلك كله وليخافوا أن يتجاوزوا العدل والقسط في صغير أو كبير من الأمر فإن هذا التجاوز – إن حدث – من أكبر معوقات العمل من أجل الإسلام .

كما لا يجوز لهم أن ينظروا إلى سواهم – مِمَّنْ يعادون أو يكرهون أو يختلفون معهم في الدين – نظرة تحملهم على ألا يعدلوا لأن تجاوز العدل من الكبائر : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

إن انضباط العاملين من أجل الإسلام مع القسط والعدل خير معين للدعاة والحركيين على النجاح في عملهم ، وخير سبب من أسباب تعلق الناس بهم واقترابهم منهم والاستجابة إلى الحق الذي يدعونهم إليه .

٣ – وأن يتعلموا من هذه الآية أن تتسع صدورهم إلى حد إنصاف العدو والبغيض ومن كان على دين غير الإسلام .

وشأن العاملين من أجل الإسلام أن يكونوا نماذج حية لهذا الدين العظيم الذي يدعون إليه ، ويعملون على تجديد أثره في نفوس المسلمين ، وإحياء أحكامه وأخلاقه وآدابه التي لا نجاة للمسلمين مما هم فيه من تراجع حضاري إلا بالتمسك

بها ، والعمل بها في كل شئون الحياة ومرافقها .

وإذا كان للدعاة إلى الله أو للعاملين في مجال الحركة الإسلامية من شكوى أو ضيق بالعقبات والعراقيل ، فإنما مردُّ ذلك عندي هو ضيق الصدور واستعجال الثمر ، واستبطاء النصر . ولا علاج لكل ذلك إلا قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله** ۚ **إن الله خبير بما تعملون** ﴾ .

وهذه التقوى هي مفتاح كل خير ، وبها تيسير كل عسير ، بل هي مفتاح العلم والهدي والرزق والنجاح والفلاح .

والله سبحانه هو الخبير بما يعمل كل عامل في مجالي الدعوة والحركة ، فمجاز أحسن الجزاء وأوفاه ، ومحاسب على كل تقصير أو تجاوز إنه على ما يشاء قدير .

* * *

الآيتان التاسعة والعاشرة

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

الحديث في الآيتين عن المؤمنين وجزائهم ، وعن الكافرين وما أعد لهم من عذاب الجحيم .

وإحدى الآيتين وعد للمؤمنين ، والأخرى وعيد للكافرين .

ـ أما وعد المؤمنين :

فإن الواعد هو الله سبحانه وتعالى ، والموعودون هم المؤمنون الذين يعملون الصالحات .

والموعود به شيئان : المغفرة للذنوب التي ارتكبت في الدنيا دار البلاء والاختبار ، والأجر العظيم وهو الأجر الكبير المستعظم ، **﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾** .

- ووعد الله أو عهده وفاء وصدق ، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[1] وأوفى العهد تممه و لم يَنْقُضْ حفظه ، والمعنى : لا أحد أوفى بعده من الله ، وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد .
- والذين آمنوا هم الذين توفرت فيهم مفردات الإيمان المعروفة ، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقضاء والقدر .
- والذين عملوا الصالحات هم الذين توفرت فيهم مفردات الإسلام وأركانه من النطق بالشهادتين والعمل وفقهما ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ،

(١) سورة التوبة : ١١١ .

وحج البيت لمن استطاع إليه السبيل ، ويدخل في العمل الصالح العدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وكل ما أمر الله به ، واجتناب كل ما نهى الله عنه .

- هؤلاء المؤمنون الذين يعملون هذه الصالحات من الأعمال ، لهم عند الله مغفرة لما بدر منهم من أعمال غير صالحة غطى عليها وسترها الإيمان والعمل الصالح ، لأن القاعدة الإسلامية الجليلة التي تجعل باب الأمل في رحمة الله مفتوحاً دائماً هي : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1] روى الترمذي بسنده في نوادر الأصول عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم » ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ .

- وهؤلاء المؤمنون الذين يعملون الصالحات لهم عند الله أجر عظيم ، والأجر العظيم هو الجزاء على الإيمان والعمل الصالح جزاء مضاعفاً أضعافاً كثيرة أي عظيم القدر ، قال العلماء : « إن الأجر العظيم هو الذي لا تعرف كنهه أفهام الخلق » .

وقالو : إن الله تعالى إذا وصف الأجر بأنه عظيم أو كبير أو كريم كما جاء في القرآن الكريم ، فمعنى ذلك أنه أجر لا يقادر قدره .

- وهذا الوعد الصادق من الله تبارك وتعالى فيه تشجيع للمؤمنين على القيام بأعباء القوامة وأعباء القسط ، والشهادة به للولي والعدو ، والمحبوب والمكروه ، وفيه تشجيع على الوفاء بكل ما تضمنه ميثاق الله الذي واثق عليه عباده على السمع والطاعة .

ــ وأما وعيد الكافرين :

فإن المؤعِد هو الله تعالى ، والمؤعَدون هم الكفار والمكذبون لآيات الله تعالى ،

---

(١) سورة هود : ١١٤ .

والمَوْعَد به هو نار الجحيم : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[1] .

- ووعيد الله صادق كوعده ، والذين أُوعدوا هم الذين كفروا - أي ستروا الإيمان الفطري في نفوسهم وأظهروا العناد والمكابرة ، وكذبوا برسل الله وبآياته التي وجهها الله إليهم لتساعدهم على الإيمان أو على إظهار الإيمان ، ولكنهم كذبوا بهذه الآيات ، على الرغم من أن بعض هذه الآيات مشاهد محسوس مثل كتبه التي أنزل على رسله ، والمعجزات التي أجراها على أيديهم ، وبعضها يدرك بالتأمل والتدبر في خلق الله ، فهذه المخلوقات ، دائمًا تتجلى فيه قدرة الله سبحانه في الآفاق وفي أنفسهم ، ومع ذلك فقد كذبوا ذلك كله .

- وسواء في الكافرين من كفر بالرسل جميعاً أو كفر ببعضهم دون بعض ، إذ الأصل أن يؤمن الإنسان برسل الله جميعاً وبكتبه جميعاً ، ومن أجل هذا يعتبر من آمن برسول دون آخر من الكافرين ، لأن الرسل جميعاً من عند الله ، والإيمان بهم جميعاً هو الواجب الذي يتحقق به الإيمان .

والكفر تكذيب بما جاء من عند الله ، والتكذيب بما جاء من عنده الله كفر به ، وخروج من الإيمان ومقتضيات الإيمان .

- وهذا الوعيد هو أنهم - نتيجة لهذا الكفر والتكذيب - سوف يكونون من أصحاب الجحيم .

والجحيم هو دار العذاب ، وهو النار العظيمة ، لأن الجَحمْة هي شدة تأجج النار ، ومنه الجحيم .

وأصحاب الجحيم أي الملازمون لها ، لأن الصحبة ملازمة ، والكفر والتكذيب لا جزاء لهما أسوأ أو أشد من ملازمة العذاب كأنهم أصحابه .

---

(1) سورة المائدة : ١٠ .

● واستنباط المواقف التربوية العامة من الآية الكريمة يمدنا بالخبرات التربوية التالية :

١ – أن الإيمان مربوط دائماً بالعمل الصالح ، وأن المؤمن هو الذي يعمل الصالحات ، وأن هذا الإيمان إذا صح وكان قريناً للعمل الصالح أهَّل أصحابه لخير الدنيا والآخرة ، أما خير الدنيا فهو الرضا والاطمئنان ، والنصر في معركة الحق والباطل لأن ذلك وعد الله ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وأما خير الآخرة فهو المغفرة لذنوب الدنيا – والأجر العظيم من رب العالمين يوم القيامة .

وأن كل خلل في الإيمان أو في العمل الصالح يحول بين الإنسان وهذه الأهلية لخير الدنيا والآخرة .

٢ – وأن وعد الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات دليل حب الله لهم ورضاه عنهم ، وأن عليهم أن يستثمروا هذا الحب والرضى بالالتزام والطاعة ، فمن أكبر نعم الله على الإنسان أن يعده الله بخير في الدنيا أو في الآخرة ثم لا يكون هذا الإنسان أهلاً لهذه العدة ، وأهلية هذه العدة إنما تكون بالاجتهاد في عبادة الله وطاعته والإنابة إليه ، والتقرب إليه بما يحب ، على نحو ما هو معروف في أحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه في التقرب إلى الله بما افترض الله على الناس من فرائض ثم زيادة هذا التقرب بأداء النوافل من جنس ما افترض الله .

٣ – ونتعلم من الآية أن الذين كفروا هم الذين جحدوا الإيمان بالله ورسله وآياته ،

---

(١) سورة الروم : ٤٧ .

ولم يعتدوا بها ولم يعملوا بمقتضاها ، وأنهم كذبوا بآيات الله أي أنكروها ولم يؤمنوا بها ، وأن هؤلاء قد أوعدهم الله بعذابه بل جعلهم ملازمين للجحيم كأنهم أصحابها ، وأن هؤلاء بكفرهم وتكذيبهم سوف يتحدون الحق والعمل من أجل الإسلام ، وقد يهزمون المؤمنين في غير معركة ، وأن المؤمنين ما ينبغي أن يخدعهم نصر الكافرين الكاذب فيفت في عضدهم أو يقلب في نظرهم الموازين ، لأن النهاية أن ينصر الله المؤمنين ، والعاقبة دائماً للمتقين ، بل العبرة الحقيقية بما يكون يوم القيامة من جزاء للمؤمنين والكافرين .

● واستنباط المواقف التربوية الخاصة بمجالي الدعوة والحركة يوقفنا على الدروس التالية :

١ - يتعلم العاملون في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية من هذه الآية أن الإيمان والعمل الصالح هما زاد العاملين من أجل الإسلام ، وسبب تقدمهم في العمل ونجاحهم فيه وانتصارهم في معاركه ، وأن ذلك وعد الله ، فلو أنهم استكملوا مفردات الإيمان ومارسوا ما يقدرون عليه من العمل الصالح لتجاوز الله عن سيئاتهم في الحياة الدنيا ، وأعد لهم أجزل الأجر في الآخرة .

والسيئات في الدنيا قد يكون منها سيئات في مجال العمل الإسلامي يتجاوز الله عنها إذا صح الإيمان وترجم عنه العمل الصالح ، ومن يتجاوز الله عن سيئاته مكّنه ومكّن له وأعزه بهذا الدين وأعز الدين به ، ثم كان يوم القيامة أهلاً لأجر الله وأجره عظيم دائماً .

٢ - ويتعلمون من الآية أن الحياة الدنيا لا تخلوا من الكفار الذين يكذبون بآيات الله ، ومادموا كفاراً مكذبين يواجهون مؤمنين يعملون الصالحات ، فإن الصراع بينهم دائر دائماً ، وأن المعارك بينهم قد تكون سجالاً ، بل قد ينتصر الباطل على الحق والكفر على الإيمان حيناً ، ولكنه في الحقيقة اختبار للمؤمنين ، وتمحيص لهم ، وأن على المؤمنين أن يستوعبوا درس الهزيمة أمام الكفر وأعوانه ، فيعودوا على أنفسهم باللائمة ، وعلى إيمانهم بالتجديد ، وعلى أعمالهم بالتسديد وعندئذ يديل الله لهم

على أعدائهم ، ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

٣ - ويتعلم أصحاب العمل من أجل الإسلام من هذه الآية الكريمة يقيناً لا يزعزعه خداع بصر أو غفلة بصيرة ، بأن الكافرين المكذبين بآيات الله هم أصحاب الجحيم ، مهما أوتوا في الدنيا من أسباب توهم أنهم في عافية ، لأن ذلك اليقين أتى من صدق وعيد الله لهؤلاء الكافرين المكذبين .

ويا ويل من كان من أصحاب الجحيم ، إنه مهما أوتى في الدنيا من أسباب ، فإنه يطعم بها فإذا كانت الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً .

ولقد روى الترمذي بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافر منها شربة ماء » .

* * *

الآية الحادية عشرة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين والنداء لهم ليذكروا نعمة الله عليهم ، وذكر النعمة يستوجب شكرها .

وهذا الخطاب يتضمن أمرًا وخبرًا .

ــ **أما الأمــر** : فقد جاء في الآية يطالبهم بثلاثة واجبات :

- **أولــها** : وجوب تذكر نعمة الله عليهم .
- **وثانيها** : وجوب تقوى الله .
- **وثالثها** : وجوب التوكل على الله .

ــ **وأما الخبــر** : فهو أن قوماً من أعداء المؤمنين هموا بالعدوان على رسول الله ﷺ واغتياله ، فكف الله أيديهم عنه ، كما سنوضح بعد قليل .

وفي هذا العمل الجليل وهو كف الأعداء عن الرسول ﷺ وعن صحابته رضوان الله عليهم نعمة كبري يجب أن تذكر فتشكر .

ولتلك النعمة قصة فقد روى الحاكم بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً من محارب اسمه غورث بن الحارث قام على رأس رسول الله ﷺ ، وقال :

من يمنعك ؟ قال : الله فوقع السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ وقال : من يمنعك ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء الأعرابي إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس » .

● وقال أبو مالك : نزلتْ في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا برسول الله ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف ، رواه بن حاتم .

● وذكر محمد بن إسحٰق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلتْ في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرَّحَى لما جاءهم يستفتيهم في دية العامِرِيَّين[1] ، ووكلوا عمرو بن جحش بن كعب بذلك ، وأمروه : إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار ، واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرَّحَى من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالئوا عليه فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه رضوان الله تعالى عليهم فأنزل الله في ذلك هذه الآية .

والنعمة في هذه الآية ليست للمؤمنين من الصحابة وحدهم ، وإنما هي لكل مؤمن جا بعدهم إلى يوم الدين ، لأن حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ ولصحابته رضي الله عنهم ، هو عين حفظه للدين ، فالنبي ﷺ قد حفظ حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وأصحابه رضي الله عنه قد حفظوا حتى تلقوا الرسالة وحملوها وأدوها لمن بعدهم ، حتى وصلت إلينا كاملة غير منقوصة ، وقد فرض الله علينا أن نسعى ونجاهد حتى نوصلها إلى مَنْ بعدنا كاملة غير منقوصة ، وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها ويقوم الناس لرب العالمين .

---

(١) العامريّان : رجلان قتلهما عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه مُنْصرفه من بئر معونة ، ولم يكن يعرف أن معهما أمان من رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ عاهد بني النضير على ألا يحاربوه وأن يعينوه على الديات ، فلما طلب ذلك منهم وهو بينهم - وكان معه أبو بكر وعمر وعلى وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أظهروا له القبول وقالوا : اقعد حتى نجمع لك ، فلما جلس بجانب جدار دار لهم وجدوا الفرصة قد سنحت للغدر به وقال لهم حيي بن أخطب : لا ترونه أقرب منه الآن ، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ولا ترون شراً أبداً ، فهمّوا أن يطرحوا عليه صخرة - أو رَحًى عظيمة - فأعلمه الله بذلك فانصرف .

● **فالأمر الأول** : هو تذكر هذه النعمة والوفاء بشكرها بالقيام على أمر هذا الدين حتى نبلغه لمن بعدنا مهما تحملنا وضحينا ومضينا إلى ربنا شهداء من أجل هذا الدين .

● **والأمر الثاني** : هو أمرهم بتقوى الله الذي أنعم عليهم بأن كف عنهم الأعداء ، وتقوى الله هنا تعنى الالتزام بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه والإنابة إليه والثقة فيه وفي تأييده لأوليائه ، وبذل المال والوقت والجهد في سبيل تبليغ دعوته إلى خلقه في كل زمان ومكان .

● **والأمر الثالث** : وجوب التوكل على الله : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ ومن علامات الإيمان الصحيح التوكل على الله تعالى ، وحده ، وترك الاغترار بالعمل مهما جاء جيداً وصالحاً ، وترك التوكل على الأغيار مهما أوتوا من سلطة أو جاه أو مال ، ومن دعاء النبي ﷺ ما رواه الإمام أحمد بسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : « ... وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة » .

ــ وأما الخبــر :

فهو إخبار الله تعالى للمؤمنين ولمن جاءوا بعدهم بهذه القصة التي حاول فيها الأعداء أن يبسطوا أيديهم إلى نبينا محمد ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم ، فكفَّ الله أذاهم عن النبي والصحابة وهذا الدين .

● واستنباط المواقف التربوية العامة من الآية يوحى إلينا بأن نتعلم منها ما يلي :

١ – أن يكون المؤمنون دائماً على ذكر لنعم الله عليهم ، إذ هم محاطون دائماً بنعم لا تحصى من أجلها وأعظمها وهي نعمة الإيمان والإسلام ثم نعمة الحياة والعقل والسمع والبصر والفؤاد .

إن المؤمن مطالب بأن يتذكر هذه النعم ، ويقوم بواجب شكرها فيقبل على طاعة الله والتقرب إليه بما افترض عليه ثم بالنوافل حتى يحبه الله ، فإذا أحبه الله وفقه في أمر دينه ودنياه ، ومن وفقه الله نصره على عدوه وأعز به دينه ، وأعزه

بدينه ، وهكذا تتوالى عليه النعم ويوالي هو شكر النعم فيعيش بين هذا وذاك حياة إنسانية كريمة لائقة بتكريم الله تعالى للإنسان .

٢ – وأن يتعلم المؤمن من تلك الآية الكريمة أن المؤمن محفوظ دائماً بعناية الله وكلاءته ، يكف عنه كيد أعدائه ويقيه شرورهم ، وتلك نعمة كبرى من نعم الله تبارك وتعالى قد لا يلتفت الإنسان إليها لكثرة ما يحرسه الله وهو لا يدري من أي شيء حرسه .

ومن تأمل فيما يجري عليه في اليوم والليلة عَلِمَ عِلْم اليقين أن الله تبارك وتعالى يصرف عنه من الشرور والأضرار مالا يعلمه إلا الله ، فحمد الله ولهج بشكره وأقبل عليه ، وفي ذلك ما فيه من نعم التوفيق إلى الحمد والشكر ، فيجزي جزاء الحامدين الشاكرين المثنين على ربهم ، وهو جزاء عظيم من رب كريم كما هو معروف .

٣ – وأن يتعلم أنه مطالب بتقوى الله دائماً ، والتقوى لا تكون إلا بتوق الشر والسوء وكل ما يغضب الله ، وبذل الجهد في ذلك .

وهذه التقوى ليست خوفاً يسيطر على الإنسان فيفقده القدرة على العمل أو يفقده لذة الانشراح بأداء العمل الصالح ، وليست كلمة تقال ، وإنما هي عمل والتزام بالسير على منهج الله واتباع كل ما جاء في هذا المنهج في كل شعبة من شعب الحياة .

والتقوى باب العلم والمعرفة : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] .

وهي باب الفلاح والنجاح : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] .

وهي باب الشكر لله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3] .

وهي باب العمل الصالح : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٢ .
(٢) سورة آل عمران : ١٣٠ .
(٣) سورة آل عمران : ١٢٣ .
(٤) سورة المائدة : ٣٥

وهي باب إلى رحمة الله تعالى للإنسان : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1] .

وهي باب إلى التأمل فيما عمل الإنسان من عمل في هذه الدنيا لعل الله يرضي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[2] .

والتقوى هي خير زاد يتزود به الإنسان لمعاشه ومعاده : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[3] .

وهي خير لباس يلبسه الإنسان : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[4] .

والأتقياء هم أولياء الله : ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5] ، وهم أحباؤه : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[6] .

٤ – وأن يتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة أنهم مطالبون بأن يتوكلوا على الله مصداقية لإيمانهم ، حيث لا إيمان دون التوكل على الله أي اعتقاد أن الله وكيل عنه في أمره كله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، روى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .

والتوكل على الله سبحانه لا ينفي الأخذ بالأسباب ، ومن ترك الأخذ بالأسباب فقد جهل حقيقة التوكل على الله ، بل جهل الشريعة نفسها ، لأن الشريعة أمرت بالأخذ بالأسباب ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾[7] .

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٥ .
(٢) سورة الحشر : ١٨ .
(٣) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٤) سورة الأعراف : ٢٦ .
(٥) سورة الأنفال : ٣٤ .
(٦) سورة آل عمران : ٧٦ .
(٧) سورة النساء : ٧١

وقال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2] ، وجمع الله سبحانه بين التوكل والأخذ بالأسباب في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[3] ، وقال جل شأنه : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[4] .

وروى الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وأراد أن يترك ناقته ، وفي رواية أنه قال للنبي ﷺ : أأعقلها وأتوكل أم أطلقها ؟ فقال النبي ﷺ : « اعقلها وتوكل » يعني خذ بالأسباب متوكلاً على الله .

وقال الذهبي في شرح الحديث النبوي : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » : « يستدل بهذا الحديث على أن التوكل يكون مع السعي ، لأنه ذكر أن الطير تذهب صباحاً في طلب الرزق وهي خماص البطون لفراغها وترجع ممتلئة البطون ، ولم يقل إنها تمكث في أعشائها وأوكارها فيهبط عليها الرزق من غير أن تسعى إليه »[5] .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة يعلمنا أموراً كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ – أن يستيقن العاملون في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية أن نعم الله عليهم كثيرة وحسبهم في ذلك أمران :

– أنهم يقومون في الدعوة والحركة بعمل الأنبياء والرسل ولولا حب الله لهم وإيثارهم ربهم ما هيأ لهم تلك المكانة .

– وأنهم قد يتسببون في أن يهتدي إلى الحق بهم أحد المسلمين فيكون ذلك

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٣) سورة النحل : ٤٢ .
(٤) سورة العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩ .
(٥) الإمام أحمد : مسنده : ١ / ٣٠ .

خيراً لهم من حمر النعم أو من الدنيا وما فيها .

وشكر هذه النعمة هو أن يستمروا في عمل الدعوة والحركة لا يصرفهم عن هذا العمل ترغيب في تركه أو ترهيب من ممارسته ، ومن شكر هذه النعمة ألا يضيق الداعي بمدعو ولا العامل في حقل الحركة بمعاند أو جاهل ، وللدعاة وأهل الحركة الإسلامية في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فكم صبر على عدوان قومه عليه واضطهادهم له ، وكانت كلمته المعلمة : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون .

٢ - وعليهم أن يتعلموا من هذه الآية في مجالي الدعوة والحركة أموراً أساسية جوهرية لا ينجح العمل إلا بها ، وهي :

أ - تقوى الله في كل قول أو صمت وفي كل عمل أو ترك .

ب - والتوكل على الله والاعتماد عليه لا على العمل الذي قاموا به مهما كان .

جـ - والأخذ بالأسباب مع التوكل على الله ، والأسباب في هذين المجالين كثيرة[1] لا يمكن الاستغناء عنها مع التوكل على الله حق التوكل .

* * *

(١) في تفصيل تلك الأسباب : انظر لنا : فقه الدعوة إلى الله ، وفقه الأخوة في الإسلام .

الآيتان الثانية عشرة والثالثة عشرة

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

– الحديث في هاتين الآيتين الكريمتين عن بني إسرائيل ، وقد تضمن الحديث عنهم أموراً هي :

- الإخبار بأن الله تبارك وتعالى أخذ عليهم الميثاق بما جاءت به التوراة من : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل وتأييدهم ، وتقديم الصدقات ، لكي ينالوا بذلك رضا الله تبارك وتعالى .
- والإخبار بأنهم نقضوا الميثاق فاستحقوا اللعنة ، وهي : البعد عن رحمة الله تعالى ، لأنهم خانوا ما واثقوا الله عليه وكفروا برسل الله وقتلوا بعض الأنبياء ، وكان ذلك نتيجة لقسوة قلوبهم وتحريفهم كلام الله عن موضعه ، ونسيانهم جانباً مما ذكروا به – وهو وجوب الإيمان والطاعة كما جاءتهم بذلك رسلهم وكتبهم .
- وإخبار الله تبارك وتعالى خاتم أنبيائه محمد ﷺ بأنه سوف يرى من بني إسرائيل خيانة بعد خيانة ماداموا مجاورين له عليه الصلاة والسلام : إلا قليلاً منهم ممن دخلوا في الإسلام كعبد الله بن سلام وإخوانه رضي الله عنهم .
- وفي الآية الثانية أمر للرسول ﷺ بأن يعفو ويصفح عما سلف من هؤلاء القلة الذين دخلوا في الإسلام من اليهود ، أو أمر له بالعفو والصفح عنهم جميعاً ، لأن

هذا أدب برسول الله ﷺ إيثاراً للإحسان والفضل، على ما يقتضيه العدل .

– وتضمنت الآيتان الكريمتان تقريراً وتأكيداً بأن الله تبارك وتعالى يحب المحسنين ، فقد اعتبر العفو والصفح إحسان إلى هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب .

وفي بيان ذلك وتفسيره نقول وبالله التوفيق :

– من رحمة الله بعباده ولطفه بهم أنه لا يعذب أحداً من خلقه حتى يرسل الرسول والمنهج ، فيعصي الناس الرسول ويرفضون المنهج فيستحقون العذاب ، ومن سنة الله تعالى في التعامل مع خلقه أن يأخذ عليهم أولاً الميثاق على السمع الطاعة حيث أخذه على أمة محمد ﷺ – على نحو ما شرحنا ذلك في الآية السابعة من هذه السورة الكريمة ، وكما أخذه في هذه الآية الثانية عشرة التي نشرحها الآن على بني إسرائيل ، حيث واثقهم على الإيمان والطاعة ، وعلى الرغم من هذا الميثاق فقد نقضوه على النحو الذي سنبينه الآن .

– تضمن ميثاق الله على بني إسرائيل أموراً عديدة كلها مما هو في صالح دنياهم وأخراهم ، ما جاءت به التوراة التي أنزلها على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام ، وهذا الميثاق لا يزال ثابتاً في أسفارهم الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه الصلاة والسلام[1] ، ويتضمن هذا الميثاق – كما دلت على ذلك الآية الكريمة – مفردات هي :

- إقامة الصلاة كما شرعها الله لهم ، الصلاة التي تصل العبد بربه وتهذب أخلاقه وتنهاه عن كل ما يغضب الله عز وجل .
- وإيتاء الزكاة لكي تتحق الأهداف من شرعيتها وهي تحقيق الأمن الاجتماعي والعدالة الاجتماعية .
- والإيمان برسل الله جميعاً دون تفرقة بينهم ، سواء من مضى منهم أو من بقى ولم يأت بعد ، إذ كلهم من عند الله ، وكلهم جاءوا بعبادة الله وحده .

---

(١) وهذه الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه الصلاة والسلام والتي تسمى « التوراة » هي : التكوين ، والخروج ، واللاويون ، والعدد والتثنية .

- وتقديم الصدقات لمن يحتاج إليها ، لدفع حاجة المحتاجين .وقد سمى الله هذه الصدقات فرضًا لله تعالى .

– وقد جعل الله تعالى جزاء الوفاء بهذا الميثاق ثوابين عظمين هما :

- تكفير السيئات عمن وفّوا ، ومن المعروف أن كل إنسان له سيئاته إذ لا عصمة لأحد من الخطأ إلا من عصم الله من نبي أو رسول ، وتكفير السيئات جزاء عظيم لا يناله إلا الموفون بعهدهم وميثاقهم .
- وإثابتهم بأن يدخلهم جنة تجرى من تحتها الأنهار ، وتلك أعظم ما يطمح إليه عابد لربه ، والجنة لا تنال – على وجه الحقيقة – بالعمل ، لأنه لا يوجد عمل يساوي الحصول عليها ، وإنما تنال بفضل الله على من يشاء من عباده .

– وجعل الله تبارك وتعالى جزاء الإخلال بالميثاق أموراً على درجة كبيرة من الخطورة هي – كما ورد ذلك في هذه الآية الكريمة :

- من نقض ميثاق الله فقد كفر وضل عن سواء السبيل ، والسبيل هنا هو ما جاءهم به رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام من توحيد الله وعبادته والاستجابة لما طلب منهم من أعمال .
- ومن نقض ميثاق الله فكفر وضل فإن الله سبحانه وتعالى يعاقبه بعقوبات عديدة منها :
  - إبعادهم عن رحمة الله أو طردهم منها وتلك هي اللعنة التي تحدثت عنها الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ لعنّاهم ﴾ .
  - وبهذا النقض للموثق عاقبهم الله بأن جعل قلوبهم قاسية بسبب تلك المعاصى التي ارتكبوها ، فلم يعودوا قادرين على قبول الهدى والحق والخير ، حيث صاروا أهل غلظة وعناد – وتلك من صفات اليهود .
  - وأنهم عبثوا بكتابهم فحرفوا كلام الله عن مواضعه فغيروا فيه وبدلوا وزادوا ونقصوا وحملوه غير ما أراد الله منه .

- وأنهم تركوا العمل به رغبة عنه إذ إنهم ﴿ **نسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ قال الحسن البصري : تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها .

روى الإمام أحمد في الزهد بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في تفسير الآية : إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها .

– وأما النقباء أو العرفاء الإثنا عشر ، فهم نقيب من كل قبيلة من قبائلهم أو أسباطهم ، أشهدهم الله على بني إسرائيل بهذا الموثق ، فضلاً عن شهادة رسولهم موسى ﷺ ، وهؤلاء النقباء الإثنا عشر يمثلون فروع بيت يعقوب – إسرائيل – عليه السلام ، وهم ذرية الأسباط – أحفاد يعقوب عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿ **وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً** ﴾ .

– ﴿ **وقال الله إني معكم** ﴾ أي قال ذلك للنقباء الأشهاد ، أو قاله لبني إسرائيل ، إني معكم لو وفيتم بالميثاق ، أعين وأسدد ، ومن كان الله معه فقد فاز ، ومن كان الله عليه فقد خسر الدنيا والآخرة ، فسقطوا إذ نقضوا الميثاق فخسروا معية الله بنقضهم لعهده .

– وأخبر الله تعالى خاتم أنبيائه محمد ﷺ بأن هؤلاء اليهود الذين نقضوا عهد الله وميثاقه ، سوف ترى منهم الخيانة والمكر والغدر بك وبأصحابك وبدينك قال مجاهد[1] وغيره من التابعين رحمهم الله : يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ .

واستعمال الفعْل ﴿ **لا تزال** ﴾ يدل على استمرارهم في الخيانة والغدر ، والرسول ﷺ يطلع على خيانتهم له ولدينه ولأصحابه .

---

(١) هو مجاهد بن جبر (٢١ – ١٠٤ هـ) تابعي مفسر قال عنه الذهبي : شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما قرأه عليه ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله : فيم نزلت وكيف كانت ... ؛ يقال إنه مات وهو ساجد عليه رحمة الله .

- ولليهود مع رسول الله ﷺ مواقف غدر كثيرة وله ﷺ معهم أساليب في التعامل متعددة ، ونود أن نوضح هذا وذاك كما ورد في كتب السيرة النبوية المطهرة على النحو التالى :

١ - عندما قدم النبي ﷺ إلى المدينة المنورة مهاجراً إليها من مكة المكرمة رغب في مصالحة اليهود وموادعتهم ، فعقد معهم المعاهدات ، وكان أبرز ما تضمنته هذه المعاهدات أمور من أهمها :

- ألا يحاربوه ﷺ .
- وألا ينصروا عليه عدوا .

وهذا واجبهم ، وله في مقابل هذا الواجب حقوق يكفلها لهم النبي ﷺ والمسلمون ، وهذه الحقوق هي :

- أن يكونوا بذلك آمنين على أنفسهم .
- وأن يكونوا آمنين على أموالهم .
- وأن يكونوا آمنين على حريتهم الدينية .

ولقد غَدَرَ اليهود بهذه المعاهدات ، فنصروا أعداء رسول الله ﷺ عليه أكثر من مرة ، وحاولوا قتله غيلة أكثر من مرة ، وحاولوا سمَّه ، وألبوا عليه أعداءه وخانوا ونقضوا العهود .

ولقد كان لكل موقف غدر منهم أسلوب في تعامل رسول الله ﷺ معهم يلائم ما قاموا به من خيانة ، ولكي نوضح هذه الصورة بدقة ، نقول وبالله التوفيق .

٢ - اليهود في المدينة المنورة وحولها :

كان اليهود حول المدينة المنورة في عهد الرسول ﷺ ثلاث طوائف أو قبائل هي :

أ - بنو قينقاع .
ب - وبنو النضير .
جـ - وبنو قريظة .

وكان لكل منهم مع رسول الله ﷺ قصة نود أن نوضح أبعادها فيما يلي :

أ - يهود بني قينقاع :

كانوا أول من غدر برسول الله ﷺ وخاسوا بمعاهدته لهم - وكانوا يسكنون داخل المدينة المنورة - ولما قدم رسول الله ﷺ من بدر - وقد نصره الله على المشركين ، بغت يهود وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد ، فجمعهم بسوق بني قينقاع وقال لهم : يا معشر يهود أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله ، فقالوا : يا محمد لا يغرَّنك مَنْ لقيت ، إنك قهرت قوماً أغمارا ، وإنا والله أصحاب الحرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا ، ثم توسع اليهود في تحرشهم بالمسلمين واستفزازهم ، فكانوا يثيرون الشغب ويتعرضون للمسلمين بالسخرية ، ويؤذون كل من ورد سوقهم من المسلمين ، ثم زادوا على ذلك أن تعرضوا لبعض نساء المسلمين بالأذى ، حتى كانت حادثة المرأة المسلمة التي أراد منها أحد اليهود أن تكشف عن وجهها فأبت ، فعقد أحدهم طرف ثوبها بظهرها فانكشفت سوءتها عندما قامت فاستغاثت ، فقتل أحد المسلمين صاحب هذه الفعلة فتالأ عليه اليهود فقتلوه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[1] فنبذ إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسة عشر يوماً فاستسلموا ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ وكان هو القتل ، لكن عبد الله بن أبي سأل رسول الله ﷺ ألا يقتلهم فاستجاب له ، واكتفى بأن أمرهم بالجلاء عن المدينة ، فخرجوا منها مذمومين مدحورين .

ب - يهود بني النضير :

وكانوا قريبين من المدينة وهم الذين دبروا اغتيال رسول الله ﷺ حين ذهب إليهم يستعين بهم في دية قتيلي بني عامر - الذين ذكرنا قصتهما آنفاً - وأمر رسول الله ﷺ يهود بني النضير بأن يخرجوا من المدينة - لنقضهم العهد ومحاولتهم اغتيال الرسول ﷺ وأمهلهم عشراً ، فمن بقي منهم بعد هذه العشر ضربت عنقه .

---

(١) سورة الأنفال : ٥٨ .

وكان عبد الله بن أبي - رأس النفاق - قد وعدهم بأن ينصرهم وبأن ينصرهم بنو قريظة ، فرفضوا أمر رسول الله ﷺ ، ثم خذلهم عبد الله بن أبي ولم تستجب بنو قريظة لنجدتهم ، وقد خرج إليهم النبي ﷺ يحمل لواءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فحاصرهم رسول الله ﷺ .

يقول المقريزي في ذلك : « وأقام - أي رسول الله ﷺ - على حصار يهود خمسة عشر يوماً حتى أجلاهم وولى إخراجهم محمد بن مسلمة ، وكانوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم ، والمسلمون يخربون ما يليهم ، ويحرقون حتى وُقّع الصلح ، فجعلوا يحملون الخشب ، ويحملون النساء والذرية وشقوا سوق المدينة ، والنساء في الهوادج عليهن الحرير والديباج وحلي الذهب والمعصفرات ، وهن يضربن الدفوف ويزمرن بالمزامير تجلداً ، وقد صفّ لهم الناس وهم يمرون ، فكانوا على ستمائة بعير ، فنزل أكثرهم بخيبر فدانت لهم ، وذهبت طائفة منهم إلى الشام ، فكان ممن صار منهم إلى خيبر أكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن »[1] .

ولما طال بهم الحصار طلبوا أن يخرجوا من المدينة سالمين ، وكان النبي ﷺ قادراً على استئصالهم ولكنه آثر العفو والإحسان ، فسمح لهم بالخروج فخرجوا مهزومين صاغرين ، لا يحرز ماله منهم إلا من دخل في الإسلام فأسلم منهم يامن بن عمر ، وأبو سعد بن وهب فأحرزا أموالهما .

ج - يهود بني قريظة :

وهؤلاء كانوا قد غدروا برسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم ، وعاونوا المشركين ضد المسلمين في غزوة الأحزاب أو الخندق وبدت عندئذ عداوتهم لله ورسوله .

وعندما هزم الله الأحزاب وفرق شملهم وردهم على أدبارهم ، استراح المسلمون ووضعوا السلاح .

---

(١) المقريزي : إمتاع الأسماع .. : ١/ ١٨١ .

قال ابن إسحٰق : « فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ - كما حدثني الزهري - معتمما بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعتُ إلّا الآن من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا ، فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصليّن العصر إلا في بني قريظة »[1] .

وقال المقريزي : « وتقدمت الرماة من المسلمين وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص : يا سعد تقدم فارمهم ، فرماهم والمسلمون ساعة ، ويهود ترامبهم ورسول الله ﷺ واقف على فرسه فيمن معه .

ثم انصرفوا - أي المسلمون - إلى منازلهم ، وباتوا وقد بعث إليهم سعد بن عبادة بأحمال تمر فأكلوا ، وقال رسول الله ﷺ : نعم الطعام التمر .

واجتمع المسلمون عنده عشاء ، ومنهم من صلى ومنهم من لم يصل حتى جاء بني قريظة فما عاب على أحد من الفريقين .

ثم غدا سحرا وقدم الرماة وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصون يهود ، ورموهم بالنبل والحجارة وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا ، فباتوا حول الحصون ، فنزل نبّاش ابن قيس وكلم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير : له الأموال والحلقة ويحقن دماءهم ، ويخرجون من المدينة بالنساء والذراري ، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه ، وعاد نبّاش إليهم بذلك »[2] .

وحاصرهم النبي ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ... ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ / ٢٣٣ ط الحلبي القاهرة ١٩٥٥ م .

(٢) المقريزي : إمتاع الأسماع .. : ١ / ٢٤٣ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة . ١٩٤١م .

وجاء الأوس إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يهبهم لهم لما كان لهم من حلف معهم ، كما فعل مع يهود بني قينقاع ، ولكن رسول الله ﷺ قال للأوس ألا ترضون فيهم حكم سيدكم ؟ قالوا : بلى ، فجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ سيد الأوس.فحكم فيهم بأن يقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري ، فقال رسول الله ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة - أي سموات - جمع رقيع »

وبعد : فتلك قصة اليهود موجزة غاية الإيجاز كما أشارت الآية الكريمة إلى غدرهم وخيانتهم .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآيتين الكريمتين ، ينبغي أن نتعلم من هاتين الآيتين ما يلي :

١ - أن أخذ الميثاق والعهد أساس أصيل في التعامل ، فقد كان ذلك من سنن الله مع خلقه ، فقد أخذ الميثاق على المؤمنين - كما أشرنا - وأخذ العهد على اليهود ، وسوف نرى - في الآية التالية - أنه أخذ العهد على النصارى ، وذلك يعلمنا أن تعاملنا مع غيرنا من الناس ينبغي أن يخضع لعهد وميثاق ، حتى يستوثق كل من الطرفين لنفسه وحتى تكون الحقوق واضحة والأعمال محوطة بأسباب نجاحها وكلما كان العهد مكتوباً كان أدعى للتوثيق ولحفظ الحقوق .

٢ - ويتعلم المؤمنون من موضوع النقباء والعرفاء ، أن التنظيم والرياسات والولايات من الأمور المشروعة ، بل هي مما يعين على إتمام العمل وإنجاز العهود والمواثيق .

لأن النقيب أو العريف أو الرئيس كفيل بمن يتولى أمرهم ومسئول عنهم ، لأنهم هم الذين اختاروه ليرأسهم ويلي شئونهم ، وهؤلاء النقباء أو العرفاء أو الرؤساء يمكن أن يكونوا شهداء على أقوامهم إن نقضوا عهدا أو أخلوا بميثاق ، إذا لم يستطيعوا إلزامهم بالوفاء .

وهذه النقابة أو الرئاسة من معالم العمل في تاريخ الإسلام ، بل من معالم العمل الناجح .

٣ - وأن العهود والمواثيق يجب أن تكون واضحة المعالم ، بينة الشروط محددة البنود ،

مشتملة على جزاء الوفاء وجزاء الغدر والنكث ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

مع اليقين بأن الله تبارك وتعالى يكون دائماً مع الموفين بعهدهم إذا عاهدوا يعين ويؤيد وينصر ويمد بالأسباب ، وأنه سبحانه يكره الغادرين الناقضين لعهدهم وميثاقهم ويبعدهم عن رحمته .

وهذا ما يؤيد أن موضوع الثواب والعقاب مبدأ عادل أقره الله تبارك وتعالى ، ورضى لنا أن نتعامل به فنثيب من أحسن ووفى ، ونعاقب من أساء ونقض العهد وخان الميثاق .

٤ – ونتعلم من هاتين الآيتين الكريمتين أن بعض الناس لهم صفات لا تفارقهم ، حيث طبعوا عليها وأصبحوا معروفين بها ، كما أوضحت الآية الكريمة صفات اليهود في ماضيهم أيام نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ، وأن تلك الصفات قد استمرت معهم حتى زمن محمد ﷺ ، وأنها مستمرة معهم إلى زمننا هذا في القرن الخامس عشر الهجري – كما يبدوا ذلك واضحاً في كل أعمالهم ، ويتضح بجلاء في المبادئ التي يدينون بها والقيم التي يتحاكمون إليها .

فهم لا يزالون وسوف يظلون قاسية قلوبهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، وينسون أو يتناسون ما يجب عليهم ، ويمارسون الخيانة والغدر ونقض العهود والمواثيق .

٥ – وأن على المؤمنين أن يتعلموا من هاتين الآيتين الكريمتين ذلك الخلق العظيم ، خلق العفو والصفح هو الإحسان الذي يرغبُ كل مؤمن أن يكون من أهله ، ليكون من بين من يحبهم الله سبحانه وتعالى ، فالله مع المحسنين ويحب المحسنين ، وأن يقتنعوا بأن الإحسان مرتبة أعلى من مرتبة العدل .

وأن هذا التحلى بالعفو والصفح لا ينبغي أن يتسبب في ضياع حق من حقوق الله أو حق من حقوق العباد .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة من هاتين الآيتين الكريمتين ، يعلمنا ما يلي :

١ - الدعاة إلى الله والعاملون في مجال الحركة الإسلامية يجب أن يخضعوا عملهم للشروط والعهود والمواثيق ، وهم بإذن الله أهل وفاء بما عاهدوا عليه الله أو الناس ، لكن عليهم أن يكونوا مستعدين دائماً لمكافأة من وفوا من الناس بشروطهم والإحسان إليهم ، والصفح والعفو عمن لم يوفوا بهذه الشروط لأنهم في مجال التعليم والتعلم ، وهو مجال يحتاج إلى الإحسان والإثابة أكثر مما يحتاج إلى العدل والعقوبة .

إن المربي ما ينبغي أن يلجأ إلى العقاب إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب التي تسبق العقاب ، وما أكثرها من أسباب !!!

٢ - وعليهم أن يتعلموا أن العهود والمواثيق والشروط من أجل العمل الإسلامي ، هي نصرة الإسلام لأنها أخذ بالأسباب ، ودعم للحق والخير ، وأهل الوفاء بذلك هم أهل الأجر العظيم والمثوبة الحسنة عند الله تعالى .

وعليهم أن يتعاملوا مع أنفسهم ومع غيرهم وقد رسموا أبعاد ما يقومون به من عمل ، وأوضحوا شروطه وآدابه وبينوا معالمه .

إن ذلك درس عميق يتعلمه المسلم من هذه الآية الكريمة إن الله تعالى قد أخذ العهود والمواثيق على أهل الكتاب أو الذين أوتوا الكتاب أن يؤمنوا بالله ويطيعوه ويلتزموا بمنهجه وكان ذلك من سنة رسول الله ﷺ إذ أخذ العهود والمواثيق في بيعتي العقبة الأولى والثانية ، وفي بيعة الرضوان تحت الشجرة .

والذي يبايع على العمل من أجل الإسلام فكأنما يبايع الله سبحانه وتعالى ، فإن وفّى فله الأجر العظيم ، مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

٣ - والدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية عليهم أن يذكّروا أنفسهم أولاً ، ومن يدعونهم ويعملون معهم ثانياً : أن نقض العهود والمواثيق - التي هي في الأصل من أجل نصرة دين الله ومنهجه ونظامه - ضلال عن سواء السبيل ،

---

(١) سورة الفتح : ١٠ .

وأن هذا الضلال عن الحق يعقب في نفوس الناقضين للعهود قسوة القلب وميلا عن الحق وتركاً للعمل الصالح الذي يترجم الإيمان الصحيح ويعبر عنه .

لقد نبهت الآية الكريمة إلى ذلك فيما يخص اليهود من أهل الكتاب ، إن على الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يحذروا كل الحذر عدم الوفاء بالعهود والشروط والمواثيق ، لأن معنى ذلك أن يوصف غير الأوفياء بعهودهم بصفات اليهود حين نقضوا العهود فأبعدوا عن رحمة الله وقست قلوبهم وحرفوا منهج الله ، وأصبحت الخيانة والغدر من أبرز صفاتهم .

٤ -- وعلى الدعاة إلى الله ، والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يعلموا دائماً أن المدعوين إلى الله ، وكثيراً ممن يطلب منهم الانخراط في مجال العمل الإسلامي ، كثيراً ما يحدث منهم تجاوز أو تراجع أو توقف في منتصف الطريق ، بل يحدث أحياناً من بعضهم انتكاس ونقض للعهود كلها أو بعض ما وُوثِقوا عليه أو شُرِط عليهم ، فهذا يتوقع غالباً من معظم الناس ، كما أوضحت ذلك الآية الكريمة التي تقول: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] .

وما رواه الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة » ورواه ابن ماجة والترمذي بسندهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً .

وبناء على ذلك فلابد من التعامل مع هؤلاء المدعوين على أنهم كثيراً ما يقصرون ويخطئون لأن ابن آدم خطاء وخيرهم من كان أسرع إلى التوبة ، روى الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

إن على الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يفتحوا لمن قصر أو أهمل أو لم يف بعهده وميثاقه باب التوبة واسعاً ، حتى يصبحوا من خير الخطائين .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٣ .

٥ - وعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يتعاملوا مع الناس جميعاً بمبدأ العفو والصفح عند الخطأ أو التقصير ، لأن الله تبارك وتعالى طلب من خاتم أنبيائه محمد ﷺ الذي أخبره بأنه سوف يظل يطلع على خيانة اليهود وغدرهم - أن يعامل اليهود بالعفو والصفح ، والذي أومن به أنَّ الناس جميعاً أقل شراً وضرراً وحسبا في نقض العهود من اليهود ، فكيف لا يعامل الناس بالعفو والصفح ليكون الدعاة والعاملون في مجال الحركة الإسلامية في دائرة المحسنين الذين يحظون بمعية الله ويتمتعون برحمته ؟

إن ذلك درس عظيم ما ينبغي أن يغيب عن العاملين من أجل الإسلام .

* * *

الآيات من الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ (١٤) يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ (١٥) يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ .

هذه الآيات الكريمة الثلاث تخبرنا بأن الله تبارك وتعالى ، قد أخذ الميثاق على النصارى كما أخذه على اليهود ، وأن النصارى لم يفوا بميثاقهم كما لم تف يهود .

– وهذه الآيات الكريمة تتضمن عدداً من الأخبار ، وهي كلها ذات صلة بالنصارى ، كما تتضمن عدداً من الحقائق ذات الأثر الكبير في التعرف على ما يترتب على طاعته أو معصيته .

– أما الأخبار في الآيات فنسوقها فيما يلي :

– الخبر الأول :

أخبر الله سبحانه بأنه أخذ العهد على النصارى وواثقهم على توحيده سبحانه والإيمان بخاتم أنبيائه محمد ﷺ ، إذ هو مكتوب عندهم في الإنجيل .

﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ ومفردات هذا الميثاق معروفة ، وهي كل ما يوجبه التوحيد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما يوجبه من التعبير عن هذا الإيمان بالعمل الصالح الذي يمارسه الإنسان مع نفسه ومع غيره من الناس .

والتعبير بقوله تعالى : ﴿ **الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ دون أن يقول : ﴿ **أخذنا من النصارى ميثاقهم** ﴾ يوحي أنهم ابتدعوا وتسموا بها - كما قال ذلك الحسن البصري رحمه الله - وهم طائفة من أهل الكتاب الأول ، وهم الذين قالوا إنهم اتبعوا المسيح ونصروه ، وقد صاروا طائفة مستقلة مؤلفة من الإسرائيليين وغيرهم .

- **والخبر الثاني :**

أنهم - أي النصارى - نقضوا ميثاقهم ، ونسوا جانباً مما دعاهم الله إليه وذكرهم به على لسان المسيح عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿ **فنسوا حظاً مما ذكروا به** ﴾ أي نسي النصارى ما دعاهم الله إليه وهو الإيمان بمحمد ﷺ وقد ذكرهم المسيح بذلك ، فلم يستجيبوا وجعلوا الهوى والحسد سبباً للكفر بمحمد ﷺ .

- **والخبر الثالث :**

أن موقفهم من نقض ميثاق الله تعالى أدّى إلى أن تهيج بينهم العداوة والبغضاء ، وأن يسودهم التفرق واتباع الهوى في الدين ، وقد أسند ذلك في الآية الكريمة إلى الله تعالى وإن كان من صميم أعمالهم الاختيارية لأن ذلك من مقتضى سننه سبحانه في خلقه ، قال تعالى : ﴿ **فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ وصدق الله فقد اختلفوا وتفرقوا وصاروا شيعاً وكنائس ومذاهب وطوائف ولا يزالون كذلك وسوف يظلون ، لأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به .

- **والخبر الرابع :**

أن الله تبارك وتعالى أوضح جزاءهم في الآخرة بعد أن أوضح جزاءهم في الدنيا بإغرائهم بالعداوة والبغضاء ، فقال : ﴿ **وسوف ينبئهم بما كانوا يصنعون** ﴾ فأخبرهم بحقيقة ضلالهم ، وهددهم بأنه سوف يجازيهم على ذلك الضلال ليعلموا أنه سبحانه حكم عدل ، لا يظلم مثقال ذرة ، بعد أن يلزمهم الحجة بأن يخبرهم بما كانوا يصنعون ، وكلمة ﴿ **يصنعون** ﴾ توحي بأنهم كانوا يجيدون هذا الضلال ، لأن الصنع إجادة الفعل .

- والخبر الخامس :

أن الله تبارك وتعالى أرسل نبيه الخاتم محمداً ﷺ إلى كل الناس ، ومنهم أهل الكتاب من يهود ونصارى وقد كان من عمل الرسول ﷺ مع أهل الكتاب أن بيّن لهم ما كانوا يخفونه عندهم من الحقائق والأحكام كإخفائهم حكم رجم الزاني ، وقصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة .

وقد بين لهم رسول الله ﷺ ما فيه حجة على نبوته ودلالة على صدقه وشهادة برسالته ، وتجاوز لهم عن كثير من أقوالهم وأعمالهم وكيدهم له : ﴿ **يٰأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم ما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير** ﴾ .

- والخبر السادس :

أن الله تبارك وتعالى قد أنزل على أهل الكتاب ، وعلى سائر الناس كتاباً هو القرآن الكريم ونبياً هو محمد ﷺ وديناً هو الإسلام ، وأن القرآن والنبي والدين نور يهدى الناس جميعاً لما فيه صالح معاشهم ومعادهم ، وبهذا النور يخرجون من ظلمات الشرك والجهل والباطل إلى نور الإيمان والعلم والحق ، وهذه من نعم الله التي لا يقادر قدرها ، ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ .

- وأمّا الحقائق التي تضمنتها هذه الآية الكريمة فمنها ما نذكره فيما يلي :

- ﴿ **الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ هذه حقيقة تؤكد أن طائفة من أهل الكتاب الأول سموا أنفسهم نصارى ، وليسوا هم نصارى ، وزعموا أنهم تبعوا المسيح عليه السلام ونصروه وآمنوا بما جاء به ، وهؤلاء هم طائفة مستقلة مؤلفة من الإسرائيليين وغيرهم ، وهم بذلك قد نقضوا الميثاق ونسوا حظاً مما ذكروا به على لسان المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، ففعلوا كما فعل الذين من قبلهم .
- والحقيقة الثانية أن كل من نسوا شيئاً من أمر الله وعهده وميثاقه أو أهملوه ، فإن ذلك يكون مسبّبا لوقوعهم في الأهواء والتفرق في الدين ، وهذا وذاك يؤدي إلى

العداوة والبغضاء ويغرى بالتحريش بين هؤلاء الناسين وتلك سنة من سنن الله في خلقه ، وقد جرت بين النصارى ولا تزال تجرى إلى اليوم ، فهم لا يزالون مختلفين وسيظلون .

- والحقية الثالثة أن النصارى كانوا كاليهود في مخالفتهم وعنادهم لجانب ماأمرهم الله به وجاءهم على لسان المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ولذلك أسباب تاريخية معروفة نشير إلى بعضها فيما يلي :

- المسيح عيسى بن مريم لم يكتب ما أمروا به من توحيد الله وتمجيده ، بل لم يكتب مواعظه لهم – تلك حقيقة ثابتة عندهم وعند معظم المؤرخين .

وربما كان السبب في عدم الكتابة أن من اتبعوا المسيح عليه السلام كانوا من العوام ، وأن أحسنهم كانوا هم الحواريون – وهم صيادون – يضاف إلى ذلك أن اليهود كانوا قد اشتدوا في عداوتهم ومطاردتهم ، بل قتلوا كثيراً منهم ، وأدى ذلك وغيره إلى أن من اتبعوا المسيح عليه السلام لم يستطيعوا مع هذه الظروف أن يكونوا هيئة اجتماعية ذات علم تدون ما حفظت من الإنجيل وتحفظه بهذه الكتابة والتدوين .

- وتؤكد كثير من الدراسات في المسيحية وتاريخها وبعض كتبهم المقدسة أن كثيراً من الناس كانوا ينشرون عن المسيح عليه السلام تعاليم باطلة ، لا يمكن أن تكون من عند الله لما تضمنته من أمور لا تليق بالله سبحانه ولا بأنبيائه عليهم السلام ، ولا يعقل أن ترد على لسان المسيح عليه السلام .

- وأن الذين كتبوا كتباً عن المسيح عليه السلام ، إنما فعلوا ذلك بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح ، وقد سموا هذه الكتب أناجيل – كما صرحوا هم بذلك – .

وأشهر هذه الأناجيل عندهم أربعة ، وقد ظهرت جميعها بعد المسيح بثلاثة قرون أو يزيد ، وذلك عندما دخل الملك قسطنطين في المسيحية وأصبح للمسيحيين دولة سيطر عليها قسطنطين ، وأدخل المسيحية في طور جديد قريب جداً من الوثنية – على نحو ما هو معروف – .

- وهذه الأناجيل الأربعة المشهورة متناقضة فيما بينها فضلاً عن كونها مجهولة الأصل والتاريخ ، وتناقضها هذا دليل على أنها ليست هي الإنجيل الذي جاء به المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام .

- استنباط المواقف التربوية العامة التي نتعلمها من هذه الآيات الكريمة :

١ – أن نظام الله تبارك وتعالى في التعامل مع النصارى كان نفس نظامه في التعامل مع اليهود من قبل ومع المسلمين من بعد ، وهو أخذ العهود والمواثيق على الجميع بأن يؤمنوا بالله ورسله جميعاً دون تفريق بينهم ، وأن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن ينزهوه ويقدسوه ، وأن يعملوا الصالحات ، يتبين ذلك من قوله تعالى : **﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾** .

فأخذ الله الميثاق على عباده على العمل الصالح من قبل ، سنة من سنن الله تبارك وتعالى ، يجب أن نتعلمها بل نعتمدها أسلوباً في حياتنا .

ووضع الشروط ، وتشريع الثواب والعقاب سنة من سنن الله تبارك وتعالى ، وذاك درس يعلمه الله من شاء له الهدى من عباده ، حتى يتعلم ما لو عمل به نجا في دنياه وآخرته .

٢ – وأن كثيراً ممن أخذ الله عليهم العهد والموثق نسوا جانباً مما عاهدهم الله عليه ، فكان لذلك نتيجتان حاسمتان إحداهما في الدنيا وهي وقوعهم في الفتن والفرقة والخلاف وتأريث العداوة والبغضاء فيما بينهم ، والثانية في الآخرة وهي حساب الله تعالى لهم على هذا التقصير ، وعقابهم بعد أن يلزمهم الحجة إذ ينبئهم بما كانوا يصنعون الضلال أي يجيدون ممارسته .

وهذا يعلمنا أن أي إهمال فيما واثق الله عليه عباده ، سوف تكون له هذه النتائج نفسها مع أي أمة من الأمم في أي زمان ومع أي نبي .

ومعنى ذلك أن مصلحة الدنيا والآخرة هي في الالتزام بما جاء من عند الله على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، إن ذلك هو النجاح والفلاح .

٣ – وأن الله تبارك وتعالى قد أكرم البشرية كلها بأن حباها بالقرآن الكريم وبهدى النبي الخاتم محمد ﷺ فضمنت بذلك أكمل منهج وأوفى نظام ، ومنظومة رائعة متماسكة البناء من الإيمان الصحيح والإسلام السليم والعدل الشامل والإحسان العام ، والأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ، والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .

وأن المهتدين بالقرآن الكريم وسنة خاتم المرسلين هم الذين يستطيعون أن يصلوا بأعمالهم الصالحة إلى سبل السلام المؤدية إلى الجنة ، وهم بذلك يخرجون من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم .

● واستنباط المواقف التربوية من الآيات الكريمة في مجالي الدعوة والحركة ، يهدينا بفضل الله إلى ما يلي :

١ – أن الدعوة إلى الله كل لا يتجزأ ، وأن الذين يلتزمون من خلال استجابتهم لما أمر الله ، وانتهائهم عما نهى سبحانه عنه ، عليهم أن يوقنوا أن هذا الالتزام يجب ألا يداخله تفرقة أو تجزئة أو إهمال شيء مما جاء من عند الله مهما كان صغيراً أو قليلاً ، إذ يجب أن يكون كاملاً غير منقوص خالصاً لله تعالى ، غير مشوب بأي شائبة .

وأن على الدعاة إلى الله بوجه خاص أن يوقنوا بأن نسيان شيء مما أمر الله به أو نهى عنه سوف يكون سبباً في الفرقة والخصام واتباع الهوى وضياع المكان والمكانة وسقوط المهابة وذهاب الريح ، ومعنى ذلك أن تصبح الدعوة إلى الله محفوفة بمخاطر الفشل ، ومحوطة بأسباب الخذلان .

٢ – وعلى الدعاة إلى الله وهم يعرضون على المدعوين كتاب الله وسنة الخاتم المعصوم ﷺ ، أن يقنعوهم بأنهم يعرضون عليهم الهدى والنور ، والمنهج المتكامل الذي ارتضاه الله تعالى للبشرية كلها دينا حتى تخرج به من الظلمات إلى النور .

ومعنى ذلك أن يعتز الدعاة إلى الله بما يدعون إليه الناس من منهج ونظام ، وهذا الاعتزاز يولد لدى الدعاة ثقة في نجاحهم وفلاحهم ، وينعكس هذا على

المدعوين فيصبحون على ثقة كبرى بما دعوا إليه من الحق ، فيزدادون استمساكا به وتواصياً به وصبراً عليه ، ورضا بما يلحقهم في سبيله من متاعب وأوصاب .

إن العمل الإسلامي بكل مفرداته ينبغي أن يرتكز في متطلباته على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وما جاء فيها من منهج يتضمن النظم والأحكام والأخلاق والآداب .

وأولى بالدعاة إلى الله أن يلجئوا دائماً إلى الكتاب والسنة لتأصيل ما يدعون إليه من شأن يصلح للناس أمور دينهم ودنياهم ، إن الكتاب والسنة يجب أن يكونا ملجأ ومفزعاً للعاملين في حقل الإسلام في مجالات الدعوة والحركة والتربية والتنظيم .

٣ – وعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يوقنوا بأن عناية الله ورعايته وهدايته ونصره وتمكينه لدينه وللأمة الإسلامية حقيقة واقعة إن لم تكن اليوم فإنها ستكون غداً ، ولكن هذا الغد يقرب أو يبعد على قدر ما يتوفر للدعاة والمدعوين من تمسك بمفردات الإيمان وأركان الإسلام وشمولية العدل والإحسان وعمومية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو يومئذ متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا الله تبارك وتعالى ، فقال : « قد كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فيحفر له في الأرض ، فيجاء بالمنشار على رأسه فيجعل بنصفين فما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب فما يصده ذلك ، والله لَيُتمَّن الله عز وجل هذا الأمر حتى يسير الراكب من المدينة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه ،

ولكنكم تستعجلون » . .

وهذا اليقين من شأنه أن يبعث الأمل في نفوس العاملين من أجل الإسلام ، وأن يجدد إيمانهم وثقتهم بالله سبحانه وتعالى وبمعيته لهم وتوفيقه ، وقديماً قال بعض أسلافنا الصالحين : لعمري من كان الله معه فأي شيء خسر ؟ ومن كان الله عليه فأي شيء ربح ؟

* * *

الآيتان السابعة عشرة والثامنة عشرة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

– يتحدث الله تبارك وتعالى في هاتين الآيتين عن مظاهر كفر النصارى ، واليهود ، ويفضح ضلالهم ويرد عليه بالحجة بعد أن أخذ عليهم الميثاق فلم يفوا به فلزمتهم الحجة ، وظهر باطلهم وكفرهم .

– هاتان الآيتان الكريمتان تتضمنان ما يلي :

– خبرين ،

– وردًا على دعوين ،

– وتقريرين .

ولتوضيح ذلك نقول سائلين الله العون والتوفيق :

ـ أما الخبران فهما :

- **الخبر الأول** : وهو بيان كفر من قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، وتأكيد كفرهم بهذا القول ، حيث نصت على ذلك الآية : **﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾** .
- **والخبر الآخر هو** : بيان أن اليهود والنصارى كلاهما قالوا : إنهم أبناء الله وأحباؤه ، الذين يعاملهم معاملة الرحمة والإحسان ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ .

— وأما الردّان فهما :

- **الأول هو** : أن يخبرهم النبي ﷺ أن ادعاءهم بأن الله هو المسيح عيسى بن مريم ادعاء بطل ، إذ كيف يكون إلهاً من كان إنساناً يرد عليه الموت كسائر الناس ؟ فمن ذا الذي يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به قدرة الله على إهلاك مخلوقاته المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً إن أراد الله سبحانه ذلك ؟

- **والرد الآخر هو** : على زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فقد أمر الله رسوله الخاتم ﷺ أن يحاجهم في هذه الدعوى قائلاً لهم : لو كانت دعواكم صحيحة فلم يعذبكم بذنوبكم ، كما رأيتم في ماضيكم ، إذا خرَّب العدو بلادكم وهزمتم واضطهدتم ووقعتم في الأسر البابلي ، أيها اليهود ، وكما حدث للنصارى من خلاف وفرقة ومحن واضطهاد ، وقراءة الماضي تنبيء عن الحاضر والمستقبل ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ **قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ فما أنتم أبناء الله وأحباؤه كما تزعمون ، ولن يعاملكم معاملة خاصة .

— وأما التقريران فهما :

- **الأول هو** : تقرير أن الله تبارك وتعالى له ملك السموات والأرض وما بينهما بما في ذلك المسيح وأمه عليهما السلام وأهل الأرض جميعاً ، فهو صاحب الأمر والإرادة يخلق ما يشاء مما يألفه الناس ويعتادون عليه كتوالد الطفل من أب وأم ، ومما لا يألفونه كأن يخلق رجلاً من غير الأبوين معاً كآدم عليه السلام أو يخلق امرأة من غير أم كحواء عليها السلام : أو يخلق طفلاً من غير أب كعيسى بن مريم عليهما السلام ، تلك طلاقة قدرته ، وليس لأحد من خلقه أن يكون كذلك لا المسيح عليه السلام ولا غيره ، فكيف يكون إلهاً من كان محدود الإرادة محدود القدرة ؟ تقرر ذلك في قوله تعالى : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير** ﴾ .

● **والتقرير الآخر هو** : أن الله تبارك له ملك السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات منها الناس وأن كل هذه المخلوقات تعبده وتسبح بحمده ، فالناس جميعاً عباد الله ، وليست طائفة منهم تحظى بصفة خاصة كزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهو زعم باطل كما أوضحنا آنفاً ، ومن زعمه كان مصيره إلى الله فيجازيه الجزاء العادل ، تقرر ذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير** ﴾ إن كلمة ﴿ **إليه المصير** ﴾ تحمل تهديداً لكل من خرج عن عهد الله وميثاقه ، أو ادعى إلهاً غير الله أو ادعى أنه مميز عن غيره من الناس بحكم خلقته وعرقه .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآيتين الكريمتين :

١ - نتعلم من هاتين الآيتين أن الذين يخوضون في آيات الله وفي ذاته وصفاته لا يخلو منهم المجتمع العالمي بحال ، وأنهم لا يعصمهم عن هذا الخلط وذاك أنهم أهل الكتاب ، وأن هؤلاء بهذا الخلط وذاك الضلال كفار سواء أكانوا من اليهود الذين قالوا : عزير بن الله ، أو النصارى الذين قالوا : ﴿ **إن الله هو المسيح بن مريم** ﴾ أو قالوا إن المسيح ابن لله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ومثل هؤلاء في الكفر أولئك الذين قالوا : إن الله حل أو يحل في أحد من خلقه ، كما قال بذلك النصارى وبعض الملحدين من المسلمين .

والقاعدة العامة في التعامل مع جلال الألوهية أن يوصف بما وصف به نفسه وأن يسمى بما سمى به نفسه ، وأن الخروج عن ذلك كفر بالله سبحانه وتعالى .

٢ - ونتعلم كذلك أن قدرة الله وطلاقة هذه القدرة لا حدود لها ، ولا عاصم للملحد منها ، فهو سبحانه له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وما فيهن وما بينهما وهو سبحانه على كل شيء قدير .

وأنه ليس لأحد أن ينخدع عندما يرى غريبة من غرائب خلق تختلف عما ألفه الناس ، فينطلقون من ذلك إلى توهمات وضلالات .

وقد كان أنبياء بني إسرائيل جميعاً يدعون إلى توحيد الله تبارك وتعالى وقد

سمو! هذه الغرائب من المخلوقات معجزات يؤيد الله تعالى بها من شاء من رسله عليهم السلام فما كان للنصارى ولا لغيرهم أن يخرجوا عن هذا السنن ، فيتبعوا الوثنيات التي كانت معروفة عند قدماء الهنود وقدماء المصريين الذين رأوا في غرابة بعض المخلوقات أو غرابة بعض أفعالهم دليلاً على ألوهيتهم وربوبيتهم ، لأن أولئك أهل وثنية وهؤلاء أهل كتاب !!!

٣ – ونتعلم من هاتين الآيتين أن أحدا من خلق الله وعباده ليس أقرب إليه ولا أحب إليه من سواه ، وأن توحيد الله والإيمان به إلهاً ورباً وعبادته وفق ما شرع وممارسته العمل الصالح هي التي تجعله أقرب إلى الله قرابة طاعة وعبادة لا قرابة نسب أو بنوة ، وأن هذه الطاعة تجعله أحب إلى الله من سواه .

ومن هنا يبطل الزعم بأن أحداً من خلق الله يتصل إليه ببنوة أو نحوها ، وأشد بطلاناً الزعم بأن الله تبارك وتعالى يحابي أحداً أو يجامله في الثواب والعقاب ، والبنوة لله سبحانه مرفوضة عقلاً وشرعاً ، وهي من مقولات اليهود والنصارى في ماضيهم السحيق ، وفي عهد خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فقد روى البيهقي بسنده – في الدلائل[1] – عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتى رسول الله ﷺ ابنُ أُبَيّ وبحرى بن عمرو وشأس بن عدي فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه » .

إن الزاعمين هذه المزاعم يتهمون الله تبارك وتعالى بالبشرية في أن له ابنا ، ويتهمونه بعدم العدل في المعاملة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فالله سبحانه ليس كمثل شيء وهومنزه عن الشبيه والمثل ، وهو سبحانه يعذب هؤلاء وأمثالهم لأنهم بشر ممن خلق يجرى عليهم سائر ما يجرى على خلقه ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

وهؤلاء الزاعمون سوف يصطلون – كما اصطلوا في الماضي – بنيران الفرقة والخلاف في الدنيا ، ثم ينتظرهم في الآخرة حساب مَنْ إليه المصير .

---

(١) هو كتاب : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ) نشر دار الريان للتراث مصر ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة ، التي نتعلمها من هاتين الآيتين ، نذكر منها ما يلي :

١ – أن يلتزم الدعاة إلى الله وهم يتحدثون إلى الناس بوصف الله سبحانه بما وصف به نفسه وتسميته سبحانه بما سمى به نفسه ، وألا ينخدعوا بتلك الصفات التي يشيع عند بعض المعاصرين استعمالها ، مهما كانت تلك الصفات حسنة عند الناس ، كأولئك الذين يقولون : « الله هو مهندس الكون ، أو مدبر هذا العالم إلى غير ذلك من الأوصاف » فليس من بين ما نعرفه في الشريعة من أسماء الله وصفاه « مهندس أو مدبر » فلا يجوز لداعية أن يجاري ما يسود ألسنة الناس من صفات ليصفوا بها الله تبارك وتعالى، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

٢ – ويتعلم الدعاة والعاملون في مجال الحركة الإسلامية ألا يسمحوا لأنفسهم ، ولا لمن يتعاملون معهم ، بأن يتصوروا أن أحداً منهم – مهما بلغ عمله الصالح وجهده المشكور في مجالي الدعوة والحركة – أصبح بما قدم من عمل أهلاً لأن يحابيه الله سبحانه وتعالى أو يعامله معاملة خاصة – كما زعمت اليهود والنصارى في قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه – إذ إن ذلك حرام لا يجوز لما يترتب عليه من وصف الله سبحانه بما لا يليق بجلاله وعدله وألوهيته وربوبيته ، ولما قد يترتب عليه من أن أحد الناس قد يستنيم إلى رصيده من هذا العمل الصالح ، ثم يتوقف عن العمل من أجل أن الله سوف يحابيه ويجامله .

إن في هذا ضياع للإيمان والعمل من أجل الإسلام وضياع للعامل نفسه مهما كان مخلصاً في عمله مضحياً في سبيله .

٣ – ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية أنهم كغيرهم من الناس إن شاء الله غفر لهم ذنوبهم وإن شاء لم يغفر ، ولا ينخدعنّ أحد منهم بعمله فإنه قد ورد في سنة المصطفى ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

قال رسول الله ﷺ : « سددوا وقاربوا وأبشروا ، واعلموا أنه لن يُدخل أحدكم الجنة عمله ، ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة » والأصل في العمل من أجل الإسلام أن يستمر عليه الإنسان حتى يلقى الله ، ولا يعفى منه أحد إلا إذا كان غير قادر عليه أي من أصحاب الأعذار الشرعية ومن قعد عن العمل من أجل أنه عمل كثيراً وقد آن له أن يستريح ، فقد خسر كثيراً وخسر ما لم يكن له أن يخسره وخرج من دائرة المفضلين عند الله تبارك وتعالى ، قال الله تعالى : ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] .

* * *

(١) سورة النساء : ٩٥ ، ٩٦ .

الآية التاسعة عشرة

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ .

– هذه الآية الكريمة تخاطب أهل الكتاب ، وتلزمهم الحجة في **ألا يقولوا يوم القيامة** وهم يحاسبون : **﴿ ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾** .

– وهذه الآية الكريمة تتضمن ما يلي :

– خبراً مؤكداً ،

– وإبطالاً لحجة يحتج بها الذين لم يؤمنوا ،

– وتقريراً .

– **أما الخبر المؤكد** : فهو أن الله تبارك وتعالى الذي قطع على نفسه العهد ألا يعذب أمة حتى يرسل إليها رسولاً يطالبها بالإيمان فترفض ما جاءها به ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[1] ، **وفي هذه الآية الكريمة يجيء قوله** سبحانه : **﴿ قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾** .

وقد أكد هذا الخبر بكلمة ﴿ قد ﴾ .

– **وأما إبطال حجة الذين لم يؤمنوا بما جاءهم به الرسول ، فبحكاية حال أهل** الكتاب الذين كفروا ، فهم يوم القيامة يحاسبون على كفرهم فيقولون محتجين– مضللين – لماذا نحاسب ونعذب ، ونحن لم يرسل إلينا رسول يبشر وينذر ؟ فيبطل الله سبحانه حجتهم تلك بقوله تعالى : **﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير**

---

(١) سورة الإسراء : ١٥ .

فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ أي كذبتم في دعواكم فقد جاءكم بشير ونذير ولكنكم عاندتم وكذبتم وكفرتم بما جاءكم به .

– **وأما التقرير** : فهو تقرير وتأكيد لقدرة الله سبحانه على أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، لأن إرسال الرسل عمل من أعمال الله تبارك وتعالى ، وهو سبحانه قادر عليه وعلى وغيره ، لأنه سبحانه على كل قدير ، وفعال لما يريد ﴿ **فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير** ﴾ .

● واستنباط المواقف التربوية العامة التي نتعلمها من الآية الكريمة كثير نذكر منها ما يلي :

١ – أن الله تبارك وتعالى لا يظلم أحداً ولا يعاقبه على جرم لم ينبه إلى تحريمه من قبل ، فهو يرسل الرسول يبشر وينذر ، وقد أرسل إلى أهل الكتاب رسلاً قبل محمد ﷺ ، ثم أرسل إليهم محمداً ﷺ الذي بشرت به كتبهم وأنبياؤهم ، فقد أخبر الله سبحانه أهل الكتاب على لسان موسى عليه السلام أنه سيقيم نبياً من بني إسماعيل إخوتكم ، وأخبرهم على لسان عيسى بن مريم عليه السلام بأنه سيجيء بعده المعزى أو « الفار قليط » روح الحق الذي يعلمكم كل شيء .

وهذه البشارات باقية في كتبهم – على الرغم مما دخلها من تحريف وتبديل – حتى الآن .

٢ – وأن النبي الخاتم محمداً ﷺ هو ﴿ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

٣ – وأن محمداً ﷺ قد جاء على فترة وانقطاع من الرسل ، وعلى طول عهد بالوحي ، جاءهم ليبين لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبما يصلح به شئون الدنيا ،

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ .

وبتوضيح وجه الحق والصواب فيما يختلف فيه الناس من الكتاب ، لتقوم الحجة على المكذبين .

ولو لم يكن محمد ﷺ رسولاً حقًّا من عند الله ما عرف من ذلك كله شيئاً ، ولكنه عرف ما لم تعرف أحبارهم ورهبانهم وحكماؤهم ، لتقوم الحجة على القائلين ما جاءنا من بشير ونذير .

وروى البيهقي – في الدلائل – بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام ، فرغَّبهم فيه وحذرهم ، فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله ، فوالله لتعلمن إنه رسول الله !!! لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا : إنا قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده ، فأنزل الله تعالى : **﴿ يٰأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ... ﴾** الآية .

٤ – وأن الله تبارك وتعالى ، من رحمته بعباده أن يزيل من أمامهم أسباب الجهل والضلال والكفر والتحدي لله سبحانه ولرسله الكرام عليهم الصلاة والسلام ، حتى لا يتعلل بعض المعاندين العصاة بأنهم ما عرفوا ما يُدعون إليه ولا حدثهم فيه أحد ، وما جاءهم من رسول يبشرهم بثواب الطاعة عند الله ، ولا بعقاب المعصية لديه .

هؤلاء يبطل الله سبحانه لهم هذه الحجج ويزيل أسبابها من طريقهم بأن يرسل إليهم الرسول يعلمهم ويبشرهم إن أطاعوا وينذرهم إن عصوا ...

ونتعلم من هذه النقاط الأربع التي ذكرناها ما يلي :

– أن الظلم حرام شديد الحرمة ، وحسبه في شدة الحرمة أن الله تعالى حرمه على نفسه ، فلنحذر الظلم في كل أمر من أمور حياتنا مع أي أحد من الناس .

- وأن دين الاسلام عام للبشرية كلها أهل الكتاب منها وغيرهم ، وأن منهجه هو أكمل المناهج وأصلحها لحاضر البشرية ومستقبلها .
- وأن الناس جميعاً غير ملزمين بما لم يعلموا ، وما لم يأتهم بيان بتحريمه أو حِلِّهِ ، وأن منهج الله الذي ختم به المناهج قد تكفل ببيان ذلك كله .

● واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة من هذه الآية الكريمة ، نذكر منها ما يلي :

١ – أن يهتم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية بالعمل المتواصل الذي لا يسمح بثغرات في الزمان أو المكان ، فالدعوة إلى الله يجب أن تملأ كل فراغ الزمان بحيث لا يمضي يوم واحد تتوقف فيه الدعوة أو يتوقف فيه الدعاة عن العمل .

كما أن الدعوة إلى الله يجب أن تغطي احتياجات المكان بحيث لا يبقى مكان دون أن تصل إليه الدعوة إلى الله ، لأن الناس في كل مكان لهم الحق في أن يسمعوا دعوة الله ، ولا عذر للدعاة في أن يوجد مكان لم تبلغه الدعوة ماداموا قادرين على ذلك .

٢ – وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يتعلموا من هذه الآية الكريمة أن يغلقوا على الناس طريق المعصية والإهمال والقعود عن مناصرة الحق بحجة أن أحداً لم يدعهم إلى ذلك أو لم ينبههم إليه ، وإغلاق هذا الطريق إنما يكون بجهد مضاعف وعمل دائب يبذله الدعاة ، وبحوار هادئ ودعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، واختلاط بالناس وحب لهم وللخير لهم وتحبب إليهم .

٣ – وإن العمل الإسلامي يحتاج دائمًا من الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يبينوا مفردات هذا العمل وكل ما يتصل به من تفاصيل فقد قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1] وكل

(١) سورة آل عمران : ١٨٧ .

غموض في ذلك إنما هو مسئولية تقع عقابيلها على الدعاة ، وتعطى لمن لم يهدهم الله إلى الحق أن يقولوا ما علمنا ولا عرفنا .

إن الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية مسئولون بين يدى الله عن هؤلاء الناس الذين يقولون هذه المقالات ، إذ على الدعاة دائماً الدعوة والبلاغ ، وهم محاسبون على التقصير في أي شيء من ذلك .

* * *

الآيات من العشرين إلى السادسة والعشرين

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ .

– تتحدث هذه الآيات الكريمة عن بعض صفات اليهود ، وما واجهوا به رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام من عناد ومخالفة وإصرار على التخلي عن القيام بواجبهم ، مما يوضح بعض طبائع يهود من نبيهم ومع خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليهم وسلم .

– وهذه الآيات الكريمة حوار بين نبي الله موسى وقومه حول ما أنعم الله به عليهم من نعم يذكرهم بها نبيهم ، وما واجهوا به تلك النعم من جحود ، مما سنفصله بعد قليل .

ولتفصيل مضمون هذه الآيات الكريمة نقول سائلين الله تعالى التوفيق :

– تبدأ الآيات الكريمة موجهة الخطاب لخاتم الأنبياء محمد ﷺ داعية له أن يذكر هو والمؤمنون معه ما دار بين موسى عليه السلام وقومه ، لما في هذا التذكر من فائدة

له ولقومه ﴿ وإذ قال موسى لقومه ... ﴾ أي اذكر يا محمد أنت ومن معك ﴿ إذ قال موسى لقومه ﴾ .

– ومفردات الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وقومه قد جاءت على النحو التالي :

● يقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ .

وقد طالبهم بتذكر هذه النعم حتى يؤدوا واجب شكر الله سبحانه على هذه النعم طاعة وامتثالاً لما أمر به ولما نهى عنه .

وهذه النعم كما وردت في الآية الكريمة ثلاثة :

أ – أنه سبحانه جعل فيهم أنبياء ، والأنبياء من بني إسرائيل (يعقوب عليه السلام) كثيرون منهم : يعقوب نفسه ويوسف ، وموسى ، وهارون ، ومن جاءوا بعد موسى كداود وسليمان ويحيى وزكريا ، ثم عيسى بن مريم عليهم السلام ، وتلك من أجل نعم الله عليهم أن جعل فيهم هؤلاء الأنبياء .

ب – وأنه سبحانه جعل فيهم ملوكاً أي أصحاب حكم ورياسة وقد كان أول ملك – بهذا المعنى من بني إسرائيل هو نبي الله داود عليه السلام .

أما أن تكون كلمة ملك تعنى – كما ورد في السنة النبوية المطهرة – الرجل الذي ملك مسكناً ودابة وله زوجة وخادم ، فإن في بني إسرائيل على هذا المعنى ملوك كثيرون إذ أفاء الله عليهم من هذه النعم شيئاً كثيراً .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه – مرفوعاً[1] – قال رسول الله ﷺ : « كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة فهو ملك » .

(1) أي مرفوعاً إلى النبي ﷺ .

جـ - وأنه سبحانه أعطى بني إسرائيل ما لم يعط لأحد من العالمين مثله ، بأن خلصهم من بطش فرعون كما قال بذلك بعض المفسرين ، أو هو المنّ والسلوى وتظليل الغمام لهم في التيه ، كما يرى ذلك مفسرون آخرون .

فتلك نعم ثلاثة كبيرة كانت تستوجب الشكر بطاعة الرسول ، فما فعلت بنو إسرائيل إزاء هذه النعم ؟

● كان ردهم على طلب تذكر هذه النعم ، هو الرفض والمضى في الغى والعصيان ومعاندة الرسول ، فقد طلب منهم موسى عليه الصلاة والسلام أن يدخلوا الأرض المقدسة التي فرض الله عليهن أن يدخلوها فرفضوا متعللين بأن فيها قوماً جبارين وأنهم لن يدخلوها حتى يخرج منها هؤلاء الجبارون ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم** ﴾ - أي فرض عليكم دخولها - ﴿ **ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾ .

والأرض المقدسة هي الأرض المطهرة من الوثنية ، أو المباركة ، روى ابن عساكر بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عه : « إن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات » .

ويسمى اليهود الأرض المقدسة أرض الميعاد ، إذ وعد الله بها ذرية إبراهيم عليه السلام ، وليس في ذلك حجة لبني إسرائيل في فلسطين - كما يزعمون - وإنما لهم العيش مع العرب من ولد إبراهيم .

وقد صارت فلسطين عربية إسلامية من أكثر من ألف وثلاثمائة عام .

وكان موسى عليه السلام يريد أن يدخل بني إسرائيل هذه الأرض المقدسة بعد إذ نجاهم الله من بطش فرعون مصر ، ونهاهم موسى عليه السلام أن يرتدوا عن توحيد الله والعدل والهدى ، إلى الوثنية والفساد والبغي واتباع الهوى ، فيكون في هذا الارتداد خسران لهم عند الله تبارك وتعالى ، وتضييعٌ لهذه النعم التى أنعم الله بها عليهم .

وكان من أسباب مطالبتهم بدخول تلك الأرض المقدسة أن يجلوا عنها الوثنيين - وكانوا آنئذ كما تذكر روايات التاريخ - من بني عتاق ، وكانوا ضخاماً أصحاب

بأس جبارين – أي متكبرين يقتلون بغير الحق – .

غير أن بني إسرائيل رفضوا قائلين لنبيهم موسى عليه السلام : ﴿ **يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ .

ولعل رفضهم هذا كان بسبب أن يروا من نبيهم موسى عليه السلام معجزة في إخراج الجبارين من الأرض المقدسة ، كمعجزته معهم في خروجهم من مصر إذ انفلق لهم البحر ، مؤثرين الكسل على العمل .

● وكان من بني إسرائيل رجلان صالحان أرادا أن يقنعا بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومواجهة الجبارين حكى الله تبارك وتعالى عنهم ذلك فقال : ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

غير أن بني إسرائيل لم يستجيبوا !!!

● وقد رد اليهود على هذين الرجلين الصالحين رافضين وردّوا على نبيهم موسى متهكمين ، كما حكى عنهم القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هـٰهنا قاعدون** ﴾ .

● ولم يكن في وسع موسى عليه السلام إلا أن يخاطب ربه قائلاً : ﴿ **رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ فهو صلوات الله عليه يعذر إلى ربه – والله به عليم – بأنه لا يملك في مواجهة هؤلاء الجبارين لإخراجهم من الأرض المقدسة إلا نفسه وأخاه ، مطالباً ربه بأن يفصل بينه وبين قومه العصاة من بني إسرائيل بقضاء يقضيه بينهم ، فكان حكم الله تبارك وتعالى وفصله في هذه القضية هو : أنه حرّم الأرض المقدسة على بني إسرائيل مدة أربعين سنة ، يسيرون في برية من الأرض تائهين متحيرين لا يدرون أين يتجهون في سيرهم تأديباً لهم ، ثم قال لموسى عليه السلام : ﴿ **لا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ أي لا تحزن عليهم فهم فاسقون يستحقون تأديب الله لهم .

– واستنباط المواقف التربوية العامة من هذه الآيات الكريمة ، نذكر منه ما يلي :

١ – أن بني إسرائيل كانوا في صراع مع نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ، على الرغم مما أحاطهم الله به من نعم وما تفضل به عليهم من خيرات ، وحسبهم أن فرق بهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وما كانوا يلاقونه على أيديهم من الذل ، ولكنهم تنكروا لكل ذلك فعصوا الرسول فاستحقوا عقوبة التشريد في الدنيا والعذاب في الآخرة .

ونبي الله موسى وأي نبي آخر إنما هو صوت الحق الذي يجب اتباعه .

والدرس المستفاد هنا في مجال تربية الأمم هو أن الاستجابة للحق هي الصلاح والفلاح والنجاة من عقاب الله تبارك وتعالى .

٢ – وأن رضا بني إسرائيل بحياة الذل مع فراعنة مصر مع إيثارهم الخوف وقبولهم بالمهانة ، وهيبتهم لكل قوى جبار – كما خافوا القوم الجبارين الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة – ذلك الجبن الذي بلغ بهم حد أن يقولوا لرسولهم : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون** ﴾ .

كل هذا من بعض صفات يهود التي لازمتهم وصارت كالطبع فيهم .

والموقف التربوى هنا هو رفض الذل والظلم ومقاومة ذلك بكل وسيلة متاحة مهما بلغت التضحيات ، لأن ذلك مطلب شرعي في كل دين ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[1] فهذه الآية الكريمة توضح أن الذين يموتون وقد ظلموا أنفسهم فرضوا بالذل أو خافوا فلم يقيموا دينهم على نصرة الله لهم ماداموا مؤمنين ، فقد أثموا واستحقوا عذاب جهنم وساء مصيرهم .

٣ – وأن رفض الانصياع للحق ولما أمر الله به بعصيان الرسول ﷺ قد تكون عقوبة

(١) سورة النساء : ٩٧ .

دنيوية فضلاً عن العقوبة الأخروية ، كما عوقب بنو إسرائيل بالتيه وتحريم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة كاملة لم يستطيعوا دخولها .

والموقف الذي يتعلم من ذلك أن الانصياع إلى الحق واتباعه هو الأصل وهو النجاة في الدنيا والآخرة ، وأن التمرد على هذا الحق يعقب ضياعاً في حاضر المتمرد وفي مستقبله ودنياه وآخرته .

٤ – وأن الدخول في العمل والمبادرة إليه هو الذي يكسر حدة الخوف والقعود عن العمل الصالح ، وقد طالبنا الله تعالى بالمبادرة إلى فعل الخير في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾[1] ونصحنا بذلك محمد النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام ، فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » .

وما رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بادروا بالأعمال سَبْعًا ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرما مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمَرّ » .

والموقف المستفاد هنا هو أن الدخول في العمل والأخذ بكافة الأسباب مع التوكل على الله هو التوكل على الله سبحانه وهو الكفيل بالنجاح والفلاح .

وأن من الواجب ترك التباطؤ أو تأجيل عمل الساعة إلى الساعة التي تليها مهما كان الأمر ، مادام الإنسان مؤمناً يأخذ بأسباب النجاح ويتوكل على الله

---

(١) سورة البقرة : ١٤٨ .

سبحانه وتعالى .

٥ - وأن طائفة من المؤمنين مهما قل عددها لابد أن تظل متمسكة بالحق لا يضرها من خالفها أو تمالأ عليها ، لأن الحق أحق أن يتبع وأجدر أن ينتصر ، حتى لو كان المتمسكون به قلة قد تصل إلى رجل واحد أو رجلين ، ﴿ **لا أملك إلا نفسي وأخي** ﴾ .

وذلك مطلب شرعي أيضاً ، فقد روى أبو داود بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » .

- واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة يمكن أن نتحدث فيه عن الآتي :

١ - أن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية عموماً عليهم أن يتذكروا دائماً ما هم فيه من نعم الله السابقة التي على رأسها نعمة أن هيأ الله لهم أو اصطفاهم لأن يكونوا دعاة الله ، فأورثهم بذلك عمل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

وشكر هذه النعمة بالذات إنما يكون بمزيد من الطاعة ، ومزيد من العمل لما يرضى الله سبحانه ، ومزيد من التضحية بالجهد والوقت والمال في سبيل الله ، بل بمزيد من الصبر على ما يصيبهم في سبيل الدعوة إلى الله من متاعب أو محن ، فليست هذه المتاعب والمحن - عند التحليل الصحيح لها - إلا نعماً كذلك لما يترتب عليها من ثواب الله وحسن جزائه .

٢ - وأن على الدعاة إلى الله أن يتذكروا دائماً أن من دعى من الناس إلى الله فلم يستجب أو طلبت منه طاعة الله فلم يطع ، فإنه يعد كمن ارتد على دبره بدل أن يتقدم في طريق الحق والهدى ومتعة الإحساس بطاعة الله ورسوله ، وهو بذلك الارتداد عن الحق قد أصبح من الخاسرين الذين خسروا دنياهم إذ لم يعمروها

بطاعة الله ، وخسروا أخراهم لما ينتظرهم من حساب الله وعقابه .

إن النكوص عن طاعة الله ومعاندة الهداة ضلال في العقل ، وفساد في القلب وخبط في متاهات المعصية ، وخسران في الدنيا والآخرة .

٣ - وأن على الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية أن يتوقعوا من الناس صدوداً وقعوداً ، مبررين ذلك بالتعلات التي يتهربون بها من الاستجابة ثم من العمل ، ويكاد يكون ذلك أمراً شائعاً عند أكثر الناس .

والداعية الحق هو الذي يستوعب هؤلاء المدعوين المتهربين ويلتمس لهم عذراً بعض الوقت ، ويحاول ما وسعه أن يردهم إلى الصواب وإلى الهدى ، فإذا نجح في ذلك فهو من توفيق الله ، وإن لم يستطع فقد أدى ما عليه وأخذ بالأسباب وأعذر إلى الله ، والقرآن الكريم يؤكد أنه ما على الدعاة إلّا البلاغ ، وأن ليس عليهم هداية الناس ، وإنما تلك الهداية إنما تكون من الله سبحانه وتعالى .

٤ - وأن على الدعاة أن يدركوا أنه مهما كثر عدد المعوّقين والمرجفين والخائفين والمترددين ، بل مهما كثر عدد المعاندين والمتحدين للحق وأهله والداعين إليه ، فإن في قليل من الناس خير ، ولا يمكن أن يأتي على الناس زمان يخلوا من أهل الخير على أي حال ، والقرآن الكريم يعلمنا هذا في حديثه عن الدعاة إلى الله عندما تظلم أمامهم طريق الحق ، ويتخبط الناس في الظلام ، فيبعث الله سبحانه من ينير الطريق ، ويؤيد الحق ويسانده ويدافع عن الذين آمنوا ، ولو بدا هذا المؤيد للحق - في نظر بعض الناس - بعيداً عن ركب الدعاة وموكب الدعوة وحداتها ، وفي القرآن الكريم مواقف كثيرة تدلّهُم فيها الأمور ، فإذا برحمة الله ونجدته أقرب مما يتصور أكثر الناس تفاؤلاً ، وإذا برجل مؤمن لم يكن أحد يعلم عنه يجيء من أقصا المدينة يسعى فيكون على يده الأمن والنجاة من العتاة الظالمين .

قال الله تعالى - وقد تآمر آل فرعون على نبي الله موسى عليه السلام ليقتلوه - ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ

﴿ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[1] وقال الله تعالى ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[3] وقال جل شأنه في هذه السورة : ﴿ **قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ﴾[4] .

٥ – وأن على الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية أن يوقنوا بأن الدخول في العمل والمبادرة إليه والإخلاص فيه والاستمرار في أدائه والأخذ بكافة أسبابه مع التوكل على الله ، هو الذي يؤدي إلى الفوز والنجاح مهما تباعدت الشقة ومهما كثرت العراقيل .

وفي قول الله سبحانه : ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ من هذه الآيات نستطيع أن نفهم أن ترك التوكل على الله ينفى الإيمان من أساسه ، وأن فقه التوكل على الله يقتضى الأخذ بالأسباب .

٦ – ونتعلم من موقف قوم موسى من نبيهم عليه الصلاة والسلام أن المطلوب من المؤمنين دائماً هو البذل والتضحية والإيجابية ، فقد طلب موسى عليه السلام من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التي فرض الله عليهم أن يدخلوها فرفضوا متعللين بما تعللوا به ، وقالوا له مقالة العصاة الجبناء ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون** ﴾ .

وإن الفرق لكبير بين موقف يهود من نبيهم ، وموقف الصحابة رضوان الله عليهم من محمد ﷺ يوم بدر – وكانوا قلة لا تبلغ ثلث قوة العدو عددا –

---

(١) سورة القصص : ٢٠ .
(٢) سورة يس : ٢٠ ، ٢١ .
(٣) سورة غافر : ٢٨ .
(٤) سورة المائدة : ٢٣ .

إذ قالوا لرسول الله ﷺ : لا نقول لك ما قال قوم موسى لموسى : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون** ﴾ وإنما نقول : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون** ﴾ .

إن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية يتعلمون من هـذا التضحية بالنفس في سبيل المبدأ في كل موقف تتطلب فيه الدعوة هذه التضحية .

إن المنهج القرآني في تربية الناس عموماً وتربية الدعاة على وجه الخصوص يتضمن سرد قصص الأنبياء والمرسلين وما واجههم به أقوامهم من تكذيب وعناد ، ليتعلموا كيف يتعاملون مع المكذبين والمعاندين بمنطق النبوة عندما يستبد بالناس عنادهم للحق وتصديهم له ﴿ **لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ منطق الفصل بين أهل الحق وأهل الباطل بتفويض ذلك إلى الله .

وأن على الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يتحملوا من المدعوين كل عناد وكل اعتراض ، فإن فصل الله بين أهل الحق وأهل الباطل في الدنيا بنصر الحق على الباطل فتلك نعمة من الله ، وإن أجل الفصل بينهم – في زمن ما – إلى يوم القيامة فالله سبحانه وتعالى هو الموعد .

* * *

الآيات من الآية السابعة والعشرين

إلى الآية الرابعة والثلاثين

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

– تتحدث هذه الآيات الكريمة في خطاب قرآني للنبي الخاتم ﷺ يطالبه بأن يتلوا على أهل الكتاب وعلى سائر الناس ذلك النبأ الهام عن ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر حسداً وبغياً ، يتلوا عليهم ذلك ليذكرهم بطبائع الناس وما جبلوا عليه من التباين والاختلاف الذي يؤدي إلى التحاسد والبغي والظلم ليكونوا على علم ودراية بحكمة الله سبحانه في هذه التشريعات التي قررها سبحانه وتعالى لعقاب الباغين والمعتدين ،

ولتأمين حياة الناس أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، من أجل أن تستقر الحياة الاجتماعية الآمنة لهم .

– وقد تضمن هذا الخطاب القرآني لخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام أموراً على جانب من الأهمية في استقرار المجتمع ، منها ما نسوق بعضه فيما يلي :

- أمَر الله نبيه ﷺ أن يتلو على الناس قصة ولدي آدم عليه السلام إذ قتل أحدهما الآخر ، تلاوة هدفها بيان طبيعة البشر وإحقاق الحق ، وبيان عظمة التشريعات الإلٰهية في ضبط سلوك الإنسان ، وتأمين حياته الاجتماعية ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق** ﴾ .

- وأمَره أن يقص عليهم قصة قتل أحد الأخوين لأخيه بتلك التفاصيل التي جاءت في القرآن الكريم دون اعتبار لما يزيد فيها بعض الناس من زيادات لو كانت مهمة لذكرت في القرآن لأنه هو الحق ، ولا عبرة لما كان يتداولونه حول هذه القصة من أوهام وترهات وأباطيل منشأها تلك « الإسرائيليات » المعروفة الأهداف[1] .

وهذه القصة في صورتها القرآنية المحكمة هي كما يلي :

- كان الرجلان أخوين ، وقدم كل منهما قربانا إلى الله – والقربان ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح – وهي تشبه ذبائح النسك عندنا كالأضاحي ونحوها[2] .

---

(١) الإسرائيليات هي : مقولات تنسب إلى كبار اليهود ممن دخلوا في الإسلام ، وهي مقولات أكثرها زائف أو مكذوب على من نسبه إليه ، وقليل منها صحيح ، وكلها لا علاقة لها بالعقيدة ولا بالأحكام الشرعية .

(٢) القرابين عند اليهود أنواع منها :

المحرقات وهي : للتكفير عن الخطايا وكانت تقدم من ذكور البقر والغنم السليمة من العيوب .

والذبائح وهي : تقدم عن الخطايا العامة أو الخاصة .

وذبائح السلامة : وتقدم لشكر الله تعالى .

والتقدمات : وتكون من الدقيق والزيت واللبان .

وتقدمة الترديد : وتكون من باكورة الأرض .

والقرابين عند النصارى هي : ما يقدمه الكاهن من الخبز والخمر ، فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة لا مجازا .

- تقبل الله قربان أحد الأخوين لتقواه وإخلاصه ، ولم يتقبل قربان الآخر لفقده التقوى والإخلاص .
- عندئذ قال الذي لم يتقبل قربانه ، لأخيه الذي تقبل الله قربانه : ﴿ **لأقتلنك** ﴾ حسداً له وحقداً عليه ، فرد عليه أخوه بقوله : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ أي راجع تقواك وإخلاصك حتى يتقبل الله منك ، وأما تهديدك لي بالقتل فأقول لك فيه : ﴿ **لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني** ﴾ وهذا ليس من حقك : ﴿ **فما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك** ﴾ لأن هذا ليس من صفتي ، فإن أخاف الله سبحانه أن يراني سافكاً للدم .
- وأكد الذي هُدِّد بالقتل لأخيه أن القاتل ينال عقاب الله في الآخرة على القتل وعلى معصية الله بممارسة الظلم والقتل والحسد والبغي ، وكل ذلك جزاؤه عند الله النار .
- وعلى الرغم من هذه النصائح فإن العازم على قتل أخيه لم يتعظ ، بل طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح بهذه الجريمة من الخاسرين في الدنيا بفقده أخاه وأقرب الناس إليه ، وفي الآخرة بما سينال من عذاب الله سبحانه .
- عندئذ – وكانت هذه أول جريمة قتل كما يوحي بذلك سياق الآيات الكريمة بدليل أن الإنسان لم يكن يعرف كيف يدفن ميته – عندئذ بعث الله غراباً يبحث في الأرض ويحفر فيها ، فتعلم القاتل من ذلك أن يحفر لأخيه حفرة يواريه فيها ففعل وأدرك أنه جاهل غافل فقال يحدث نفسه : ﴿ **ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين** ﴾ .

تلك هي القصة وهذه أحداثها كما وردت في القرآن الكريم لا يجوز لنا أن نزيد على ذلك شيئاً – مما ورد في الإسرائيليات ونحوها – إذ كل ما عدا ما ورد في القرآن ليس بذي أهمية في أخذ العبرة من القصة .

- وأمر الله نبيه أن يعلن أن الله تعالى قد فرض القصاص وجعله شرعاً في كل دين من أجل أن يحمي النفس وأن يصون حياة الإنسان ، فجعل من قتل نفساً بغير حق كأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحيا نفساً بأن أزال عنها خطرا فكأنما أحيا

الناس جميعاً ، لأن البشرية كلها واحدة تنتمي إلى أب واحد وأم واحدة . **﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾** ومعنى : قتل نفس بغير نفس أي بغير قصاص ، وحكم الشرع كالآتي :

- **قاتل النفس يقتل قصاصا .**
- **والمفسد في الأرض يقتل حدًّا إن لم يقتل نفساً ، فإن قتل نفساً قتل قصاصا ، والمفسد في الأرض هو الذي يخرج على أئمة العدل ويسلب الأمن ويعيث فساداً في الأرض ، وكأنه بهذا العدوان على النفس وعلى النظام قد قتل الناس جميعاً .**
- **ومن تسبب في إحياء نفس واحدة بأن عمل على إنقاذها من موت كانت معرضة له فكأنما أحيا الناس جميعاً .**

- وأخبر الله نبيه ﷺ أن الرسل جميعاً جاءوا للناس بالبينات وحفظ حقوق النفس والعرض والمال ، غير أن كثيراً من بني إسرائيل ، وكثيراً من الناس عموماً أسرفوا على أنفسهم بمخالفة ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فخسروا دنياهم وأخراهم .

- وأن يخبر الناس بما شرع الله له من حد الحرابة أو السرقة الكبرى لتأمين حياتهم من المعتدين بإيقاع العقاب الملائم لنوع الجريمة التي ارتكبوا ، وذلك في قوله تعالى : **﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ٭ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾**

وقد روى أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن بأسانيدهم عن أنس رضي الله عنه أن أناساً من عُرَيْنة قدموا على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام - فاستوخموا المدينة - أي وجدوها وَخِمة الجو أي رديئته بالنسبة لهم ، فأمر النبي ﷺ لهم بذود - أي عدد من ثلاث إلى تسع - وراع ، وأمرهم أن يخرجوا ، فليشربوا

من أبوالها وألبانها[1] ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية « الحرَّة » كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي النبي ﷺ ، بعد أن سملوا عينيه – أي وضعوا فيها أسياخاً محمية – وقطعوا يديه ورجليه ، واستاقوا الذود فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فبعث الطلب في آثارهم ، فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم ، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم » .

وروى أبو داود والنسائي بسنديهما عن أبي الزناد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار ، عاتبه الله تعالى فى ذلك في قوله سبحانه وتعالى ، فأنزل عليه : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا** ... ﴾ الآية .

والذي تدل عليه هاتان الآيتان الأخيرتان من مجموع تلك الآيات التي ذكرنا ما يلي :

- المحارب لله ورسوله هو الذي يهدد أمن الناس بقتلهم أو سرقتهم وهو في جماعة ذات قوة ، ومثله المغتال الذي يحتال على قتل الناس بالسم أو بغيره مما يذهب الحياة ، فلكل حكم واحد هو القتل سواء أكان حدًّا أم قصاصاً .
- وهذا المحارب أو المحاربون يستحقون من العقاب بقدر أفعالهم وذلك على النحو التالي :
  - من أخاف السبيل وأخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف .
  - ومن أخذ المال وقتل واحدا أو أكثر ، قطعت يده ورجله من خلاف ثم صلب .
  - ومن قتل و لم يأخذ المال قتل .
  - ومن أخاف السبيل و لم يقتل و لم يأخذ المال نفي .. فإن خيف من شره وهو في منفاه سجن في منفاه ، فإن لم يخف شره ظل في منفاه طليقاً .

(1) أي أبوال الإبل وألبانها .

- ويدخل في المحارب وحكمة كل من هدَّد أحدًا بسكين أو آلة من شأنها أن تقتل أو تؤذي ، ليستفيد من هذا التهديد أتباع المهّدد بأخذ مال المهُّدد .

قال القاضي ابن العربي رحمه الله : « كنت في أيام حكمي بين الناس إذا جاءني أحد بسارق وقد دخل الدار بسكين يحبسه على قلب صاحب الدار وهو نائم ، وأصحابه يأخذون مال الرجل ، حكمت فيهم بحكم المحاربين ، فافهموا هذا من أصل الدين وارتفعوا إلى يفاع العلم عن حضيض الجاهلين »(1) .

- ويعد من المحاربين ويحاكم مثلهم من شاركهم في قتل أو سرقة أو ترويع ، وإن لم يقتل هو أحداً أو لم يسرق هو مالا أو لم يُخف هو سبيلاً ، لأنهم تقووا به ،
- ويجب على الإمام قتال المحاربين من غير أن يدعوهم .. ويجب على المسلمين أن يعينوه على ذلك ، فإن انهزم المحاربون لم يتبع منهم منهزماً إلا أن يكون قد قتل أو أخذ مالا فإنه حينئذ يتّبع ليؤخذ بما جنى على قدر جنايته ، وليس للإمام أن يجهز على جريحهم إلا أن يكون هذا الجريح قد قتل غيره أو شارك في قتله .
- والمال الذي يوجد مع أحدهم أو معهم إن عرف له صاحب رُدَّ إلى صاحبه أو لورثته ، وإن لم يعرف له صاحب رُدَّ إلى بيت المال العام « بيت مال المسلمين » ، وما أتلف المحاربون من مال لأحد غُرِّموه .
- فإن جاء المحاربون تائبين لم يكن للإمام عليهم سبيل ، وسقط عنهم ما كان حدا لله تعالى ، وأخذوا بحقوق العباد ، فاقتص منهم من النفس والجراح ، وكان عليهم ما أتلفوه من مال ودم يدفع للمعتدى عليه أو لأوليائه ، ويجوز لهؤلاء الأولياء العفو والهبة كسائر من جنى من غير المحاربين .
- والمسلم والذمي في هذه الأحكام سواء .
- وأجمع أهل العلم على أن السلطان أو الإمام هو ولي المحاربين ، ويترتب على تلك الولاية أن أولياء المقتول ليس لهم أن يعفوا عن المحاربين ، وإنما يكون ذلك الحق

(1) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٥١ ط دار الشعب القاهرة دون تاريخ أو رقم للطبعة .

للإمام ، لأن الإمام هو المخول في تنفيذ حدود الله تعالى ، وله فوق ذلك أن يقدر أي تعزيرات على المرتكبين ، بحيث يؤمن الناس ويحول بينهم وبين الأخطار التي تهدد أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم جميعاً - كل ذلك حقه وهو في الوقت نفسه واجبه الذي يحاسب على التقصير فيه أمام الله وأمام الناس .

- استنباط المواقف التربوية العامة من الآيات الكريمة ، يمكن أن نستنبط من هذه الآيات الكريمة ما يلي :

١ - من قصة ولدى آدم عليه السلام نتعلم أن الناس جميعاً كالإنسان الواحد من اعتدى عليه فكأنما اعتدى على الناس جميعاً ، ومن حافظ عليه وعلى حياته وحقوقه وكرامته فكأنما حافظ على الناس جميعاً ، وذلك أن انتهاك حرمة الفرد هو انتهاك لحرمة جميع الناس ...

وفي هذا إشارة دالة ومعلمة يؤكدها القرآن الكريم وهي وحدة الناس جميعاً وانتماؤهم لأصل واحد ، وإذا كان ذلك كذلك بالنسبة للناس جميعاً مشركهم ومؤمنهم ، فما بالنا بما يجب أن تكون عليه وحدة المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؟

٢ - ونتعلم كذلك أن التقرب إلى الله بقربان أو عمل صالح لابُدَّ فيه من الإخلاص لله وتقواه فالله المقصد في كل قول أو عمل في كل صمت أو ترك لعمل .

وأن من رأى أن أخا له قد تميز عليه بشيء من النعم المادية أو المعنوية ، فليس له أن يحسده على ما آتاه الله من نعمة ، فضلاً عن أن يحقد عليه ، أو يلحق به ضرراً ، وللإسلام في ذلك أدب معروف لمن أنعم الله عليه ولمن لم ينل هذه النعمة نوضحه فيما يلي :

- على مَنْ أنعم الله عليه بنعمة أن يحمد الله ويشكره بمزيد من طاعته والتقرب إليه .
- وعليه أن يشرك في نعمته غيره من الناس دون مَنٍّ أو أذى ، أو تطاول أو تباهٍ .

- وأن يتواضع لله ، ويتواضع مع الناس ، وأن يشعر أن ما أنعم الله به عليه من نعمة إنما اختبار لإيمانه ولعمله الصالح .
- وأن يدعو الله لكل من حسده أو حقد عليه أن يذهب الله ما في قلبه من غل وحسد ، وأن يشركه معه في النعمة .
- وعلى من حرم من نعمة ورأى غيره قد أعطيها أن يعلم أن المنعم سبحانه له في ذلك حكمة ، فليس من الضروري أن يكون صاحب النعمة أفضل عند الله ممن حرم هذه النعمة وفي ذلك رضي عن الله تعالى ورضى للنفس يحول بينها وبين الوقوع في نار الحسد والحقد .
- وعليه أن يدعو الله للمُنْعم عليه أن يزيده الله من نعمه وأن يوفقه في التعامل مع هذه النعمة بما يرضى الله تبارك وتعالى ، فإن هذا الدعاء مفتاح كل خير .
- وأن يعلم علم اليقين أن ما أصابه من نعم لم يكن ليخطئه أبداً ، وأن ما أخطأه منها لم يكن ليصيبه أبداً ، فذلك هو الإيمان بالقضاء والقدر ، وهو في الوقت نفسه الذي يباعد بينه وبين أن يحسد أحداً على ما آتاه الله من فضله .

٣ – وتعلمنا قصة ولدي آدم أن رحمة الله قريبة من الإنسان ، وقد تمثلت هذه الرحمة في قوله الأخ لأخيه : ﴿ **لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك** .. ﴾ وتمثلت في الغراب الذي علم الإنسان كيف يواري سوأة أخيه .

٤ – ونتعلم منها أن الله تبارك وتعالى قد جعل من سننه في خلقه أن لا يحاسب أحداً – فضلاً عن أن يعاقبه حتى يبعث إليه رسولاً يتلو عليه كتاب الله ويبين له ما يحتاج إليه في دنياه وأخراه ، ويزكيه ويرفع من شأنه : ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات** ﴾ .

٥ – ونتعلم منها أن كثيراً من الناس لا يستجيبون لما يدعوهم إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام وما يدعونهم إلا إلى توحيد الله وعبادته وما يحييهم في الدنيا والآخرة ،

ولكنهم يتجاوزون حدود الله ، ويأتون ما يعطل مصالحهم ومصالح الناس وهو ما سماه القرآن الكريم إسرافاً ، إذ الإسراف هو الإفساد والتجاوز لحد من حدود الله أو لشيء من منهجه ونظامه ، أو هو الإفساد عموماً .

٦ – وأن الإسلام يحرص على حماية مصالح الناس وأمنهم ويحول بينهم وبين أن يخوف بعضهم بعضاً أو يهدد بعضهم بعضا ، وأن كل من هدد أحداً أو اعتدى عليه في نفسه أو في ماله فهو ممن يحاربون الله ورسوله ومنهج الله ، وهذا قد شرع له الإسلام حدًّا هو حدّ الحرابة أو السرقة الكبري – كما يسمى في كتب الفقه الإسلامي ، وقد فصلناه آنفا .

ومعنى هذا ألا تهاون مع من يخل بأمن الناس ومصالحهم .

٧ – وأن الله تبارك وتعالى حينما قرن في هذه الآية الكريمة قتل النفس بالفساد في الأرض ، وجعل من هاتين الجريمتين سبباً في قتل مرتكبهما إنما يعلمنا بذلك أن كل ما يخل بأمن الناس جريمة لا تقل خطراً على المجتمع من جريمة قتل النفس ، وأن لهؤلاء القتلة وأولئك المروعين للناس عقوبات تردعهم وتوفر للمجتمع الأمن والسلام – وهي من حدود الله المشروعة الواجبة التنفيذ ، وقد فصلنا الحديث فيها آنفاً .

– واستنباط المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة نذكر منه ما يلي :

١ – على الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يَنْبذوا تماماً أي نوع من الحسد فيما بينهم بسبب أن هذا الداعية موفق في عمله أكثر من ذاك ، أو أن هذا الداعية أوتى من قوة جذب الناس والتأثير فيهم أكثر من غيره ، لأن الهدف من أعمال الدعاة إلى الله هو نقل الناس من الكفر إلى الإيمان أو من الضلال إلى الهدى ، ومادام الناس قد انتقلوا هذه النقلة فقد تحقق الهدف وليس مهماً أن يكون قد تم على يد فلان من الدعاة أو فلان ، فلا وجه للحسد إلا أن يكون في القلب مرض ، والدعاة إلى الله أكرم عند الله من أن يصابوا بهذا المرض .

٢ – ومن الدروس المستفادة من هذه الآيات ضرورة التسامح مع المدعوين والصفح عن أخطائهم وتجاوزاتهم طمعاً في أن يهديهم الله سبحانه ، إذ الداعي إلى الله لا يجزي عن السيئة بمثلها ، وإنما يجزي عنها بالحسنة عملاً بقول الله تعالى : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾[2] وفي هذه السورة الكريمة : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

٣ – وأن على الدعاة أن يتعلموا ويتأملوا ويتدبروا في كل موقف من المواقف التي تمر بهم ، وأن يفتحوا قلوبهم وأرواحهم على تقبل كل رأي وكل نصيحة مهما كان من يقدم الرأي والنصيحة ، فلقد تعلم ابن آدم من الغراب .

إن على الداعية أن يتعلم من كل أحد ومن كل شيء دون أن يتكبر أو يتعالى قبل أن يفلت موقف التعليم من بين يديه فيقول : ﴿ **يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ** ﴾ .

٤ – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يدركوا تمام الإدراك أن إحياء الناس والأخذ بأيديهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم إنما يكون بتفقيهم في دين الله من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وأن يوقنوا أن حركة الإحياء الإسلامية المعاصرة إنما تكون بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، حتى تقوم دولة الإسلام ، وأن من أحيا إنساناً بأن كف عنه شر الشيطان فنقله من المعصية إلى الطاعة فكأنما أحيا الناس جميعاً .

وعلى الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يوقنوا بأن كل من أشاع في المجتمع فساداً أو أحب أن تشيع فيه الفاحشة أو دعا إلى شيء يغضب الله تعالى ، أو أغرى بذلك واحداً فقط من الناس فكأنما تسبب في إضلال الناس

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ . (٢) سورة المؤمنون : ٩٦ .

جميعاً وجرهم إلى الفساد .

كل ذلك من منطلق أن المجتمع كله وحدة واحدة ، وأن إصلاح الفرد في المجتمع هو إصلاح للمجتمع كله ، كما أن إفساد فرد في المجتمع كأنه إفساد للمجتمع كله ، وهل المجتمع إلا جملة أفراد ؟

٥ – وأن على الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يعرفوا أنهم ما يجوز لهم أن يقصروا في شيء من واجب الدعوة إلى الله ، أو في متطلبات العمل الإسلامي عموماً ، ومع عدم تقصيرهم في شي من ذلك كله فإن عليهم كذلك أن يعرفوا أن كثيراً من الناس الذين ينصرفون عن مواصلة العمل من أجل الإسلام إنما يسرفون على أنفسهم إذ لا يستجيبون لما يحييهم ، ولا يلتزمون بمنهج الله في حياتهم فإذا هم يخرجون عن حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ .

إن على الدعاة إلى الله أن يعرفوا ذلك وأن يواجهوه بما ينبغي أن يواجه به من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وأن يكون لديهم من الصبر والأناة وسعة الأفق ورحابة الصدر ما يستطيعون به أن يتغلبوا على تلك المواقف، ويطبوا لها ولأصحابها الطب الصحيح .

٦ – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يبصروا الناس بأن المجتمع المسلم مجتمع آمن ، وضع الله سبحانه له من التشريعات ما يحفظ به كافة حقوقه المادية والمعنوية ويصون به حياته وعرضه وماله ، ويمارس به كل ما أتيح له من حريات : كحرية العقيدة وحرية العبادة وحرية الرأي وحرية التعبير وحرية التنقل وحرية الملك وسائر أنواع الحريات التي تتطلبها إنسانية الإنسان وتكريم الله سبحانه له على كثير مما خلق وممن خلق ، وأن هذه الحريات جميعاً يكفلها التشريع الإسلامي بشرط أن لا تضر ممارستها بصاحبها أو أن تشريعات الإسلام تتصدى لكل من يعبث أو يضر بشيء مما كفله الإسلام للإنسان من حقوق وحريات فتعاقبه العقاب الرادع ، لأنه بهذا العبث أو الإضرار إنما يحارب الله ورسوله ، ويتحدى منهج الله ونظامه ، وأن على ذلك العابث أو المضر بهذه

الحقوق والحريات من الوزر والإثم ما يستوجب في بعض الأحيان قتله والتخلص منه إنقاذاً للمجتمع من شروره وآثامه - على نحو ما فصلنا الحديث في ذلك آنفاً - .

٧ - وأن على الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يعلموا الناس أن الله تبارك وتعالى بما شرع من حدود وعقوبات إنما يؤمن المجتمع الإنسان كله ، وأن التهاون في تطبيق هذه الحدود كلها أو بعضها دون مبرر شرعي لإيقاف تطبيقها هو هدم للمجتمع وتضييع للناس حاضرهم ومستقبلهم ، ودنياهم وأخراهم .

إن الإيمان بذلك ضروري من أجل أن يستطيع الإنسان أن يحقق بهذا المنهج سعادة المعاش والمعاد .

* * *

الآيات من الخامسة والثلاثين إلى الأربعين

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

- الخطاب فى هذه الآيات موجه للذين آمنوا فى عهد النبى ﷺ ولكل مؤمن إلى أن تقوم الساعة ، يطالبهم بمقتضيات الإيمان ، ويخبرهم بأحوال الكفار ومآلهم يوم القيامة ، ويعلمهم أحكاماً شرعية ينضبط السلوك الاجتماعى بها إذا هى نفذت بدقة وإخلاص .

- وهذه الآيات الكريمة تتضمن عدداً من الأوامر ، وتشتمل على أكثر من خبر ، وفيها تقرير .

ولبيان ذلك نقول : أما الأوامر فهى :

— **الأمر الأول** : موجه إلى المؤمنين يطالبهم بتقوى الله ، أى تجنب سخطه ، وعقابه ، وإنما يكون السخط والعقاب عند مخالفة منهجه ونظامه الذى يكفل للناس سعادة دنياهم وأخراهم ، فالأمر لهم بما هو فى صميم صالحهم : ﴿ **يـأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ... ﴾

— **والأمر الثانى** : أن المؤمنين مطالبون باتخاذ الوسيلة وقصدها وابتغائها .

والوسيلة إلى الله هى كل عمل يرجى أن يقدمه الإنسان فيحظى من ورائه برضا ربه والقرب منه واستحقاق ثوابه وقد فسّر أسلافنا رضوان الله عليهم الوسيلة بأنها

مراعاة سبيله سبحانه بالعلم والعبادة وتحرّي مكارم الشريعة ، والوسيلة كالقرْبة .

وفسّرها بعضهم بقولهم : تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

وفسّرها بعضهم بالمحبة ، ومحبة الله تعالى للعبد لا تكون إلا بطاعة العبد لربه ، ولها تفسيرات أخرى .

لكنّ أقرب التفسيرات وأولاها هو : ما يتقرب به إلى الله تعالىٰ من عمل صالح .

ومن معانى الوسيلة أنها المنزلة فى الجنة التى لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، كما ورد ذلك فى السنة النبوية ، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن ماعدا ابن ماجة بأسانيدهم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وروى البخارى وأحمد وأصحاب السنن الأربعة بأسانيدهم عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء – أى الأذان – اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة » قال تعالى : ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ .

أما قول بعض الغافلين : أسألك يارب بحق فلان فلا يجوز لأن أحداً من خلقه ليس له حق لازم عليه سبحانه .

والتوسل – كما يرى الإمام ابن تيمية رحمه الله أنواع ثلاثة :

الأول : التوسل إلى الله بطاعته وهذا جائز باتفاق ، بل هو فرض لايتم الإيمان إلا به .

والثانى : التوسل إليه بدعاء النبى – ﷺ – وشفاعته وهذا كان فى حياة النبى ﷺ ، ويكون يوم القيامة بالشفاعة .

والثالث: التوسل إليه بمعنى الإقسام على الله بذات النبى ﷺ ، أو بذات أحد من خلقه . وهذا لم يكن الصحابة يفعلونه أبدا لا فى الاستسقاء ولا فى غيره ، ولا فى حياة النبى – ﷺ – ولا بعد مماته ، ولا عند قبره ، ولا عند قبر غيره ، وما نقل من جواز ذلك ضعيف لا يعتد به .

تلك خلاصة وجيزة لما قال ابن تيمية رحمه الله فى التوسل والوسيلة[1] .

— **والأمر الثالث** : من الأوامر التى وردت فى الآية الكريمة هو أمر المؤمنين بالجهاد فى سبيل الله ، ﴿ **وجاهدوا فى سبيله** ﴾ أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء ، والتزامها الحق فى جميع الأحوال ، وجاهدوا أعداء الإسلام الذين يقاومون دعوته ويقفون فى طريق هدايته للناس ، افعلوا كل ذلك فى سبيل الله أى فى سبيل الحق والخير والهدى .

فالأوامر فى هذه الآية ثلاثة هى : أمر بتقوى الله ، وأمر بابتغاء الوسيلة وأمر بالجهاد فى سبيله أى افعلوا كل ذلك رجاء أن تفوزوا وتفلحوا وتسعدوا فى الدارين ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ .

— **وأما الخبر** : فهو أن الله تبارك وتعالى يخبرنا بأن الذين يتصورون أنهم قد يرتكبون من الأخطاء والمخالفات فى الدنيا ، ثم يفدون أنفسهم فى الآخرة بما كانوا يملكون فى الدنيا ، هؤلاء كفار بالله لا يعرفون حق الله على عباده وواجبهم نحوه سبحانه ولن ينفعهم ما يزعمون ، فقد قال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ إن أحداً من المخطئين لا ينفعه بين يدى الله جاه ولا مال ولا أتباع ولا أعوان ، وإنما الذى ينفعه ويخلصه من عذاب الله هو عمله الصالح وطاعته لربه .

وفى الآية الكريمة تأكيد بأن هؤلاء الكفار يحاولون أن يخرجوا أنفسهم من النار بعد أن دخلوها بسيء أعمالهم وعصيانهم لربهم واعتدائهم على منهجه ونظامه ، وما هم بخارجين منها مهما كان قدر الافتداء ، لأن لهم فى النار عذاب مقيم .

— **وأما التقرير** : فهو أشياء عديدة قررها المولى سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة نذكر منها ما يلى :

● تقرير حكم شرعى ، وحدٌ من حدود الله تعالى ، وهو قطع يد السارق

---

(١) الإمام أحمد بن تيمية : قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة .

والسارقة لأنهما اعتديا وسلبا مالاً ، وأفسدا فى المجتمع وهى عقوبة تجب على الرجل والمرأة على السواء ، جزاء لهما عما ارتكبا من جرم : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ .

● وتقرير حقيقة شرعية هى أن السارق والسارقة إذا تابا إلى الله ورجعا من السرقة والمعصية رجوع ندم وعزم على عدم العودة للجريمة ، بعد أن ظلما أنفسهما وغيرهما بما أجرما فإن الله تعالى يقبل التوبة منهما ويغفر لهما رحمة منه بهما .

ولكن هل يسقط الحدُّ عن التائب فى الدنيا ؟ .

هناك خلاف بين الفقهاء فى ذلك :

منهم من قال يسقط مادام قد حدث ذلك قبل رفع الأمر إلى الحاكم ، قياساً على من تاب من أهل الحرابة قبل القدرة عليه .

ومنهم من قال لا يسقط مطلقاً .

وأما حق المسروق منه فالأرجح أنه لا يسقط ، بل إن إعادة المسروق لمن سرق منه شرط فى قبول التوبة ، لأن الحدّ هو حق الله ، أما المسروق فحق لصاحبه : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ .

● وتقرير أن الله تبارك وتعالى مالك الملك له ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ والمخاطب هنا يمكن أن يكون محمداً ﷺ ، أو أن يكون كل مسلم أو كل قارىء للقرآن الكريم .

والاستفهام فى الآية الكريمة يفيد التقرير والتأكيد ، أى قد علمتَ أن الله تعالى له ملك السموات والأرض ... فله وحده أن يغفر لمن يشاء أو يعذب من يشاء فهو على كل شىء قدير .

● استنباط المواقف التربوية العامة من الآيات الكريمة يهدينا إلى الأمور الآتية :

١ - نتعلم من الآيات أن الإيمان ليس دعوى تدعى ، وليس شيئاً ثابتاً غير قابل للزيادة

النقصان ، وإنما هو تصديق بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى ، كما أن الإيمان لا يدل عليه ولا يترجم عنه إلا العمل الصالح .

لذلك لم يكن عجيباً أن ينادى الله على المؤمنين طالباً منهم التقوى أو مطالبا هم بالإيمان فى قول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ... ﴾[1] فالخطاب فى هذه الآية لكل مؤمن كما يرى جمهور المفسرين ، وليس لأهل الكتاب وحدهم كما يرى ذلك بعض المفسرين .

٢ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن الحديث عن الذين كفروا عقب الحديث عن الذين آمنوا ، ومقابلة أحوال هؤلاء بأحوال أولئك يوحى بالتهديد لمن لم يتق الله ويبتغى إليه الوسيلة ويجاهد فى سبيله بكل ما يستطيع ، كما توحى بأن الذين كفروا مهما حاولوا بعد كفرهم أن يفتدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة بكل ما فى الأرض جميعا ومثله معه ما تقبل منهم ، لأنهم ضيعوا على أنفسهم فرصة الإيمان إذ هم فى الدنيا دار العمل والاختبار .

٣ – ونتعلم من ذلك أن من فاتته فرصة الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا فإنه يخسر الآخرة وله فيها العذاب الأليم بل العذاب المقيم ، ونعرف من ذلك بطلان التّعِلاّت التى يقول بهما بعض الكفار الزاعمين أن المسيح يفديهم ويخلصهم من آثامهم ، لأن ذلك ليس صحيحاً ، ولا شرعه الله ، ولا هو بمقبول فى العقل والمنطق ، إذ كيف يخطىء واحد ويكفر عنه آخر ؟

إن شرع الله هو أن النجاة من عذابه إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح ، وهذا يعلمنا وجوب الاعتماد على النفس والعمل على تزكيتها وتطهيرها من الآثام ، وأن من لم يفعل ذلك فلن تنفعه شفاعة الشافعين ، ولن يقبل منه فداء يفتدى به نفسه من عذاب الله .

---

(١) سورة النساء : ١٣٦ .

٤ - ونتعلم كذلك ضرورة المحافظة على أمن المجتمع والمحافظة على أموال الناس وأعراضهم ، وأن العدوان على شيء من ذلك يوقع على المعتدى عقاباً دنيوياً بقطع يده إذا بَلغ قدر المسروق نصاباً معيناً ، وعقاباً أخروياً عند الله تعالى .

وتثبت السرقة بإقرار السارق أو وجود البينة على سرقته ، ومقدار المسروق الذى يجب فيه القطع هو : ربع مثقال من الذهب[1] أو ثلاثة دراهم[2] من الفضة أو ما يساوى هذه القيمة فى كل عصر .

وقد ثبت فى السنة النبوية أن النبى ﷺ قطع فيما قيمته ثلاثة دراهم ، فقد روى البخارى ومسلم بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن النبى ﷺ قطع فى مجن ثمنه ثلاثة دراهم ، وفى رواية : قيمته ثلاثة دراهم .

وعند الأحناف لا قطع إلا فيما قيمته عشرة دراهم ، وهى تقدير ثمن المجن الذى قطع فيه رسول الله ﷺ ، وفى كل عصر يستطيع علماء المسلمين أن يحددوا قيمة النصاب الذى يجب فيه قطع يد السارق .

ويسقط الحد بأى شبهة تقوم فيه .

ويشترط فى السرقة أن تكون قد سرقت من حرز يناسب الشيء المسروق فإن لم يكن المسروق محرزاً فلا قطع[3] .

٥ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن باب التوبة مفتوح ، وأن الإسلام يرحب بالتوبة ، والله سبحانه يعفو ويغفر بشرط أن تكون التوبة نصوحاً خالصة لله تعالى مصحوبة بالندم ورد المظالم إلى أهلها .

- واستنباط المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة الإسلامية يوقفنا على ما يلى :

١ - أن زاد الداعى إلى الله وعدة العاملين فى الحركة الإسلامية هو تلك المنظومة التالية

---

(١) المثقال يزن : ٢٥و٤ أربعة جرامات وربع الجرام .

(٢) الدرهم وزنه : ٩٧و٢ جرامان وسبعة وتسعون من المائة من الجرام .

(٣) تفصيل ذلك فى كتب الفقه ، وقد اكتفينا هنا بأن نذكر مالا يسع المسلم جهله من هذا الموضوع .

التى فرض الله تعالى مفرداتها فرضا على كل داعية ، وكل عامل فى مجال الحركة الإسلامية وهى :

أ - الإيمان بالله بكل مفرداته .

ب - وتقوى الله بكل معنى من معانيها .

جـ - والتقرب إلى الله بكل وسائله وأسبابه .

د - والجهاد فى سبيل الله بكل أنواعه .

وأن التناسق بين هذه المنظومة وتكاملها والإخلاص فى التعامل مع كل حلقاتها هو الذى يحقق بفضل الله الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة ، بل هو الذى يحقق التقدم فى مجالى الدعوة والحركة الإسلامية ، ويقرب من الوصول إلى إقامة الدولة الإسلامية .

إن خللاً كبيراً يقع فى العمل الإسلامى كله ويحول بين تحقيق الأهداف إذا نحى أحد هذه المفردات من تلك المنظومة ، لأن معنى ذلك أن الداعية أو العامل فى الحركة الإسلامية قد فقد الزاد والمتاع ، فكيف يعيش وكيف يعطى وكيف يسهم فى بناء الإنسان والحضارة ، إن الإنسان والحضارة الإنسانية لا تبنى إلا من هذه المفردات .

٢ - وأن على الدعاة والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية جميعاً أن يحرروا للمدعوين المعنى الشرعى الدقيق للتوسل إلى الله ، إذ قد ضلت فيه أفهام كثيرة واضطربت فى تقديره موازين عديدة ، ودخل التوسل عند بعض الناس إلى الدجل والتواكل وسوء الاعتقاد ، وإن التحرير العلمى لهذا الموضوع لا يتطلب من الداعية إلى الله أكثر من قراءة كتاب ابن تيمية فى التوسل الذى أشرنا إليه آنفا[1] .

إن تحرير هذا الموضوع يحرر العقيدة من كثير من الشوائب التى تسيء إلى العابد وعبادته .

---

(١) طبع مستقلاً ، وطبع ضمن مجموعة الرسائل والمسائل بتحقيق الشيخ / محمد رشيد رضا أكثر من مرة .

٣ – وأن على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتلطفوا فى التعامل مع أهل الأديان الأخرى ممن يرون أن لهم فادياً ومخلصاً إن دعت ضرورة إلى حوارهم أو جدالهم بالتى هى أحسن ، لأن رجال الدعوة أحرص على هداية الناس أكثر من حرصهم على الغَلَبَة فى حلبة الجدال .

وعليهم أن يدركوا أن من فاته العمل الصالح فى الدنيا فلن يجد مهرباً من حساب الله وعقابه يوم القيامة ، إلا إذا تفضل الله بالعفو والمغفرة ، فهذه الدنيا هى دار العمل والابتلاء والآخرة هى دار الجزاء والثواب والعقاب .

إن على الدعاة أن يبصروا الناس بذلك قبل أن يفوت الأوان ، ويعلمونهم حساب أنفسهم فى الدنيا قبل أن يحاسبوا فى الآخرة ، وإن عليهم أن يزنوا أعمالهم فى الدنيا قبل أن توزن عليهم فى الآخرة ، لأن ذلك هو الفقه الصحيح للتعامل مع منهج الله ونظامه فى حياتنا الدنيا .

٤ – وأن على الدعاة أن يتعلموا من تشريع أحكام قطع يد السارق وما يحيط بذلك من ظروف وملابسات وشبهات قد توقف الحدّ وشروط تشترط لتنفيذه ، عليهم أن يتعلموا أن لهذا التشريع حكمة عظيمة وفوائد جليلة نُذَكِّر منها بما يلى :

أ – حَرِص التشريع على أن يؤمن الناس على أموالهم وممتلكاتهم فهذه أبسط حقوقهم على الدولة المسلمة .

ب – ووضع التشريع شروطاً ومواصفات للسرقة التى توجب الحد حتى لا يؤخذ أحد بالظنة أو يقام عليه حدّ مع وجود الشبهة .

جـ – وأن الشريعة بهذا الحد ونظيره من الحدود لردع المرتكب للجريمة وتنكل به بقطع يده ، ولكن ذلك عند التأمل رحمة بمن تحدثه نفسه بجريمة مماثلة ، ورحمة بالمجتمع وأمان له من المعتدين وبث الطمأنينة فى أرجاء المجتمع كله .

ومهما ادعى بعض الغافلين أن قطع اليد قسوة فهو لن يكون أبداً أرحم بالسارق من خالقه سبحانه وتعالى ، وإذا كان الخالق هو الذى شرع هذا القطع ليحمى به المجتمع من الأشرار والمعتدين ، ولردع كل من تحدثه

نفسه بالسرقة أو الجريمة التى يعد عقابها نكالاً من الله ، وحسب هذه الجريمة قسوة وإفساداً للمجتمع أن يكون عقابها نكالاً من الله .

د - وأن على الدعاة أن يوقنوا بأن تطبيق حدود الله على عباد الله هو الحل الأمثل لمقاومة الجريمة والعدوان وترويع الآمنين وهو السبيل لا ستقرار العدل والأمن فى المجتمع .

وعليهم أن يبصروا الناس ببطلان تلك القالات التى تلوكها ألسنة الحاقدين على الإسلام أو الجاهلين به ، التى تشيع أن قطع اليد قسوة وأن القتل أو الرجم وحشية ، فإن هؤلاء المتقولين يمارسون ما هو أشد ضراوة ووحشية من كل الحدود مجتمعة ، فهم الذين فجروا القنابل الذرية « والهيدروجنية » والعنقودية وقنابل « النابالم » وهم الذين يقتلون الناس بالأسلحة « الميكروبية » وبغاز الأعصاب وغير ذلك من وسائل التنكيل بالإنسان ، مع هذا الإنسان الذى يقتلونه بهذه الوحشية لم يرتكب جرماً ولم يعتد على آمن ، وإنما هى حروب الإبادة من أجل الاستيلاء على خيرات البلاد المعتدى عليها أو على مواقعها « الاستراتيجية » والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى على مستوى العالم كله ، وأهم الدول التى تمارس هذه الوحشية والضراوة وأكثرها امتهاناً وتنكيلاً للإنسان هى الدول التى تسرف فى اتهام النظم الإسلامية والحدود على وجه الخصوص بالقسوة والوحشية .

إن الغرب كله أوربا وأمريكا قد مارس من هذه الأعمال الوحشية مالا يمكن أن ينسى فى بلاد العالم الثالث أو النامى أو عالم المعذبين بحضارة الغرب وآلته العسكرية الوحشية المدمرة .

وإن الشرق فيما كان يطلق عليه ، « الاتحاد السوفيتى » كان يمارس هذه الوحشية فى كل بلد يسوده النظام الشيوعى أو الاشتراكى ، وما قصة اعتقال « السوفيت لدوبشك » فى بلده بأغرب من قصة اعتقال « نرويجا » من بلده أيضاً ، ثم يتحدثون عن الحرية ويعبدون تمثالاً لها !!!

وليس ما تفعله إسرائيل مع أصحاب الأرض والحق من قمع وتعذيب وتكسير للعظام ودفن للأحياء فى الرمال وذبح للأطفال والنساء ، بأقل ضراوة ووحشية مما يفعله الغرب الصليبى ضد العالم الثالث .

وليس ما يمارسه مجرموا الصرب فى مسلمى البوسنة من قتل وتعذيب بالجوع والعطش وهتك الأعراض وزرع أجنة الكلاب فى أرحام المسلمات ، والاعتداء على أعراضهن بشكل منتظم مذل مهين بأقل بشاعة مما يمارسه الغرب اليوم ممثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية التى تعطى لنفسها حق ضرب أى بلد فى العالم بالصواريخ إذا لم تستجب لما تريد ، مثل ما فعلت فى « فيتنام » والعراق والصومال ، ونظير ذلك ما مارسته إسبانيا مع المسلمين ، وما فعلته انجلترا وفرنسا وغيرهما مع البلدان التى اغتصبتها واحتلتها حيناً من الزمان احتلالاً عسكرياً ولا تزال تحتلها حتى اليوم احتلالاً اقتصادياً وثقافياً وفكرياً .

وليس يغيب أبداً عن الذاكرة عندنا فى مصر ، ما فعلته بريطانيا « العظمى » !!! فى مأساة قرية دنشواى بريف مصر إذ ردت على الضرب بالعصا بضرب الذين حكم عليهم بالسياط حتى الموت ، مع صلبهم وتركهم موتى تأكل منهم جوارح الطيور وبشرط أن يرى ذلك ذووهم من آبائهم وأبنائهم ونسائهم ، أفبعد هذه الوحشية يتحدثون عن الحدود الشرعية وقسوتها ؟ .

إن الحدود الشرعية هى الحق وهى العدل الذى يؤمّن المجتمع ضد الفساد والمفسدين .

٥ - ويتعلم الدعاة من هذه الآيات الكريمة أن التوبة إلى الله من أى ذنب بابها مفتوح دائماً ، لأن رحمة الله واسعة بل تستوعب كل مجرم وكل جريمة ، ما دامت هناك نية صادقة فى التوبة المخلصة المصحوبة بالندم المؤدية إلى الإقلاع عن المعاصى والإقبال على الله ورد المظالم إلى أهلها .

وهذا فى مجال الدعوة إلى الله فى غاية الأهمية ، فإن كثيراً من المدعوين يتباطئون أو يتكاسلون أو ينكصون ، ثم تراودهم الرغبة فى العودة والإنابة ، فيقدمون رِجْلاً ويؤخرون أخرى ظانين أن التوبة قد لا تكون مقبولة بسبب ما وقعوا فيه من آثام ، وتلك المشاعر أو الظنون ما هى إلا وساوس الشيطان ليصدهم عن العودة إلى الله .

إن الدعاة إلى الله حينئذ هم المطالبون بتيسير هذه التوبة وتزيين تلك الإنابة ، بما يتمتعون به من رحابة صدر ورجاحة فكر ، وعمق فقه للدين ولطبائع الناس ، وما يحيط بضعفهم البشرى من وسوسات شياطين الجن والإنس .

إن صوارف الناس عن الدعوة إلى الله كثيرة ومغرية لضعاف الإيمان ومن تتحكم فيهم شهواتهم ، حيث تحول هذه الصوارف بينهم وبين الانخراط فى العمل للإسلام والانضمام إلى قافلة الدعوة والحركة ، والخروج بهم عن الصراط المستقيم صراط الله فهى سبيل واحدة راشدة وغيرها من السبل ضالة مضلة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[1] وروى الدارمى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ثم قال : هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **وأنّ هذا صراطى** ... ﴾ .

وروى الطبرى بسنده[2] عن أبان رضى الله عنه أن رجلاً قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة ، وعن يمينه جَوَادُّ – أى طرق – وعن يساره جَوَادُّ ، وثَمَّ رجال يدعون من مرّ بهم ، فمن أخذ فى تلك الجوادّ انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ، ثم

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

(٢) فى كتابه : أدب النفوس .

قرأ ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما ... الآية ﴾ »[1] .

هكذا ينبغى أن يحذر الدعاة إلى الله الناس من أن يخدعهم أحد عن الصراط المستقيم صراط الله ، وعن هذا الدين دين الحق وعن هذه الدعوة دعوة الله ، أو عن سنة النبى الخاتم ﷺ فإن سنته عصمة وملاذ لمن تمسك بها ، روى ابن ماجة بسنده عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقلنا يارسول الله ؛ إن هذه لموعظة مودع ، فما تعهد إلينا ؟ فقال : قد تركتكم على البيضاء - أى الملة أو المحجة - ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم والأمور المحدثات ، فإن كل بدعة ضلالة ، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً ، فإن المؤمن كالجمل الأنف - الذلول - حيثما قيد انقاد » وأخرجه الترمذى بمعناه وصححه .

إن الدعاة إلى الله يجب أن يحذروا المدعوين من هؤلاء الذين يصرفونهم عن الدعوة إلى الله ، إن هؤلاء الصارفين خطر على المسلمين جميعاً ، حذّر منهم رسول الله ﷺ . فقد روى بسنده عن رافع بن خديج رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون ، كما كفرت اليهود والنصارى ، قال : فقلت : جُعِلْتُ فداك يارسول الله كيف ذاك قال : يقرون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض قال : جُعلتُ فداك يارسول الله وكيف يقولون ؟ قال : يجعلون إبليس عِدْلاً لله فى خلقه وقوته ورزقه ، ويقولون : الخير من الله والشر من إبليس ، قال : فيكفرون بالله ، ثم يقرأون على ذلك كتاب الله ، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ، قال : فما تَلْقَى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال ، أولئك زنادقة هذه الأمة » .

هكذا يتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية من الآيات الكريمة ما ذكرنا ، وإنه لقليل لمن تدبر القرآن الكريم .

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٥٧٤ ط الشعب مصر - دون تاريخ .

الآيات من الحادية والأربعين إلى الخامسة والأربعين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

تخاطب هذه الآيات النبى ﷺ فتنهاه عن الحُزن بسبب مسارعة الكفار فى مزيد من الكفر ، من هؤلاء المنافقين الذين آمنوا بأفواههم وكلماتهم دون أن تؤمن قلوبهم ، ومن هؤلاء اليهود الذين يسمعون إلى الكذب ، ويحرفون الكلم من مواضعه على الرغم من إنزال التوراة عليهم ، وهى تأمر بما أمر به الله سبحانه ، ولكنهم لا

يتحاكمون إليها كفراً منهم بما أنزل الله ، وظلماً وعدواناً على الحدود التى شرعها الله سبحانه مثل : قتل القاتل وفقأ العين بالعين ... والقصاص فى الجروح ولكن اليهود ظلموا وتجاوزوا .

● وقد تضمنت الآيات الكريمة نهياً وأمراً وخبراً وتقريراً مما توضحه فيما يلى والله المستعان .

— أما النهى : فهو نهى الله سبحانه لرسوله الكريم عن الحزن الذى يخرج الإنسان عما يجب أن يكون عليه من الثبات والتعقل والصبر والاحتساب لكل ما يصيب الإنسان من نصب أو وصب ، ينهاه عن الحزن على ما يصدر من هؤلاء الكفار والمنافقين من اليهود وغيرهم .

وقد وصفت الآيات هؤلاء القوم من اليهود والمنافقين والمسارعين فى الكفر بصفات عديدة منها ما يلى :

- أنهم سماعون للكذب ، أى يقبلون كذب رؤسائهم فيما يخبرونهم به من تحريف وتضليل فى التوراة .
- وأنهم سماعون لقوم آخرين لم يأتوا إلى النبى ﷺ ، ومع ذلك يزعمون أقوالاً مشوهة له .
- وأنهم يحرفون الكلام مع علمهم بأنه ليس كما يقولون ، تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة أو إخفاء كلمة أو زيادة كلمة أو حذفها ، وتحريفاً معنوياً يحمل الألفاظ على غير ما وضعت له .
- وأنهم غاشون مفسدون فى الأرض ، مفسدون لما ينقلون عن النبى ﷺ ، حيث اتفقوا فيما بينهم على أن يقبلوا حكم الرسول ﷺ فى الزانيين إن كان جلداً .

— محاباة منهم للزانيين – وأن يرفضوا الحكم إن كان رجماً .

وكانوا حينما جاءوا إلى الرسول ﷺ ليحكم لهم فى الزانيين سألهم من حد الزنا

عندهم فى التوراة فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، وجاءوا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع فإذا آية الرجم ، فاعترفوا بصدق النبى ﷺ ، وظهر كذبهم وعبثهم بكتاب شريعتهم .

ـــ **وأما الخبر** : فإن الله تبارك وتعالى أخبر عن هؤلاء القوم من المسارعين فى الكفر ومن المنافقين واليهود بأنه سبحانه فتنهم واختبرهم ، فسقطوا فى الاختبار ، وضلوا وكذّبوا وحرفوا وبدلوا ، وهم بذلك لن يملك الرسول ﷺ شيئاً من هدايتهم ، وما عليه أن يخافهم على نفسه أو دعوته ، فلهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم **﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى وفى الآخرة عذاب عظيم ﴾** .

وأنهم مع كونهم سماعين للكذب سماع قبول ،فهم يكذب بعضهم بعضاً كما يكذبون على غيرهم من الناس .

وهم أكالون للسحت[1] .

ـــ وإخبار النبى ﷺ بأنه إذا جاءه هؤلاء ليحكم بينهم على ما فيهم من هذه الصفات ، فهو مخير بين أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم ويتركهم إلى رؤسائهم غير خائف من أن يلحقه ضرر منهم ، وقد ردهم النبى ﷺ دون أن يحكم بينهم .

ولو حكم بينهم فسوف يحكم بالعدل لا بما يريدون .

وهنا تساؤل أثاره العلماء هو :

هل هذا التخيير بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم للرسول ﷺ ولكل حاكم مسلم يأتى من بعده ، مطلق يتناول أهل الكتاب عموماً والمعاهدين والكفار جميعاً ، أم هو مقيد بهؤلاء الناس الذين جاءوا يتحاكمون إلى الرسول ﷺ وحدهم فى قضية حد الزنا ؟

---

(١) السُّحْت هو الرشوة فى الدين أو فى الحكم ، أو هو أكل المال بالباطل فهو أعم من الرشوة . فكل رشوة سحت وليس كل سحت رشوة بهذا فسر العلماء السحت .

خلاف فى ذلك بين العلماء منهم من يخص ذلك الحكم بأولئك ومنهم من يطلقه فى كل متحاكم إلى كل حاكم مسلم .

— **وأما الأمر** : فهو أمر النبىّ ﷺ إذا حكم بين هؤلاء المتحاكمين إليه أن يحكم بينهم بالقسط ، لا بما يزعمون أو يرغبون ، وكان من انحرافهم عن الحق فى الحكم أمران :

- زعمهم أن حد الزانى المحصن الجلد ، وهو الرجم
- وزعمهم أن دية المقتول إن كان من بنى النضير تدفع كاملة لقوتهم وشرفهم ، فإن كان المقتول من غيرهم دفع له نصف دية .

— وفى الآيات تعجب من أفعال يهود – وأغلب أفعالهم يثير العجب بل الدهشة والحيرة ، إذ يطلبون من الرسول ﷺ أن يحكم بينهم مع أنهم أصحاب شريعة ، والنبى ﷺ جاء بشريعة أخرى لم يؤمنوا بها ولا به ﷺ ؟ فكيف يتحاكمون إليه ؟

ثم كيف يرفضون حكمك يا محمد بعد أن قبلوا التحاكم إليك وآثروا ما عندك على ما فى شريعتهم ؟

إذا فكرت فى ذلك عجبت من أمرهم !!! قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ فهم ليسوا مؤمنين بالتوراة ولا بما أنزل على محمد ﷺ ، لأن الإيمان يتبعه الإذعان ، والإذعان يتبعه العمل ، وهم لم يعملوا شيئاً يوافق الإيمان فكيف يكونون مؤمنين ؟ .

— وتضمنت الآيات خبراً آخر هو أن الله تبارك وتعالى أنزل على نبيه موسى عليه السلام التوراة وجعلها مشتملة على الهدى فى العقيدة والأحكام ، وأمر سبحانه بأن يحكم بها النبيون الذين أسلموا أمرهم لله من بنى إسرائيل موسى عليه السلام ومَنْ بعده يحكمون لهؤلاء اليهود ، وأمر أن يحكم بها الربانيون[1] ويحكم بها الأحبار[2] .

---

(١) الربّانيون : هم كبار كهنتهم الذين نسبوا إلى الرب لصلاحهم وتقواهم ، وقال ابن حجر : هم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم .

(٢) الأحبار : هم العلماء فى الفترات التى ليس فيها أنبياء . وقال ابن حجر : هم العلماء الذين يُحكِمون ما يفعلون

وهؤلاء الربانيون والأحبار وصفهم الله تعالى بصفتين :

الأولى : هى أنهم استحفظوا – أى ائتمنوا على كتاب الله – وطلب منهم حفظه ، أى طلب منهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موسى ومن بعده أن يحفظوه ولا يضيعوا منه شيئاً .

وهنا نذكر العهد الذى أخذه موسى عليه السلام على شيوخ بنى إسرائيل أن يحفظوا التوراة ولا يتحولوا عنها ، وأنهم نقضوا هذا العهد .

والثانية : أنهم كانوا شهداء رقباء على كتاب الله وعلى كل من يريد العبث به ، ومن هؤلاء الرقباء الصالحين عبد الله بن سلام رضى الله عنه الذى كشف غش مَنْ وضع يده فوق آية الرجم ليخفيها .

ـــ وفى الآية نهى عن خشية الناس بكتمان الحق وكتمان ما أنزل الله خوفاً من الناس أو طمعاً فيما عندهم ، لأنه لا خشية إلا من الله مالك الملك الآمر بالحق المدافع عن الذين آمنوا فهو وحده أحق أن يخشى ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ .

ـــ وفيها نهى عن ترك أحكام الله ، ونهى عن ترك بيانها للناس أو ترك العمل بها من أجل منفعة دنيوية عاجلة ، لأن هذه المنفعة بالغة ما بلغت سوف تكون قليلة بالنسبة إلى ما عند الله ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً** ﴾ .

ـــ **وأما التقرير** : فقد قررت الآيات ثلاثة أمور :

- تقرير أن الله تبارك وتعالى قد وصف من ترك الحكم بما أنزل الله بأنه « كافر » إذ العدول عن الأحكام التى شرعها الله كفر بالله وبأحكامه ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ .
- وتقرير أن الله تبارك وتعالى قد فرض على بنى إسرائيل من العقوبات فى التوراة أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن ، وأن الجروح كلها قصاص لأن ذلك هو العدل الذى قرره الله تعالى ورفع به ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ... الآية** ﴾ .

- غير أن من عفا عن المعتدى فقد تصدق بهذا الحق عليه ، وذلك العفو كفارة لهذا المتصدق ، أو كفارة للمعتدى يوم القيامة فقد روى الترمذى بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيهبه ، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » .
- وتقرير أن من لم يحكم بما أنزل الله فى هذه الجنايات وأعرض عن أحكام الله التى تقر العدل والمساواة فحكم بهواه أو بما شرع الناس للناس فقد ظلم نفسه وظلم غيره من الناس . ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ .
- والمواقف التربوية العامة التى نتعلمها من الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - نتعلم من هدى الآيات الكريمة أن الناس كما وصفهم الله تبارك وتعالى - فى مجال تكذيب الحق ومعاندته وعصيان الرسل عليهم السلام - أنواع :

- منهم الذين يسارعون إلى الكفر تدفعهم إلى ذلك دوافع عديدة من أبرزها اتباع هوى الأنفس والاستجابة لهمزات الشياطين .
- ومنهم المنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .
- ومنهم اليهود ، وما يعرف عنهم من صفات مثل كونهم سمّاعِين للكذب أى قابلين له ما دام قد صدر عن رؤسائهم على الرغم من معرفتهم أنه كذب ما دام يحقق لهم مصلحة دنيوية ، ومثل كونهم سماعين للإشاعات مصدقين بها مع علمهم بأن الذين يرددونها ما رأوا من ينسبون إليه الحديث فضلاً عن أن يكونوا سمعوا منه ، فهم راغبون فى تحريف الكلم عن مواضعه ، ومنهم الأكالون للسحت - الحرام - وما يهلكهم ويصيبهم بالبلاء .

وهذا التنوع فى الناس يقتضى التعامل مع كل نوع بما يناسبه ويلائم طبيعته ويخاطبه على قدر عقله وفطرته .

٢ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن افتراض كون الناس جميعاً أخياراً أو أشراراً افتراض لا يقوم على قدمين ، ولا ينبغى أن يأخذ بمقتضاه أحد ، إذ هو ينطوى على ظلم للحق والحقيقة ، ويعوق عن الوصول إلى علاج الناس والأخذ بأيديهم ليزداد الخيرون منهم خيراً، ويمتنع الأشرار منهم عن الشر ما استطاعوا .

إن الآيات الكريمة توقفنا على فقه عميق بما أودع الله هذه النفس البشرية من قدرات على التأقلم والتكيف ، وقابلية ممارسة الخير أو الشر ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1] .

٣ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن الذين يرغبون أن يتحاكموا إلى الحق والعدل ، ثم لا يقبلون ما يقضى به الحق والعدل لا يمثلون إلا قيمة رخيصة فى المجتمع الإنسانى ، إذ لا ينبغى أن يميل أحد عن الحق والعدل ، ولن يستطيعوا أن يتحدوا الحق دائماً وإنما هى جولة لهم ، والحق أحق أن يتبع ، وهو أثبت وأقوى من أن تهزمه جولة أو أن يحول بينه وبين الظهور باطل أو انحراف .

وماذا يفعل أعداء الحق والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2] .

٤ - ونتعلم من الآيات أن من معانى « السُّحْت » الرشوة ، وهى من أخطر أمراض المجتمع ، وأن عددا من الصحابة رضى الله عنهم ، منهم عبد الله بن مسعود قالوا : السُّحت : الرِّشا .

وفى فداحة جريمة الرشوة أجمع العلماء على أن الرشوة تخل بمروءة الراشى

(١) الشمس : ٧ - ١٠ .
(٢) يونس : ٣٥ .

والمرتشى ، لأن هذا يأخذ ما ليس من حقه ، وذاك يعطى من لا يستحق ، وما دامت الرشوة تخل بالمروءة فهى تخل بالدين والتدين إذ لا دين لمن لا مروءة له ، وفى التحذير من الرشوة وردت هذه الكلمات :

- روى البيهقى فى شعب الإيمان بسنده عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل جسد – وفى رواية لحم – نبت من سحت فالنار أولى به » قالوا يارسول الله وما السُّحْت ؟ قال : « الرشوة فى الحكم » .
- وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : «رشوة الحاكم من السُّحْت » .
- وقال أبو حنيفة رحمه الله : « إذا ارتشى الحاكم انعزل فى الوقت ، وإن لم يعزل ، بطل كل حكم حكم به » .
- وقال العلماء : « من السحت أن يأكل الرجل بجاهه » .
- ويرى العلماء – على وجه الاستحسان – أن الرشوة المحرمة هى أن يعطى الإنسان ليأخذ ما ليس له أو ليتنصل من حق لزمه . أما أن يعطى الإنسان ليدفع عن دينه ودمه وعرضه وماله فليس برشوة ، ولا إثم فيه على الدافع وإنما الإثم على القابض .

٥ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن الذين يكتمون شيئاً من كتاب الله أو يعطلونه ليسوا مؤمنين وإن زعموا الإيمان ، لأن مقتضى الإيمان أن يأتمر المؤمن بما أمر الله به وأن ينتهى عما نهى الله عنه .

وهؤلاء الذين فارقوا الإيمان بكتمانهم شيئاً من كتاب الله يسمون أحياناً كافرين لأنهم كفروا الحق أى ستروه ، ويسمون أحياناً ظالمين لأنهم بذلك يظلمون أنفسهم وغيرهم من الناس ، ويسمون فاسقين لأنهم يخرجون عن شرع الله ومنهجه ونظامه .

أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وغيرهم بأسانيدهم عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : مُرَّ على النبى ﷺ محمماً[1] مجلوداً ، فدعاهم فقال :

---

(١) التحميم هو : تسويد الوجه بالفحم ونحوه .

أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال النبى ﷺ : « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، وأمر به فرجم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يـأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر** ... **الآية** ﴾ **إلى قوله تعالى** : ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ . ويقول : ائتوا محمدا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ... **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ... **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ قال : هى فى الكفار كلها .

٦ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن كل كتاب جاء من عند الله لا يختلف فى الأصول عن كتاب آخر من الكتب التى أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام ، فكلها تقوم على توحيد الله تبارك وتعالى وعبادته وحده دون غيره ، وكلها تأمر بالخير وتنهى عن الشر ، وتوصى بما يصلح الدين والدنيا ، هذا إذا كانت خالية من التحريف والتبديل .

ونتعلم أن تطبيق أحكام الله تعالى لا ينبغى أن يخشى فيها أحد ، ولا يجامل فى عدم تطبيقها أحد ، وأن من خشيى أحدا غير الله فقد آثر ما عند الناس على ما عند الله ، ويكون بذلك قد كفر بما جاء من عند الله وظلم نفسه وغيره وفسق عن أمر ربه ومنهجه ونظامه .

٧ - ونتعلم من الآيات الكريمة حرمة الإنسان على الإنسان نفسه وأعضائه وكل ما يُلحق به من أذى ، إذ قررت الأحكام التى أنزلها على رسله هذه الحرمة للإنسان وجعلت جزاء العدوان عليه القصاص ، وجعلت جرحه قصاصاً كذلك ،

فليس لأحد أن يلحق أذى بإنسان مهما كان هذا الأذى قليلاً أو ضئيلاً ، فقد روى الطبراني بسنده عن عصمة بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ظهر المؤمن حِمىً إلا بحقه » وفي رواية : إلا في حد أو حق » .

هكذا يحترم الإسلام الإنسان ويحميه من أي أذى يلحق به منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

● والمواقف التربوية التي نتعلمها من الآيات الكريمة في مجالي الدعوة والحركة كثيرة ، نذكر منها ما يسر الله لنا ذكره في النقاط التالية :

١ – أن على الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية أن يضعوا في اعتبارهم أن الناس أصناف وأنواع وأن تقبلهم للدعوة وللحق يتأثر قطعاً بما ينتمون إليه من فطر وطبائع وبناء على ذلك فإن على الدعاة الصبر عليهم وتكرار المحاولة معهم ، وعدم اليأس منهم أو الحزن عليهم من أجل عناد بعضهم أو رفضهم لما جاءهم من الحق

٢ – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا أن طائفة من الناس يدنسون قلوبهم بتحدي الحق الذي جاء من عند الله ، فلا يطهر الله قلوبهم ولا يريد أن يطهرها وأصحابها يلجون في الباطل والدنس .

إن هؤلاء ما ينبغي أن يضيع الدعاة معهم الأوقات ، ولا يبددوا معهم الجهود ، لأن غيرهم ممن لم تنطمس بصائرهم ولم تتدنس قلوبهم بكثرة المعاصي وتحدي الحق أولى بأن تنفق من أجلهم الأوقات وتبذل الجهود ، وذلك أمر يتعلق بفقه الموازنات والأولويات . وقد أوسعنا هذا الموضوع بحثاً في كتابنا فقه الأخوة في الإسلام[1] .

إن أوقات الدعاة وجهودهم غالية بل موظفة للعمل في الدعوة إلى الله وهداية الناس ، وهي أكرم وأنفس من أن تنفق مع من طمست بصائرهم فآثروا الباطل

---

(١) نشرته دار النشر والتوزيع الإسلامية بمصر عام ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م .

على الحق والضلال على الهدى ، وأولى بالعمل من كانوا من أصحاب الفطر السليمة ، غير أن ذلك لا يعنى تركهم أو إهمالهم وإنما يدعون إلى الله ويترك لهم من تطاول الزمان ما قد يساعدهم فى الانتقال من الضلال إلى الهدى ، وعلى الدعاة أن يدعوا الله لهم حتى يفيئوا إلى الحق إذا أذن الله لهم .

٣ – وعلى الدعاة أن ينتبهوا وينبهوا بدقة إلى موضوع أكل السحت فإنه مزلق لكثير من الناس ، يتهاونون فيه ، فينصرون بذلك الشر على الخير ، ويهددون أمن النفس وأمن المجتمع كله .

وبأى معنى من المعانى التى ذكرناها للسحت ، فإنه كله حرام ، وعلى الدعاة أن يهتموا اهتماماً شديداً بتوضيحه وتوضيح آثاره المدمرة للحياة الإنسانية كلها ، وحسب أى مجتمع يشيع فيه أكل السحت أن يحرم الأمن والطمأنينة وأن يشيع فيه الابتعاد عن الحق والعدل .

إن على الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أن يحرسوا الناس من أنفسهم ومن شياطينهم ، وأن يحرسوا المجتمع من شرور الناس وإيثارهم الباطل على الحق .

٤ – وإن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يعلموا أن اليهود لما أنكروا ما عندهم مما أنزل الله عليهم فى التوراة من أحكام أخبر الله سبحانه عنهم بقوله تعالى : ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ مع أن التوراة كتاب استحفظ عليه علماء بنى إسرائيل ، فلم يستطيعوا فدخله التحريف والتبديل ؛ فما بالنا إذن بمن ينكرون ما جاء من عند الله مما نزل فى القرآن الكريم الذى تكفل الله بحفظه بنفسه ولم يستحفظ عليه علماء المسلمين ؟

إن من ينكرون شيئاً من القرآن الكريم ليسوا بمؤمنين . فماذا يفعل الدعاة مع أولئك المسلمين الذين ينكرون ما جاء من القرآن الكريم من أحكام ، ويختارون أحكاماً بديلة عن أحكام الله مما وضع الناس للناس ؟

إن هؤلاء المنكرين أو المعطلين لأحكام الله وهم من المسلمين ، ثم يدعون أنهم مؤمنون ؟

إن تلك من القضايا الهامة بل البالغة الأهمية .

ماذا يفعل الدعاة مع أهل لا إله إلا الله الذين تنكروا لما أنزل الله على رسوله ؟ أيصفونهم بالكفر ؟ أم يصفونهم بالفسوق والعصيان ؟ أم يقبلون منهم تأولاتهم ودعاواهم ؟ .

نسوق فى الإجابة على هذه التساؤلات حديثاً نبوياً شريفاً يقطع بالحق فى هذه القضية ويلزم به .

فقد روى الطبرانى فى الكبير بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كفّوا عن أهل لا إله إلا الله ، ولا تكفروهم بذنب ، فمن كفّر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب » .

إن الدعاة إلى الله ليسوا قضاة[1] يحكمون على الناس بالكفر أو الفسوق والعصيان ، وإنما هم دعاة هداة يأخذون بأيدى الناس إلى الحق ويحشدون لهم كل الأسباب ، ثم يتركون هذه الأسباب تعمل فيهم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضل عليها .

ليس للدعاة أن يصنفوا الناس من المسلمين إلى كفار ومنافقين وغير ذلك من الأوصاف ، لأن تلك ليست مهمتهم من جانب ، ولا هى من طبيعة العمل فى مجالى الدعوة والحركة الإسلامية من جانب آخر ، وإنما ذلك موكول إلى الله سبحانه وتعالى الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

إن الحكم على بعض المسلمين بالكفر لن يفيد العمل الإسلامى فى شيء ، بل

---

(١) للمرحوم الإمام حسن الهضيبى كتاب جامع فى هذا الموضوع سماه : « دعاة لا قضاة » ردّ به على الموجة التى سادت فى الستينيات من القرن العشرين واستيسرت أن تطلق على بعض الناس لفظ كافر أو نحوه ، وقد استند الإمام الهضيبى المرشد الثانى لجماعة الإخوان المسلمين فى كتابه إلى أدلة شرعية من الكتاب والسنة وعمل الصحابة رضوان الله عليهم .

هو يجلب من المضرة ما يجلب ، وإن من صنّف كافراً فقد استبعد من زمرة المسلمين ، ومن استبعد من هذه الزمرة زهد فى العمل معه كثير من الدعاة إلى الله فازداد هو بذلك بعداً ، وليس ذلك فى صالحه أولا ولا فى صالح العمل من أجل الإسلام ، إذ الأصل أن لا يستبعد أحد من زمرة المسلمين - إلا وفق معايير شرعية معروفة[1] - وأن تبذل الجهود المستمرة مع الناس لنقلهم من الضلال إلى الهدى .

د - وعلى الدعاة إلى الله أن يدركوا وحدة الهدف بين الكتب السماوية ووحدة العناصر الأساسية للإيمان وهى توحيد الله سبحانه وعبادته وحده وفق ما شرع والدعوة إلى الخير والنهى عن الشر ، وتحريم الظلم والغش وسائر الرذائل الخلقية فهذه الأسس لا خلاف فيها بين كتاب سماوى وآخر ، فإن بدا اختلاف فى ذلك كان ذلك الاختلاف دليلاً على التحريف والتبديل فى الكتاب الذى يخرج عن توحيد الله وعبادته وفق ما شرع أو الدعوة إلى الشر أو التنكر للفضائل الأخلاقية ، وقد أوضحنا فى مقدمة تفسير هذه السورة الكريمة[2] كيف حرفت بعض هذه الكتب وبدلت ، وأن القرآن الكريم هو المعيار الصحيح - بما فيه - للحكم على هذه الكتب ، فما وافقه منها فهو صحيح وما خالفه فهو محرف ، لأن الله تعالى هو الذى تكفل بحفظه من التحريف والتبديل .

إن الدعاة إلى الله إذا أدركوا هذا أمكنهم بل سهل عليهم التعامل مع أهل الكتب السماوية الأخرى ، ووزنوهم بميزان الحق ، بل عاونوهم على الوصول إلى الحق ، وذلك من صميم عمل الدعاة إلى الله لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا

---

(١) تلك المعايير التى يخرج بها المسلم من إسلامه إلى الكفر قد حددها العلماء فى كتب العقيدة ومنها : إنكار معلوم من الدين بالضرورة وإتيان عمل لا يحتمل وجهاً غير الكفر والاستهزاء بالدين أو سب النبى ﷺ ... فيلتمس التوسع فيها فى مظانها .

(٢) وهى سورة المائدة التى خصص لتفسيرها هذا الكتاب كله .

﴿ وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

٦ - وأن على الدعاة والعاملين فى حقل الإسلام أن يمضوا فى طريقهم ملتزمين بأخلاق الإسلام وآدابه لا يخشون فى ذلك أحداً من الناس ، وإنما تكون خشيتهم من الله وحده ، مع اليقين بأنهم منصورون مؤيَّدون من الله ، لأن النبى ﷺ وعد بذلك وتحدث عنه ، فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما بسنديهما عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » .

وروى ابن ماجة بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتى قوَّامة على أمر الله لا يضرها من خالفها » .

إن الدعاة إلى الله إذا اطمأنوا إلى هذه الحقائق لا يضيرهم ولا يضرهم بحال أن يتعرضوا لمحنة أو أذى فى سبيل الله ، أو أن تقوم فى طريقهم المعوقات والعراقيل ، لأن كل ذلك لابد أن يكون إلى زوال ، والحقيقة الباقية بنص السنة النبوية الشريفة أن يظهر الدعاة على الحق وأن يظلوا ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون .

إن هذا اليقين فى نفوس الدعاة يصنع الكثير من الثقة ويقوى الإيمان ويزكى النفس ويطرد وساوس الشيطان .

٧ - وأن على الدعاة أن يعرفوا أن من سنة الله فى الناس أن يكون الحكم بما أنزل الله له أعداء يواجهونه ويحاولون أن يعطلوه فى مختلف الأزمنة والأمكنة .

وأن من سنة الله تبارك وتعالى أن يهيىء للدفاع عن دينه ودعوته طائفة اصطفاها بنفسه سبحانه وتعالى من هؤلاء الذين اختارهم الله للدفاع عن كتابه وجعلهم شهداء على الناس وعلى الكتاب نفسه ، يضحون من أجل ذلك بكل ما يستطيعون ، محتملين فى سبيل ذلك تكاليف باهظة قد تتجاوز المال والعَرَض

(١) العنكبوت : ٤٦ .

إلى النفس والموت فى سبيل الله لنيل الشهادة ومغفرة الذنوب وتنعم بمنازل الشهداء .

وإن من سنن الله كذلك أن يكون من بين الدعاة مَنْ يخشون بطش الحكام وسلطان أصحاب الجاه والنفوذ ، فإذا هم يجفلون عن الاستمرار عن الحق ، بل يتراجعون عن المضى فى طريق الدعوة إلى الله ، وأن من الدعاة من يرغبون فى مهادنة أصحاب السلطان والجاه والمال ، فيشترون ما عند هؤلاء من أعراض الدنيا وشهواتها بما عند الله ، وما عرفوا من الحق ، فيقعون بذلك فى شر عظيم ، كما كان هذا شأن علماء يهود إذ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، فكتموا كلام الله لقاء ما قدمه لهم بعض الرؤساء والوجهاء من أثمان مهما كانت ضخمة فهى قليلة ، كما يمكن أن يكون ذلك شأن بعض الدعاة من المسلمين .

إن على الدعاة أن يعوا هذا وأن يعملوا ما وسعهم على تلافيه ، لأن الله تبارك وتعالى يخاطب أهل الكتاب ويخاطبنا جميعاً بقوله تعالى : ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً** ﴾ .

هذا مجمل ما يتعلمه الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من دروس ترشد عملهم وتقربهم من تحقيق أهدافهم .

* * *

الآيتان السادسة والأربعون والسابعة والأربعون

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

- تحكى هاتان الآيتان للمسلمين موقف أهل الإنجيل « النصارى » من الإنجيل ، فتوضح أنهم عطلوا أحكامه وأحكام التوراة ، وتصدر عليهم لذلك حكماً بالفسق والخروج عن أمر الله .

- وتتضمن هاتان الآيتان خبراً وأمراً وتقريراً ، نشير إلى مضمونها فيما يلي :

أما الخبر : فهو أمور عديدة هي :

- الإخبار بأن الله تعالى بعث عيسى بن مريم بعد الأنبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة ليتابع عملهم ويجرى على سنتهم وذلك معنى قوله تعالى : **﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ﴾**
- والإخبار بأن الله سبحانه جعل عيسى بن مريم مصدقاً بقوله وعمله ورسالته للتوراة التى تقدمته بالنزول أى كانت بين يديه .
- والإخبار بأن الله سبحانه أعطى الإنجيل لعيسى وجعله مشتملاً على الهدى ومخرجاً للناس من الضلال الذى كان فيه اليهود ، ضلال العقائد والأعمال ، حيث كان بعضهم قد اتجه إلى الوثنية والخرافات ، وجعل من هذا الإنجيل نوراً يبصر به طالب الحق الطريق الذى يوصله إليه وإلى سائر فضائل الإيمان ، وجعل فى الإنجيل الموعظة والاعتبار لمن اتقى الله .

وأما الأمر :

فهو أن الله تبارك وتعالى أمر أهل الإنجيل أن يعملوا بما فيه من أحكام جاءت فى

التوراة التى تقدمت الإنجيل أو جاءت فى الإنجيل نفسه ، إذ الإنجيل مصدق لما بين يديه من التوراة .

ومعلوم أن كل ذلك كان قبل مجىء الإسلام ، أما بعد مجىء الإسلام فالكل مطالب بالحكم والتحاكم بما جاء فى هذا الكتاب الأخير ، وهذا الدين الخاتم .

وأما التقرير :

فهو أن من لم يحكم من النصارى بما أنزل الله عليهم من أحكام فهم خارجون عن أمر الله ، متنكرون لأحكامه ، متراجعون عن الإيمان وما يتضمنه من فضائل وآداب ، وذلك هو الذى عبرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ .

ونلحظ أن القرآن الكريم وصف اليهود الذين يتنكرون لما أنزل الله فى التوراة ولا يتحاكمون إليه – وصفهم بالكفر مرة وبالظلم مرة أخرى ، والظلم أعم من الكفر ، ووصف النصارى الذين لا يتحاكمون إلى ما أنزل الله فى الإنجيل ، بأنهم فاسقون ، والفسق والظلم والكفر قريب بعضها من بعض فى مجال تعطيل أحكام الله تبارك وتعالى .

● والمواقف التربوية التى نتعلمها من هاتين الآيتين الكريمتين كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ – أن رحمة الله سبحانه بخلقه مستمرة عبر أجيال الزمان كله ، كلما مضى رسول كريم بعث الله على أثره رسولاً آخر يقفو أثره ، وكل واحد من الرسل والأنبياء بذل ما استطاع من جهد لنقل الناس من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى .

تلك سنة الله فى الرسل والناس ، يرسل الرسل وينزل الكتب ويضمنها الأحكام والآداب ، ثم يأمر النبيين الذين أسلموا أن يحكموا بما فى هذه الكتب ، وكذلك يطلب من الربانيين والأحبار ...

غير أن الناس منهم المعاندون والمكذبون للرسل الذين يتحدون أحكام الله ، فينزل الله كتاباً تالياً على رسول لاحق ، وهكذا عبر الزمان كله ، حتى كان خاتم الأديان « دين الإسلام » وخاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فعمت رحمته سبحانه وتعالى بهذا الدين وهذا الرسول للبشرية كلها إلى يوم يقوم الناس إلى رب العالمين ، وفى كل مكان يعيش فيه الناس ، وجعل ذلك الدين ناسخاً لكل دين سبقه وشريعته ناسخة لكل شريعة سابقة لما فى هذا الدين وشريعته من تمام وكمال ، ولما يحظى به دون غيره من الأديان السابقة من أنّ الله سبحانه صرح فى شأنه بقوله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

٢ – وأن عيسى بن مريم عليه السلام من أنبياء بنى إسرائيل وأن شريعته هى التوراة ، وأن الله أرسله ليتمم أى يزيد على التوراة ما أمره الله أن يزيده فيها من الأحكام والآداب والمواعظ .

غير أن النصارى تركوا العمل بالتوراة والإنجيل جميعاً ، واتبعوا ما لفقه لهم « بولس » ومع ذلك يعلنون فى أناجيلهم أن المسيح ما جاء لينقض الناموس « أى شريعة التوراة » وإنما جاء ليتمم !!!

٣ – وأن الإنجيل قد وصفه الله بما وصف به التوراة ، وكل منهما من عند الله قبل أن يحرفا ويدخلهما التبديل ، وصفه بأنه إذا عمل به كان هدى وموعظة للمتقين .

ولقد انفرد الإنجيل عن التوراة بالقضايا والمسائل التى تتصل بصقل الروح وتطهيرها من الشوائب ، وهذا التسامح الذى يصفى الروح من الغل والحقد والحسد .

وقد كان اليهود بتعطيلهم ما فى التوراة من أحكام ماديين جامدين مغرورين ، يرون فى أنفسهم من الامتياز والاستعلاء ما ليس لغيرهم مثله ، ولعل ذلك

يلحظ عند الكتبة[1] والفريسيين[2] منهم ، الذين تميزوا بحبهم لهذا الغرور وإصرارهم عليه .

ولقد استطاع الإنجيل بما احتوى من هذه الآداب والمواعظ أن يزلزل هذا الغرور اليهودى المقيت ، ولقد استراح المؤمنون إلى الإنجيل ورأوا فيه دعوة إلى التواضع الذى يليق بالإنسان .

٤ - وأن الكتب المنزلة من عند الله تعالى تشتمل كلها على الهدى وهو التوحيد وتنزه الله سبحانه عن الوالدية والولدية والمشابهة ، والضدّ ، والصاحبة ، كما تشتمل على الإرشاد والدعوة إلى الله ، وأن هذه الكتب السماوية يستضاء بها لما فيها من بيان الأحكام الشرعية الملائمة للناس ، ولما فيها من الأخلاق الفاضلة التى لا تستقيم حياة الناس إلا بالتمسك بها .

وهذا هو الأصل فى كل كتاب جاء من عند الله ، فإن خرج بعض الكتب عن ذلك أو خالفه فقد حمل الدليل على أنه ليس من عند الله أو دخله التحريف والتبديل .

وإن مصداقية هذه الكتب جميعاً هى موافقة ما فيها لما جاء فى القرآن الكريم ، لأنه وحده الكتاب الذى حفظه الله سبحانه بنفسه ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٥ - ونتعلم من هاتين الآيتين الكريمتين أن النصارى مطالبون بأن يحكموا بما أنزل الله إليهم فى القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية ، لأن ما جاء فى الإنجيل لا يختلف فى الأصول عما جاء فى القرآن الكريم ، وما جاء فى القرآن الكريم هو منهج الله ونظامه الذى لا يجوز لأحد أن يخرج عليه ، ومن خرج عليه فهو من الكافرين الظالمين الفاسقين .

---

(١) الكتبة : هم الذين يحترفون كتابة التوراة وبعض الأمور الدينية .

(٢) الفريسيون : هم طائفة من اليهود كانت ذات شأن فى حياة المسيح عليه السلام طورت اليهودية وأحدثت حركة ونشاطاً فكرياً واسعاً .

٦ - ومن أهم ما نتعلمه من هاتين الآيتين الكريمتين ومن الآيات التى سبقت فى الحديث عن اليهود ما يلى :

أولاً :

الحكم بما أنزل الله هو الأصل ، بل هو المطلب والمنجى ، وأن كل من خالف ذلك أو حكم بغير ما أنزل الله فقد استحق وصف الكفر ووصف الظلم ووصف الفسق ، وهى أوصاف تستوجب عقاب الله فى الدنيا والآخرة .

وقد قال بعض العلماء : إن هذه الآيات نزلت فى اليهود والنصارى وحدهم ، وإن هذه الأحكام منطبقة عليهم فهم إن عطلوا ما جاء فى التوراة والإنجيل - قبل التحريف - هم الكافرون الظالمون الفاسقون .

وهذا كلام غير دقيق وغير موافق لما قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم - وهم أعلم بتفسير القرآن الكريم وأدرى - فلا يستطيع متدبر للقرآن مقاصده وأهدافه أن ينفى بحالٍ انطباق ذلك على كل من عطل القرآن الكريم أى الحكم بما أنزل الله من يهود أو نصارى أو مسلمين .

ذكر علماء التفسير أن هذه الآيات ذُكرتْ عند حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فقال رجل : إن هذا فى بنى إسرائيل ، قال حذيفة : نِعْمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل أن لكم كل حلوة ولهم كل مُرّة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قَدْرَ الشِّرَاك .

وأخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير أنه سأل سعيد بن جبير رحمهما الله عن قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ قال : فقلت : زعم قوم أنها نزلت على بنى إسرائيل ، ولم تنزل علينا . قال : اقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال : لا بل نزلت علينا » .

ثانياً :

ونستطيع أن نلخص القول فى هذه القضية - قضية من لم يحكم بما أنزل الله - فيما يلى :

- أن من أعرض عن حكم الله والإذعان له كراهيةً لهديه وإيثاراً لهدى غيره عليه فهو الكافر ، ما يشك فى ذلك العلماء بالقرآن الكريم ، وقد دلّت على ذلك الآية الأولى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة** ... ﴾ الآية .

- وأن كل من عطل أحكام الله التى أقر بها سبحانه العدل بين الناس ، فى قتل النفس أو العدوان على شىء من أعضاء الإنسان فهو ظالم متجاوز لما أنزل الله ، وليس ذلك محل خلاف بين العلماء – وقد دلت على ذلك الآية الثانية : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ... ﴾ الآية .

- وأن من أعرض عما جاء من عند الله من آداب وأخلاق وهُدى فهو عاصٍ لله تبارك وتعالى ، والعاصى فاسق أى خارج عن أمر ربه ، وليس فى ذلك كبير خلاف وقد دلت على ذلك الآية الكريمة الثالثة : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله** ... ﴾ الآية .

- والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة إلى الله والحركة من أجل الإسلام فى هاتين الآيتين كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ – أن من سنة الله سبحانه فى نشر الحق وتثبيت معانيه فى الناس أن يتتابع عليه الدعاة إليه ، كلما مضى داعية جاء على أثره داعية فى استمرارية وتكرار بحيث يصل الحق إلى الناس جلياً واضحاً يعززه موكب المؤمنين المجاهدين فى سبيله فى كل حين .

ومن سنة الله أن يستمر أعداء الحق فى تحدى الحق ورجاله وأن يقوم بينهما من الصراع ما يميز الله به الخبيث من الطيب ، ويهلك فى هذه المعارك من هلك عن بينة ويحيا من حَيَّى عن بينة ، ذلك هو شأن الحق حتى يقوم الناس لرب العالمين .

وهذا يؤكد للدعاة إلى الله أن يستفيدوا من هذه السنة الإلهية بما يلى :

- أن مواصلة العمل فى الدعوة إلى الله والتبليغ عنه ضرورة شرعية حيوية ، لا يستطاع الوصول إلى الحق إلا من خلالها ، ولا بد من الوصول إلى الحق بمعنى تجليته ودعوة الناس إليه .

● وأن موكب الدعاة إلى الله يجب أن يكون موصولاً ، كلما قطع الدعاة شوطاً فى رحلته جاء من بعدهم موكب آخر ربما لنفس الناس الذين دُعوا من قبل ، فقد يكون داعية أقرب إلى قلوب الناس أو عقولهم من داعية آخر ، وقد يكون خَلَفٌ من الدعاة أكثر إقناعاً من سالفه ، أو قد يكون أكثر تقبلاً منه.

● وأن المراوحة على الناس بداعية وراء آخر ربما كانت أدعى لأن يستجيبوا ، أو أن يقللوا من درجة عداوتهم للحق وأهله ، أو أن يكونوا فى المعركة بين الحق والباطل على الحياد ، وكل ذلك يضاف إلى مكاسب الدعاة إلى الحق .

● وأن هذه المعركة أو المعارك بين الحق والباطل إنما هى فرصة طيبة ليتخذ الله من دعاة الحق شهداء أو ينصرهم على أعداء الحق لينال الدعاة بذلك إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

٢ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هاتين الآيتين الكريمتين وما سبقهما من الآيات الكريمة ما يلى :

● أن الإيمان بالله واحد ، وأن التوحيد قد جاءت به كل الأديان ونادى به كل الأنبياء والمرسلين ، وأن القائلين بإلـٰهين اثنين أو بآلهة عديدة أو بإلـٰه غير الله الواحد الأحد الخالق الرازق الذى بيده الملك وإليه المصير ، مبطلون مضلون يؤكدون بدعاواهم هذه تنكرهم للإيمان بالله وتوحيده إلـٰها وربًّا .

● وأن دين الإسلام الدين التام الكامل الخاتم على يد نبى الله محمد الخاتم ﷺ هو الذى حَرَّر الأديان السابقة من شبهات التحريف والتبديل والوهم والخرافة وعبادة الناس والأشياء واتخاذهم آلهة من دون الله - وذلك أن أصول الإيمان لا خلاف عليها فى الأديان إذ كلها من عند الله الداعى إلى الإيمان به ، وما خالف ذلك فهو تحريف وباطل .

● ويتعلم الدعاة من هاتين الآيتين أن أصول الإيمان وقواعده لا خلاف عليها بين الأنبياء والرسل ولا بين الأديان السماوية الصحيحة

وأن أركان الإسلام لا خلاف عليها بين علماء الإسلام وأن كثيراً من

أصول الإسلام وقواعده العامة ليست موضع خلاف كذلك ، ومعنى ذلك أنه لا داعى لإثارة المسائل التى تحتمل خلافاً ولا يترتب عليها عمل ، وإنما عليهم أن ينظروا إلى تلك المسائل إذا دعت إلى ذلك ضرورة على أنها اجتهادات من أصاب فيها فله أجران ومن أخطأ فيها فله أجر واحد ، وما ينبغى لداعية من الدعاة إلى الله أن يتجاوز هذا الأدب الإسلامى فى المسائل الجزئية الخلافية ، وليس لأحد من المسلمين أن يثير تلك المسائل التى اختلف فيها بعض الأسلاف .

● وكذلك الشأن فى التزام أدب الإسلام فى الخلاف عند الحديث عن الحركات الإسلامية مهما اختلفت أساليبها ووسائلها من قطر إسلامى إلى آخر ، أو من زمان إلى زمان ، وليس لأحد من المسلمين أن يجعل من همه أو عمله انتقاص إحدى هذه الحركات أو البحث عن عيوبها وسلبياتها فضلاً عن التشهير بها .

وليس للدعاة الموفقين فى عملهم أن يُدلوا على غيرهم بما حققوا من نجاح أو فوز ، فليس ذلك من خلق الإسلام ولا أدب الأخوة فى الإسلام ، بل النقد الموضوعى والنصيحة المخلصة والتنبيه إلى بعض أسباب النجاح فى العمل أو أسباب الإخفاق فيه دون إسناد النجاح أو الفشل إلى أحد بعينه ، فذلك هو الهدى النبوى الكريم فى مواقف عديدة معلمة فكثيراً ما ورد على لسان الرسول ﷺ : « ما بَال أقوامٍ يفعلون كذا ... » دون أن يقول : ما بال فلان أو فلان .

٣ – وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتعلموا أن ألفاظ الكفر والظلم والفسق ترد فى القرآن الكريم لتدل أحياناً على عمل واحد ، وأحياناً على أعمال مختلفة .

ومن المسلم به لدى علماء المسلمين أن كلمة « كافر » بمعنى جاحد للألوهية أو للنبوة أو لشيء مما جاء محمد ﷺ مما علم من الدين بالضرورة ، وقد وردت فى القرآن الكريم لتدل على ذلك مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] وقوله جل شأنه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾[2] كما ورد فى القرآن الكريم لفظ « كافر » ليدل على غير الكفر كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[3] فالكفر هنا يعنى كفران النعمة أى ترك القيام بواجب شكرها .

فليس كل كلمة « كفر » أو « كافر » فى القرآن الكريم تعنى جَحْدَ الألوهية أو النبوة أو ما علم من الدين بالضرورة .

وكذلك كلمة « الظلم » فقد وردت فى القرآن الكريم بمعنى جحد آيات الله سبحانه وتعالى كقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[4] وردت بمعنى الاعتقاد الفاسد الباطل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[5] .

وكذلك كلمة « الفسق » و« الفاسقين » فقد وردت فى القرآن الكريم بمعنى جحد الإيمان والخروج منه كما فى قول الله تعالى﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[6] وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾[7] . كما وردت بمعنى الخروج عن أمر الله تعالى وأحكامه وما شرع من آداب وأخلاق كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ﴾[8] .

ومعنى هذا بالنسبة للدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتعاملوا

---

(١) البقرة : ٣٩ . (٢) آل عمران : ٤ . (٣) إبراهيم : ٧ .
(٤) الأنعام : ٣٣ . (٥) لقمان : ١٣ . (٦) يونس : ٣٣ .
(٧) البقرة : ٩٩ . (٨) الأنعام : ١٢١ .

مع هذه الألفاظ على حسب ما يمكن أن تدل عليه ، وليس لهم أن يستعملوها بمعنى واحد هو جحد الألوهية والنبوة وإنكار ما علم من الدين بالضرورة ، وإنما يجب التدقيق فى ذلك حتى لا يقعوا فى الخطأ .

والذى أحب أن أصل إلى تقريره بعد تتبع معانى كلمات الكفر والظلم والفسق فى القرآن الكريم ، تقرير حقيقة هى أن من لم يحكم بما أنزل الله قد يكون كافراً ، وقد يكون ظالماً ، وقد يكون فاسقاً ، وقد يجمع بين هذه الصفات جميعاً فلابد من التدقيق فى إطلاق هذه الأحكام خشية أن يحكم على إنسان بالكفر وهو ليس بكافر فيبوء بها من أطلقها .

وكذلك الشأن فى إطلاق لفظ الظلم أو الفسق ، فلا ينبغى أن تطلق على غير ظالم أو فاسق .

إن إطلاق هذه الأوصاف ما ينبغى أن تسرع إليها الألسنة وأن يترك شأن إطلاقها والحكم بها على الناس إلى الله تعالى علام الغيوب ونحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر ، وهذا الظاهر يجب أن نتعامل معه بدقة واحتراز شديدين .

٤ - وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتعلموا من وصف الله تعالى لمن لا يحكمون بما أنزل الله بالكفر مرة وبالظلم مرة وبالفسق مرة ، شيئاً من فقه الموازنات على النحو الذى نشير إليه فيما يلى :

- لما كان الكلام فى الآية التى وصفت من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر فى مجال المعرضين عن الحكم بما أنزل الله الذين لم يذعنوا له إيثاراً لغيره عليه ، كانوا بذلك كافرين .
- ولما كانت الآية التى وصفت من لم يحكم بما أنزل الله بالظلم فى معرض الحديث عن تعطيل الحدود فى عقاب المعتدين على الناس والمجتمع ، فقد ناسب ذلك أن يوصفوا بالظلم فكانوا ظالمين بهذا الصنيع .
- ولما كانت الآية التى وصفت من لم يحكم بما أنزل الله بالفسق فى معرض

الحديث عن بيان هداية الإنجيل – والإنجيل أكثره مواعظ وآداب وترغيب فى إقامة الشريعة – ناسب ذلك أن يوصف من لم يلتزم بما جاء فى الإنجيل بأنه فاسق خارج عن مواعظه وآدابه .

والخلاصة أن من أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا أو غير ذلك من الحدود ، غير مذعن لهذه الحدود ، مستنكراً لها أو مستقبحاً أو مفضلا غيرها عليها فهو كافر لا خلاف فى كفره .

وأن من لم يحكم بهذه الحدود لعلة أخرى فهو ظالم إن أدّى موقفه ذلك إلى إضاعة حق أو ترك عدل .

وأن من لم يؤد تركه للحكم بما أنزل الله إلى إضاعة حق أو ترك عدل فهو فاسق فقط وليس بظالم ولا كافر ، لأن لفظ الفسق أعم من لفظتى الظلم والكفر ، إذ كل كافر فاسق ، وكل ظالم فاسق ، وليس كل فاسق ظالماً أو كافراً .

هكذا ينبغى على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يكونوا على هذا القدر من التدقيق والتحرز فى استعمال الألفاظ ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

* * *

الآيات من الثامنة والأربعين إلى الخمسين

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

● الآيات الكريمة خطاب للنبى ﷺ ، توضح له مكانة القرآن الكريم بين الكتب السماوية التى نزلت قبله ، وتطالبه أن يحكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ، غير متأثر بما لديهم من هوى - فهم أهل هوى - وتطالبه بأن يحذرهم حتى لا يصرفوه عن بعض ما أنزل الله إليه فضلاً عن كل ما أنزل الله إليه ، فإن لم يرضهم حكمك وتولوا عنك فتأكد أن الله معذبهم ، وأن أكثرهم فاسقون عن حكم الله راغبون فى أحكام الجاهلية تاركون أحسن ما حكم الله به للناس وهو هدى محمد ﷺ .

● وفى الآيات الكريمة عدد من الأخبار والأوامر والنواهى والتقريرات ، نشير إليها حسب ترتيب الآيات على النحو التالى .

أما الأخبار : فهى :

- إخبار الله تبارك وتعالى نبيه الخاتم بأنه سبحانه قد أنزل عليه آخر الكتب القرآن الكريم بالحق حيث لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه .
- وإخباره بأن هذا القرآن مصدق لما سبقه من الكتب ومؤكد لما جاء فيها من

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر - وكلمة الكتاب فى الآية الكريمة تعنى جنس الكتاب أى الكتب كلها .

ـــ وإخباره سبحانه لنبيه ﷺ بأن كتابه الخاتم مهيمن على سائر الكتب ومرجع لها ومصدق لما جاء فيه وأن أحكامه ناسخة لما يخالف أحكامه أو شاهد عليها ومؤتمن . ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾ .

والأصل أن أهل الكتاب جميعاً مطالبون بمقتضى ما فى شرائعهم قبل أن يحرفوها بأن يتبعوا ما جاء فى القرآن الكريم ، إذ القرآن شهيد على كتبهم مؤتمن عليها .

وقد وصف القرآن الكريم أهل الكتاب بأنهم نسوا حظًا مما ذكروا به ، ووصفهم بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ومن أجل توضيح هذه القضية جاء على لسان رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الإسلام بالعربية ، فقال رسول الله ﷺ « ولا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿ .... وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1] » .

وروى الإمام أحمد والبزار - واللفظ للبزار - بسندهما عن جابر رضى الله عنه قال : نسخ عمر - رضى الله عنه - كتاباً من التوراة بالعربية ، فجاء إلى النبى ﷺ ، فجعل يقرأ ، ووجه النبى - ﷺ يتغير - فقال له رجل من الأنصار ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله - ﷺ ؟ قال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل ، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى » .

وأما الأوامر : فهى :

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

— أمر من الله سبحانه لنبيه ﷺ أن يحكم بين أهل الكتاب بالقرآن الكريم ، منصرفاً عن أهدافهم التى تستهدف صرفه عن الحق .

— وأمر للنبى ﷺ ولكل المسلمين بالمبادرة إلى فعل الخيرات ، حتى يكون لهم عند الله مقام يستحقون عليه الثواب

— وأمر للنبى ﷺ بأن يحكم بين أهل الكتاب بالقرآن الكريم لا بالتوراة ولا بالإنجيل لأن شريعة الإسلام ناسخة للشرائع التى سبقتها جميعاً .

— وأمر له ﷺ بأن يحذر أهل الكتاب فهم أهل فتنة ، حتى لا يفتنوه عن شيء مما أنزل الله عليه فضلاً عن كل ما أنزل الله إليه .

— وأمر له ﷺ بأن يعلم أن الله تبارك وتعالى وقد اطلع على سرائر أهل الكتاب ودخائلهم وما يضمرون يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم .

وأما النهى : فهو عما يأتى :

— نهى الله سبحانه نبيه ﷺ عن اتباع أهواء أهل الكتاب ، وكان هواهم أن يحكم بينهم رسول الله ﷺ بما يسهل عليهم ويخف احتماله ، كما أوضحنا آنفاً فى عقوبة الزانى المحصن ودية المقتول من بنى قريظة على النصف ودية المقتول من بنى النضير كاملة ، فلا مجاملة فى الحق ، ولا تصديق لأهل الكتاب فيما يدعون .

— ونهاه عن اتباع أهواء أهل الكتاب مع الحذر من أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه ...

أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى دلائل النبوة بأسانيدهم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال كعب بن أسد ، وعبد الله بن صوريا ، وشأس بن قيس من اليهود : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم ، وأنا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك وأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ...

إلى قوله ... **لقوم يوقنون ﴾**

وأما الأخبار : فهى :

ـ إخبار الله سبحانه نبيه ﷺ بأن قد جعل لكل من المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب شريعة ومنهاجاً وأوجب على كل الأخذ بما جاء فى هذه الشريعة دون تعطيل لشيء مما جاء فيها من توحيد الله والعمل بما أنزل فى الحدود والحقوق والهداية والإصلاح .

ومن المقرر أن الشرائع العملية وطرق التزكية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع وباستعداد الناس ، بينما يتفق جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فى أصل الدين وهو توحيد الله وإسلام الأمر له وإخلاص العبادة له فى القول والعمل والالتزام بالعدل والإحسان **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾** .

والشرعة والمنهاج إشارة إلى أمرين :

أحدهما : ما سخر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحراه مما يعود إلى مصالح العباد وعمارة البلاد .

والآخر : ما قيض الله له من الدين وأمره به ليتحراه اختياراً مما تختلف فيه الشرائع .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : الشرعة ما ورد به القرآن والمنهاج ما وردت به السنة النبوية .

وقال قتادة : شرعة ومنهاجاً أى سبيلاً وسنة ، والسنن مختلفة ، للتوراة شريعة ، وللإنجيل شريعة ، وللقرآن شريعة يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ، كى يعلم الله من يطيعه ومن يعصيه ، ولكن الدين واحد لا يقبل غيره ، التوحيد والإخلاص الذى جاءت به الرسل .

وفى رواية عنه أيضاً : الدين واحد والشريعة مختلفة .

والخلاصة أن الشريعة أخص من الدين ، وأنها الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل عليهم السلام ، وينسخ لاحقها سابقها ، وأن الدين هو الأصول الثابتة

التى لا تختلف باختلاف الأنبياء والمرسلين .

ويخبر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن سبحانه لو شاء لجعل الناس جميعاً أمة واحدة، ولكنه سبحانه له حكمة فى هذا الاختلاف ليبتلى كل قوم بما أنزل عليهم فيمتاز خبيثهم من طيبهم ، ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ أى لو شاء الله أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد فى سلوكها والعمل بها لفعل ، بأن خلقكم على استعداد واحد ، وألزمكم حالة واحدة فى أخلاقكم وأطوار معيشتكم ، بحيث تصلح لها شريعة واحدة فى كل زمان ، وحينئذ تكونون كسائر أنواع الخلق التى يقف استعدادهم عند حد معين كالطير والنمل والنحل ، لكن الله تبارك وتعالى لم يشأ ذلك بل جعلكم نوعاً ممتازاً يرتقى فى أطوار الحياة بالتدرج وعلى سنة الارتقاء فلا تصلح له شريعة واحدة فى كل طور من أطوار حياته فى جميع أقوامه وجماعاته ، وآتاكم من الشرائع والمناهج والهداية فى طور طفولية النوع وغلبة المادية عليه ما يصلح له ، وفى طور تمييزه وغلبة الوجدانات النفسية عليه ما يصلح له ، حتى إذا ما بلغ النوع الإنسانى سن الرشد ومستوى استقلال العقل بظهور ذلك فى بعض الأقوام بالقوة وفى بعضها بالفعل ، لما كان ذلك ختم الله الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنية على أصل الاجتهاد ، وجعل أمره فى القضاء والسياسة والاجتماع شورى بين أولى الأمر من أهل المكانة والعلم والرأى .

جعل الله ذلك ليبلوكم ، أى ليعاملكم بذلك معاملة المختبر لاستعدادكم فيما آتاكم ، أى فيما أعطاكم من الشرائع والمناهج ، فتظهر حكمته فى تمييزكم على غيركم من أنواع الخلق .

وإخبار من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ بأنه سبحانه يريد أن يصيب أهل الكتاب – بعد أن تولوا عن حكمك – ببعض ذنوبهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وذلك أن اضطرابهم فى دينهم واستثقالهم لأحكام التوراة ورغبتهم فى اتباع الهوى كل ذلك الفساد فى الأخلاق لابد أن يكون عليه عذاب يقع بهم سواء أكان هذا العذاب فى الدنيا – كما حدث ذلك فعلاً – أو فى الآخرة كما سيحدث عقاباً لهم على كل تلك المفاسد ، وهى بعض ذنوبهم ، فكيف لو عاقبهم على كل ذنوبهم ؟

وأما التقريرات : فهى :

— تقرير أن كثيراً من الناس قد صار الفسوق والعصيان والتمرد على أحكام الله سبحانه من صفاتهم الثابتة التى لا تنفك عنهم ، فما ينبغى أن يندهش أحد من ذلك الفسوق والفساد من اليهود ﴿ **وإن كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ أى كثيراً من اليهود – كما رأى ذلك بعض المبشرين ، أو كثيراً من الناس عموماً يهود وغير يهود كما رأى ذلك مفسرون آخرون .

— وتقرير بل تأكيد بأن حكم الله تبارك وتعالى ليس هناك حكم أحسن منه ، مادام الذين يتلقون حكم الله من أهل اليقين وأهل الثقة فيما جاء من عند الله تعالى .

وكلمة اليقين تعنى : العلم الذى هو أعلى من المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم ونفى الشك ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ .

— وفى الآية تقرير أن حكم الناس بغير ما أنزل الله هو حكم الجاهلية ، إذ كل حكم يخالف حكم الله فهو حكم للجاهلية ، ومن ابتغى حكم الجاهلية وفضله على حكم الله فهو سفيه لا يعرف ما يحقق مصالحه فى الدنيا ولا مصالحه فى الآخرة .

وقد جاء تأكيد هذه الحقيقة فى صورة استفهام يستنكر على الناس أن يفضلوا أحكام الجاهلية على حكم الله وأحكام الجاهلية تتضمن جوراً وظلماً وعدواناً وأنانية وغشاً ورشوة وفساداً وإفساداً ، وما ينبغى لأحد أن يرضى بها .

وليس للإنسانية كلها ملجأ ولا منجى إلا بالأخذ بما أنزل الله من أحكام .

● والمواقف التربوية التى نتعلمها من هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ – أن القرآن الكريم خاتم الكتب الذى أنزل على خاتم الأنبياء هو الكتاب الذى أنزل بالحق أى بكل ما هو حق فهو بهذا جدير بأن يطلق عليه الكتاب الإلهى ، وقد ذكر قبله كتباً سميت باسمها كالتوراة والإنجيل ، ولكن لفظ الكتاب فى أول الآية يعنى القرآن الكريم وحده وكلمة الكتاب الثانية فى الآية تعنى الكتب التى سبقت القرآن الكريم فى النزول .

وكلمة ﴿ **مهيمناً عليه** ﴾ أى على جنس الكتاب الذى أنزله الله على رسله

وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، التى وصف بها القرآن الكريم تعنى سيطرة المنهج الذى جاء به القرآن الكريم على كل منهج سماوى أو غير سماوى .
وكل من ادعى أن هناك كتاباً أو منهاجاً أو نظاماً يوازى القرآن الكريم فى عموميته وشموله وكماله وصلاحه لكل زمان ومكان فهو إما جاهل بالقرآن الكريم ومنهجه وجاهل بالكتب السماوية التى سبقته فى النزول ، وإما منكر أو معاند ، ولكل من هؤلاء حكمه الذى يناسبه :

فالجاهل يعلم ويعرف وتوضح له المعالم والأبعاد ، وتشرح له التفاصيل ، حتى يصل إلى درجة العلم والمعرفة ثم درجة الاقتناع بالحق .

والمنكر يناقش ويحاور وتقدم له الحجج والبراهين حتى يتبين له الحق ، فإن رفض بعد هذا الإيضاح ، فقد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة وله حكمه الدنيوى والأخروى .

والمعاند يبحث له عن أسباب عناده ، ثم تزال هذه الأسباب وتبسط أمامه الأدلة والبراهين ، فإن أبى فقد عصى وفسق عن أمر ربه ، وله حكمه الدنيوى والأخروى كذلك .

وفى جميع الأحوال لا يكره أحد على الدخول فى الدين ، ولا يكره على ترك دينه إن كان من أهل الكتاب يهودى أو نصرانى ، لأن القاعدة العامة فى الدخول فى الإسلام هى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] .

٢ - ونتعلم من هذه الآيات أن القرآن الكريم المهيمن على سائر الكتب السماوية مصدق لما فى هذه الكتب من الحق مما بقى فيها غير مخالف لما فى القرآن ، فهو بهذا الوصف حافظ لهذه الكتب شهيد عليها ، ومعنى ذلك أن نرفض مقولة من قالوا : « إن شرع من قبلنا شرع لنا » فهى مقولة لم يقم عليها دليل من العقل أو الشرع ،

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

وبيان ذلك أن القائلين لهذه المقولة قد استدلوا على مقولتهم بقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ.............. ﴾[1] ، وهذه الآية الكريمة لا تدل على دعواهم بأن شرع من قبلنا شرع لنا ، ولكنها تدل – كما قال بذلك جمهور المفسرين للقرآن الكريم – على أن الله سبحانه وتعالى وصى جميع الأمم على ألسنة الرسل عليهم السلام بأن يقيموا أصل الدين ولا يختلفوا فيه لأن الدين أنزله الله لإزالة الخلاف الضار بالناس ، وإقرار ما يصلح لهم دينهم ودنياهم .

كما استدلوا على مقولتهم بقوله تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2] فقالوا : إن ذلك مما طولب به النبى ﷺ .

وليس ما زعموه بصحيح ، لأن النبى ﷺ لو طولب بذلك لكان مقلداً ، ولا تقليد فى العقيدة ، لأن العقيدة لا تصلح إلا بالعلم اليقينى .

وإنما جاءت هذه الآية الكريمة بعد آية سبقتها هى قوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[3] وهى آية توضح موقف من كفروا برسلهم قبل محمد ﷺ ليتعظ بذلك من أرسل إليهم محمد ﷺ فيؤمنوا بما جاءهم به .

وليس لأصحاب المقولة سند من دليل عقلى إذ لو كان كل لاحق من الرسل مطالب باتباع منهج من سبقه ، لما كانت هناك فائدة فى تعدد الرسل واختلاف شرائعهم فى التفاصيل بعضها عن بعض .

والخلاصة أن شرع من قبلنا ليس بلازم لنا إلا على وجه الإجمال لا على أنه شريعة مفصلة .

---

(١) الشورى : ١٣ .   (٢) الأنعام : ٩٠ .   (٣) الأنعام : ٨٩ .

ومعلوم من نصوص القرآن أن الله قد أكمل هذا الدين وأتمه وختم به الأديان وجعله عاماً لكل الناس بينما جعل الأديان الأخرى خاصة بناس دون غيرهم ، وجعل شريعته أبدية خالدة على الدنيا بينما جعل الشرائع الأخرى مؤقتة ، كما جعل شريعته ناسخة لكل الشرائع التى سبقتها .

وإن النظر فى التوراة يؤكد أن الناس – فى عصرنا هذا مثلاً – لا يستطيعون أن يقيموا التوراة على ما هى عليه ، لشدة أحكامها وقسوة تعاملها مع الناس فى العبادة والمعاملة والقتال ، بحيث لا يستطيع ذلك المكلفون لما فيه من عنت ومشقة .

وإن النظر فى الإنجيل على ما هو عليه اليوم يؤكد كذلك أن إقامة ما فيه – فى عصرنا هذا مثلاً – غير ملائمة للناس لشدة ما فيه من زهد وترك لما فى الدنيا وخضوع شديد للحاكم أى حاكم ، حتى يصل الأمر بأن من ضرب على خده أدار خده الآخر لضاربه ، مما يضيع مصالح الناس ويؤكد أن الله تبارك وتعالى لا يكلف بمثل هذا لما فيه من عنت ومشقة على الناس .

٣ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل البشرية أمماً وأطواراً ، وجعل لكل ما يلائمه من الشرائع والنظم ، وعلى سبيل المثال :

- فإن اليهودية شريعة بنيت على الشدة فى تربية قوم ألفوا الذل والعبودية ، وفقدوا الاستقلال فى الإرادة والرأى ، وشاكسوا أنبياءهم وعاندوهم ، فالقائم على تنفيذ شريعة اليهود يشبه مربياً يربى طفلاً شكساً ، لا يصلحه إلا أخذه بالشدة لقمع عناده ومشاكسته .

- والمسيحية امتداد لليهودية ، غير أن شريعتها تتميز بعنايتها بالناحية الروحية كثيراً ، فهى تأمر بأن يُسلّم أتباعها كل أمورهم الجسدية والاجتماعية – فضلا عن السياسية – لكل من تغلب عليهم من أهل السلطة أو العدوان ، فالقائم على هذه الشريعة يشبه مربياً يربى يافعاً تؤثر فيه الروحانيات والخطابيات ، فلا بد أن يمده بما يذكى فيه هذه العواطف .

● وأما الإسلام فتقوم شريعته على أسس ركينة من أبرزها .

وأهمها ما يلى :

● احترام العقل الإنسانى .ودعوته للتفكير والتدبر .

● واستقلال الإرادة ، وتقدير التبعة الفردية .

● واحترام الحريات بكافة أنواعها ما دامت لاتضر بحقوق الآخرين .

● والعناية بروح الإنسان وعقله وجسده وتربيتها تربية صحيحة وإعطائها الحق فى التعبير عن نفسها .

● وتقوم الأحكام فيها على أساسين كبيرين :

أ - الأحكام الشرعية التى قررها الكتاب والسنة .

ب - والاجتهاد فيما لا نص فيه بحيث يحقق ما يؤدى إليه الاجتهاد مصالح الدين والدنيا .

وقد استطاعت الأمة الإسلامية - وقد رشدت فى طورها الذى جاء فيه الإسلام - أن تجتهد وتقبل ما يقبله العقل وترد ما يردّه فى حرية محمودة إطارها عدم الإضرار بالنفس أو بالغير ، مع اهتمام كبير بأن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً .

● وطاعة ولى الأمر ما دام لم يأمر بمعصية .

● واحترام النظام والالتزام به ولو كان ضد المصلحة الشخصية .

● والالتزام بكل خلق دعا إليه الإسلام ، واجتناب كل خلق نهى عنه أو كره فيه .

هذه الأسس التى تميزت بها الشريعة هى التى جعلت منها أكمل الشرائع وأتمها وأصلح لمعاش الإنسان ومعاده فى كل زمان ومكان .

٤ - ونتعلم من هذه الآيات الكريمة أن المساومين على الحق لهم وجود فى كل زمان ومكان ، وفى كل دين من الأديان ، وأن هؤلاء المساومين يحاولون - غالباً - فتنة أهل الحق عن الحق ، وأن أهل الحق مطالبون بأن يكونوا على حذر دائم من هؤلاء المساومين ، لا تخدعهم مواقفهم ولا معسول كلامهم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾ ويقول : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ .

إن هذه الآيات تعلمنا أن للحق أعداءً يحاربونه ويساومون على تخلى أصحابه عنه ، ويقدمون من أجل ذلك كثيراً من وسائل الصرف عن الحق التى قد ينخدع بها الغافلون .

٥ - ونتعلم من الآيات الكريمة الدقة فى إطلاق الأحكام على الناس وعلى الأشياء ، فقد أطلق القرآن الكريم على الصرف عن الحق واتباع الهوى وتعطيل حكم الله أو بعضه حكم الجاهلية ، وأكد أن حكم الله أحسن وأعدل .

ومعنى ذلك أن الآيات تعلمنا تحرير المعانى والتدقيق فى إطلاقها حتى لا نقع فى المحذور ، فليس لنا أن نطلق على مجتمع مّا من المسلمين تسمية أنه مجتمع جاهلى ، ثم نصب عليه أخطاء الجاهلية وخطاياها ، وليس من السهل أن نسكت على جاهلية تمارس فى حياتنا ونكتفى برصد ما يجرى والتأمل فيه دون حركة إيجابية لمواجهته .

وقبل هذا كله لا بد من تحرير معنى الجاهلية بدقة ، وقد استنبأنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما قاله أسلافنا من العلماء بالكتاب والسنة ولغة القرآن فوضح لنا ما نذكره فيما يلى

● الجهل نقيض العلم .

وجهل عليه : تسافه وجفا ، وجاهله : سافهه .

وجهل الشيء : لم يعرفه ، وجهل الحق : أضاعه .

واستجهله أى عدَّه جاهلاً ، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : من

استجهل مؤمناً فعليه إثمه ، وقد شرح ابن المبارك رحمه الله ذلك بقوله : أى حمل المؤمن على شيء ليس من خلقه فيغضبه به فإنما إثمه على من أحوجه إلى ذلك .

● والجاهلية[1] هى :
زمن الفترة حيث لا إسلام .
أو ماكان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة .

● والجاهلية هى :
حكم الملّة التى هى هَوىً وجهل ، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحى من الله وعن الحسن رحمه الله : هو عام فى كل من يبغى غير حكم الله .
وسئل طاووس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض فقرأ : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ .

● ونخلص من هذه التعريفات إلى ما يلى :
ـــ الجاهلية : تطلق على الفترة الزمنية التى عاشها العرب قبل الإسلام ذلك إطارها الزمنى .
ـــ وتطلق الجاهلية على اتباع الجهل والهوى والحكم بغير ما أنزل الله تعالى .
ـــ وتطلق على السفاهة والجفاء ، ومن السفاهة والجفاء قبول شرع غير شرع الله تعالى .
ـــ ومن المستبعد إطلاق لفظ الجاهلية على الجهل الذى هو ضد العلم ، ومن المرفوض تسمية الجاهل كافراً .

● والآية الكريمة التى نحن بصددها : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ تعنى أنهم

---

(١) الجاهلية كلمة منسوبة إلى الجهل والجهل قد قسمه العلماء إلى ثلاثة أقسام :
الأول : خلو النفس من العلم .
والثانى : اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه .
والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل .

يؤثرون الأحكام التى كانت سائدة فى الجاهلية على الأحكام التى جاءت بها شريعة الإسلام .

- والمواقف التربوية التى نتعلمها من الآيات فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أعطاهم الله سبحانه أعظم دستور للدعوة والحركة ، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية التى شرحته وفصلته ، وهذا القرآن إنما أنزل من عند الله بالحق ، وهذا الحق يعنى أمرين هامين هما :

الأول : أن جهة صدور القرآن ومصدره هو الله تعالى ، وهو وحده الذى يملك إنزال الكتب على من شاء من رسله عليهم الصلاة والسلام ، فالقرآن الكريم نزل مؤيداً بالحق مشتملاً عليه مقرراً له ، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والثانى : أن محتوى القرآن الكريم هو العقيدة الحق والعبادة الحق والشريعة الحق وكل حق يلزم الإنسان فى حياته .

ومن كان يدعو إلى الله إلى الحق ، ومعه كتاب كامل أنزل بالحق ، ويمارس العمل من أجل الإسلام فى حركة دائبة مستمرة يستمد مفرداتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو يملك أعظم دستور وأغنى دستور .

٢ - وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية يأخذون مفردات دعوتهم وحركتهم ونظامهم من كتاب عظيم نزل بالحق ونبى عظيم رحمة للعالمين ، وأن هذا الكتاب قد وصفه منزله سبحانه وتعالى بصفتين لهما غاية الأهمية وهما :

الصفة الأولى :

أنه مصدق لما بين يديه من جنس الكتب[1] التى أنزلها على رسله عليهم

(١) ورد أن هذه الكتب السماوية أربعة ومائة كتاب هى :

السلام ، فالقرآن مصدق لكل كتاب من هذه الكتب وشاهد على أنها جميعاً قد اشتملت على التوحيد ودعت إليه ومؤكد لصحة محتواها ، مادامت لم تشتمل على شيء يخالف ما جاء فى القرآن الكريم .

والصفة الثانية :

أنه مهيمن على تلك الكتب شاهد لها بالصحة والثبات وشاهد على ما كان مِنْ شأن مَنْ خوطبوا بتلك الكتب من أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، وأنهم حرفوا كثيراً مما بقى لهم وأعرضوا عنه ، أو أوَّلوه ، فالقرآن مؤتمن على تلك الكتب .

فالدعاة والحركيون فى مجال العمل الإسلامى عندما ينطلقون فى عملهم على هدى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهم بذلك يملكون الزاد الصحيح الذى يمكنهم من مواصلة السير بالدعوة والحركة فى الاتجاه الصحيح .

٣ – وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية عليهم أن يدركوا أن اختلاف الشرائع فى بعض الأحكام مع اتفاقها فى أصل الدين يدل على حكمة الله البالغة ، فقد ناسب كل كتاب ظروف الناس الذين أنزل إليهم ، والطور المعيشى الذى كانوا يعيشون فى ظله – على ما أوضحنا آنفاً – فلما أظل عصر إنزال الله القرآن الكريم خاتم الكتب كانت البشرية قد بلغت رشدها ، فجاءها الكتاب الكامل التام الخاتم الصالح للبشرية كلها فى كل زمان ومكان .

فالأديان كلها ذات أصل واحد وليس الاختلاف فى الفروع والتفاصيل

= • خمسون صحيفة أنزلت على نبى الله شيث عليه السلام .
• وثلاثون صحيفة أنزلت على نوح عليه السلام .
• وعشر صحف أنزلت على إبراهيم عليه السلام .
• وعشر صحف أنزلت على موسى عليه السلام قبل التوراة .
• والتوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام .
• والزبور الذى أنزل على داود عليه السلام .
• والإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام .
• والقرآن أو الفرقان الذى أنزل على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام .

إلا اختباراً من الله لعباده فيما أنزل عليهم من الشرائع ، هل يعملون بها مذعنين معتقدين أنها فى صالحهم الدينى والدنيوى ، وإن اختلفت على حسب الأحوال والأوقات معترفين بأن الله تعالى ما فعل ذلك إلا لما تقتضيه حكمته ، هل يعملون بها أم يتبعون الأهواء ويجرون وراء الشبهات ويفرطون فى الأعمال ؟

ولولا هذه الحكمة لكان من السهل أن يكون الناس أمة واحدة لو شاء الله سبحانه وتعالى .

إن هذه الحكمة تعلم الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية سعة الأفق ، وقبول وجهات النظر المتعددة ومناقشتها فى هدوء حتى يتبين الحق ، فيتبعه من شاء ويتركه مَن شاء .

إن الدعاة عليهم أن يعاملوا المختلفين مع الحق بروح التسامح مقتدين بالأنبياء عليهم السلام فهم ورثتهم بما آتاهم الله من علم ، وليس من المقبول إدانة كل مخالف ولا اتهامه ابتداءً وقبل معرفة كل ما عنده من شبهات ومحاولة إزالتها بكل وسيلة متاحة ، دون تصنيفه عدوًّا للحركة الإسلامية .

إن على الدعاة أن يطيلوا التدبر فى قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات** ﴾ .

والخيرات هى طاعة الله والعمل الصالح ، وعلى رأسها بل من أفضلها الصبر على المدعوين دون اليأس منهم أو تصنيفهم فى قائمة الأعداء .

٤ - وأن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يدركوا أن كثيراً من أعداء الإسلام يحاولون دائماً وباستماتة فتنة الدعاة . بل فتنة المسلمين جميعاً عن دينهم وعن الحق الذى يتمسكون به ويدعون إليه ، بما يساومونهم عليه من أعراض الحياة الدنيا إن هم حادوا عن الحق ، وبما يبثونه أمامهم من عراقيل تفتنهم فى دينهم ودنياهم .

إن كل زمان من أزمنة الحياة الآنية لن يخلو من أمثال اليهود الذين تعاهدوا

على فتنة النبى ﷺ عما أنزل الله إليه أو عن بعض ما أنزل الله إليه ، فأحفاد كعب ابن أسد ، وعبد الله بن صوريا ، وشأس بن قيس ، موجودون دائماً -- سنة الله فى خلقه -- وهم رموز حية لمحاولة صرف المسلمين عن دينهم أو فتنتهم فيه .

إن الخداع الذى أرادوا أن يخدعوا به النبى ﷺ لا يزال مستمراً حتى الآن ، وكم استطاع هؤلاء الأحفاد أن يحتووا بعض الدعاة وأن يفتنوهم عن دينهم وأن يحولوا قلة منهم إلى أبواق لحكام ظالمين منصرفين عن شريعة الله .

إن على الدعاة أن يعتبروا أن هذه المعركة مستمرة وأن الحذر من هؤلاء وأمثالهم واجب ، وليتذكروا دائماً قول الله تعالى : ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ .

٥ -- وأن على الدعاة وأنصار الحركة الإسلامية أن يتريثوا وهم يصدرون أحكاماً على أتباع من يعطلون شريعة الله ويؤثرون عليها سواها بحجة الحداثة والمعاصرة ظناً منهم أن أحكام الله يمكن أن توصف بأنها قديمة كانت تلائم زماناً ولم تعد ملائمة لهذا الزمان !!! أو بدعوى أنهم اليوم أحوج إلى أن يختاروا لأنفسهم شرعاً غير شرع الله !!! أو أن يكونوا قد انخدعوا بحضارة الغرب إذ رأوا أهلها على هذا القدر من التحكم فى آلة الحرب والدمار مما أتاح لهم استغلال خيرات الشعوب ، وقهر أصحاب الثروات واحتلال أرضهم والسيطرة على مقدراتهم ، فحسبوا أن إذا أخذوا من حضارة الغرب وتركوا حضارة الإسلام كانت لهم مثل مكانة الغرب فى التحكم فيمن هم أضعف منهم ، واستغلال خيرات بلادهم !!!

إن هذا كله من الخطأ المبين لأسباب عديدة نذكر منها ما يلى :

أولاً :

لا يجوز للمسلمين أن يتركوا ما شرع الله لهم ليأخذوا بالقوانين الوضعية التى لا تتخذ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله أساساً وهى تشرع للناس ما يتعاملون به مع الله ومع الناس والأشياء ، فيما يتصل بالدنيا والآخرة .

ثانياً :

ليس للمسلمين حكامٍ أو محكومين أن يتطلعوا إلى استغلال خيرات الناس أو أن يحتلوا بلادهم أو يوقعوا أى نوع من الظلم على أى أحد من الناس ، لأن شرع الإسلام لا يجيز هذا مهما خادع الناس فى تسميته .

ثالثاً :

حضارة الغرب ما ينبغى أن ينخدع فيها مسلم لما فيها من تناقض وعلى سبيل المثال :

فهى تطنطن بالرحمة والرقة فتلغى عقوبة الإعدام مع توافر أسبابها ، وترفض قطع يد السارق أو رجم الزانى المحصن أو جلد الزانى غير المحصن بدعوى أن تلك قسوة لا يوافقون عليها أو لا يرونها متماشية مع حقوق الإنسان ، تلك دعاواهم ، ولكنهم متناقضون فيما يدعون ، فإن حضارتهم تنطوى على كثير من السلبيات أو المخازى التى يستحى منها كل إنسان ، وعلى سبيل المثال :

- ما يزعمونه من تبنيهم لقضية حقوق الإنسان صحيح ما دام ذلك الإنسان هو الإنسان الغربى ، ولكنه من أبطل الباطل عند التأمل فيما فعلته كثير من دول أوربا كانجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وإسبانيا والبرتغال وغيرها فى كثير من بلاد إفريقية وآسيا ، بل فى أوربا نفسها فى إبادة مسلمى البوسنة إبادة وافقوا عليها جميعاً ، بما فيهم هيئة الأمم التى هى لصالحهم وحدهم !!!

وإن بعض الأمثلة لتوقظ بعض الغافلين المخدوعين :

- ما فعلته انجلترا فى بلدان العالم العربى - بعد التحالف العربى على إسقاط دولة الخلافة - وبخاصة فلسطين التى سلمتها لليهود ، ومصر والسودان وجزء من الصومال والأردن والعراق ودول الخليج يخزى ويزرى بهم على مر التاريخ .
- وما فعلته فرنسا فى المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا والسنغال وتشاد وكثير من بلدان العالم الإسلامى ، سوف يظل سبة فى جبين حضارة الغرب مئات السنين .
- وما فعلته إيطاليا وإسبانيا وبلجيكا والبرتغال وهولندا أوضح من أن نسرد قصصه ههنا .
- وما فعلته أمريكا فى فيتنام وفى العراق وفى ليبيا وفى العالم العربى الذى صيرته

تابعاً ذليلاً لها تمسكه من كسرة الخبز وتحول بينه وبين زراعة القمح أو تحقيق الاكتفاء الذاتى فى شىء .

- وما تفعله أمريكا اليوم فى ظل النظام العالمى الجديد -- أى الأمريكى -- حيث تضرب العراق بغير ما سبب وتحرم عليه الطيران فى أجزاء من بلده بينما تعيث طياراتها فساداً فى العراق ، وما قامت به من القبض على رئيس دولة فى بلده ومحاكمته فى أمريكا وسجنه هناك ، وما لا يحصى من المساوئ والمخازى ...
- كل ذلك تقره حضارة الغرب وتستسيغه وتسن له القوانين والتشريعات ، ثم تجد لهذه القوانين من ينخدع بها ويحاول الأخذ بنظمها مِنْ كل مَنْ سفه نفسه وخان منهجه ونظامه .

رابعاً :

هذه الحضارة الغربية التى انخدع بها بعض المسلمين ورأوا فيها الخلاص من الفقر والجهل ، هى ذاتها التى أفرزت حربين عالميتين لم تحركهما إلا الأطماع والتوسع على حساب الآخرين ، وتلك الحضارة هى التى تسببت فى إبادة الملايين بالقنابل الذرية والغازات السامة .

وهى نفس الحضارة التى أقامت محاكم التفتيش وحرمت الناس من حرية العقيدة مما لا يزال أثره باقياً حتى اليوم ، وهى هى الحضارة التى أقامت معسكرات التعذيب البدنى والنفسى وحرق الناس بالنار و« النابالم » وإبادتهم فى حامض « الكبريتيك » ، وهى هى التى جعلت من مجاهل سيبريا جهنم دنيوية قبل جهنم الآخرة .

إنها الحضارة التى أتاحت لهتلر وستالين وموسولينى وبوش وشاوشيسكو وتيتو وماوتسى تونج وفرانكو أن يستبدوا ما شاء لهم هواهم وأن يدينوا الناس على الرأى ويدفعوا بهم إلى محاكم الظلم وسجون التعذيب .

وهى ذات الحضارة التى سمحت لأمريكا أن تتحكم فى أمريكا الجنوبية تحكم السيد فى عبده ، وأن تضرب بغداد بالصواريخ لأنها أرادت أن تغتال بوش فى زيارته للكويت !!!

إنها الحضارة التى تعاقب الناس على أن بشرتهم سوداء ، وترى فى تلويح الشمس

لأبشارهم جريمة يجب أن يعاقبوا فى جنوبى إفريقية على يد انجلترا ، وفى فيتنام على يد أمريكا وفى الصين على يد فرنسا ، وفى أمريكا نفسها ، ثم يتحدثون عن حقوق الإنسان !!!

خامساً :

هذه الحضارة الغربية التى ينخدع فيها الغافلون هى نفسها التى تكيل بمكيالين وتزن بميزانين وتحل لنفسها ما تحرم على غيرها ، واسأل إن شئت الدليل عن الآتى :

— من الذى أعطى فلسطين لليهود وطرد منها أصحابها ؟

— ومن الذى يتمتع بحق الاعتراض « الفيتو » فى مجلس الأمن ؟

— ومن الذى يمد ذراعه ليضرب حيث يشاء فى الشعوب الضعيفة ؟

— ومن الذى يصطنع الحروب ليبيع الأسلحة ؟

— ومن الذى يصدر الوباء ليبيع الدواء ؟

— ومن الذى تخلى عن حقوق الإنسان فى الصومال ؟

— ومن الذى تخلى عن الإنسانية فى حرب الصربيين للبوسنة ؟

— ومن الذى يتحدى أى حركة إسلامية فى أى بلد من بلدان العالم الإسلامى ، ويعزى الحكام بالمسلمين ويطلق عليهم أسماء متطرفين وأصوليين ؟

— ومن الذى سكت عن انتهاك أعراض النساء وقتل الأطفال فى البوسنة وزرع أجنة الكلاب فى أرحام النساء ؟

— ومن الذى أعطى إسرائيل كل هذه الإمكانات للفتك بالنساء والأطفال واجتياح من تشاء من أرض العالم العربى تحتل ما تشاء وترفض من قرارات مجلس الأمن ما تريد ؟

— ومن الذى حرم السلاح على البوسنة وتركه فى أيدى الصرب ؟

— ومن ؟ ومن ؟ ومن ؟ مما لا ينتهى حصره من هذه المخازى ؟ أليست هى الحضارة الغربية وأهلها ؟

أفيليق بأحد أن ينخدع بهذه الحضارة وتشريعاتها ؟ .

إن على الدعاة أن يذكروا دائماً قول الله تعالى : ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ ، وعليهم أن يوجبوا على أنفسهم توضيح الأهداف التى توصل إليها الأحكام التى جاءت من عند الله ، وإن عليهم أن يقارنوا بين الحق والباطل ، وما جاء من عند الله وما صنعه الإنسان لاستغلال الإنسان !!!

إن ذلك أولى بالدعاة إلى الله وأجدر بأهل الحركة الإسلامية ، وهو على كل وجه أجدى عليهم من أن يتهموا هؤلاء المخدوعين بأنهم جاهليون .

إن على الدعاة والعاملين من أجل الإسلام أن يتأسوا بسنة المعصوم ﷺ إذ تحداه قومه حين جاءهم بالحق فردوه مؤثرين الباطل ، ورفضوا العدل مفضلين الهوى ، وعاندوه وحاربوه وحصروه مع من اتبعه فى شعب بنى هاشم ما يقرب من ثلاثة أعوام ، ثم طردوه من بلده فعلوا كل ذلك فلم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية صابراً محتسباً كل ما تعرض له والقلة المؤمنة التى اتبعته .

ولقد ناداه ربه قائلاً له : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ ولما كابروه وهم على الباطل قال له : ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

وحاربوه وآذوه وتعرضوا له ولأصحابه بأقسى أنواع التعذيب والقمع ، فعلمه القرآن الكريم كيف يتعامل مع أولئك يوم يقدر عليهم فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ .

وما كان يمكن أن يتسرب إلى نفس الرسول ﷺ إزاء ما لقى من قومه بعض صفات الإنسان وهو يتعرض للأذى فييأس من هداية من يؤذيه ويكف عن دعوته ، ولكنها النبوة والتوجيه الإلهى الحكيم ، والضريبة الباهظة التى يقدمها الداعى للمدعوين فنادت عليه الآيات البينات بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا

يَمْكُرُونَ ﴾ بل طالبته الآية الكريمة بالتزام الإحسان على كل حال ، فى قوله تعالى .
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1] .

إن الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية لهم فى رسول الله أسوة حسنة لأنهم – ولا نزكى على الله أحداً – يرجون الله ويرغبون فيما عنده ويؤثرونه على ما عند الناس .

هذا ظننا فيهم فإن لم يكن بعضهم كذلك ، فاللهم اجعلهم كذلك .

* * *

(١) النحل : ١٢٥ - ١٢٨ .

الآيات من الحادية والخمسين إلى الثالثة والخمسين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾.

- تخاطب الآيات الكريمة المؤمنين وتنهاهم عن موالاة اليهود والنصارى وتهدد من والاهم بأنه سوف يصبح منهم بهذه الموالاة ، وسوف يكون من الظالمين .

ثم تبطل الآيات تعلات الذين يوالون اليهود أو غيرهم طمعاً فى الانتصار بهم على العدو ، وتهدد هؤلاء الموالون بأن الله سبحانه قد يأتى بالنصر للمؤمنين من عنده ، وعندئذ يندم هؤلاء الموالين لليهود والنصارى .

وتؤكد الآيات الكريمة أن نفاق المنافقين سوف ينكشف وسوف يكشفه المؤمنون أنفسهم ، بعد أن تنجلى الحقائق فيستبين خداع المخادعين .

- وفى الآيات الكريمة نهى وإخبار وتقرير وتعجب ، نوضحها فيما يلى :

أما النهى :

فهو نهى الله تبارك وتعالى للمؤمنين جميعاً سواء من صدق منهم إيمانه ، أو لم يكن كذلك فنافق ، فقد نهى الله الجميع عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ولاية تناصر ومحالفة ، لما ثبت بل تأكد من حقدهم على الإسلام والمسلمين ، فلا ثقة فى ولائهم ولا فى وفائهم ، إذ كان واقع أمرهم فى التعامل مع رسول الله ﷺ يؤيد غدرهم

وخيانتهم وأنهم فى كراهية الإسلام والمسلمين كالمشركين سواء بسواء .

ومن المعروف فى كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ الإسلامى[1] أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة المنورة ، صار الكفار أمامه أقساماً أربعة :

— قسماً صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوا وهم وإن كانوا على كفرهم إلا أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكل ما يقر لهم الإسلام من حقوق .

— وقسماً حاربوه وناصبوه العداء .

— وقسماً لم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يئول إليه أمره وأمر أعدائه ، ومن هذا القسم من كان يحب ظهوره على أعدائه ومنهم من كان يحب ظهور أعدائه عليه .

— وقسماً كانوا معه فى الظاهر ومع أعدائه فى الحقيقة وهم المنافقون ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى .

وقد صالح رسول الله ﷺ يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمان ، وكان هؤلاء اليهود ثلاث طوائف حول المدينة وهم :

١ — يهود بنى قينقاع :

وقد حاربوا رسول الله ﷺ بعد معركة بدر ، وغاظهم انتصاره على المشركين فأظهروا البغى والحسد ، فحاربهم رسول الله ﷺ بعد أن حاصرهم خمس عشرة ليلة ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم فأمر بهم فكُتّفوا ، ثم ألحّ عبد الله بن أبى

---

(١) انظر فى ذلك من كتب السيرة :

— طبقات ابن سعد .

— وسيرة ابن هشام .

— وزاد المعاد لابن القيم .

— وإمتاع الأسماع للمقريزى ، وغيرها .

على النبى ﷺ أن يهبهم له - وكانوا حلفاءه - فوهبهم له ، فلم يقتلوا ولكن أمروا بالخروج من المدينة فخرجوا إلى « أذرعات » بالشام ، وخمّس رسول الله ﷺ غنائمهم[1] .

٢ - **ويهود بنى النضير :**

وكانوا قد نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد ، عندما ذهب إليهم رسول الله ﷺ يستعين بهم بناء على عهدهم معه فى دية الكلابيّيْن فهموا بقتله غدراً فأبلغه الله بمكرهم وغدرهم ، فانصرف الرسول ﷺ عنهم عائداً إلى المدينة وأبلغهم بأن يخرجوا من المدينة وأجلهم عشراً وإلا تعرضوا للقتل ، فأخذوا يتجهزون غير أن عبد الله بن أبى راسلهم بألا يخرجوا ، وأنه سوف يمدهم بألفين من المقاتلين يدخلون معهم حصنهم ، ووعدهم بأن تنصرهم قريظة .

فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لن يخرجوا - وكان رئيسهم حيىّ بن أخطب - فذهب إليهم رسول الله ﷺ ، وخذلتهم قريظة ، وتخلى عنهم عبد الله ابن أبى ، فحاصرهم رسول الله ﷺ ، وقطع نخيلهم ، وحرّق ، فأرسلوا إليه : نحن نخرج عن المدينة ... فسمح لهم بالخروج بأنفسهم وذراريهم وما حملت الإبل إلا السلاح .

ولم يخمّس رسول الله ﷺ غنائمه منهم ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليهم بخيل ولا ركاب .

وجلا بنو النضير عن المدينة المنورة إلى خيبر .

٣ - **ويهود بنى قريظة :**

وهم أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ ، وأشدهم كفراً وأغلظهم عناداً وعداوة ، ولذلك جرى عليهم مالم يجر على إخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير .

---

(١) خمّسها : أى قسمها أخماساً ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ... **الآية** ﴾ الأنفال : ٤٤

وكان بنو قريظة قد غدروا برسول الله ﷺ أثناء غزوة الخندق - الأحزاب - على الرغم مما بينه وبينهم من عهد ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بأمر من الله تبارك وتعالى ، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، ثم استسلموا فحكَّم رسولُ الله ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه ، فحكم فيهم بقتل الرجال وسَبْى النساء والذرية وتقسيم الأموال ، فنفذ حكمه فيهم ؛ وكان هذا جزاء غدرهم وخيانتهم .

وكذلك كان شأن النصارى من العرب أو من الروم يعادون النبى ﷺ عداوة لا تقل عن عداوة اليهود !!!

فكيف يجوز للمسلمين أن يوالوا أحداً من هؤلاء ؟ ولذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ... ﴾ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ما رواه البيهقى بسنده - فى دلائل النبوة - عن عبادة بن الوليد ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبَّث بأمرهم عبد الله بن أُبى بن سلول وقام دونهم ، ومشى عبادة ابن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله وإلى الرسول من حلفهم - وكان عبادة رضى الله عنه أحد بنى عوف بن الخزرج وله من خلف بنى قينقاع مثل الذى كان لعبد الله بن أُبى - فخلعهم عبادة من حلفة وقال : أتوَلى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم » قال - أى عبادة بن الوليد - : وفيه وفى عبد الله نزلت الآيات فى المائدة : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ... ﴾ إلى قوله ﴿ **فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ .

هذا عن النهى الوارد فى الآيات الكريمة .

وأما الخبر :

ففى أمور منها .

- إخباره سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وللمسلمين بأن هؤلاء اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ، أى أنهم متفقون فيما بينهم على خلافكم ومعاداتكم ،

يوالى فى ذلك بعضهم بعضا ، فلتكونوا على علم بذلك ، ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ .

— وإخباره سبحانه وتعالى بأن مَنْ والى هؤلاء اليهود والنصارى فقد أصبح مناصراً لهم بهذا الولاء على المسلمين وبذلك يصير حكمه كحكمهم .

وقد والاهم المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبى ، وإنما كان هذا التشديد فى عدم موالاتهم لأنهم فى عدائهم للمسلمين كالمشركين سواء بسواء ، فقد ورد فى السنة النبوية ما رواه النسائى بسنده عن إسماعيل عن قيس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنى برىء من كل مسلم مع مشرك ، ثم قال رسول الله ﷺ : ألا لا تراءى ناراهما » والمعنى : ليس للمسلم أن يكون مع المشرك ولا قريباً منه ولا أن ترى ناره نار المشرك ، لأن المشركين واليهود والنصارى لا عهد لهم ولا أمان .

ويختلف المشرك عن اليهود والنصارى بأن المشرك لا تجوز مساكنته ، أما اليهود والنصارى فيجوز أن يساكنهم المسلمون ويأكلوا طعامهم ويتزوجوا من نسائهم – كما أوضحنا ذلك فيما سبق – ومن أخل بأحكام هذا الولاء فقد أصبح ممن والاهم : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ وهذا تهديد عظيم لمن والاهم .

— وإخبار من الله تبارك وتعالى عن المنافقين ، وكشف لخبيث نواياهم ، إذ المنافقون – وهذا طبعهم – يسارعون فى موالاة اليهود ومعاونتهم ضد المسلمين يحدثون أنفسهم بقولهم : نخاف أن يدور علينا الزمان إما بقحط فلا يميروننا وإما بظفر اليهود بمحمد ﷺ ، فلا يدوم له أمر ، فنحتاج إلى نصرة اليهود لنا ، فينبغى أن نتخذ عندهم يداً فى السرّاء ننتفع بها فى الضراء .

إن هؤلاء المنافقين غير موقنين بوعد الله لرسوله محمد ﷺ أن ينصره والمؤمنين ، وأن يظهر دينه على الدين كله ، لأنهم فى شك من أمر النبوة كلها ، فهم يريدون أن ينتفعوا منها بإظهار الإيمان بها ، وأن يكونوا فى الوقت نفسه مع أعداء المسلمين إن دالت دولة المسلمين ، وهذا هو شأن المنافقين فى

كل زمان ومكان : ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض**[1] **يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾

— وإخبار من الله تعالى يتضمن بشارة للمسلمين بأن الله سبحانه سوف يأتى إليهم بالفتح من عنده ، أى الفصل بين المؤمنين وأعدائهم من اليهود والنصارى بنصرهم عليهم ، وهذه البشرى للمسلمين قد تحققت . أو أن يأتى الله بأمر من عنده يفضح به نفاق المنافقين ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه وأضمروه فى أنفسهم من اتخاذ الأولياء ضد المؤمنين ، وتوقع الهزيمة لهم والشر .

وقد حدثت هذه البشارات فى حياة النبى ﷺ إذ نصره على اليهود — على النحو الذى بينا — وكشف له نفاق المنافقين بأن أنزل عليه سورة « براءة » وصدق الله : ﴿ **فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ .

وأما التقرير :

فهو أن الله تبارك وتعالى يقرر أنَّ من والى اليهود والنصارى فكان بهذه الموالاة منهم وأخذ حكمهم ، إذ ناصرهم واستنصر بهم — وهم أعداء الإسلام والمسلمين — فهو ظالم لدينه إذ والى أعداءه ، وظالم للمسلمين إذ ناصر أعداءهم ، وظالم لنفسه إذ أوردها هذه الموارد ، ومثل هذا الظالم لا يهتدى إلى الحق ، ولا يعرف طريق النجاة ، ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

وأما التعجب :

فقد ساقه الله على لسان المؤمنين عندما تكشفت بفضل الله أمامهم الحقائق ، فقال بعضهم لبعض متعجبين من عاقبة المنافقين : أهؤلاء الذين أقسموا بالله أغلظ الأيمان مجتهدين فى توكيدها : إنهم منكم أيها المؤمنون ، وعلى دينكم ، بل هم معكم فى حربكم وسلمكم ؟ .

---

(١) الذين فى قلوبهم مرض : هم المنافقون .

ثم كشف الله سترهم وفضح نواياهم ، وما نالوا من هذا النفاق إلا أن حبطت أعمالهم – أى بطلت – فخسروا ما كان يترتب على تلك الأعمال من أجر وثواب لو صلح حالهم وخلصت نواياهم وتنقى إيمانهم من النفاق : ﴿ **ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين** ﴾ .

- استنباط المواقف التربوية التى نتعلمها من الآيات الكريمة :

نتعلم من هذه الآيات الكريمة ما يلى :

١ – أن الفرق حادٌّ بين أن نوالى اليهود والنصارى وأن نحسن التعامل معهم .

فالموالاة لهم منهى عنها ، وحسن التعامل معهم مأمور به ، فالإسلام سمح يدعو إلى حسن التعامل مع أهل الكتاب بل البر بهم ، ويحرم الإساءة إليهم أو ظلمهم ، غير أن هذا شيء وموالاتهم والتحالف معهم ومناصرتهم شيء آخر ، إذ الولاء لا يكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولا يكون لأحد ممن يختلفون عنا فى الدين ، لأنهم – كما فهمنا من الآية الكريمة – بعضهم أولياء بعض ، والولاية المشروعة هى فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ** ﴾[1] وغيرها من الآيات .

٢ – ونتعلم من هذه الآيات أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض فى الوقوف ضد الإسلام والمسلمين ، ومنعهم من أن يمكنوا لدين الله فى الأرض .

ونحن نعرف من التاريخ وأحداثه أن اليهود أعداء النصارى وأن النصارى أعداء اليهود وأن حروباً ومكايد كانت بينهم ، كما نعرف بل نُوقن – كما أنبأنا بذلك التاريخ فى أحداثه العديدة – أن هذه العداوة سريعاً ما تزول إذا كان هناك كيد للإسلام والمسلمين .

---

(١) المائدة : ٥٦ .   وسوف نشرحها بالتفصيل فى الصفحات التالية بإذن الله تعالى .

إن قول الله تعالى : ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ يؤكد هذا ويدل عليه ، وإن تاريخهم مع الإسلام والمسلمين فى حلقاته العديدة يصدق هذا ويؤيده ، كما أن التاريخ أوضح هذا الولاء فيما بين اليهود والنصارى عندما كان العدو هو الإسلام والمسلمين ، ولنا على ذلك من الشواهد والبراهين ما نشير إلى بعضه فيما يلى :

- الحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان من سنة ٤٩٢ هـ إلى ٦٩١ هـ .
- وحروب إجلاء أو إبادة المسلمين فى الأندلس بعدما بقى المسلمون فيها ما يقرب من ثمانمائة عام .
- وتحالفهم فى شن الحرب على دولة الخلافة الإسلامية حتى أسقطوها فى قصة طويلة مأساوية ليس هنا مجال الحديث فى تفصيلها .
- وتحالفهم فى تمكين اليهود من إقامة دولة لهم فى فلسطين ، واستمرار التعاون فيما بينهم حتى اليوم وغداً وإن كانت العداوة فيما بينهم مضمرة والأحقاد مستعرة .
- وتحالفهم على احتلال كثير من بلدان العالم الإسلامى أو السيطرة عليها اقتصادياً وثقافياً وعلمياً وتعليمياً فضلاً عن السيطرة العسكرية .
- وتحالفهم فى تحدى إيران بعد قيام ثورتها والقضاء على نظام حكم الشاه فيها .
- وتحالفهم ضد الإسلام والمسلمين فى آسيا الوسطى بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، وإغرائهم كل عدو بالدول الإسلامية الناشئة هناك .
- وتحالفهم ضد مسلمى البوسنة والهرسك من أجل القضاء على المسلمين فى هذا الجزء من أوربا ، وحسبنا أن الوسيطين الدوليين أحدهما يهودى والآخر نصرانى[1] وأن العالم الغربى كله وبعض العالم الشرق من يهود ونصارى يؤيدون الصرب فى إبادتهم للمسلمين ويحرمون المسلمين من سلاح يدافعون به عن أنفسهم لأكثر من ستة عشر شهراً الآن أغسطس ١٩٩٣ م .

---

(١) هما : سيروس فانس مبعوث هيئة الأمم المتحدة ، وديفيد أوين مبعوث الجماعة الأوربية .

إن بعضهم أولياء بعض عندما يكون المعتدى عليه هو الإسلام والمسلمين !!! صدق الله علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ومن أجل ذلك حرم الله على المسلمين اتخاذ اليهود والنصارى أولياء أو حلفاء أو نصراء ، بل جعل ذلك من الانحياز إلى غير الإسلام والتحزب ضده ، وذلك يستوجب إغضاب الله تبارك وتعالى ، ويجعل المسلم المحالف لهم خارجاً من ولائه لله ولرسوله وللمؤمنين ، وداخلاً فيمن والاهم وظالماً لدينه وإخوانه المسلمين ولنفسه .

٣ - ونتعلم من هذه الآيات الكريمة أن طريقنا فى الحياة ومنهجنا فيها وأسلوبنا فى التعامل مع الناس والأشياء لا يمكن أن يلتقى أبداً مع طريق غير المسلمين منهجهم وأسلوب تعاملهم مع الناس والأشياء ، ومن أجل هذا الاختلاف لا يمكن ولا يقبل أن يكون هناك ولاء أو تحالف أو تناصر .

أما أن نحسن إليهم ونبرهم إن كانوا يعيشون بيننا فهو هو إسلامنا - كما أوضحنا آنفاً - وكما يعلمنا ربنا فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1] .

إن تاريخنا القديم والوسيط والحديث ملىء بأحداث جسام فى قتالهم لنا وفى إخراجنا من ديارنا ومظاهرة أعدائنا علينا ، ولو ذهبنا نستقصى ما وسعتنا هذه الصفحات ، فكيف نتولاهم أو نشعر أننا وإياهم على طريق ؟ .

يقول الإمام ابن جرير الطبرى : « إن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو

---

(١) الممتحنة : ٨ - ٩ .

من أهل دينهم وملتهم ، فإنه لا يتولى متولٍ أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمه كحكمه »[1] .

٤ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن المنافقين والنفاق ظاهرة بشرية لا يخلو منها مجتمع للناس فى أى عصر من العصور ، وأن هؤلاء المنافقين فى قلوبهم مرض ، ومن كان قلبه مريضاً كان كل ما فى حياته مريضاً ، لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله .

هؤلاء المنافقون يحاولون دائماً أن يكونوا مع الحق فى الظاهر ، وهم مع الباطل فى الواقع .

إن المنافقين يريدون دائماً أن يكونوا مع أهل الحق ومع أهل الباطل يزعمون لكل أنهم معهم ، كى لا يخسروا أحداً إذا كانت الصولة لأحدهم على الآخر ، تحركهم فى ذلك المطامع والأهواء وإيثار المصلحة الذاتية على كل قيمة .

والتعامل مع المنافقين إنما يكون بالصبر والمصابرة ، والثقة فى تأييد الله ونصره لأهل الحق على أهل النفاق فى زمن يطول أو يقصر بمقاييس الناس ، ولكن نصر الله حتمى للمؤمنين كما وعد ، إذ لابد فى الصبر على المنافقين من أن ييسر الله للمؤمنين فتحاً صريحاً ، أو أن يحدث أمراً يكون فيه النصر والفتح وإن بدا لغير المتدبرين بعيداً .

إن المطلوب من المؤمنين أن يستيقنوا من ذلك ، لأن ذلك هو وعد الله – المهم أن يكونوا هم المؤمنين ، يقول الله تعالى : ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ .

وعلى المنافقين أن يتعلموا من هذه الآية أنهم فى النهاية سوف يكونون من

---

(١) ابن جرير الطبرى : تفسيره .

النادمين على نفاقهم .

٥ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن المؤمنين فى كل عصر سوف يكونون فى دهشة وتعجب من شأن المنافقين وأهل الكتاب إن المنافقين وأهل الكتاب يعد بعضهم بعضا التأييد والتناصر ، ولكنهم عند التجربة يتصرفون حسب طبيعتهم وهى طبيعة تؤثر السلامة والحرص على المنفعة وتفضيل الجبن وخلف الوعد ونقض العهد ، وكل هذه النقائض عند التحليل الدقيق وعند الوصول إلى النهايات تكون فى صالح المسلمين ، وضد هؤلاء المنافقين وأهل الكتاب معاً حيث تؤدى إلى إحباط أعمالهم فى الدنيا وخسران ما عند الله فى الآخرة ، إذ ينكشفون فى الدنيا وتضيع منهم الفوائد التى يرجون ، وهم عند الله سبحانه يوم القيامة فى الدرك الأسفل من النار كما أخبر سبحانه بذلك فى قوله : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[1] .

ومن المواقف التربوية التى تفيد فى مجال الدعوة والحركة ما نذكر بعضها فيما يلى :

١ - على الدعاة إلى الله والعاملين من أجل الإسلام أن يدركوا أنهم لن تظهر لعملهم آثار نافعة لدينهم ودنياهم ، بل لن تقوم لهم قائمة إلا إذا كان ولاؤهم لله ، ولكتابه ولرسوله لسنته ومنهاجه ، وللمؤمنين جماعة المسلمين ، لأنه بغير هذا التعاضد والتناصر والتعاون لا يستطيعون أن يصلوا فى تحقيق أهدافهم إلى شيء .

وإذا كان أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض - على ما بينهم من خلاف يمس العقيدة والعبادة والخلق والسلوك - أفلا يكون بين المؤمنين هذا الولاء ؟ .

---

(١) النساء : ١٤٥ .

لقد صرح القرآن الكريم بهذا الولاء بين المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[1] .

ولا ولاء للمؤمنين مع غير المؤمنين .

وإن غير المؤمنين هم كل من لم يتبعوا محمداً خاتم الرسل ﷺ ، ولم يلتزموا بمنهجه ، من يهود ونصارى ومجوس ومشركين وكل صاحب ملة أو نِحْلة .

إن على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يوالى بعضهم بعضا موالاة التعاون والتناصر والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وما لم يفعلوا فلن يستطيعوا القيام بواجب الدعوة إلى الله ولا القيام بواجب الحركة الإسلامية .

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات الكريمة درساً عميقاً هادياً إلى أرشد السبل هو الثبات على الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، مهما تعاظمت أمامهم العقبات ومهما عظم التحدى والتعرض للأذى فى سبيل الله .

إن الخشية كل الخشية أن يتصور بعض الدعاة أو الحركيين أن موالاة أهل الكتاب ومناصرتهم قد تيسر لهم مقاومة التحدى وتخطى العقبات ، إن هذا التصور خاطىء مخالف لمنهج الله فى منع موالاة غير المؤمنين ، بل هو مدخل لكل موال لهم فى عداد من والاه من يهود أو نصارى من أعداء الإسلام والمسلمين ، ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ والتعبير القرآنى ﴿ **منكم** ﴾ يوحى بأن بعض المسلمين قد يقعون فى هذا الخطأ الفادح فيوالون أهل الكتاب متأولين أو غير متأولين ، ومن فعل ذلك فهو من الظالمين كما عبرت عن ذلك الوصف الآية الكريمة ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ وهو ظالم لنفسه ظالم للمسلمين الذين تخلى عنهم ظالماً للحق والحقيقة .

إن على الدعاة والحركيين أن يدركوا أن ذلك محتمل وإن كان من أكبر

---

(١) التوبة : ٧١ .

الأخطاء وأفدحها التى تخرج صاحبها من زمرة المؤمنين وتدخله فى زمرة غير المؤمنين ، إن تربية الناس على هذه المعانى الحاسمة هى التى تحرر المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين .

٣ - ويتعلم الدعاة والعاملون من أجل الإسلام درساً آخر من أهم دروس العمل الإسلامى وهو : كيف يتعاملون مع المنافقين بعد معرفتهم لأغوار نفوسهم بعد أن كشف القرآن الكريم نواياهم وأوضح صفاتهم وجعل التعرف عليهم سهلاً ميسوراً .

وقد وصفهم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة بأنهم : ﴿ **فى قلوبهم مرض** ﴾ .

ومن المعروف فى العربية التعبير بالقلوب عن العقول ففى قلوبهم فى هذه الآية أى فى عقولهم .

والمرض هو ما يطرأ على العقول فيضعف تعقلها وإدراكها ، والشك والوهم من أعراض هذا المرض ، فهو ظلمة تعرض للعقل فتقف به عن أن ينفذ إلى ما وراء التكاليف والأحكام من حكم وأسرار ، وهذا النفوذ إلى تلك الحكم هو من الفقه فى الدين الذى يسوق النفس إلى الأخذ بما جاء فى الدين ظاهراً وباطناً .

ويطلق مرض القلوب على اختلال مزاج النفس وما يخل باستقامتها ويدخل بها فى مجال النفاق والجهل والشك وغير ذلك من فساد الاعتقاد والميل عن الحق واضطراب حكم العقل وفساد الخلق .

ومن معانى : ﴿ **فى قلوبهم مرض** ﴾ ما نذكره فيما يلى :

- السكون إلى الدنيا وحبها وإيثارها ، والغفلة عن الآخرة والإعراض عنها .
- وقال الإمام الجنيد : « علل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن » .
- والشك والتردد والإرتياب .
- والمسارعة فى موالاة غير المؤمنين لتحقيق مكاسب دنيوية أو تجنب مخاطر

متصورة .

- وإظهار ما ليس فى الباطن .

فكيف يكون التعامل مع هؤلاء المنافقين ؟ كما نفهم ذلك من هذه الآية الكريمة ؟

- ترك حربهم ومعاداتهم لأن لنا الظاهر والله يتولى السرائر .
- وترك فضحهم وكشف نواياهم لأننا لا نملك هذا أيضاً .
- وانتظار فضل الله ووعده للمؤمنين بأن يأتى بالفتح أى النصر عليهم وعلى أى عدو ، بحيث يفصل بين المؤمنين وكل عدو لهم من منافق أو كافر أو مشرك .
- ورجاء الله أن يأتى بأمر من عنده تكون فيه النتيجة الحاسمة التى تسر المؤمنين وتغيظ غير المؤمنين .
- مع الأخذ بكافة الأسباب التى يتطلبها موقف التعامل مع غير المؤمنين .
- وأن يستيقنوا بأن الله مخزى المنافقين ومصيبهم بالندم فى الدنيا والخسران فى الآخرة .

كل ذلك يفهم من قوله تعالى : ﴿ **عسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ .

٤ – ويتعلم الدعاة وأهل الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة أن الصبر على المنافقين هو الأصل ، وهو الذى يمكن المسلمين فى مستقبل غير بعيد من معرفة حقيقتهم وحقيقة ما يجنونه من ثمرات مُرَّة لهذا النفاق فى الدنيا حيث يرى المؤمنون حسرة المنافقين وندامتهم ، وفى الآخرة حيث يخسر المنافقون ما عند الله ولا يجدون عنده إلا الدرك الأسفل من النار .

وأن مع هذا الصبر والمصابرة أمل كبير يصل إلى درجة اليقين بأن الله سوف يأتى بالفتح أو أمر من عنده يحقق الفتح ولا يتوقعه المؤمنون .

وليس ما حدث فى الماضى – على عهد النبى ﷺ – مع المنافقين ، حيث نصره الله عليهم ، ببعيد اليوم أن يتكرر بشرط أن يكون المؤمنون على مستوى الالتزام بمنهج الله فى حياتهم كلها ، وفى كل ما يفعلون وما يتركون .

الآيات من الرابعة والخمسين إلى الثامنة والخمسين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

- فى هذه الآيات الكريمة نداء من الله تعالى للذين آمنوا ينبههم فيه بأن من ارتد منهم عن دينه دين الحق فإن هذا لن يضر دين الحق فى شىء وإنما سيجعل الله لهذا الدين أنصاره وأولياءه فى كل زمان ومكان ، وسوف يكون لهؤلاء الأنصار من الصفات ما يؤهلهم لنصر الدين ، ويعلمهم بأن الولاية الحقيقية إنما تكون لله ولرسوله وللمؤمنين ، لا للذين يسخرون من صلاة المؤمنين وندائهم لها ، فيكون بهذه السخرية قوماً بعيدين عن العقل والتعقل .

- وفى هذه الآيات الكريمة : إخبار بغيب ، وتقرير لعدد من الحقائق ، وتحديد واضح لمن يكون لهم الولاء عند المؤمنين ولمن يكون لهم الغَلَبُ ، ونهى عن ولاء أهل الكتاب والكفار .

ونستطيع أن نوضح ذلك فيما يلى - والله المستعان - :

ـــ ينادى الله تبارك وتعالى على المؤمنين مخبراً لهم - بعد حديثه عن المنافقين وما آل إليه أمرهم فى الدنيا من خزى وندم ، وما ينتظرهم فى الآخرة من

خسران – بأن مثل هؤلاء المنافقين فى الانحياز للباطل أولئك الذين يرتدون عن الدين بعد أن دخلوا فيه خوفاً أو طمعاً ، ويخبر الله سبحانه بغيب سوف يقع عند ارتداد المرتدين وهو أن الله سبحانه سوف يأتى بقوم مؤمنين يحبهم ويحبونه لهم صفات هى صفات أحباب الله وأوليائه وهى :

- أن الله تبارك وتعالى يحبهم .
- وأنهم يحبون الله تبارك وتعالى .
- وأنهم متواضعون خافضوا الجناح مع إخوانهم المؤمنين .
- وأنهم أقوياء أشداء على الكافرين .
- وأنهم يجاهدون فى سبيل الله .
- وأنهم لا يخافون فى أعمالهم كلها لومة لائم من الناس .
- وأن ذلك كله فضل من الله عليهم .

وإنما كان حديث القرآن الكريم عن المرتدين إخبار بغيب لأنه لم يكن حدث أثناء نزول هذه الآيات ، وإنما حدث هذا الارتداد عن الدين بعد وفاة الرسول ﷺ .

روى ابن إسحاق بسنده قال : « لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب إلا ثلاثةُ مساجد :

- مسجد المدينة .
- ومسجد مكة .
- ومسجد جوّاثى بالبحرين .

وكانوا فى ردتهم على قسمين .

- قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها .
- وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها .

فقالوا : نصوم ونصلى ولا نزكى .

فقاتل الصديق جميعهم ، وبعث خالد بن الوليد بالجيوش فقاتلهم وسباهم على

ما هو مشهور من أخبارهم »[1] .

وقد روى أهل السير والأخبار والتاريخ أن الذين ارتدوا عن الإسلام إحدى عشرة جماعة :

• ثلاثة فى عهد النبى ﷺ وهم :

١ - بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار الأسود العنسى باليمن ، ولكنه قتل فى حياة النبى ﷺ على يد فيروز الديلمى .

٢ - وبنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب بن حبيب ، وقد بقى مسيلمة بعد وفاة النبى ﷺ حتى قضى عليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

٣ - وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد ، وقد بقى بعد وفاة النبى ﷺ ، فبعث إليه أبو بكر خالداً - رضى الله عنهما - فانهزم وفر إلى الشام ، ويقال إنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه .

• وسبعة منهم فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهذا إخبار عنهم بالغيب ، وهم :

١ - فزارة قوم عيينة بن حصن .

٢ - وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيرى .

٣ - وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل .

٤ - وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة .

٥ - وبعض بنى تميم قوم سجاح بنت المنذر الكاهنة ، وقد أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها .

٦ - وكندة قوم الأشعث بن قيس .

٧ - وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطيم بن زيد .

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٢١٦ ط كتاب الشعب القاهرة دون تاريخ .

وكل هؤلاء حاربهم أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وانتصر عليهم .

• وجماعة واحدة فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم - وهى :

بنو غسان قوم جبلة بن الأيهم .

ونستطيع أن نلحظ تشابها بين هذه الآية الكريمة وبين الآية السابقة التى نهت عن مناصرة غير المؤمنين : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾ إذ كل من الموقفين تولى غير المؤمنين والارتداد عن الدين خروج عن الإسلام نتيجة للغفلة والضلال ، بينما الذين اصطفاهم الله لنصرة دينه إنما تفضل عليهم بهذه النعمة .

ومعنى هذه وتلك أن من شاء أن يحرم نفسه من هذا الفضل فيوالى غير المؤمنين ، أو يرتد عن دينه فهو وما يريد ، والله سبحانه وتعالى قادر على أن يختار لنصرة دينه قوماً يحبهم ويحبونه .

وأما الحقائق التى قررتها الآيات فهى :

- أن الله تبارك وتعالى لا يعجزه أن يأتى بقوم ينصرون دينه لو ارتد عنه بعض المؤمنين به .
- وأن اختيار قوم مؤمنين لنصرة دين الله فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده .
- وأن الله تبارك وتعالى واسع الفضل عليم بمن يستحقه ومن أهل له .

وأما تحديد من هم أهل للولاء :

فهم المؤمنون الموصوفون بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .

وأما النهى عن الولاء :

فهو نهى المؤمنين عن موالاة أهل الكتاب والكفار الذين من صفاتهم ومن مظاهر كفرهم أن يتخذوا من دين الإسلام هزواً ولعباً وأن يتخذوا من النداء للصلاة « الأذان » هزواً ولعباً كذلك .

- وقد وصفت الآيات الكريمة المؤمنين الذين ينصرون دين الله بصفات هى :

● **الصفة الأولى** : أنهم محبوبون من الله تعالى ، حباً يليق به سبحانه لا يشبه حب الناس بعضهم لبعض ، وليس حبًّا يعنى الإثابة وحسن الجزاء – كما تأوله المعتزلة وبعض الأشاعرة – فراراً من التشبيه .

ولحب الله تعالى لعباده أسباب معروفة أوضحها الحديث القدسى الشريف الذى رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عز وجل قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به .... الحديث** » .

● **والصفة الثانية** : أنهم يحبون الله تعالى ، وحب الله تعالى أفضل وأشرف ما يقدم المؤمن مِنْ أعمال ، بل هو مطلب شرعى قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وقد روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « **جاء أعرابى إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ما أَعْدَدْتَ لها ؟ قال : ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام إلا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : المرء مع من أحب** » . قال أنس : « **فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك** »[1] .

● **والصفة الثالثة** : أنهم أذلة على المؤمنين ، أى أنهم يرأفون بهم ويرحمونهم ويلينون لهم ، عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ، فالمؤمن مهما كان عالياً شريف المنزلة فإنه يخفض جناحه للمؤمنين .

● **والصفة الرابعة** : أنهم ﴿ **أعزة على الكافرين** ﴾ أى يغلظون على الكافرين ويشتدون عليهم ، ويعادونهم ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك فى آية أخرى بقوله تعالى : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾

---

(١) للتوسع فى موضوع حب الله للناس وحب الناس لله : انظر : الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين . كتاب المحبة .

وفى هاتين الصفتين : الرحمة بالمؤمنين والغلظة على الكافرين يقول ابن عباس رضى الله عنهما : « هم للمؤمنين كالوالد للولد والسيد للعبد ، وهم فى الغلظة على الكفار كالسبع على فريسته » .

● **والصفة الخامسة** : أنهم يجاهدون فى سبيل الله – وأصل الجهاد احتمال الجهد والمشقة ، وهى صفة من أخص صفات المؤمنين الصادقين ، وسبيل الله هى طريق الخير والحق التى توصل إلى مرضاته تعالى .

وأعظم الجهاد بذل النفس فى سبيل الله فضلاً عن بذل المال والجهد ، ولا ينتصر الإسلام بغير جهاد ، ولا جهاد إلا بتضحية .

● **والصفة السادسة** : أنهم : ﴿ **لا يخافون لومة لائم** ﴾ أى لا يخافون فى تمسكهم بدينهم وإصرارهم على الحق وصبرهم عليه لوماً من أحد ، ولا يخشون ضرراً يصيبهم ، وتلك هى الشجاعة ، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس .

وتلك الصفات فضل من الله يؤتيه من يشاء من عبادة ﴿ **فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله لايخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ .

ـــ وأما النهى عن ولاء أهل الكتاب والكفار :

فقد تحدثت عنه آيات سابقة ، وهنا تذكر الآية الكريمة بعض الأسباب الداعية إلى عدم ولائهم ، وهى أنهم يتخذون الدين هزواً ولعباً ، أى يرون فى دين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ مجالاً للسخرية من الإسلام والمسلمين ومجالاً للعب بشعائره وما ينادى به .

وأهل الكتاب والمشركون فى تلك السخرية بالإسلام سواء فكذلك نهى عن موالاتهم جميعاً .

وأن هؤلاء وأولئك يستهزئون بالأذان إذا نادى به المسلمون ليجتمع الناس للصلاة ، وذلك أن أهل الكتاب ما كانوا يعرفون الأذان لأداء العبادات وإنما كانوا

يعرفون النواقيس ، والمشركون لم يكونوا يعرفون شيئاً من ذلك كله ، وليس استهزاؤهم بالأذان إلا بسبب أنهم قوم لا يعقلون ، لأن كلمات الأذان كلمات عبادة لله وشهادة حق بألوهيته وبنبوة خاتم رسله محمد ﷺ ، ودعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح وتكبير لله وتمجيد وثناء .. فكيف يستهزئ بذلك من أهل الكتاب ؟ .

إن ذلك مرعاة لعدم موالاتهم ، وقد كانوا قالوا للنبى ﷺ لما سمعوا الأذان : « لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم ، فمن أين لك صياح مثل صياح العير ؟ فما أقبحه من صوت وما أسمجه من أمر »[1] .

وقيل : إنهم كانوا إذا أذّن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون تجهيلاً لأهلها – أى أهل الصلاة – وتنفيراً للناس عنها وعن الداعى إليها[2] .

وهذه السورة الكريمة هى وحدها من بين سور القرآن الكريم التى ورد فيها ذكر للنداء إلى الصلاة « الأذان » ويطيب لنا أن نذكر عن الأذان معلومات تهم المسلمين ، وهى مما لا ينبغى جهله بحال ، ومن هذه المعلومات المتصلة بالأذان ما يلى :

● **مشروعيته فى الإسلام :**

شرع الأذان نداءً للصلاة على صورته أو صيغته – التى سنذكرها – فى المدينة المنورة ، وأما فى مكة المكرمة فلم يكن هناك أذان ، وإنما كان المسلمون إذا أرادوا الصلاة نادوا : الصلاة جامعة .

● **وصيغة الأذان هى :**

ـــ الله أكبر : أربع مرات .

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله : مرتين .

ـــ أشهد أن محمداً رسول الله : مرتين .

---

(١) انظر فى ذلك ما قاله الكلبى وتردد فى كثير من كتب التفسير .

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : سورة المائدة .

ــ حَيّ على الصلاة : مرتين .
ــ حيّ على الفلاح : مرتين .
ــ الله أكبر : مرتين .
ــ لا إله إلا الله : مرة واحدة .
ــ والتثويب « الصلاة خير من النوم » : مرتين ، بعد كلمة : حيّ على الفلاح في أذان صلاة الفجر ، وهذا التثويب سنة ، وليس بواجب على أرجح الأقوال .

● **وفى فضل الأذان :**

ورد ما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين » .

● **وفى فضل المؤذن :**

ورد فى مارواه الإمام مالك بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » .

وأما تحديد من يكون لهم الولاء :

فقد جاء فى الآية بأسلوب القصر « إنما » مما يؤكد أن ولاء المسلم لا يكون لغير من ذكرتهم الآية الكريمة ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا** ... ﴾ بمعنى أن ولاء المسلم لا يجوز أن يكون لغير الله ورسوله والمؤمنين .

والمعنى أنه لا ولى ولا ناصر ولا معين للمسلمين فى أمورهم كلها إلا الله ورسوله والمؤمنون ــ **والمؤمنون بعضهم أولياء بعض** ــ والولاء لغير الله ورسوله والمؤمنين خروج من الدين كما أوضحنا آنفاً .

وفى هذه الآية وصف للمؤمنين بصفات تجعلهم أهلاً لأن يواليهم إخوانهم المسلمون وهذه الصفات هى :

● أنهم يقيمون الصلاة إقامة كاملة باستحضار النية والإخلاص والخشوع والمحافظة على آداب الصلاة الظاهرة والباطنة ، أى تلك الصلاة التى تنهى عن

الفحشاء والمنكر .

- وأنهم يؤتون الزكاة أن يعطونها لمستحقيها طيبة بها أنفسهم امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى مسهمين بها فى دفع حاجة المحتاجين وتأمين المجتمع كله بهذه الفريضة .
- ومن صفاتهم أنهم راكعون لله أى خاضعون خاشعون مطمئنون إلى الله تعالى فى كل شيء .

هؤلاء الذين يستحقون الولاء .

وأما تحديد مفهوم حزب الله :

فهو فى هذه الآية الكريمة يشمل المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات التى تحدثنا فيها آنفاً ، الذين يتولون الله ورسوله والذين آمنوا .

وحزب الله أى جنده أو أنصاره ، والمعنى الذى نفهمه من الآية الكريمة : ﴿ **فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ هو : أن من يتولى الله بالإيمان به والتوكل عليه ، ويتولى الرسول ﷺ باتباع ما جاء به والالتزام بشريعته ، ويتولى المؤمنين بشد أزرهم ونصرهم والاستنصار بهم ، فإنهم هم الغالبون لأنهم بذلك هم حزب الله – وحزب الله هم الغالبون – : ﴿ **ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾[1] .

---

(١) استدل الشيعة بهذه الآية على ثبوت الإمامة لعلى رضى الله عنه بالنص بناءً على ما رووه من أن هذه الآية نزلت فى على رضى الله عنه وجعلوا « الولى » بمعنى المتصرف فى أمور الأمة فكلمة ﴿ **الذين آمنوا** ﴾ فى الآية عندهم تعنى : عليًّا رضى الله عنه وليس ما ذهبوا إليه صحيحاً لسببين :

الأول : أن الولاية فى الآية بمعنى النصرة ، وليست ولاية التصرف والحكم، حيث لا مناسبة لهذا فى سياق الكلام ، ولا يستساغ أن يعبر عن على رضى الله عنه بالذين آمنوا وهو فرد لا جماعة واللغة لا تجيز مثل ذلك فى هذا السياق .

الثانى : أن القرآن الكريم لو نص على الإمامة لما اختلف الصحابة فيها ، بل كانوا قد احتج بذلك بعضهم على بعض ، ولم يرد لهم فى ذلك أى احتجاج ، وتلك مجادلات لا نحب أن نخوض فيها ، وهى ومثلها هى التى فرقت الأمة الإسلامية وأضعفت شوكتها وقسمتها إلى سنة وشيعة ووسعت الخلافات بينهما حتى أدى الخلاف ببعض الشيعة إلى أن يسبوا الصحابة رضى الله عنهم جميعاً .

ومن المواقف التربوية العامة التى نتعلمها من هذه الآيات ما نذكره فيما يلى :

١ - أن قلوب الناس بين أصبعين من أصابع الرحمٰن ، بحيث يمسى أحد الناس مؤمناً ويصبح كافراً ، أو يمسى كافراً ويصبح مؤمناً ، فالمؤمنون منهم مَنْ قد يرتد عن دينه -- والعياذ بالله من الفتنة فى الدين - فليتق الله كل منهم فى نفسه ، وليسأل الله العفو والعافية فى الدين والدنيا .

وإن مَنْ يرتدَّ فلن يضر الله شيئاً ، ولن يضر الدين فى شيء لأن الله سبحانه غنى عن العالمين ، ولأن دين الإسلام ما لم يؤيد بقوم فسوف يؤيده الله بغيرهم خير منهم ، هم أقرب إلى الله بصالح أعمالهم ، وهم أحب إلى الله إذ يحبونه ويرأفون بالمؤمنين ويشتدون على الكافرين ويجاهدون فى سبيل الله لا يخافون لوم أحد الناس .

إن هذا يعلمنا أن نسأل الله دائماً أن يثبتنا على الحق ، وأن يحيينا على الإسلام وأن يميتنا عليه ، ولا يغترنَّ أحد منا بنفسه وبإيمانه ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ، وقد كان من دعائه ﷺ : « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »[(١)] وأحياناً يَدْعو قائلاً : « يا مثبت القلوب ثبتْ قلوبنا على دينك »[(٢)] .

٢ - ونتعلم من هذه الآيات ألا تهاون مع المرتدين وإنما يخضعون لما ينبغى أن يخضعوا له من أحكام شرعية معروفة تقررت فى زمن رسول الله ﷺ ، وفى عهد أبى بكر الصديق ، حيث كثر المرتدون عن الإسلام .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه** ... ﴾ لم تتضمن أحكام المرتدين ، فإنها أحكام مقررة معروفة أخذ بها المسلمون فى مختلف عصورهم [(٣)] .

وقد جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة ما يلقى الضوء على معاملة أبى بكر الصديق

---

(١) ابن ماجة : سننه : أبواب الدعاء .

(٢) ابن ماجة : سننه : المقدمة .

(٣) يلتمس تفصيل أحكام المرتد فى كتب الفقه الإسلامى وكتب التوحيد .

للمرتدين ما ذكره الإمام ابن جرير فى تفسيره ما يلى : « أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدون من الناس ، فلما قبض الله نبيه محمداً ﷺ ارتد عامة العرب عن الإسلام إلا ثلاثة مساجد ، أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس ، قالوا - أى المرتدون - : نصلى ولا نزكى ، والله لا تُغصب أموالنا ... فكُلِّم أبو بكر فى ذلك فقيل له : إنهم لو فقهوا لهذا أعطوها وزادوها ، فقال : لا والله لا أفرق بين شىء جمع الله بينه ، لو منعوا عقالاً مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه ، فبعث الله عصابة مع أبى بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبى الله ﷺ ، حتى سَبَى وقتل وحرق بالنيران أناساً ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة ، فقاتلهم حتى أقروا بالماعون - وهى الزكاة - صَغَرَةً[1] أقمياء[2] ، فأتته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مُجلية ، فاختاروا الخطة المخزية وكانت أهون عليهم - وهى - أن يستعدوا وأن قتلاهم فى النار وأن المؤمنين فى الجنة ، وأن ما أصابوا من مال ردوه عليهم وما أصاب المسلمون لهم من مال فهو لهم حلال » .

٣ - ونتعلم من هذه الآيات أن الولاء الحق هو ما كان لله ولرسوله وللمؤمنين ، وليس الولاء لأهل الكتاب أو الكفار أو المشركين ، بل ليس الولاء لأى مؤمن غير عامل بمقتضى الإيمان ، وإنما الولاء للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويخضعون لله فى كل أمرهم .

ونتعلم من ذلك أن هذا الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين هو الذى يجعل من هؤلاء وأولئك حزب الله أى جنده الذين يحرسون دينه ، ومن كانوا حزباً لله فإن الله ينصرهم فى كل معركة ، وعلى كل عدو ، ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[3] وقال جل شأنه مؤكداً هزيمة الكفار على أيدى المؤمنين : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[4] وقال فى

---

(١) جمع : صاغر وهو الذليل المكره على ما يفعل .

(٢) جمع : قمىء وهو الحقير القليل الضعيف .

(٣) المجادلة : ٢١ . (٤) آل عمران : ١٢ .

هذه السورة الكريمة : ﴿ **فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ .

إن هذه الآيات الكريمة تحسم المعركة بين المؤمنين وغيرهم لصالح المؤمنين حزب الله ، والله تعالى قوله الحق ووعده الصدق ، ولا يجوز لمؤمن أن يتشكك فى أن النصر للمؤمنين ، ومهما تعددت المعارك بين المؤمنين وأعدائهم ، ومهما كثر أعداء المؤمنين عدداً وازدادوا عدة فإن ذلك لا يغير من وعد الله سبحانه شيئاً ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

٤ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن أعداء الله وأعداء الإسلام سوف يتخذون من دين الإسلام وشعائره مادة للهزؤ واللعب والسخرية فى كل عصر ومصر ، إذ كان شأن أسلافهم من أهل الكتاب ومن الذين أشركوا ، إذ اتخذوا من نداء المسلمين للصلاة – والصلاة أفضل وأزكى ما يقوم به المؤمنون من عمل لاشتمالها على خير الدين والدنيا – هزؤاً ولعباً .

والمحدثون من أعداء الإسلام كالقدامى منهم – حذوك النَّعْل بالنَّعل – فهم اليوم يتندرون بالإيمان بالغيبيات ، ويسمون ما يدعو إليه الإسلام من إيمان وعمل بالظلاميات ، ويرمون الإسلام والمسلمين بالرجعية والجمود حيناً ، وبالتطرف حيناً آخر ، وبمعاداة « الديمقراطية » على كل حال ، وبمعاداة الفن والعلم والتقدم ، ويجدون دائماً أبواقاً إعلامية تردد هذا الباطل وتستهزىء بالدين وتتخذه لعباً .

وهؤلاء المحدثون كأولئك القدامى ما ينبغى أن يكون بينهم وبين المسلمين ولاء ، إذ كيف يكون الولاء بين مقبل على الله يرجو رحمته ويخشى عذابه ، وبين من يرى الإسلام غيبيات وظلاميات ورجعية وجمود ؟

حقاً إن من يتولاهم فإنه منهم !!!

ومن العجب العاجب أنه كلما نفق واحد من هؤلاء المستهزئين بالدين فيما يكتبون وفيما يقولون ويعملون انطلقت أجهزة الإعلام تتحدث عنه وتجعل منه بطلاً مناصراً لحرية الرأى ، كأن حرية الرأى هى التهجم على دين الحق دين

الله !!!

ولابد أن يكون لهذا الباطل آخِرٌ يفرح فيه المؤمنون بنصر الله إذ تكون فيه العاقبة للمؤمنين .

وأقول : « حذوك النعل بالنعل » لأن قدامى أعداء الإسلام قد سخروا من النداء للصلاة ، ومحدثيهم يعترضون على النداء للصلاة ويرون فيه إزعاجاً للنائمين وضوضاء تقض مضاجع من سهروا إلى قبيل الفجر يفجرون بما شاءت لهم شهواتهم من خمر وميسر ومنكرات لا يحصيها العَدّ ، فكيف ينادى على هؤلاء للصلاة وكيف يسمعون الصلاة خير من النوم ، وكيف يوقظهم هذا النداء فى مجتمعات يتباهى فيها الناس بأنهم أهل تنوير لا يعملون شيئاً من أعمال الغيبيات والظلاميات ؟ ولا يعبدون غير شهواتهم وشياطينهم .

لقد قرأت اعتراضات عديدة كتبها بعض من يسمون فى بلادنا مفكرين وكتاباً يبدون سخطهم على سماع صوت المؤذن فى مكبرات الصوت ، ويستعدون السلطة – وهى لا ينقصها أن تستعدى على المسلمين – على تلك المساجد والقائمين عليها ، حتى إن كثيراً من المسئولين فى مراكز الشرطة وأقسامها يستدعون المؤذنين ويهددونهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، التى من أهونها حبسهم فى المراكز دون أن يقدموا للنيابة العامة أياماً عديدة والتى منها الإهانة والضرب والتعذيب فى واحات « الديمقراطية » فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، ومنها تلفيق التهم التى أيسرها أنه إرهابى يدعو إلى الفتنة الطائفية ويحارب السياحة والسائحين والسائحات ، وقد يضرب فى قسم الشرطة حتى الموت ، كما تنشر بعض الصحف وكما تنبه إلى ذلك مراراً منظمة حقوق الإنسان !!!

إن هذه الآيات توضح لنا أن ديننا قد يستهزأ به وبندائه للصلاة من أهل الكتاب ومن المشركين ومن بعض المسلمين !!! فكيف يكون الولاء مع هؤلاء ؟

● ومن المواقف التربوية التى نتعلمها من الآيات الكريمة فى مجالى الدعوة والحركة

ما نذكره فيما يلى :

١ - أن الذين ينصرون الله ورسوله ويحملون إلى الناس دعوة الله ويعملون من أجل هذا الدين هم الذين اصطفاهم الله وجاء بهم بعد أن أدبر الناس عن نصرة الله ودينه ، وأن هؤلاء المصطفين يجب أن يتصفوا بتلك الصفات الستة التى تحدثنا عنها آنفاً وهى فى إجمال .

- أن يحبهم الله ، وهو سبحانه لا يحب إلا أولياءه المحسنين .
- وأن يحبوا الله ومن أحب الله استجاب لما يدعوه إليه .
- وأن يكونوا أهل شفقة ورحمة على المؤمنين .
- وأن يكونوا أهل خشونة وشدة على الكافرين .
- وأن يجاهدوا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا .
- وألا يخافوا فى دعوتهم إلى الله وجهادهم فى سبيله لومة لائم .

وأن يدركوا أن اجتماع هذه الصفات فيهم هو الذى يجعلهم أهلاً للنصر فى معركة الحق والباطل .

وأن يوقنوا أنه كلما تأخر النصر كان السبب المباشر هو أنهم لم يتصفوا بهذه الصفات .

وأن يعلموا أن مَنْ اصطفاه الله لهذه المهمة فقد تفضل عليه والله واسع عليم ، فلينظر أيقبل تفضل الله عليه فيتصف بهذه الصفات أم يأبى ذلك ويختار لنفسه الحرمان من نعم الله ومن أن يكون ولياً له سبحانه وتعالى ؟ .

٢ - وأن المتصدين للدعوة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية عليهم أن يعلموا أن أبرز ما يميزهم عن غيرهم من الناس أنهم يجاهدون فى سبيل الله بكل ما استطاعوا وأنهم لا يخافون فى ذلك لومة لائم ، كما وصفتهم هذه الآية الكريمة وكما جاء ذلك فى السنة النبوية فى وصف المؤمنين .

ونذكر فى هذا المجال الأحاديث النبوية التالية :

- روى النسائى فى سننه بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا

رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى اليسر والعسر والمنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقوم بالحق حيث كنا ، لا نخاف لومة لائم »

● وروى الإمام أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ولا ننازع الأمر أهله ، نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم »

● وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « أمرنى خليلى ﷺ بسبع :

— أمرنى بحب المساكين والدنو منهم .
— وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوق .
— وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت .
— وأمرنى ألا أسأل أحداً شيئا .
— وأمرنى أن أقول بالحق ولو كان مرًّا .
— وأمرنى ألا أخاف فى الله لومة لائم .
— وأمرنى أن أكثر من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله .

فإنهن من كنز ما تحت العرش »

● وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكّر بعظيم » .

تلك صفات المؤمنين أولياء الله ونصرائه الجديرين بأن يجرى الله على أيديهم النصر والتمكين لدينه .

٣ - وأن يتعلم الدعاة والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية أن المؤمنين الذين يستحقون الوصف بأنهم مؤمنون هم الذين يؤدون الأعمال الأساسية التالية :

● يقيمون الصلاة وهى أهم وأكبر أركان الدين الإسلامى بعد توحيد الله إلهاً

وربا ، وهى عبادة لله وحده لا شريك له ووقوف بين يديه بعد طرح كل أمور الدنيا وراء الظهر للإقبال على الله وإيثار ما عنده سبحانه .

- ويؤتون الزكاة - وهى حق الناس فى المال الذى هو من نعم الله على الناس ... لدفع حاجة المحتاجين من الفقراء والمساكين والأرقاء والمدينين ومن انقطعت بهم السبل ، والإنفاق العام فى سبيل الله .
- وهم راكعون أى خاضعون لأمر الله ، طيبة نفوسهم بكل ما يقومون به من أعمال ، مما أمر الله به أو ندب إليه ، وبكل ما ينتهون عنه من أمور نهى الله عنها ، دون رياء أو خوف ظالم أو طمع فى جاه أو مال ، لأنهم مطمئنون لما عند الله ، غير منخدعين بما عند الناس من أعراض الدنيا .

وأن هؤلاء المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات هم الذين يواليهم المؤمنون دون سواهم من الناس .

٤ - وأن الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية عندما يوالون الله ورسوله والمؤمنين الموصوفين بهذه الصفات هم مع من والوهم الذين يشكلون حزب الله تعالى أى نصراءه وأولياءه ، وأنهم إذا كانوا حزباً لله فهم الغالبون بفضل الله وعونه وتأييده .

وحزب الله لا يستحق أهله هذه التسميه إلا إذا كانوا ملتزمين بكل ما أمر الله به منتهين عن كل ما نهى عنه ، يقصدون بذلك كله وجه الله .

وأن لهذا الحزب وأهله عند الله عدة لا تتخلف أبداً وهى :

- أن يجعلهم خلفاءه فى الأرض أى يعطيهم الملك وقهر أعدائهم والغلبة عليهم ، بمعنى إقدارهم على إعمار الأرض واصلاحها وتحقيق العدل والأمانة والطمأنينة فيها ، وتحقيق منهج الله فى الناس وفى الحياة .
- وأن يمكن لهم دينهم تمكيناً يشمل تمكينه فى قلوبهم إيماناً به وعملاً وقدرة على تصريف الحياة ، وأن يجعل هذا الدين مهيمناً على كل الأديان والنظم ، لأن دين الله الذى اختاره ليختم به قافلة الأديان وقافلة النبيين ، ولأنه دين العدل

والإحسان الذى ارتضاه الله سبحانه للبشرية كلها ديناً .

— وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، والمؤمنون فى كل عصر لهم أعداؤهم وأعداء دينهم مما يجعلهم فى خوف وتوجس فلا يضعون سلاحهم ولا تقل عندهم درجة الاستعداد لخوض الحرب – كما كان شأن المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ – وكما سوف يكون حال المؤمنين فى كل عصر .

قال الله تعالى يمتن على عباده المؤمنين بنعمه عليهم : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1] .

قال المفسرون فى تفسير هذه الآية : قال أبو العالية : كان النبى ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده بلا شريك له سرًّا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا به بعد الهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلاً من الصحابة قال : يارسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم ليست فيه حديدة » وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح .

ثم إن الله قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان ، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فأدخل الله عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط ، وغيروا فغير بهم ... »[2] .

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن مرجع سابق .

٥ - وأن على الدعاة إلى الله والعاملين فى الحركة الإسلامية أن ينظروا إلى الذين يستهزئون بالدين أو بشيء من شعائره على أنهم ضالون غافلون ، ولن يستطيعوا أن يضروا دين الله بشيءلأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

إن هؤلاء المستهزئين قد يستطيعون أن يضروا بعض الدعاة إلى الله أو بعض العاملين فى الحركة الإسلامية ولكنهم لن يضروهم إلا بشيء قد كتبه الله عليهم .

وأن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية ألا يمنعهم ذلك من مواصلة الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله والله سبحانه وتعالى ناصرهم ومؤيدهم ، وهم ما داموا حزب الله فإن حزب الله هم الغالبون .

* * *

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

في هذه الآيات الكريمة يطلب الله تبارك وتعالى من نبيه محمد ﷺ أن يقول لهم مقالة مستفهم منكر عليهم ما هم فيه من ضلال وعناد ، فى موقفين من مواقفهم ، الأول منهما هو : ياأهل الكتاب هل لكم علينا نقمة إلا أننا نؤمن بالله ؟ وهذا ليس بمطعن ، إنما نقمتكم علينا فى الحقيقة هى أننا آمنا ، ﴿ وأن أكثركم فاسقون ﴾

والأمر الثانى هو : سؤالهم إن كان يسرهم أن يخبرهم بما هو أسوأ لهم من نقمتهم

على المؤمنين إيمانهم ، وهو أنهم عند الله بشر مكان وبأسوأ جزاء يوم القيامة ، حيث لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت .

ثم تحذر الآيات الكريمة خاتم الأنبياء من نفاق أهل الكتاب حيث يدخلون على النبى ﷺ وكفرهم صاحبهم مهما كانت أقوالهم ، ويخرجون من عنده وكفرهم معهم .

وينبه سبحانه وتعالى بأن أهل الكتاب بأعمالهم هذه إنما يسارعون فى الإثم والعدوان وأكل السُّحْت[1] .

ثم تسرد الآيات الكريمة على الرسول ﷺ شيئاً من مقالات اليهود الضالة ، كقولهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ وقد أجاب الله سبحانه عليهم بقوله دعاءً عليهم : ﴿ **غُلَّتْ أيديهم** ﴾ وبقوله : ﴿ **لعنوا بما قالوا** ﴾ ثم رد عليهم مقالتهم الخبيثة بقوله سبحانه : ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ .

ثم أخبر الله نبيه ﷺ بعنادهم وكفرهم وحقدهم بحيث كلما نزل عليه شيء من القرآن زادهم ذلك طغياناً وكفراً ، وعداء له وللمسلمين .

ويطمئن الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن كفر أهل الكتاب وكيدهم لن يضر الإسلام والمسلمين ، بل إن الله تبارك وتعالى سوف يتعقبهم فيبطل كيدهم ويلقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، لأنهم يسعون فى الأرض فسادا والله لايحب المفسدين .

وتوضح الآيات الكريمة أن عقاب الله لأهل الكتاب فى الدنيا والآخرة إنما كان بسبب كفرهم وعنادهم وخروجهم عن الحق الذى جاءت به رسل الله عليهم السلام ، فلو أنهم آمنوا واتقوا لقبل الله منهم إيمانهم ، وكفر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة يوم القيامة ، ولوسع عليهم رزقهم فى الدنيا ، ولكن كان قليل منهم مؤمنين وكان أكثرهم ساء ما يعملون من تكذيب الرسل عليهم السلام وتحريف الكتب وأكل السحت .

● وفى الآيات الكريمة أمر واستفهام وخبر وتقرير ، وردّ على قالة سوء ، ووعد

---

(١) السحت هو الدنىء والحرام من الأموال والأعمال .

وتهديد ، ووعد لمن آمن من أهل الكتاب واتقى الله وأقام التوراة والإنجيل والقرآن .

ونستعين الله فى بيان ذلك بما يلى : .

أما الأمر :

ففى مجالين :

الأول : أمره سبحانه لنبيه أن ينكر على أهل الكتاب نقمتهم عليه ، وعلى المؤمنين بسبب إيمانهم بالقرآن الكريم وبالكتب التى أنزلها الله تعالى قبل القرآن ، وما ينبغى أن يكون ذلك سبباً للنقمة .

فالنبى ﷺ أمر بأن ينقل لأهل الكتاب احتجاجه على موقفهم ذاك بهذا الاستفهام الإنكارى ، ولم تستغرب هذه النقمة من أهل الكتاب على المؤمنين لأن أهل الكتاب أكثرهم فاسقون خارجون عن دين الله .

روى الإمام ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء نفر من اليهود – فيهم أبو ياسر بن أخطب ، ورافع بن أبى رافع ، وإزار بن أبى إزار ، وغيرهم ، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام ، فقال : نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم – لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : لا نؤمن بمن آمن به ، والله ما نعلم أهل دين أقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم – فنزلت هذه الآية وما بعدها » .

والمعنى أن هذه الآية تتناول هؤلاء بالذات ، وتعم كل ناقم على الإسلام والمسلمين .

والثانى : أمره سبحانه لنبيه ﷺ بأن يقول لهم مستفهماً مبكتاً لهم منكراً عليهم رداً على اتهامهم للإسلام بقولهم : لا نعلم ديناً شراً من دينكم ،

أى قل لهم : هل أخبركم بما هو شر عليكم أكثر من نقمتكم علينا إيماننا ؟ إنه عملكم السيء الذى أدى إلى لعن الله لكم وغضبه عليكم وجعله منكم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . إن ذلك يذكرهم بما كان لهم من مواقف مخزية مع أنبيائهم استوجبت أشد العقاب وهو اللعن والغضب والمسخ – الصورى أو المعنوى – وعبادة الطاغوت أولئك الذين حدث فيهم هذا هم شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل[1] .

وأما الخبر :

فقد تضمن أموراً عديدة منها :

— إخبار الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بحقيقة اليهود وأنهم منافقون ، وأنهم فى حال بعدهم عنه وعن المؤمنين ينالون منه ومنهم ويسبونهم ، فإذا جاءوا إلى الرسول والمؤمنين قالوا آمنا بما أنزل على محمد ﷺ ، والحق أنهم دخلوا عليه كافرين وخرجوا من عنده كافرين ، فهم مخادعون منافقون يعلم الله حقيقة مشاعرهم وما يكتمون ، فقد كان سبب دخولهم على النبى هو تسقط الأخبار والبحث عن العورات .

— وإخبار الله سبحانه نبيه والمؤمنين وكل سامع أن هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الحق هزواً ولعباً يسارعون فيما هم فيه من قول الإثم وعمله ، ويسارعون فى العدوان والظلم وتجاوز الحدود والحقوق ، وأكل السحت ، وكان ذلك كله نتيجة لاستغراقهم فى المعاصى وتحديهم لأنبياء الله مما أفسد أخلاقهم وأفسد الأمة التى يعيشون فيها ، حيث تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلم يقم به أحد منهم حتى علماؤهم فعمهم وعم أمتهم الفساد .

— وإخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ أن صلاح أمر اليهود كان فى استجابتهم لما ينهاهم عنه الربانيون منهم والأحبار ، حيث كانوا ينهونهم عن قولهم الإثم

---

(١) أولى الأراء بالقبول فى ذلك هى : أنه جعلهم كالقردة فى نزواتها وكالخنازير فى اتباع شهواتها .

وأكلهم السحت وترك سائر الأعمال السيئة ، وهذا توبيخ لهم وتبكيت لأنهم لم ينتهوا عن ذلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ما فى القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية » .

والآية الكريمة : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ تظل أبداً حجة على العلماء المقصرين فى هداية الناس وإرشادهم فى أى أمة من اليهود وغيرهم ، كما تظل توبيخاً صارخاً لمن دُعوا إلى الحق وإلى ما يحييهم فلم يستجيبوا .

وهذه الآية ختمت بقوله تعالى : ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ والآية التى سبقتها مباشرة ختمت بقوله سبحانه : ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ .

فما الفرق بين : « يعملون » و : « يصنعون » ؟

- قال بعض علماء اللغة : الصنع أخص من العمل ، فهو ما صار ملكة منه ، والعمل أخص من الفعل لأنه فعل بقصد .
- وقال الراغب الأصفهانى فى كتابه : مفردات غريب القرآن : الصنع إجادة الفعل ، فكل صنع فعل ، وليس كل فعل صنعاً ، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب الفعل »[1] .
- وقال الزمخشرى فى الكشاف : « كأنهم جعلوا آثَمَ من مرتكبى المناكير ، لأن كل عامل لا يسمى صانعاً ، ولا كل عمل صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه ، وكان المعنى فى ذلك أن مُواقع المعصية معه الشهوة التى تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذى ينهاه فلا شهوة معه فى فعل غيره ، فإذا فرط فى الإنكار كان أشد حالاً من المواقع ، ولعمرى إن هذه الآية مما يُقذُّ السامع وينعى على العلماء توانيهم »[2] .

---

(١) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن مفردة « صنع » .
(٢) جار الله الزمخشرى : تفسيره : الكشاف : ١ / ٤٧٠ - ٤٧١ ط الحلبى القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

وأما التقرير :

ففي مواقف عديدة نذكر منها ما يلي :

— قوله تعالى : ﴿ **أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل** ﴾ فهذه الآية الكريمة تقرر أن الذين لعنهم الله من اليهود هم شرٌّ مكاناً فى الآخرة من مكانكم – أيها المسلمون – فى الدنيا لما لحقكم من اليهود من شر .

— وقوله تعالى : ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ تقرير لقبح العمل الذى كانوا يمارسون حتى استغرقوا فى المعاصى المفسدة لهم ولسواهم من أمتهم التى يعيشون فيها ، حيث تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

— وقوله عز وجل : ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ تقرير لسوء صنعهم ، سواء منهم الربانيون والأحبار الذين تركوا أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وعامة اليهود الذين لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ، ولم يكفوا عن أكل السحت .

وأما الرَّدُّ على قالة اليهود ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ :

فقد جاء بأبلغ صورة وأجلى بيان ، وذلك أن اليهود قد قالوا فى حق الله تعالى قولاً كبيراً آثماً ، حيث قالت جماعة منهم كما روى ذلك مجاهد : لقد يجهدنا الله يا بنى إسرائيل حتى جعل يده إلى نحره ، أو حتى إن يده إلى نحره ، ومرادهم أنه ضيق عليهم الرزق .

وقال عكرمة : إن القائل هو فنحاص بن عازوراء وأصحابه ، وكان لهم أموال ، فلما كفروا بمحمد ﷺ قال : مالهم ؟ فقالوا : إن الله بخيل ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء ، ولما قال قوم منهم ذلك ولم ينكر الباقون صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا .

وقيل إنهم لما رأوا النبى ﷺ كان يستعين بهم فى الديات قالوا : إنّ إله محمد فقير ، وربما قالوا بخيل ، وقد جاء فى آية آل عمران : ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ**

ٱلْحَرِيقِ ﴾[1] .

وقيل إنهم لما سمعوا قول الله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾[2] قالوا : من احتاج إلى القرض كان فقيراً عاجزاً مغلول اليدين .

وقد جاء الردّ على كل ذلك من رب العزة سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا** ﴾ قال ابن كثير : وهكذا وقع لهم فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم .

والآية الكريمة دعاء على اليهود بما يناسب جرمهم هذا ، وتحديد لجزائهم على ذلك بالطرد والإبعاد من رحمة الله وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين .

ومعنى غُلتْ أيديهم : أى أُمسكت أيديهم وانقبضت عن العطاء والإنفاق فى سبيل البر والخير ، وهو دعاء عليهم بالبخل ، وهم كانوا وما يزالون أبخل الأمم ، فلا ينفق أحد منهم شيئاً للبر أو الخير ، وإنما ينفق إذا أنفق فى مقابل مادى .

ومن ردّ الله تعالى عليهم فى قالتهم تلك قوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ أى ليس زعمكم صحيحاً ، وإنما الله واسع الفضل جزيل العطاء ، ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وكل النعم التى لا تحصى لخلقه منه وحده لا شريك له ، وقد روى الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن يمين الله مَلأى لا يغيضها نفقة ، سحَّاءُ الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء وبيده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض » .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى قال لى أنفق أنفق عليك » .

وقوله تعالى : ﴿ **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** ﴾ يوضح أن تقتير الرازق

(١) آل عمران : ١٨١ . (٢) الحديد : ١١ .

سبحانه على بعض العباد يجرى وفق حكمة وسنة له سبحانه فى إجتماع الناس وإحتياج بعضهم لبعض ، وهذا لا ينافى سعة الجود وسريانه فى كل الوجود ، فله سبحانه الإرادة والمشيئة فى تفضيل بعض الناس على بعض فى الرزق بحسب السنن التى أقام بها نظام الخلق .

— وفى الآيات تعليم للنبى ﷺ وللمسلمين فى كل زمان ومكان أن ما أعطى الله لنبيه محمد ﷺ من النعم التى أجلها القرآن الكريم ، قد يكون نقمة فى نظر أعدائه من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد المؤمنون بما أنزل الله من القرآن إيماناً وتصديقاً وعملاً صالحاً ، وعلماً نافعاً ، يزداد به اليهود وغيرهم الحاسدون لك ولأمتك طغياناً وتجاوزاً للحق وتكذيباً له ﴿ **وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً** ﴾ وهذه الآية تحمل معنى آخر يمكن أن نستلهمه منها وهو أن هذا القرآن الذى أنزلنا عليك يا محمد وكشفنا لك فيه أمر اليهود فى ماضيهم مع أنبيائهم وشئون كتبهم وحقائق تاريخهم هو من أقوى البراهين على نبوتك ، فكان ينبغى أن يحملهم ذلك على الإيمان بك ، لأنك لولا هذا الوحى ما علمت من أمر ذلك شيئاً ، ولكنهم على الرغم من ذلك كفروا بك وكذبوك حسداً من عند أنفسهم ، مع أنهم يجدون ذلك مكتوباً عندهم .

وأما الوعيد والتهديد :

فهو لليهود أولاً ولأهل الكتاب عموماً ، وهو بأن يلقى الله سبحانه وتعالى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ويكيد لهم فيفسد مادبروه ضد الإسلام والمسلمين فى زمن النبى ﷺ وما يدبرونه ضد المسلمين فى أى زمان لأنهم أهل فساد وإفساد فى الأرض والله سبحانه لا يحب المفسدين : ﴿ **وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين** ﴾ وأكثر المفسرين لهذه الآية الكريمة يرون أن المقصودين بمن ألقيت بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة هم اليهود والنصارى - أى أهل الكتاب - لأن سياق الحديث عنهم : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ...** ﴾ .

ويرى بعض المفسرين أن العداوة والبغضاء ألقيت بين اليهود وحدهم ، فهى عداوة

الفرق عندهم أو عداوة الأفراد بعضهم لبعض ، وهذا وذاك كائن بينهم وإن حاولوا إخفاءه .

أو تكون العداوة بين الطوائف والبغضاء بين الأفراد .

وكذلك النصارى كانت العداوة بينهم وما تزال على مستوى الطوائف والفرق ، ثم هى الآن على مستوى الدول ، فكم من حروب شنها بعضهم على بعض .

وقد هدّدَ الله سبحانه أهل الكتاب عموماً ، أو هدد اليهود على وجه الخصوص بأنهم كلما أوقدوا ناراً لحرب الإسلام والمسلمين أطفأها الله وخيب مسعاهم دفاعاً عن المؤمنين ، فإن الله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا .

والحرب التى يوقدون نارها أعم من القتال ، إذ القتال مواجهة بآلة الحرب ، ولكن الحرب يدخل فيها كل تدبير سابق على القتال يستهدف الإخلال بالأمن والسلام ، كإثارة الفتن بين المسلمين أنفسهم ، وإضعافهم معنوياً واقتصادياً وسياسياً ، كما هو مشاهد اليوم مما نذكر طرفاً منه .

إن من المقطوع به لدى كل من يشهد الأحداث فى هذا القرن الذى نعيش فيه أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يقاتلون المسلمين فى ميدان أو أكثر ، ولكنهم يحاربونهم فى جميع الميادين وللحرب عندهم قائمة تتناول مفردات وأساليب عديدة ، نذكر منها – ولا نحصيها – ما يلى :

١ – تدبير المؤامرات على الإسلام والمسلمين .

٢ – وتشجيع الانقلابات العسكرية فى كثير من أقطار العالم الإسلامى أو العمل على إحداثها .

٣ – وتأييد أعداء الإسلام والمسلمين ونصرهم وشد أزرهم .

٤ – والعمل على تشويه الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية واصطناع دعاة لهذا الفكر المشوه المعادى للإسلام ، وتسميته بغير اسمه بإطلاق ألقاب خادعة عليه كالتحرر والتنوير والتقدم ومواكبة العصر والحداثة وغيرها مما ينطلى على كثير من الغافلين .

٥ – وتشويه التعليم مناهجه وبرامجه ومعلميه فى معظم بلدان العالم الإسلامى ، والسيطرة عليه وعلى مؤسساته واصطناع دعاة يروجون هذا الباطل ويسمونه بغير أسمائه كالتطوير وغيره من الأسماء .

٦ – والسيطرة على وسائل الإعلام ومؤسساته ورجاله ، واصطناع دعاة لكل ما هو عربى من المادة الإعلامية ، مع الإزراء والإهمال والإخمال لكل ما هو إسلامى منها .

٧ – والعمل على إفساد كثير من الحكومات وأجهزة الحكم ، بتشجيع الرشاوى وتسميتها بغير اسمها ، وتشجيع الاختلاس من الأموال العامة وغيرها من الجرائم ، وتقديم عنصر ثقة الحاكم فيمن يعاونه من أفراد الحكومة على عنصر الأمانة والكفاءة .

٨ – وضرب الاقتصاد فى كثير من أقطار العالم الإسلامى بحيث لا يستطيع قطر من أقطاره أن يعتمد على نفسه فى الاحتياجات الأولية حتى يظل محتاجاً وتابعاً لهؤلاء الشياطين – وما قصة القمح والقطن والبترول وقصب السكر ببعيدة عن الأذهان ولا هى بمستعصية على التحليل .

٩ – وزعزعة الأمن فى كثير من بلدان العالم الإسلامى بحبك المؤامرات والدسائس وإغراء الغافلين بالإرهاب والعنف ، وإثارة الفتن والنعرات الطائفية ، والأدلة على ذلك أوضح من أن تحتاج إلى شرح وأكثر من أن تحتاج إلى شاهد أو شاهدين أو ثلاثة ، إن ما حدث ويحدث فى لبنان ومصر وتونس والجزائر وسوريا والعراق والكويت وإيران وأفغانستان وباكستان وأندونيسيا وغيرها من أقوى الشواهد والبراهين .

١٠– والعمل على إضعاف دول العالم الإسلامى عسكرياً ، واحتكار السلاح وآلة الحرب ، والمَنّ بها على بعض الدول المسلمة التى تشتريها بأبهظ الأثمان لتضرب بها دولة مسلمة أخرى ، أو تشتريها مع فرض شروط فى استعمالها ، وفرض خبراء لها ، بحيث لا تعمل إلا بتوجيههم وأوامرهم .

١١– وإغراء كثير من حكومات العالم الإسلامى بضرب الحركات الإسلامية

الإصلاحية ، وتشويهها إعلامياً ، وحرب دعاتها بل التضييق عليهم حتى الموت والإبادة والطرد ، فضلاً عما يسبق ذلك من تعنت وتعذيب ومحاكمات ظالمة لا تعطى حق الدفاع عن النفس ، وتحاكم من درجة واحدة ، وتصادر الأموال وتنتهك الأعراض ، وتصادر كل أنواع الحرية ، بينما تعطى لليساريين والملاحدة والفسقة والخارجين على قواعد الأخلاق القويمة بل الخارجين على القوانين كل أنواع الحرية ، وتصدرهم فى تولى المسئوليات التشريعية والتنفيذية وتمكنهم من كل وسائل الإعلام ومؤسساته .

١٢- واتهام الإسلاميين جميعاً - دون تمييز - بالتشدد والتطرف فضلاً عن ضيق الأفق والتعصب ، وتوظيف وسائل الإعلام ومؤسساته لتعميم تلك التهم على كل متمسك بدينه ، واستغلال ضعاف الكتاب وضعاف الرسامين - وما أكثرهم ، فى دول الظلم - لتشويه كل ما هو إسلامى وكل من هو متمسك بدينه ، بقصد إزاحتهم من طريق العمل ، وإخلائها للمنافقين والمنتفعين .

ولقد بدا لى أن أذكر بعض هذه الشواهد من حرب اليهود والنصارى للمسلمين فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، فأسوق لذلك ما يلى فى اختصار شديد :

أولاً :

كيف أسقطت دولة الخلافة الإسلامية فى تركيا ؟

ولماذا ؟ وهل وضحت أصابع اليهود والنصارى فى العمل على إسقاطها ؟

ولماذا آل أمر الخلافة العثمانية إلى ما آل إليه من الضعف الاقتصادى والعسكرى وغرقت فى الديون ؟

ولماذا كان البديل نظاماً جمهورياً يجلس على رأسه مصطفى كمال مشئوم تركيا ، وصنيعة أعداء الإسلام ، وابن اليهودية ؟ وهل لليهود علاقة بذلك ؟ وهل المستفيد من ذلك هم اليهود الذين حصلوا على فلسطين والنصارى الذين تقاسموا ولايات دولة الخلافة فأصبحت نهباً لفرنسا وانجلترا وإيطاليا وغيرها ؟

إن ذلك هو حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين

ثانياً :

لماذا مُزّق العالم الإسلامى هذا التمزيق فأصبح اليوم أكثر من خمسين دولة – والأصل فيه أن يكون دولة واحدة – ؟ ومن المستفيد من هذه التجزئه ؟ أهم اليهود والنصارى أم سواهم ؟ ولماذا كان هذا التمزيق أو التجزىء لصالح أهل الكتاب اقتصادياً وسياسياً وثقافياً ، بل ولغوياً ؟

ولماذا كان هذا التجزىء تفتيتاً إلى أصغر الأجزاء ؟ لماذا قسم الشام إلى سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ؟ ولماذا قسمت دول الخليج إلى أكثر من سبع دويلات ؟ ولماذا قسمت مصر والسودان إلى بلدين ؟ ولماذا قسمت باكستان إلى شرقية وغربية بينهما الهند ؟ أليس ذلك كان تمهيداً لكى تنفصل « بانجلادش عن باكستان » ؟

ولماذا ولماذا مما يصعب حصره ؟ ومن المستفيد من هذا التفتيت ؟

ثالثاً :

ولماذا مُزّق العالم العربى الذى يتحدث لغة واحدة هى لغة القرآن ، فأصبح أكثر من عشرين دولة أو دويلة ؟ ولماذا يتعادى كثير من دول هذا العالم العربى ؟ ولماذا تفتك الطائفية بلبنان والسودان ؟ ولماذا تفتك العرقية بالعراق والمغرب ؟ ولماذا تفتك العصبية بالسودان والصومال واليمن والسعودية والمغرب وغيرها ؟ ولماذا تخيم البداوة على كثير من بلدان العالم العربى ؟

وهل جمعت الجامعة العربية بين العرب ؟ ومن صاحب فكرة إنشاء الجامعة العربية ؟ وهل هى بديل عن وحدة أو جامعة إسلامية وما هذا التفتيت الذى حدث لها بمجلس دول الخليج ومجلس التعاون العربى واتحاد المغارب العربية ؟

ولمصلحة من هذا وذاك ؟

رابعاً :

ولماذا كان التبكير فى ضرب الحركات الإسلامية الإصلاحية من أيام العمل على إسقاط دولة الخلافة العثمانية وإلى اليوم[1] مروراً بحركة جمال الدين الأفغانى ومحمد

---

(١) لتفصيل ذلك انظر لنا : التراجع الحضارى للعالم الإسلامى اليوم ، وطرق التغلب عليه – نشر دار الوفاء بمصر ١٩٩٣

عبده ، وحركة النورسى فى تركيا وحركة الجماعة الإسلامية بباكستان وحركة الإخوان المسلمين -- كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة – فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى ؟

ولماذا شوهت شخصيات المصلحين المسلمين وبخاصة رواد الحركة الإسلامية كجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعيد النورسى وأبى الأعلى المودودى وحسن البنا وسيد قطب وغيرهم ؟

ولمصلحة من هذا كله ؟ ألمصلحة أحد قبل اليهود والنصارى ، أو بلغة السياسة قبل الصهاينة والصليبيين ؟

خامساً :

لماذا شوهت سياسة التعليم فى العالم الإسلامى ، وبدلت مناهجه وأسيء إعداد معلميه والقائمين عليه ، فحيل بين التعليم وبين أن يربى مسلماً يعرف دينه ولغة دينه ؟

ولماذا تصدر توجيه التعليم رجال غربيو الفكر والهوى ، ثم خلف من بعدهم خلف ملحدون يساريون يتخذون من لينين وأسلافه وأخلافه أنموذجاً وقدوة ، ويفسدون التعليم فى عالمنا العربى بحيث يصبح المتعلم عدواً للدين والخلق القويم ؟

ولماذا يتشبث هؤلاء اليساريون بأفكارهم حتى بعد أن سقطت آلهتهم وانهارت نظرياتهم وأفكارهم بشكل ما سمعنا عن مثيل له فى الخزى والعار وسرعة الانتكاس !!!

ولماذا يظل الإعلام فى أيديهم حتى بعد انهيار نظرياتهم ؟ ولمصلحة من تصدر هؤلاء الملحدين اليساريين الذين لا يستحون ؟

سادساً :

ولماذا امتلأت بلدان العالم الإسلامى بالإرساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية المتمتعة بكافة المزايا والتسهيلات فى حين ضيق على المدارس القومية وألجئت إلى أسوأ الظروف مالياً وفنياً وبشرياً ، حتى صار الهروب من التعليم فيها غنيمة يسعى إليها ؟

أليس ذلك فى صالح مدارس التبشير ومدارس الإرساليات والمدارس الأجنبية عموماً ؟

وماذا ينتظر المتخرج فى مدرسة قومية أو أخرى أجنبية من منصب وجاه ومال ؟ إنه عطاء للمستعمرين وحرمان للوطنيين ؟

أليس ذلك فى صالح الصهاينة والصليبيين ؟

سابعاً :

كيف مكنت إسرائيل من إقامة دولة فى أرض فلسطين ؟ من الذى عاونها على ذلك ومدها بالمال والسلاح وخبراء الحرب والتجسس ؟ ومن الذى يدعم توسعها فى الأرض العربية كلما أرادت ذلك ؟

ومن الذى أعطى إسرائيل قدرة على تحدى قرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة ورفضها تنفيذها ؟ ومن الذين يستعملون حق « الفيتو » النقض لصالح إسرائيل على الدوام ؟

ومن الذين يضمنون حماية إسرائيل وتفوقها العسكرى على مجموع الدول العربية كلها ؟

ومن الذين يشجعون إسرائيل على أن تفعل بالعرب كما تشاء متجاهلة كل عرف دولى وضمير إنسانى وكل حق من حقوق الإنسان ، مستبيحة كل حرمة من حرمات الإنسان ؟

ثامناً :

لماذا حورب الأزهر تلك الحرب الضروس وضيق عليه فى الإنفاق ، وجعل بينه وبين أداء وظائفه الأساسية وهى نشر دين الإسلام وحماية لغة القرآن ، ودراسة أصول الدين وعلوم الشريعة ؟ أهم اليهود والنصارى أم أتباع اليهود والنصارى من المسلمين ومن بعض حكام المسلمين ؟

لقد جاء على الأزهر حين من الزمان كان فيه يقود حركة العلم وحركة الجهاد ومقاومة أعداء الإسلام ، ثم أصابه الظلوم الجهول مشئوم مصر وطاغيتها ومدمر القيم الفاضلة فيها ومذل الإنسان ومحطم كرامته وكبريائه بسجونه الحربية ومعتقلاته وجلاديه — جمال عبد الناصر — فى مقتل عندما استولى على أوقافه التى وقفها أصحابها على العلم

وطلابه لينفق منها على الدسائس والمؤامرات ويعطى من يصفقون له وينافقونه ، لقد أصاب هذا الطاغية الأزهر فى مقتل إذ سلبه مكانته وحرمه هيبته وشنت صحفه المنافقة حملة ضارية على الأزهر شيوخه ومناهجه[1] .

ولماذا صدر قانون تطوير الأزهر ؟ ومن الذين كانوا وراء إصدار هذا القانون ؟ وهل كان ذلك التطوير لصالح علوم أصول الدين والشريعة الإسلامية ولغة القرآن ؟

لقد كان الأزهر - على عهد مشئوم مصر والعالمين العربى والإسلامى - « جمال عبد الناصر » من المهانة على الدولة ورجال الانقلاب العسكرى الغاشم الباطش بحيث كان شيخه يعزله أو يعينه ضابط برتبة صغيرة لا يفقه ولا يعى ولا يملك من القدرة شيء إلا أنه من هؤلاء الذين مكنوا من القيام بانقلاب عسكرى مشئوم !!!

تاسعاً :

ولمصلحة من بطش الغاشم الظلوم الجهول بالحريات فى مصر وحل الأحزاب وكمّم الأفواه وصادر الأموال والأملاك ؟ كان يزعم أن ذلك لصالح الشعب !!!

وتبين بعد موته أن كل تلك الأموال والأملاك التى صودرت إنما اتجهت إليه وإلى أذنابه وزبانيته فى مصر وفى حسابات سرية بسويسرا ، كشفوا هم عنها عندما اختلف اللصوص !!!

ولمصلحة مصر أم العرب أو المسلمين كانت بطشته الحاقدة الضالة المضلله بكبرى الحركات الإسلامية فى مصر « الإخوان المسلمون » فقتل منهم من قتل فى التعذيب وشنق من شنق فى المحاكمات الهازلة التى أضحكت عليه العالم وسخر منه ومن قضاته المجانين الذى كان أحدهم يطلب من أحد الذين يحاكمهم أن يقرأ فاتحة الكتاب من آخرها إلى أولها « بالمقلوب » كما نطق بذلك التعيس الذى يتصدر منصة القضاء ؟

ولمن كانت المصلحة فى تحدى كل ما هو إسلامى فى بداية طريق خيبته وانهزاماته

---

(١) من يتصفح الصحف فى تلك الآونة يرى العجب العجاب إذ شنت حملة على بعض شيوخ الأزهر وقضاة الشرع وكيلت التهم جزاماً وأسهم فى ذلك رسامو « الكاريكاتير » من سنة ١٩٥٣ - ١٩٥٦ م .

المتلاحقة وتبجحه بتسميتها نكسات لا هزائم !!!

وفى منتصف طريق خيبته وخيبة نظام حكمه تحدى الشيوعيين لصالح الأمريكان وصادرهم واعتقلهم ، وفى آخر طريق خيبته تحدى جميع أصحاب الرأى من المسلمين وغير المسلمين فى مأساة سياسية لم يعرف لها العالم العربى مثيلاً فى عام ١٩٦٥ ؟

ولأى مصلحة مصرية أو قومية أو عربية ما كان يمارسه رجاله وأذنابه من فجور وخنا وهتك لأعراض الشرفاء والشريفات ، كما مارس ذلك صلاح نصر وغيره من مجرمى تلك الفترة العصيبة ؟[1] مما سجلته أقلام من أسموا أنفسهم برجال الانقلاب أو الضباط الأحرار !!! فعرَّى بعضهم بعضا وكشف كل سوأة الآخر .

ولمصلحة مَنْ كانت تعد أحواض حامض « الكبريتيك » ليذوب فيها أعداء الصنم الذين أطلق عليهم أعداء الشعب ؟ لقد تعلم منه هذه اللعبة مجنون آخر هو مشئوم العراق صدام حسين ، فلقد شاهدت محاكمة أجراها صدام لأعدائه أعداء الشعب كما يزعم ، فكانت عجباً فى المحاكات ، لا دفاعاً ولا سؤالاً يوجه للمتهم ، وإنما هناك القاضى ينطق اسم المتهم ثم لا يسأله إن كان مذنباً أو غير مذنب ثم يقول : « حكمت عليك المحكمة بالإعدام .. إلى مزبلة التاريخ » ولما استطلعت رأى العليمين ببواطن الأمور من بعض الزملاء فى الجامعات العراقية ، قالوا : إن كلمة مزبلة التاريخ تعنى نوع حكم الإعدام !!! وهو إلقاء المتهم فى حوض ملىء بحامض الكبريتيك !!!

عاشراً :

وكيف استمرت أنظمة الحكم فى العالم الإسلامى معظمه خاضعة للشمولية المتعسفة المهدرة لحقوق الإنسان لا فرق فى ذلك بين نظام جمهورى وآخر ملكى وثالث قبائلى أو عشائرى ؟

إن كل تلك الأنظمة تمنع الناس من ممارسة حقوقهم فى الحريات بأنواعها بل أحياناً

---

(١) انظر فى ذلك لاعتماد رشدى : انحرافات صلاح نصر – نشر مؤسسه آمون الحديث للطبع والنشر ط رابعة ١٩٨٨ م

فى الحياة الإنسانية ذاتها ، فتأخذهم بالظنة وتحاسبهم على الشبهة وتلقى بهم فى غياهب السجون أو غيابات الجب كما هو كائن فى بعض بلدان العالم الإسلامى[1] .

إن من المساخر أن أنظمة الحكم الشمولية فى العالم الإسلامى أجبرت أصحاب الرأى على اللجوء إلى بعض بلدان الغرب فى أوربا وأمريكا على اعتبار أنها واحات أمان !!!

وهل لذلك علاقة باليهود والنصارى وحكام الغرب وتلك الأنظمة الشمولية فى العالم الإسلامى ، بحيث يضغط نظام الحكم الشمولى على أصحاب الرأى يقتل ويأسر ويعذب ويغتال ويملأ السجون والمعتقلات ، ويحرم المعتقلين من أبسط الحقوق الطبيعية للإنسان وهى حقه فى قضاء الحاجة « الإخراج » ومع ذلك يتحججون بمكاسب الشعب التى حققها الانقلابيون - ويحرمونهم من النظافة والنوم فضلاً عن الطعام والشراب وأداء فرائض الله !!! كل ذلك من أجل أن يفر القادرون على الفرار إلى واحات الأمن والأمان فى بلاد الغرب فينسى كثير منهم قضيته ، ويذوب فى عالم غربى غريب علينا فى كل شيء !!!

إنه إن يكن بين الأنظمة الشمولية فى العالم الإسلامى وبين المستشارين من اليهود والنصارى الذين يحملون الجنسية الأمريكية أو غيرها ، فتلك خيانة كبرى للبلاد التى يحكمون ، وإن لم يكن بينهم اتفاق على ذلك فتلك كارثة قومية إسلامية على كلّ صعيد ، إذ تخدم هذه الأنظمة الشمولية أعداء الأمة التقليديين الذين كانوا بالأمس بل الأمس القريب يستعمرون تلك البلاد ويذيقونها لنا الذل والمهانة !!!

حادى عشر :

وما هى هذه الصيحات التى تتعالى من مسئولى الأمن والدفاع فى العالم العربى ،

---

(١) سمعت ممن أثق فى دينه وروايته أن بعض بلدان العالم الإسلامى تحفر حفراً عمقها متربن وطول كل ضلع من طولها وعرضها نصف متر ، ثم تلقى بها السجين السياسى واقفاً دون أن تسأله عن جرمه وفى كل يوم يأتى السجان ليلقى على رأس السجين مادة سائلة تؤكل فإن أدرك منها ما يدخل فمه بقى على الحياة أياماً ، ثم يترك هكذا حتى يموت !!

لمقاومة التطرف الإسلامى أو الإرهاب الإسلامى - كما سماه الغرب وكما انخدعوا هم بهذه التسمية - أو يطلقون أحياناً اسم الأصولية الإسلامية !!! .

مَنْ قال إن الإسلام يمكن أن يوصف بالإرهاب أو التطرف ، أو أن التطرف والإرهاب يمكن أن يوصفا بأنهما إسلاميان ؟

أوَ كلما رغبت حكومات الغرب وأحلافها وأتباعها فى العالم العربى أن يخمدوا أنفاس الصحوة الإسلامية - التى صرح أكثر من رئيس غربى كما صرح أكثر من مسئول يهودى بأنها - أى الصحوة الإسلامية - تزعج الغرب وتسبب له قلقاً مستمراً ، انطلقت أبواق الإعلام الموجه فى العالم العربى ، تصف الإسلاميين بالتطرف والإرهاب بل بالأصولية الإسلامية التى ابتكر تسميتها خبثاء الغرب ؟

إن من الخطأ والخطيئة أن تحسب تصرفات الأفراد الذين يجهلون الإسلام ويستحلون قتل الأنفس البريئة فى عرض الطرقات على الإسلام ، لأن أحد هؤلاء صرح بأن ذلك من عمل جماعة كذا من الجماعات الإسلامية !!!

إن المفروغ منه أن أحداً من الناس مهما طالت لحيته وطالت مسبحته وكثرت تمتاته لا يمكن أن يكون فى عمله حجة على الإسلام أو المسلمين !!! بل إن أكبر علماء الإسلام لو أخطأ فى قول أو عمل لا يمكن أن يحسب ذلك على الإسلام !!! فما لأجهزة الإعلام ومؤسساته تجهل هذه الحقائق وتحاول أن تلصق بالإسلام عمل الأفراد الذين يجهلون الإسلام ؟

إن أعمال هؤلاء الإرهابيين بل المجرمين سوف تكشف الأيام القريبة عن أنها تمت بمؤامرة مع أعداء الإسلام والمسلمين وأجهزة الاستخبارات اليهودية والصليبية ، ويومئذ يعض الغافل الجاهل على يديه ندماً أن أساء إلى دينه وإلى وطنه وضيع على نفسه فرصة معرفة الحقيقة وتتبع أسباب الجريمة .

ثانى عشر :

لقد كانت كارثة قومية - ولا أقول إسلامية - ما أذاعته إذاعة لندن - القسم العربى - وتناقلته عنها وكالات الأنباء من أن رئيس إحدى الدول العربية وجه نداء إلى

الغرب يعاتب حكوماته على أنها لم تقدم له يد العون الكافية لكى يقاوم الإرهاب والتطرف الإسلاميين !!!

إن هذا المسئول يرتكس فى حمأة التراجع والخزى والعار إذ يستعدى الأجنبى العدو – مستعمر الأمس – على أبناء وطنه وأبناء دينه ، كل هذا من أجل أن يستقر هو فى كرسيه الذى شقى وتعس إذ جلس عليه هذا المسخ .

أفبعد هذا يمكن أن تجد انتكاساً فى الوطنية والقومية ؟ كيف ينتمى هذا الحاكم إلى الإسلام وإلى العروبة ؟ ألم تكافح الشعوب العربية والإسلامية من أجل طرد هذا العدو الذى كان يحتل الأرض وينتهك العرض ويزعم أنه يستعمر ويأخذ بيد الشعوب الضعيفة الجاهلة القاصرة من أن تحكم نفسها ؟

كيف يمكن تصور الوطنية إذا كانت استدعاءً للعدو اللدود ليقضى على أبناء الوطن مهما كانت جرائمهم ؟

إن لكل جريمة عقوبة وفى كل بلد قضاء ، فلماذ استدعاء العدو للولى والأجنبى للوطنى ؟ ومن يضمن النتائج ؟

إنها تشبه قصة محمد بن العلقمى مشئوم بغداد ووزيرها يوم كان التتار على أبوابها يهابون صولة الخلافة العباسية فلما حدث فى بغداد فتنة داخلية ، استدعى هذا المشئوم التتار ليقضوا له على الفتنة ، فلما دخل التتار بغداد قضوا على الفتنة وعلى الدولة وعلى المشئوم محمد بن العلقمى ، وعاثوا فساداً فى عاصمة دولة الخلافة العباسية وارتكبوا فيها من الجرائم مالا يزال يذكره التاريخ على أنه صورة للوحشية والبربرية الغاشمة .

وذلك نفسه – أى ما فعله التتار فى بغداد – لم يختلف كثيراً عما فعلته دول الغرب حينما احتلت بلداناً فى العالم الإسلامى حتى المكتبات أحرقها الفرنسيون دعاة الثقافة وأصحاب الغرور الذى قل أن تجد له نظيراً إلا عند اليهود ، لقد أحرقت فرنسا المكتبة الجزائرية العامة يوم أجبرت على الرحيل عن الجزائر !!! ولقد رأيت أثر ذلك بنفسى بعد ستة عشر عاماً من رحيلهم يوم ذهبت إلى الجزائر سنة ١٩٧٦ م .

إن هذا الرئيس الذى يستعدى أهل الغرب على الإسلاميين أو على المتطرفين

المسلمين ذاهل عن تاريخه غافل عن أبعاد ما يدعو إليه ، ولن يكون حظه من العلم بالتاريخ والمعرفة بالجغرافيا إلا فى حدود مكان الكرسى الذى يجلس عليه ومكانته من نفسه الضعيفة التى تشعر بأنها ليست أهلاً للجلوس على كرسى حكم .

وأعود فأقول : إن أهل الكتاب من يهود ونصارى أو من صهيونيين وصليبيين عندما يكيدون للإسلام والمسلمين اليوم إنما يساعدهم على ذلك فساد أنظمة الحكم فى العالمين العربى والإسلامى ، ومصادرة هذه الأنظمة لكل فكر ينتمى إلى الإسلام وحرمان شعوبها من حقوقها الإنسانية ، وحسب هذه الأنظمة عاراً تاريخياً أن تستعدى على أبناء وطنها مهما كانت جرائمهم عدواً متربصاً لا يسره مثل القضاء على الإسلام والمسلمين !!!

ولولا الإطالة لانفسحت أمامى الصفحات لأسجل فيها شواهد وبراهين على أن أعداء الإسلام والمسلمين الحقيقيين هم الصهاينة والصليبيون – أهل الكتاب ، وصدق الله العظيم ﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين** ﴾

وأما الوعد :

ـــ ففى الآيات الكريمة وعد لأهل الكتاب فى ذلك الزمان الذى كانوا يعادون فيه رسول الله ﷺ ويقفون ضد الحق الذى جاء به ودعاهم إليه ، وعدلهم بأنهم لو آمنوا بما جاءهم به محمد ﷺ ، واتقوا تلك المفاسد باتباع منهجه وتشريعه ، فإن الله تبارك وتعالى سوف يكفر عنهم سيئاتهم التى اقترفوها فى الدنيا ، وسوف يدخلهم يوم القيامة جنات النعيم ، ﴿ **ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم** ﴾ ولا تزال هذه العدة سارية حتى اليوم لو أنهم آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ واتبعوا منهجه لأنها عدة قرآنية سارية إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ـــ وفى الآيات عدة أخرى لأهل الكتاب ، وهى عدة دنيوية ، وتلك أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل وعملوا بما فيهما – قبل أن يدخلهما التحريف – لزاد الله لهم فى الرزق بما ترسل عليهم السماء من ماء يحيى الأرض ، وبما تخرج لهم الأرض بإذن الله من نبات

وشجر وثمر وفواكه ، لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولعمتهم النعم الدنيوية .

ونضيف هنا إضافة تكمل ما يفهم به الآية الكريمة : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون** ﴾ هذه الإضافة هي ربط تلك النعم الدنيوية بوجوب أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ ، فالذى أنزل إليهم من ربهم هو ما جاءهم به محمد ﷺ ، بدليل عطفه على التوراة والإنجيل والعطف يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه .

لو أنهم آمنوا بتلك الكتب كلها لوجدوا فى كتبهم التوراة والإنجيل ما يدعوهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، إذ التوراة والإنجيل كلاهما أكدا على توحيد الله إلهاً وربًّا ، ونزلا مبشرين بمحمد ﷺ الذى يأتى من أبناء أخيهم إسماعيل عليه السلام ، كما قال موسى عليه السلام : « البار قليط روح الحق الذى يعلمهم كل شيء »[1] وكما قال عيسى بن مريم عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾[2] لو أنهم فعلوا ذلك وآمنوا بما جاء فى التوراة والإنجيل وما أنزل على محمد ﷺ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكن الواقع أن أهل الكتاب ﴿ **منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون** ﴾

وقال بعض المفسرين : إن المراد بما أنزل إليهم من ربهم : سائر ما أوحاه الله إلى أنبيائه من أمر الدين وآدابه والبشارة بالنبى الأخير ﷺ ، وذلك مثل : زبور داود وحكم سليمان وكتب دانيال وأشعيا وغيرها ، وإقامة كل هذه الكتب من أسباب الصلاح والإصلاح وإرضاء الله تبارك وتعالى منزل هذه الكتب جميعاً ، سواء أكانت

---

(١) انظر للمؤلف : عالمية الدعوة الإسلامية : الباب الثانى ، الفصل الأول : المبحث الثانى منه وعنوانه : الأدلة من نصوص الأديان السابقة لإقناع غير المسلمين بعالمية الدعوة الإسلامية ، حيث قدمت عشرين دليلاً من التوراة والكتب التى بعدها وخمس أدلة من الإنجيل من ص ٢٥٤ إلى ٢٦٩ الطبعة الرابعة للكتاب والأولى لدار الوفاء للنشر ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

(٢) الصف : ٦ .

تلك الإقامة للكتب قبل مبعث خاتم النبيين محمد ﷺ أم بعد مبعثه .

وأهل الكتاب كما أخبر عنهم رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ **ليسوا سواء** ﴾ وإنما كانت منهم جماعة معتدلة فى أمر الدين لا تغلو فتفْرط ولا تقصر فتفرِّط ، وهؤلاء هم العدول منهم ، وقيل هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ فدخلوا فى دين الإسلام .

وهؤلاء المعتدلون يكونون فى كل أمة ، قال السيوطى فى كتابه « الدر المنثور » : أخرج أحمد وابن ماجة من طريق أبى الجعد عن زياد بن أم لبيد - رضى الله عنه - قال : ذكر النبى ﷺ شيئاً فقال : « ... وذلك عند ذهاب العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشئ » .

وبغض النظر عما أثاره علماء الحديث حول هذا الحديث من وصفه بالضعيف ، وانقطاع السند ، والقلْب ، والاختلاف ، فإنه لا يثبت حكماً شرعياً ولا ينفيه ، حتى يترك بما فيه من علل ، وإنما هو يعطى عبرة وعظة خلاصتها أن هذه الكتب السماوية ليست العبرة فى قراءتها وإنما العبرة والفائدة فى العمل بما فيها ، وكذلك شأن القرآن الكريم .

● والمواقف التربوية العامة التى نستفيد منها من هذه الآيات الكريمة كثيرة ، نذكر منها ما يلى :

١ - أن أهل الكتاب يعادون المسلمين عداء تقليدياً مبعثه الحسد والحقد ، وكان الأولى بهم أن يعترفوا بما نزل على المسلمين من الحق وأن يحمدوا لهم تمسكهم بهذا الحق ، فضلاً عن أن يدخلوا فى دين الحق ، ولكنهم نقموا على النبى ﷺ ، وعلى الذين آمنوا معه ، نقموا عليهم إيمانهم بالله وبما أنزل إليهم وبما أنزل على الرسل من قبلهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لايفرقون فى هذا الإيمان بين أحد من رسله .

ومن أجل هذا الموقف من أهل الكتاب يجب على المسلمين أن يضعوا ذلك فى اعتبارهم وهم يتعاملون مع أهل الكتاب فى أى زمن من الأزمان ، وألا يغفلوا عن هذه الصفات الأصيلة فيهم وهى حسدهم للمؤمنين وحقدهم عليهم ونقمتهم عليهم لأنهم مؤمنون .

ألا ليت المسلمين اليوم يتنبهون إلى ما نبه إليه القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان .

٢ - ويجب أن نتعلم من هذه الآيات الكريمة أن أهل الكتاب وإن كان أكثرهم فاسقين إلا أن فيهم من الصالحين العادلين الذين يتمسكون بأصول الدين وأخلاقه قلة ، وهذه القلة سريعاً ما تدخل فى الإسلام عندما يتعرفونه من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، أو من خلال مخالطتهم لصالحى المؤمنين .

كان ذلك فى عهد النبى ﷺ وامتد عبر تاريخ الإسلام ، ولا يزال مستمراً حتى يومنا هذا ، إذ لا تخلو بضع سنين من أن يدخل فيها فى الإسلام عدد من صالحى أهل الكتاب « الأمة المقتصدة » .

ولقد أسعدنى الله بأن رأيت ذلك بنفسى وشهدته أحياناً بعينى فى بعض تجولى فى بلاد الغرب - أوربا وأمريكا - أو فى بعض بلدان إفريقيا[1] .

وهذا بفضل الله أعده من أقوى الأدلة على مصداقية كل كلمة جاءت فى القرآن الكريم ، حيث أكد أن أهل الكتاب وإن غلب على أكثرهم الحسد والحقد والنقمة على المؤمنين إلا أن منهم أمة - طائفة - مقتصدة أى عادلة .

وهذا مما يجب أن يضعه المسلمون فى اعتبارهم وهم يتعاملون مع أهل الكتاب ، ومما يجب أن يوليه الدعاة إلى الله اهتماماً كبيراً وهم يمارسون عملهم من أجل الإسلام .

---

(١) لايخفى على أحد ممن زاروا إفريقيا ما تبذله الكنيسة من محاولات لتنصير الأفارقة ، ولكن الناس هناك يتركون كل هذه المرغبات ويقبلون على الدخول فى الإسلام ، وهذا من فضل الله

٣ - ونتعلم من الآيات الكريمة طرفاً من تاريخ أهل الكتاب وشيئاً من طبائعهم ، حيث كانوا ولا يزالون أهل عناد وفساد ، حتى إنهم قتلوا بعض أنبيائهم قتلاً ، مما جعلهم موضع غضب الله تعالى ولعنته ومسخه لهم بأن جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، فكانوا بذلك فى شر مكان وأضل عن سواء السبيل ، وقد لعنهم الله على لسان دواد وعيسى بن مريم عليهما السلام .

ولقد كان هذا اللعن له أسبابه الخاصة بهم ، فقد قاموا بأعمال كثيرة تغضب الله تبارك وتعالى ، وقد أحصيت من هذه الأعمال - مما ورد ذكره فى القرآن الكريم خمسة وعشرين عملاً ، استوجبت كل منها غضب الله عليهم ولعنهم ، وهذه الأعمال هى :

- نقضهم ميثاق ربهم .
- وافتراؤهم على مريم البتول الكذب والبهتان .
- وتركهم الأمر بالمعروف والتناهى عن المنكر .
- واعتداؤهم فى السبت .
- واتخاذهم العجل ، وطلبهم من نبيهم أن يتخذ لهم آلهة .
- وقولهم لنبيهم : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .
- وقتلهم الأنبياء بغير حق .
- وقولهم : قلوبنا غلف .
- وقولهم إنا قتلنا المسيح بن مريم .
- وأخذهم الربا وقد نهوا عنه .
- وأكلهم أموال الناس بالباطل .
- وقولهم : سمعنا وعصينا .
- واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير .
- وتحريفهم الكلم عن مواضعه .
- وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعضه .

● واشتراؤهم الدنيا بالآخرة .
● وكفرهم بما أنزل الله بَغْياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .
● وأنهم أحرص الناس على حياة ، بحيث يود أحدهم لو يُعَمَّر ألف سنة .
● وعداوتهم للملائكة وبخاصة جبرائيل وميكائيل .
● ونبذهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .
● وقولهم لنبى الله موسى عليه السلام : إجعل لنا إلـٰهاً كما لهم آلهه .
● وتكبرهم فى الأرض بغير الحق .
● وانصرافهم عن كل آية تؤدى إلى إيمانهم .
● واتخاذهم سبيل الغَيّ ، وتركهم سبيل الرشد .
● وتبديلهم ما قال الله لهم وما أنزل عليهم .

إننا يجب أن نتعلم من هذه الصفات لأهل الكتاب - كيف نتعامل مع أهل الكتاب ؟

٤ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن مجتمع الناس عموماً ، ومجتمع أهل الكتاب على وجه الخصوص لا يخلو من المنافقين الذين يظهرون للمسلمين خلاف ما يبطنون .

والمنافقون دائماً يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويكيدون لهم ما وسعهم الكيد ، وأن على المسلمين أن يحذروهم وأن يعاملوهم المعاملة التى شرعها الإسلام ، إذ ليس لنا أن نشق عن قلب أحد لنعلم إن كان مخلصاً أم منافقاً ، وإنما لنا الظاهر والله سبحانه يتولى السرائر ، وحسب امرىء من الشر أن يفقد الإخلاص لله فى إيمانه ونيته ، وحسابه على الله الذى قال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1] .

---

(١) النساء : ١٤٥ - ١٤٦ .

٥ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن أهل الكتاب والمنافقين هم أسرع إلى الإثم والعدوان وأكل السحت ، لأنهم يحبون الفساد ويسرعون إليه ، وأنه قد بلغ الفساد بأهل الكتاب حداً جعل علماءهم لا ينهونهم عن ممارسة الإثم والعدوان وأكل السحت فكانوا وإياهم فى الخطأ سواء .

وكذلك يمكن أن يكون الشأن فى بعض المسلمين إذا سارعوا فى الإثم والعدوان وأكل السحت ، وشأن علمائهم إذا لم ينهوهم عن الإثم والعدوان وأكل السحت .

وهذا ينبغى أن يجعل المسلمين فى حذر وخوف من أن يمارسوا إثماً أو عدواناً ، حتى لا تحبط أعمالهم وأعمال علمائهم .

٦ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن لليهود - على وجه الخصوص - مقولات ضالة مضلة ، يقصدون بها التشويه والافتراء على الله وتضليل الناس عن الحق ، كقولهم :

- « يد الله مغلولة » غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا .
- وقولهم : « إن رب محمد محتاج » وقد كذبوا .
- وقولهم : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وقد كذبوا .
- وقولهم : « إن من احتاج إلى القرض كان فقيراً عاجزاً مغلول اليدين » وقد كذبوا .
- وقولهم : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .
- وقولهم : « عزير ابن الله » .
- وقولهم : « ليست النصارى على شيء » .
- وقولهم : « إنا قتلنا المسيح ابن مريم » .
- « وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » .

إلى آخر مقولاتهم الآثمة الضالة المضلة ، مما يجعلنا لا نصدق لهم قولاً أبداً ، وكيف نصدقهم وقد كذبوا على الله ؟

٧ - ونتعلم من الآيات أن لا سلام ولا أمان لليهود مع المسلمين مهما ادعوا ومهما وعدوا ، فإن شأنهم دائماً هو تأريث نيران الحرب مع المسلمين وسعيهم فى الأرض فسادا ، لأن ذلك من صميم صفاتهم وطبيعة ما يمارسون من أعمال .

وما دام اليهود كذلك فإن على المسلمين - بل على غير المسلمين كذلك - أن يقعدوا لهم بكل مرصد ، وأن يستعدوا لحربهم دائماً وأن يحذروهم ويحذروا منهم فإنهم شرار الناس بما قاموا به من أعمال ضد أنبيائهم وبما يقومون به من أعمال عبر عنها المولى سبحانه وتعالى بقوله الكريم ﴿ **ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين** ﴾ وما لا يحبه الله لا يجوز لمسلم أن يحبه أو يتقبله .

٨ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن الإيمان بكتب الله وبما أنزل على رسله - قبل أن تُحرّف - والإيمان بالقرآن الكريم يؤدى إلى رضا الله وجزيل ثوابه فى الآخرة ، كما أنه يفتح على المؤمنين أبواب الرزق فى الدنيا بل الرزق الواسع والخير العميم ، لأن ذلك هو كلام الله رب العالمين ووعده : ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ...** ﴾ .

نعم وألف نعم ... إن الإيمان بالله وبكتابه ورسوله الخاتم محمد ﷺ يؤدى إلى عمارة الأرض ، ومن أحسن عمارة الأرض وفق منهج الله انفتحت له أبواب الرزق وعمته النعم ، ولم يعان من أزمة اقتصادية أو سياسية ، ولم يشك من قلة إنتاج ولا من رداءة إنتاج ، ولم يسمح لغيره أن يستغله أو أن يسيطر عليه أى نوع من أنواع السيطرة لأن إيمانه يورثه العزة والرفعة والكرامة ، ومن كان بهذه الصفات فكيف يخضع لعدو أبرز صفاته أنه كافر بالله ومعطل لمنهجه ؟

- ومن المواقف التربوية التى يفيد منها أهل الدعوة والحركة فى هذه الآيات الكريمة ما يلى :

١ - أن الدعاة إلى الله لا بد أن يجدوا عداء من أهل الباطل من أهل الكتاب ومن المشركين ، ومن المنحرفين عن الفطرة المؤثرين للباطل على الحق ، وأن هذا العداء سببه اختلاف العقيدة واختلاف المنهج ، وأن أى أسباب أخرى لهذا العداء تعد أسباباً قشرية أو ثانوية ، لا تمد بدافع أو حافز على المضى فى العداء والكيد .

وعلى الدعاة أن يؤمنوا أن هذا الكيد والعداء هو من سنة الله فى الصراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل أكد ذلك القرآن الكريم فى أكثر من آية كريمة منها هذه الآية فى سورة المائدة : ﴿ **قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾[2] وقوله على لسان السحرة الذين جمعهم فرعون لكيد موسى عليه السلام فتبين لهم الحق فآمنوا بما عرفوا أنه الحق قائلين لفرعون الذى هددهم على إيمانهم : ﴿ **وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾[3] .

٢ - وأن على العاملين فى مجالى الدعوة والحركة الإسلامية أن يعلموا أن ماضى اليهود فى عدائهم للحق وحبهم للفساد والإفساد كحاضرهم ومستقبلهم لأن تلك طبيعة فيهم ، ومعنى ذلك أن الاطمئنان إليهم غفلة وسذاجه ، وأن التعامل معهم يجب أن يكون على هذا الأساس .

ولقد كان لليهود عداء وكيد للمسلمين على مر تاريخ المسلمين ، فهم الذين أعانوا على إبادة المسلمين من الأندلس وهم الذين عاونوا فى الحروب الصليبية ، وهم الذين أسهموا فى إسقاط دولة الخلافة العثمانية ، وهم الذين انتزعوا فلسطين وأقاموا بها دولة باغية ، وهم الذين صنعوا ما صنعوا من الفظائع فى حربهم للعرب والمسلمين ، وهم الذين يشنون الغارات على البلدان العربية فى الوقت الذى يريدون ، وهم الذين يستولون على الأرض العربية بمعاونة دول الغرب الصليبية وهيئة الأمم المتحدة ، وهم الذين يقومون بحملات لتشويه الإسلام فى

---

(١) المائدة : ٥٩ .   (٢) البروج : ٨ .   (٣) الأعراف : ١٢٦ .

فكره ومنهجه وحضارته ...

ويستطيع الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية أن يؤكدوا أن الله لهم بالمرصاد وأنه يطفىء لهم نار الحرب بشرط واحد هو أن يكون الذين يواجهونهم فى الحرب مؤمنين لا يتخلون عن منهج الله ونظامه ، ويستأهلون نصر الله بهذا الإيمان .

٣ – وأن على الدعاة أن يمارسوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق ضوابطهما الشرعية ، وأن يعلموا الناس كيف يمارسون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأن ذلك هو الذى يقاوم الفساد والباطل ، ويشيع الحق والعدل والخير .

وأن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يدركوا أنه لا قعود عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا لعذر شرعى ، وأن التوقف عن الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر خوفاً من بطش حاكم أو تملقاً لأهل الباطل والهوى ، أو حرصاً على دنيا ، من أكبر الإثم وأسوأ الصنع ، وفى مثل هذا يقال : ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ لأنهم بهذا يؤثرون ما عند الناس على ما عند الله سبحانه وتعالى .

٤ – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أن يدركوا أن تحدّى الدعوة إلى الله شيء مركوز فى طباع أعداء الحق من أهل الكتاب والمشركين والعصاة والمنحرفين من المسلمين وأن هذا التحدى يبدأ بالتقول والافتئات على الحق ، والعمل على تشويهه بإثارة الشبهات وبث الأباطيل والمفتريات ، ويصل إلى الحرب والقتال .

وعليهم أن يدركوا أن هذا التحدى وتلك الحرب عمل من الأعداء لابد منه بالنسبة لهم ، وأن على المسلمين جميعاً أن يقفوا لهذا التحدى بالمرصاد وأن ينشطوا فى الردّ عليه بكل وسيلة مشروعة .

وليس للدعاة ولا لمن يعملون فى الحركة الإسلامية أن يتصوروا أن النصر على أعدائهم سوف يكون على أيديهم هم ، فإن ذلك علمه عند الله ، وإن الله تبارك وتعالى إذا أبطأ بالنصر جيلاً أو جيلين أو أكثر ، وإذا اختار له ناساً دون ناس ،

فإن ذلك لحكمة يعلمها ، وما يجوز لأحد أن يستبطىء نصر الله فإن ذلك من الغفلة والسذاجة والعجلة التي نهى عنها رسول الله ﷺ في قوله فيما رواه عنه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم مالم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي » .

إن الله تبارك وتعالى يحق الحق ويبطل الباطل بدعاته المخلصين في الزمن الذي يشاء والمكان الذي يشاء ، ولكنه فاعل لامحالة .

٥ – وأن يربى الدعاة إلى الله الناس على كراهية الفساد والمفسدين لأن المفسد خارج عن أمر الله ، وخارج بذلك عن حد الاعتدال ، ومن الفساد فساد معنوى كفساد القلوب والأخلاق والرأى والمعتقد ، ومنه فساد مادىّ كفساد الأبدان وفساد المجتمعات عندما يشيع فيها الباطل والخنا ، وكل ما بغَّض الله فيه من فواحش .

والفرق بين الفساد والإفساد أن الفساد قد يقوم به أى أحد من الناس إلا من عصم الله ، أما الإفساد فهو من عمل تنعقد عليه الإرادة ويمارسه الكبراء والرؤساء والملوك إذا كان كل أولئك من الضالين يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ... ﴾[1] . وفرعون الملك الظالم الذى كان يتحدى بنى إسرائيل : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] وقارون كان ذا جاه ومال وله طغيانه وكان من قوم موسى عليه السلام فبغى عليهم ، وقد قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3] والطغاة المفسدون المتعالون فى الأرض يحرمهم الله من ثواب الآخرة يقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

---

(١) النمل : ٣٤ . (٢) القصص : ٤ .
(٣) القصص :٧٧ . (٤) القصص : ٨٣ .

والمفسدون هم الذين يتحدون شرع الله ونظامه ويخالفون منهجه ، صغاراً كانوا أو كباراً ، وهؤلاء لا يحبهم الله ومن لا يحبهم الله تعالى لا يصلح لهم عملاً ولا ينجح لهم سعياً لأنهم يحاربون دعوة الله وحكمته فى صلاح الناس وعمران الحياة .

* * *

الآية السابعة والستون

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

-●-هذه الآية الكريمة نداء على النبى ﷺ ، يأمره فيه ربه سبحانه وتعالى بأن يبلغ ما أوحاه إليه ، وإخبار له ﷺ بأنه لو قصر فى شيء مما يجب عليه أن يبلغه للناس ، فقد توقف عما أمره به ربه .

وفى الآية تأكيد للنبى ﷺ أن يمضى فى تبليغ رسالته للناس مطمئناً إلى أن الله سبحانه وتعالى سوف يعصمه من قتل أعدائه له ، وإخبار له بأن الذين يتحدون الدعوة إلى الله ويكفرون به وبما أنزل لن يهديهم الله إلى ما يدعوهم إليه ﷺ ، لأن الهدى هدى الله .

-●-وفى الآية الكريمة -- كما هو واضح -- نداء وأمر وخبر وتقرير وتفصيل ذلك نقول :

أما النداء :

فهو قول الله تعالى مخاطباً خاتم رسله عليه الصلاة والسلام : ﴿ **يٰأيها الرسول** ﴾ « ونداؤه يٰأيها الرسول » تشريف له من جانب وإقناع للناس عموماً ولأهل الكتاب خصوصاً بأنه رسول من عند الله .

وما خوطب محمد ﷺ بكلمة « الرسول » إلا فى موضعين من القرآن الكريم كله ، وكلاهما فى هذه السورة ، هذا أحدهما ، والآخر فى قوله تعالى فى الآية التى سبق أن فسرناها وهى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **يٰأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر** ... ﴾ الآية .

وأما الأمر :

فهو أمر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى الذى قص الله

تعالى عليه قصصهم فى هذه السورة وعرفه بصفاتهم بل بمعايبهم وخبث أعمالهم واجترائهم على ربهم ، وتحديهم لأنبيائهم الذى بلغ حد أن قتلوا بعضهم ، وتبديلهم كتاب الله إليهم وتحريفه ، ورداءة مطاعمهم ومآكلهم ، أمره أن يبلغ هؤلاء دون خوف منهم ولا حذر .

كما أمره أن يبلغ سائر الناس من المشركين وغيرهم دون أن يشعر نفسه بأى خوف منهم ومن كثرة أعدادهم وعدتهم ، مع قلة عدد المؤمنين معه وقلة عدتهم كذلك ، فإنهم جميعاً لن يستطيعوا أن ينالوا منه فى نفسه أبداً ، وهو توجيه له ﷺ بألا يتقى أحداً فى ذات الله فإن الله كافيه كل أحد من خلقه ودافع عنه كل مكروه .

وأما الخبر :

فإن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنه إن قصر عن البلاغ فى شيء مما أنزل الله إليه ، فهو فى هذا – مهما قَلَّ ما لم يبلغه – فهو فى التقصير فى تبليغ هذا القليل قد ارتكب ذنباً كبيراً كذنبه إذا لم يبلغ كل ما أنزل الله إليه ﴿ **وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ .

وأما التقرير :

فهو أن هذه الآية الكريمة تقرر أنه سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الكافرين .

والمعنى : بلِّغ يا محمد ما أُمرت بتبليغه ، فأما الهداية فإلى الله سبحانه وتعالى ، وقد شاء الله أن لا يهدى القوم الكافرين ولا يرشدهم لأنهم حادوا عن سبيل الحق وجاروا عن قصد السبيل ، وجحدوا ما جئتهم به من عند الله ، ولم ينتهوا إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليهم وأوجب .

● والعموم الوارد فى تبليغ كل الذى أنزله الله عليه ﴿ **بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ هذا العموم يفيد أنه ﷺ يجب عليه أن يبلغ جميع ما أنزل الله إليه لا يكتم منه شيئاً ، وفى هذا دليل على أنه ﷺ لم يُسِرّ إلى أحد بشيء مما أوحى الله إليه ، ولهذا فقد جاء فى الصحيحين بسندهما عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « من زعم أن محمداً – ﷺ كتم شيئاً من الوحى فقد كذب » .

وروى البخارى بسنده عن أبى جحيفة وهب بن عبد الله السوائى قال : قلت لعلى

ابن أبي طالب - رضي الله عنه - هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في هذه الصحيفة ، قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر » .

وأخرج ابن مردوية والضياء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل ، أي آية أنزلت من السماء أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم الحج فاجتمع مشركوا العرب وأفناء الناس في الموسم فأنزل الله عليّ جبريل فقال : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ... ﴾ الآية ، قال : فقمت عند العقبة فناديت : يأيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالة ربي وله الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجوا ولكم الجنة ، قال : فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة ويبزقون في وجهي ويقولون : كذاب صابئ ، فعرض عليّ عارض فقال : يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك ، فقال النبي ﷺ : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه . .

● وعموم النفي الوارد في قوله تعالى : ﴿ **وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ يفيد أن توقفه عن تبليغ شيء مما أنزل الله إليه ﷺ كتوقفه عن تبليغ كل ما أنزل الله إليه ، لأن ما أنزل إليه كل لا يجوز أن يبلغ بعضه ويسكت عن بعض ، ففيه كل هداية الناس ونقلهم من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى ومن الضياع إلى الالتزام بأكمل الشرائع وأتم المناهج وأرضاها لله سبحانه وتعالى ؛ وأنسبها للبشرية كلها في كل زمان ومكان .

● وهذه الآية الكريمة تؤكد للنبي ﷺ بأن تبليغ كل ما أنزل الله إليه حَتْمٌ لا خيار له فيه ، ولا يجوز تأخيره عن وقته ولا على سبيل الاجتهاد أو تخير الوقت الأنسب أو الظرف الأنسب للتبليغ .

● كما تؤكد هذه الآية الكريمة للمسلمين جميعاً وللدعاة إلى الله على وجه الخصوص أن كتمان بعض منهج الله عن بعض الناس فضلاً عن كتمانه كله عن كل الناس جريمة في

حق من كتم ، وفى هذا ردٌّ على غلاة الشيعة الذين قالوا إن عند على رضى الله عنه وبعض آل بيته من الوحى ما خصهم النبى ﷺ به دون الناس ، وردٌّ على ما روى عن بعضهم من جواز الكتمان على سبيل التَّقِيَّة .

● والذى عليه أهل العلم أن الرسول ﷺ بلَّغ جميع ما أنزل إليه من القرآن وبينه ، ولم يخص أحداً بشىء من العلم بالدين دون أحد ، إلا بما أوتى أحد المسلمين من فهم القرآن الكريم ، وفهم القرآن الكريم فهماً صحيحاً يتوقف على فهم السنة النبوية المطهرة ، وعلى معرفة أصول الدين وأركانه ، على المعرفة الدقيقة باللغة العربية لغة القرآن الكريم وعائه .

● وهناك اتفاق بين العلماء على ضلال ما ذهب إليه الباطنية من أن علم الأنبياء ظاهر وباطن ، فالظاهر عام والباطن خاص ، ودليل على فساد ما ذهب إليه الصوفية من تأويلات أخذوا فيها بظواهر بعض الأحاديث والآثار كقول أبى هريرة رضى الله عنه فى صحيح البخارى : « حفظت من رسول الله ﷺ دعاءين ، فأما أحدهما : فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع منى هذا البلعوم » فقد زعم بعض المتصوفة أن ما عندهم من علم الحقيقة من قبيل ما فى الدعاء الآخر من دعائَىْ أبى هريرة – رضى الله عنه – كما تردّ على زعم بعض شيوخهم أن لهم سنداً فى تلقى علم الباطن ينتهى إلى بعض الصحابة أو أئمة آل البيت النبوى رضى الله عنهم .

● وأهل العلم يرون فى كلمة أبى هريرة رضى الله عنه فيما لم يبثّه فى الناس أنها أحاديث الفتن وما يكون من الفساد فى الدين على أيدى أُغَيْلمة سفهاء من قريش وهم من بنى أمية ، لما يؤدى إليه نشر مثل هذا ، من فتن ومحن بين المسلمين .

ومن التقرير أيضاً :

ما أكدته الآية الكريمة من أن النبى ﷺ معصوم ، يحمى الله تبارك وتعالى حياته حتى يبلغ دعوته إلى الناس : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ .

روى الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه

من القبة ، فقال لهم : يأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » .

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « ومِنْ عصمةِ الله لرسوله ﷺ حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة البغضة - ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً بما يخلقه - سبحانه وتعالى - من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه فى ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً فى قريش ، وخلق الله فى قلبه محبة طبيعية لرسوله ﷺ ، لا - محبة - شرعية ، ولو كان أسلم لا جترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك فى الكفر ، هابوه ، واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيراً ، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهى المدينة ، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود ، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتى المعوذتين دواء لذلك الداء ، ولما سمَّه اليهود فى ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه ، ولهذا أشباه كثيرة جداً بطول شرعها ... »[1] .

- والمواقف التربوية العامة التى نتعلمها من هذه الآية الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن تبليغ دين الله لعباد الله واجب شرعى قام به النبى ﷺ ، ويجب أن يقوم به كل مسلم بعد النبى ﷺ من القادرين على ذلك إلى يوم القيامة ، وإنما كان هذا التبليغ واجباً لقول الله تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى... ﴾[2] ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[3]

قال الحسن وقتادة : هى فى كل من أوتى علم شيء من الكتاب ، فمن علم

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٧٩ ط الحلبى القاهرة دون تاريخ .
(٢) يوسف : ١٠٨ .　　(٣) آل عمران : ١٨٧ .

شيئاً فليُعلّمه وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة .

وقال محمد بن كعب : لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ، ولا لجاهل أن يسكت على جهله ، قال الله تعالى : ﴿ **يٰأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ أى جميع ما أنزل إليك من ربك .

٢ – وأن من كتم شيئاً من دين الله عن الناس وهو قادر على تبليغه فكأنه كتم الدين كله ، وقعد عن واجب أوجبه الله تعالى عليه . ﴿ **يٰأيها الرسول بلغ ما أنزل الله إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ أى أن كتمانك بعض ما أنزل إليك نقص فى الدين ، ولأن الدين متكامل ، فإن كتمان بعضه ككتمان كله .

والأمر للنبى ﷺ ولكل مسلم من بعده قادر على التبليغ ، وقد يتوهم بعض الناس أن السكوت عن بعض الدين تقيّة أو عملاً مرحلياً ، وهذا تصور خاطىء ، لأن الدين كله ليس فيه ما يخافه أحد من الناس ، وإنما هو دائماً يحمل حرجاً لأحد من الناس ، وليس فيه تضييق على أحد ، فلا مبرر للكتمان أو التأجيل أو التقية .

إن التقية خشية للناس ، والله سبحانه وتعالى قد علّمنا أن تبليغ دينه ما ينبغى أن يخشى فيه المبلغ أحداً من الناس ، ولا يخاف لومة لائم ، علّمنا الله تعالى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾[1] .

وكتمان بعض الدين بحجة أنه أصعب على الناس أو غير مناسب لزمان بعينه أو مكان بعينه ، فإن ذلك يعنى أن فى هذا الدين حرج أو مشقة أو عدم ملاءمة للزمان والمكان ، وهذا كله باطل ، لأن الله تبارك وتعالى

(١) الأحزاب : ٣٩ .

يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1] .

٣ - ونتعلم من هذه الآية الكريمة الثقة الكبيرة فى تأييد الله ونصره وحفظه لدعاته مهما تعرضوا للأخطار ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ فكما عصم الله تعالى نبيه ﷺ وهو يبلغ عن ربه ولا يكتم شيئاً مما أنزل عليه فسوف يعصم كل داع إلى الحق ممن يعاندون الحق ويتحدون دعوة الله ، ذلك وعد الله ومن أصدق من الله وعدا ؟

وهنا قد يعرض لبعض الناس تساؤل فحواه أن كثيراً من الدعاة إلى الله بعد رسول الله ﷺ قد تعرضوا لأذى أعداء الدعوة إلى الله من اعتقال وسجن وتعذيب وتشريد وتعقب بل قتل ، وأن قوى الباطل كثيراً ما تكون أقوى من قوى الحق والدعاة إليه ... .

وللردّ على هذا التساؤل نقول : إن الله تعالى قد عصم نبيه ﷺ من أن يقتله عدو له ولدعوته ، ولكنه سبحانه لم يشأ أن يعصمه من التعرض للسب والأذى والإهانة بل الضرب والسجن والتعرض للأخطار .

وتلك سنة الله مع دعاته جميعاً من الأنبياء والمرسلين ، وليس الدعاة إلى الله من غير الأنبياء والمرسلين بأقرب إلى الله تعالى ممن اصطفى من نبى أو رسول .

تلك سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا ، وآيات القرآن الكريم الدالة على تلك السنة كثيرة نذكر منها ما يلى :

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[2] .

---

(١) الحج : ٧٨ .　　(٢) البقرة : ٢١٤ .

وقال جل شأنه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[1] .

وقال عز شأنه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ... ﴾[2] .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة » .

وأما أن يتعرض بعض الدعاة للموت فى سبيل الله على أيدى أعداء الله وأعداء دعوة الحق ، فليس فى ذلك أى تخلٍّ من الله عنهم ، وإنما هو حسن اختيار لإنهاء حياتهم شهداء فى سبيل الله ، وليس هناك أعلى درجة من الشهادة فى سبيل الله ، ولن يموت أحد حتى يستوفى فى هذه الحياة الدنيا أجله ورزقه ، فلابد من الاطمئنان والرضا بقضاء الله وقدره ، بل لابد من السعادة بالشهادة فى سبيله .

٤ – ونتعلم من الآية الكريمة أن ليس على المسلمين إلا البلاغ وأما هداية الناس واستجابتهم للحق فإلى الله وحده ، ومعنى ذلك أنه ليس على الداعى إلى الله أن يشق على نفسه إذ يلزمها أن يستجيب الناس له ، وإنما واجبه ينتهى عندما يبلغ دعوة الله إلى عباد الله ، وقد أكد سبحانه هذا المعنى فى الآية الكريمة التى يقول فيها ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾[3] وهو أسلوب

---

(١) آل عمران : ١٤٢ . (٢) التوبة : ١٦ .

(٣) المائدة : ٩٩ . وسوف نشرحها فى محالها من هذا التفسير بإذن الله .

قصر فيه وظيفة الرسول وكل داعية إلى الله على البلاغ .

وفى هذه الآية يختمها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ .

والمواقف التربوية التى يفيد منها الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن الدعوة إلى الله - وهى هذا الدين الخاتم - كل لا يتجزأ ولا يستغنى ببعضه عن بعض ، وأنه دين يشتمل على شريعة واضحة ناصعة ليلها كنهارها ، وعلى منهج شامل يتناول العقيدة والعبادة والعمل والقيم الفاضلة جميعاً ، وأنه بهذه القيم ينقى القلب من الحقد والحسد والشر ، ويملؤه بحب الناس وحب الخير لهم ، وإيثار الحق فى كل حين .

إن الداعية إلى الله يجب أن يدعو إلى هذا الدين بهذا المفهوم للدين ، إن على الدعاة والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أن يعرضوا على الناس دين الله منهجاً كاملاً تاماً ينتظم كل صغير وكبير من شئون الحياة الدنيا ، ويطب لكل مشكلاتها ويقدم لها أنسب الحلول وأكثرها ملاءمة لحياة الإنسان فى معاشه ومعاده .

٢ - وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية ألا يجزعوا أو ييأسوا أو ينخدعوا بظاهرتين كثيراً ما تخدعان الناظر إليهما وهما :

الأولى : أنهم يرون فى أعداء الحق صفات من أهمها .

ــ أنهم كثرة واضحة الجلبة والقوة المادية .

ــ وأنهم دول ومؤسسات ضخمة ذات إمكانات كبيرة .

ــ وأنهم ما بين مشرك وثنى وكتابى فاسق عن أمر ربه يمثلون السواد الأعظم من الناس .

ــ وأن المسلمين اليوم أصبح كثير منهم لا يحملون من الإسلام إلا الاسم

والكنية واللقب ، والوثيقة التى تدعى أنه مسلم الديانة .

والأخرى : أنهم يرون أنصار الحق لهم الصفات التالية :

ــ أنهم قلة فى العَدَد والعدَّة .

ــ وأنهم أفراد أو جماعات صغيرة تواجه الحرب وكل ما يمكن من وسائل القمع والاضطهاد .

ــ وأنهم فقراء لا جاه لهم فى الدنيا ولا منصب ولا سلطان بل لا حرية لهم فى أن يبلغوا دين الله إلى عباد الله .

إن هاتين الظاهرتين ما ينبغى أن ينخدع بهما الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية ، لأن الكثرة ليست دليلاً على أن أصحابها على صواب أو حق ، بل هى دائماً تحمل دائماً ما يحمله الغثاء الذى جرفه السيل ، قلما تجد فيه ما ينفع ، بينما القلة خلاصة وزبدة فى أغلب الأحيان ، وهى لذلك ممدوحة مرغوبة ، ولقد أثنى القرآن الكريم على القلة فى مواطن عديدة ليعلمنا ألا ننخدع بالكثرة ومن ذلك :

- قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1] .
- وقوله سبحانه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[2] .
- وقوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾[3] .
- وقوله جل شأنه : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[4] .

---

(١) هود : ٤٠ .
(٢) ص : ٢٤ .
(٣) البقرة : ٢٤٦ .
(٤) النساء : ٦٦ .

إن الدعاة إلى الله ما ينبغى أن ينظروا إلى أصحاب القوة المادية أو أهل الإلحاد والمروق من الدين والانحراف عن الحق والقيم الفاضلة على أنهم قوة ترهب الدعاة أو تعجزهم عن السير فى طريق الحق ، بل إنهم بهذه الكثرة والقوة لا يمكن أن يستعصوا على الدعاة .

إن الدنيا كلها إذا تحولت إلى كثرة ضالة وانكمشت القلة فأصبحت داعية واحداً ، فإن ذلك ما ينبغى أن يخدع من الحق ولا عن سنة الله فى خلقه ، وفى صراع الباطل مع الحق .

٣ - ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآية الكريمة أنهم لا يجوز لهم أن يتوقفوا عن عملهم فى مجالى الدعوة والحركة تحت ضغط إرهاب من عدو ، أو بسبب يأسهم من استجابة الناس ، فإن توقفوا فقد وقعوا فى جريمة الكتمان ، إذ كتموا دعوة الله وحالوا بين الناس وما أنزل إليهم على لسان خاتم الأنبياء ﷺ من منهاج ونظام ، ووقعوا فى مخالفة صريحة لنصوص القرآن الكريم منها :

- قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1]

- وقوله جل شأنه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ

---

(١) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠ .

﴿ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾[1] .

- وقوله جل وعلا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[2] .

إن هذه الآيات الكريمة تنذر وتحذر ، وتمنع الدعاة أن يتوقفوا عن الدعوة إلى الله لسبب من أسباب الدنيا أو لقاء ثمن من أثمانها .

كما تقرر الآيات الكريمة أن بعض الدعاة قد يضعف أو تختل لديه الموازين – وذلك جائز فى حق الدعاة ما عدا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام – فتفتح أمامهم باب التوبة ، وتمهد لهم طريق الإنابة ، فيعودون إلى ممارسة الدعوة إلى الله بشرط أن يصحب ذلك صلاح حال ، عندئذ يتوب الله عليهم وهو التواب الرحيم .

وفى بعض الأحيان يعترى بعض الدعاة فتور أو كسل فيؤثرون الراحة والدعة أو يؤثرون إرضاء الناس بتركهم على ما هم فيه ، أو قد يختلف بعضهم مع بعض فى خطة أو وسيلة – إذ لا يمكن أن يكون خلافهم فى هدف أو غاية – فيحدث لذلك بينهم شقاق ، فتتوقف قافلة الدعوة إلى الله عن المضى فى طريقها !!!

عندما بعض يصل الدعاة إلى هذا الاختلاف أو النزاع فإن الله تبارك وتعالى يذكرهم بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

---

(١) البقرة : ١٧٤ – ١٧٦ .   (٢) آل عمران : ١٨٧ .

وما ينبغى أن يكون فى الحق شقاق أو تنازع ، ولا ينبغى أن يكون بين الذين أعطاهم العلم وأتاح لهم الدعوة إليه شقاق ولكنها سنة الله فى خلقه ، كان ذلك الشقاق والنزاع بين أهل الكتاب يهود ونصارى ، وبين دعاتهم ، وكذلك هو شأن كل أمة بعد أهل الكتاب .

والدعاة فى الأمة الإسلامية قد اختلفوا فيما مضى وقد يختلفون فيما يستقبل من الأيام ، وهم مختلفون اليوم حتى إن بعضهم يهاجم بعضاً .

والأصل الذى يخرج من هذا الشقاق وذلك التنازع هو التمسك بالحق ، وبما أنزل الله ، إن ذلك هو الذى يمنع الشقاق ويزيل الاختلاف بفضل من الله وعون .

* * *

الآيات من الثامنة والستين إلى الآية الخامسة والسبعين

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠)
وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .

● في هذه الآيات الكريمة ، يأمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يخبر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، بأنهم ليسوا على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيموا التوراة والإنجيل فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح ، والإيمان بما جاء به محمد ﷺ الذى بشَّرتْ به التوراة والإنجيل .

وتقول له الآيات الكريمة : اعلم يا محمد أن هذا الكتاب الذى أنزل عليك

سيزيدهم طغياناً وكفراً وجحوداً لنبوتك ، حسداً منهم لك ، فلا تحزن لذلك ، وأخبرهم أن جميع أهل الأديان من يهود ونصارى وصابئة ، مَنْ آمن منهم بالله ، وصدق بالبعث وعمل صالحاً ، فقد نجا يوم القيامة من العذاب .

وتخبر الآيات بأن الله أخذ الميثاق على بنى إسرائيل بأن يعبدوه وحده لا شريك له ، وبأن يعملوا الصالحات ، وأرسلنا إليهم بذلك رسلنا ، فلما لم يرضهم ما جاءت به الرسل كذبوا فريقا منهم ، وقتلوا فريقاً ، ظانين واهمين أنه لن يكون لهم من الله ابتلاء ، فعموا وصموا عن رؤية الحق والاستماع إليه ، فكفر بعضهم بزعمهم أن الله هو المسيح ابن مريم ، على حين طالبهم المسيح نفسه بعبادة الله ربه وربهم حتى لا يكون مصيرهم إلى النار وكفر بعضهم بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة – والد غير مولود ، وولد غير والد ، وزوجة منتبعة بينهما – أو بقولهم : أب وابن روح القدس إله واحد .

مع أن المسيح بن مريم رسول كغيره من الرسل ، وأمه صديقه وقد كان هو وأمه بشراً من البشر يأكلون الطعام ، وقد أوضح الله لهم ذلك ، ولكنهم ينصرفون عن الحق ويتبعون الباطل .

-●- وفى الآيات الكريمة أوامر ونواه وأخبار ، وتأكيدات لكثير من الحقائق ، وحديث عن أهل الكتاب كيف افتروا ؟ وكيف كذبوا ؟ وما أنواع كفرهم ؟ وكيف بيَّن الله لهم الحق ثم انصرفوا عنه مؤثرين الضلال على الهدى ؟

أما الأوامر فهى :

— أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ بأن يخبر أهل الكتاب بأنهم مطالبون بالعمل بما جاء فى التوراة والإنجيل من التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ الذى بشرتْ به التوراة والإنجيل .

قال ابن عباس رضى الله عنه : جاء جماعة من اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا : ألست تقرأ أن التوراة حق من عند الله ؟ قال : بلى ، فقالوا : فإننا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها ، فنزلت الآية ... أى لست على شيء من الدين حتى تعملوا بما فى الكتابين من الإيمان بمحمد ﷺ والعمل بما

يوجبه ذلك الإيمان .

— وأمر من الله لنبيه ﷺ أن ينظر ويتأمل كيف يبين الله لهم الآيات ويقدم لهم الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان .

— وأمر ثالث من الله لنبيه ﷺ أن ينظر ويتأمل ويعتبر بكيفية انصراف أهل الكتاب عن الحق بعد ما بينه الله تبارك وتعالى لهم .

— وفى الآيات أمر من المسيح للنصارى بعبادة الله وحده رب المسيح وربهم ورب كل شيء ومليكه .

وأما الأخبار فكثيرة منها :

— إخبار النبى ﷺ **بأن أهل الكتاب ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا** التوراة والإنجيل ويؤمنوا بمحمد ﷺ الذى بشروا به .

— وإخباره بأن أهل الكتاب سوف يزدادون طغياناً على طغيانهم وكفراً إلى كفرهم بسبب ما أنزل الله إليك من القرآن ، وذلك أن معظم أهل الكتاب ليسوا على إيمان صحيح بالرسل ولا بما دعت إليه الرسل ، وإنما تحركهم العصبية والهوى والرغبة فى العدوان .

— وإخبار من الله تعالى لرسوله ولكل سامع أن الذين صدقوا الله ورسوله وهم :

أهل الإسلام المخلص منهم والمنافق .

وأهل الكتاب من يهود ونصارى .

والصائبون[1] .

مَنْ آمن من هؤلاء بالله وصدق بالبعث بعد الموت ، وعمل العمل

---

(1) الصائبون : هم الذين خرجوا من دينهم إلى غير دين .

وقيل : هم قوم يعبدون الملائكة .

وقيل : هم قوم يؤمنون بالله ، وليس لهم عمل ، ولا كتاب ولا نبى .

الصالح فلا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا وعيشها ، بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه .

ـ وإخبار من الله تعالى بأنه أخذ موثقاً على بنى إسرائيل أن يخلصوا فى توحيد الله ، وأن يأتمروا بما أمر وينتهوا عما نهى ، وأنه أرسل إليهم الرسل والأنبياء بالوعد على طاعة الله بحسن الجزاء ، والوعيد على المعصية بالعقاب ، ولكن بنى إسرائيل لم يوحدوا ولم يأتمروا بأمر الله ولا انتهوا عما نهوا عنه ، بل كذبوا فريقاً من رسلهم وقتلوا فريقاً بسبب أن رسلهم جاءوهم بما لا تهوى أنفسهم المعاندة للحق الجامحة عن طاعة الله ورسله .

ـ وإخبار عن اليهود بأنه قد ظن كثير منهم أنهم لا يتعرضون لفتنة مهما فعلوا من أنواع الفساد ، وهو ظن خاطئ متجاهل لسنة الله فى خلقه ومعرض عن الاتعاظ بآيات الله وأيامه ، فعموا عن كل ذلك ، وصموا عن سماع الحق وعظات الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، واستمروا فى ممارسة الظلم والفساد ، ولقد سلط الله عليهم بظلمهم وفسادهم البابليين فجاسوا خلال الديار واحتلوا بيت المقدس ، وأحرقوا المسجد الأقصى ، وأسروا اليهود وسبوا نساءهم ....

ثم رحم الله اليهود وتاب عليهم وأعاد إليهم ملكهم ، فلم يعتبروا وإنما عموا وصَمُّوا مرة ثانية ، وتحدوا أنبياءهم ورسلهم وكذبوا منهم ، وقتلوا ، كما فعلوا فى المرة الأولى ....

فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم فأزالوا ملكهم وشتتوا شملهم ، ولكن ذلك لم يعظهم ولم يقلل من حبهم لمعاندة الحق وتكذيب الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فلما كان خاتم الأنبياء محمد ﷺ كذبوه وعاندوه وأنكروا ما جاء به على الرغم من تبشير كتبهم به ، فعموا وصموا عن الحق مرة أخرى ، فعاقبهم الله على يد خاتم أنبيائه محمد ﷺ إذ أجلاهم عن المدينة المنورة أولاً ثم أجلاهم

المسلمون عن الجزيرة العربية كلها بعد ذلك .

واليهود اليوم قد استطاعوا بتأييد الغرب المعادى للإسلام أن يقهروا العرب وأن يجلوهم عن فلسطين ، وأن يقيموا لهم دولة على أرض فلسطين .

وعلى الرغم من إقامة اليهود لدولة إسرائيل على أرض فلسطين فإن المسلمين قادرون لو اتحدوا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إجلاء اليهود من فلسطين ، وعقابهم فى الدنيا مهما أيدتهم دول الظلم وعصابات اللصوص ، تصديقاً لقول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ... ﴾[1] أى : إن عدتم للظلم والفساد عدنا عليكم بتسليط من يسومكم العذاب ، ومما يعزز ذلك ويقويه قوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[2] .

وأما النهى:فى هذه الآيات الكريمة ففى قوله تعالى : ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال الإمام الطبرى فى تفسير تلك الآية الكريمة : « يقول تعالى ذكره لنبيه : لا تحزن يا محمد على تكذيب هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى من بنى إسرائيل لك ، فإن مثل ذلك منهم عادة وخلق فى أنبيائهم فكيف فيك ؟»[3] .

وقال القرطبى فى تفسيرها : « وليس بنهى عن الحزن لأنه لا يقدر عليه ، ولكنه تسلية ونهى عن التعرض للحزن »[4] .

وأما الحقائق:التى أكدتها الآيات الكريمة فكثيرة نذكر منها ما يلى :

— حقيقة كفرهم بقولهم : ﴿ إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ ولهم فى ذلك كلام

---

(١) الإسراء : ٨ . (٢) الأعراف : ١٦٧ .

(٣) الطبرى : تفسيره – مرجع سابق ٤ / ٦٥٠ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) القرطبى : تفسيره – مرجع سابق ٦ / ٢٤٥ ط دار الكتب المصرية القاهرة .

لا يقبله عقل العقلاء ، فهم يقولون : إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها « أقانيم » وهى الأب والابن وروح القدس ، ويقولون : إن المسيح هو الابن والله هو الأب وإن كلا من الثلاثة عَيْن الآخرينْ ، فينتج من ذلك - فى زعمهم - أن الله هو المسيح وأن المسيح هو الله .

— وحقيقة كفرهم بقول من قال منهم : إن الله ثالث ثلاثة ، ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ فقالوا - وقولهم باطل - : إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما ثالث أقانيم ثلاثة وهى الأب والابن وروح القدس . قال ابن جرير الطبرى : « وهذا القول عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية ، كانوا - فيما بلغنا - يقولون : الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم - أبا والداً غير مولود وابنا مولوداً غير والد وزوجاً متتبعة بينهما »[1]

— وقد رد الله تعالى على هذا الباطل فى القرآن الكريم وبين فساده على النحو الذى نبسطه فيما يلى .

- رد على زعمهم أن الله هو المسيح ، بقوله تعالى : ﴿ **وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ فأى حجة أبلغ فى الرد عليهم من ذلك إنهم يزعمون أن الله هو المسيح بينما يقول لكم المسيح : ﴿ **اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ ويخبرهم المسيح أن عبادة غير الله شرك يوجب العقاب فيقول لهم : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ .
- ورَدَّ على الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **وما من إله إلا إله واحد** ﴾ ليوضح أن مقولتهم تلك إنما جاءت من غير بصيرة ولا تَروّ ، إذ لا يستقيم أمر العالم بإلهين اثنين ، فكيف بثلاثة ؟ إنما هو إله واحد لا تركيب فيه ولا تعدد ، أى لا تعدد أجناس ولا تعدد أنواع ، ولا تعدد جزئيات

(1) الطبرى : تفسيره : مرجع سابق . ٤ / ٦٥٢ .

وأجزاء ، ولا تعدد ذوات وأعيان .

- وفى الآيات تهديد لهؤلاء المثلثة بأنهم إذا لم ينتهوا عما يقولون ويعتصموا من هذا الضلال بالعروة الوثقى عروة التوحيد ، فسوف يصيبهم بسبب كفرهم هذا عذاب شديد الألم فى الآخرة ، ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ .
- وفى الآيات الكريمة تعجب من شأن هؤلاء الكفار فى تثليثهم وإصرارهم على هذا الباطل بعد ما جاءتهم البينات المبطلة لزعمهم ، وهو تعجب تضمنه الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه** ﴾ إنهم قد أتيحت لهم فرصة التوبة والاستغفار من هذه الذنوب ؟
- وتوضح الآيات الكريمة لأهل الكتاب وللمسلمين حقيقة المسيح وطبيعته ، فليس هو الله ، ولا هو جزء من إله ، ولا هو واحد من إلهين اثنين أو ثلاثة – كما زعم بعضهم – فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام امتاز على أكثر الناس بأنه رسول من عند الله بعثه لهداية عباده ، ومطالبتهم بالتوحيد ، وقد مضت من قبله الرسل الذين اختصهم الله بالرسالة وأيدهم بالمعجزات .
- وأم المسيح هى مريم عليها السلام ، وهى صديقة من فضليات النساء ، وهى فى مرتبة تلى مراتب الأنبياء ، كما تنبئنا بذلك آية فى القرآن هى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا** ﴾[1] – والصديقون هم اتباع الأنبياء الذين صدقوهم واتبعوا مناهجهم بعدهم ، حتى لحقوا بهم –
- والمسيح وأمه لا يختلفان عن الناس فى طبيعتهما ، فهما يأكلان الطعام ، وكل من يأكل الطعام مفتقر إلى ما يقيم حياته ، وكل من افتقر إلى شىء لتستمر حياته ، فكيف يكون إلهاً ؟ ﴿ **ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات**

---

(١) النساء : ٦٩ .

ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ أى أوضحنا لهم الأدلة والبراهين ثم هم ينصرفون عن الحق ، ولا يستعملون عقولهم فى الوصول إلى النتائج من خلال التعامل مع المقدمات ، كأن عقولهم قد فقدت القدرة على التفكير الصحيح ، وأخذت فى تقليد الضالين ممن سبقوهم من القائلين بالتثليث أو بأن يقولوا : إن الله هو المسيح .

- والمواقف التربوية العامة التى نتعلمها من هذه الآيات الكريمة نشير إلى بعضها فيما يلى :

١ - نتعلم أن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، بل المسلمين أنفسهم - وهم أهل كتاب كأولئك ، كل أولئك جميعاً ليسوا على شيء يعتدُّ به من أمر الدين ، ولا ينفعهم الانتساب إلى موسى أو عيسى أو محمد عليهم الصلاة والسلام ، حتى يقيموا أمر الدين من حياتهم مقاماً عملياً مسلكياً ، يبدأ بالتوحيد الخالص ثم بالعبادة لله كما شرع ، ثم بممارسة العمل الصالح والالتزام بالقيم الخلقية التى أقرتها هذه الاديان[1] .

والتعبير بقوله تعالى : ﴿ **تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم** ... ﴾ يعنى توفية الدين وإقامته على وجهه الصحيح وشروطه وآدابه ، تماماً كما عبر القرآن الكريم بكلمة « أقيموا الصلاة » أى أدوها على وفق شروطها وآدابها ، وأما القيام بالصلاة فهو مجرد أداء قد لا يستوفى شروطاً ولا آداباً ، فقد ورد فى القرآن الكريم فى معرض الذم فى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[2] .

٢ - ونتعلم منها أن بعض مرضى القلوب والنفوس والعقول من أهل الضلال

---

(١) ومن المعلوم كما قررنا ذلك غير مرة أن اليهود والنصارى مطالبون من خلال كتبهم بالدخول فى دين الإسلام .

(٢) النساء : ١٤٢ .

والغضب ، يزيدهم نزول القرآن الكريم على محمد ﷺ طغياناً وكفراً ، كان ذلك على عهد النبى ﷺ حيث ازداد أهل الكتاب بنزول القرآن طغياناً وكفرا ، ولا يزال بعض الناس حتى اليوم يعادون الحق ويكرهون ما أنزل الله على رسوله ويزيدهم هذا الموقف ظلماً على ظلمهم ، وبعداً عن الحق فوق ما هم بعيدون عنه ، سنة الله فى خلقه ، فينبغى النظر فى ذلك باعتبار وتأمل وتدبر ، يراعى فيه التعامل مع هؤلاء الناس .

ونتعلم من ذلك أيضاً أنه لا ينبغى أن نحزن على هؤلاء ولا نيأس من أن يستجيبوا للحق يوماً إذا أراد الله لهم ذلك ، فالله سبحانه يقول لنبيه ﷺ : ﴿ **فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾ أى إذا استمروا فى كفرهم ، وإنما عليك البلاغ .

٣ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن أصول الدين وأسسه وأركانه هى :

أ – الإيمان بالله توحيده وعبادته وطاعته وفق ما أنزل على خاتم رسله محمد ﷺ .

ب – والإيمان باليوم الآخر أى البعث والحساب والجزاء والجنة والنار ...

جـ – وممارسة العمل الصالح الذى أمر الله به أو حبب فيه والإنتهاء عن كل ما نهى عنه لأنه سبحانه لا ينهى إلا عن شر أو ضر .

هذه الأصول والأركان من حققها من يهود أو نصارى أو مسلمين أو أهل أى ملة أو نحلة أو كانوا على غير دين ، هؤلاء جميعاً لا خوف عليهم من ماض سابق مهما كان حافلاً بالضلال أو الضياع ، لا خوف عليهم من أن يطاردهم شيء من ذلك ، ولا هم يحزنون يوم القيامة لأنهم بهذا الإيمان ناجون من عذاب الله . ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى مَنْ آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

٤ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن الله تبارك وتعالى ، عندما أخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل فنقضوه ، وأرسل إليهم الرسل عليهم السلام فجاءوهم بما لا تهوى أنفسهم - وما تهوى أنفسهم إلا الباطل - فكذبوا منهم فريقاً وقتلوا فريقاً ، ظانين أن ليس ذلك ابتلاء لهم من الله تبارك وتعالى واختباراً وفتنة ، فعموا عن الحق وصموا آذانهم دونه إلا قليل منهم ، وكان الله تعالى بصيراً بما يعملون .

والخبرة التربوية المعلمة من هذه الآيات ألا ينقض أحد عهده مع الله ولا ميثاقه ، وقد أخذ الله العهد على الناس أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً ، فما لم يفعلوا فقد عموا وصموا .

٥ - ونتعلم من الآيات أن الشرك فى الدين بمعنى إثبات شريك لله تعالى هو الكفر وهو الشرك العظيم الذى جاء فيه قول الله تعالى : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[١] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[٢] .

وإذا كان هذا هو الشرك العظيم أو الشرك الأكبر ، فإن هناك شركاً صغيراً وهو : مراعاة غير الله مع الله فى بعض الأمور ، وهو رياء ونفاق ، وفى هؤلاء المشركين شركا صغيراً جاء قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣] ، وقوله جل شأنه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[٤] نعوذ بالله من الشركين معاً ومن كل على حدة .

---

(١) المائدة : ٧٢ . (٢) النساء : ٤٨ .
(٣) الأعراف : ١٩٠ . (٤) يوسف : ١٠٦ .

وقد ورد فى السنة النبوية عن هذا الشرك الصغير أو الخفى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، فقال : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل ، فقال له من شاء الله أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله ؟ قال : « قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه » .

والدرس المستفاد من الآيتين والحديث الشريف أن نتوقى الشرك ما استطعنا كبيره وصغيره ذاك الذى هو أخفى من دبيب النمل ...

ولقد ورد فى السنة النبوية المطهرة صور عديدة من الشرك نذكر منها ما يلى :

« من حلف بغير شىء دون الله فقد أشرك » .

و « من علّق تميمة فقد أشرك » .

و « من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك » .

و « مَنْ سَحَر فقد أشرك » .

و « من صلى يرائى فقد أشرك » .

و « من تصدق يرائى فقد أشرك » .

ولا يسعنا إلا أن نقول : « اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه » كما كان يدعو بذلك خاتم رسل الله محمد ﷺ .

٦ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن الله تبارك وتعالى يتعجب من أحد عباده يذنب ولا يتوب عن ذنبه ويستغفر ربه فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ .

لقد فتح الله باب التوبة للناس جميعاً حتى الذين قالوا إن الله هو المسيح

أو قالوا : إن الله ثالث ثلاثة على الرغم من كفرهم وشركهم العظيم ، فكيف يغلق باب التوبة أمام مَنْ كانوا فى شركهم دون ذلك ؟ لقد قال الله تعالى : فى قبوله لتوبة من تاب من عبادة : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[2] ، وقال عز وجل عن المشركين : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3] وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[4] وقال جل وعز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[5] .

إن ذلك لدرس لمن أخطأ فندم وتاب واستغفر ، ليكون على يقين من أن الله سبحانه غفور رحيم ، وأن رحمته وسعت كل شيء وكل أحد ، وهو التواب الرحيم .

ولابد لى هنا من ذكر كلمات فى التوبة ووجوبها وشروطها حتى تتم الفائدة بإذن الله تعالى ، فأقول :

- بين العلماء المسلمين إجماع على أن التوبة من الذنب واجبة .
- وهذا الذنب إن كان معصية ارتكبها العبد وكانت بينه وبين ربه سبحانه وتعالى أى لا تتعلق بحق آدمى فلها شروط ثلاثة :

---

(١) التوبة : ١١٨ .
(٢) طه : ٨٢ .
(٣) التوبة : ١٠ - ١١ .
(٤) الشورى : ٢٥
(٥) البقرة : ٢٢٢ .

— أن يكف عن هذه المعصية .

— وأن يندم على فعلها .

— وأن يعزم على ألا يعود إليها أبدا .

فإن أخل بهذه الشروط أو ببعضها لم تصح توبته .

● وإن كانت المعصية تتعلق بأحد الناس ، فلصحتها شروط أربعة ، هذه الشروط الثلاثة وشرط رابع هو :

— أن يبرأ من حق الآدمى الذى عصى الله منه ، وإنما يبرأ من ذلك على النحو التالى .

• إن كان الحق مالاً ردّه إليه .

• وإن كان حد قذف أو نحوه مكنه فيه أو طلب عفوه .

• وإن كان غيبه استحله - أى طلب تسامحه - منها .

● والأصل فى التوبة أن تكون من جميع الذنوب .

● ومن تاب عن بعض الذنوب دون بعض صحت توبته عند أهل الحق[1] من العلماء من ذلك الذنب وبقى عليه الباق .

● والمواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يجب عليهم - كما جاء ذلك فى كتبهم - أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء فى الكتاب الذى أنزل عليه ، وعلى هذا الأساس يجب أن يكون التعامل معهم فهم من أمة الدعوة الذين يجب أن يدعوا إلى الإسلام ، ومن شاء منهم فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والتعامل مع أهل الكتاب له نظامه وأدبه فى الإسلام فقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ

(١) أهل الحق هم : أهل السنة والأشاعرة .

﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

قال جمهور المفسرين : أى جادلوهم بالطريقة أو الخصلة التى هى أحسن – أي أفضل لكم ولهم وأكثر ملاءمة وأدعى إلى قبولهم الحق ، وهذا يحتاج الملاينة فى دعوتهم إلى الله وتنبيههم على حججه وبراهينه ، لعلهم يستجيبون إلى الإسلام دين الحق الذى أمرتهم كتبهم بالدخول فيه .

ولا تجادلوهم على سبيل المخاشنة والغلظة ، إلا الذين ظلموا منهم أى أفرطوا فى المجادلة والمعاندة ، ولم يتأدبوا مع المسلمين ، فهؤلاء لا بأس أن يعاملوا بالمخاشنة أو ظلموا : بمعنى غدروا كما فعلت بنو قريظة وبنو النضير من اليهود .

أو ظلموا : بمعنى أشركوا ، أى جعلوا لله ولدا ، كما قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله .

وهذه الآية من الآيات المحكمة كما قال مجاهد وغيره من علماء تفسير القرآن الكريم .

إن ذلك من واجب الدعاة إلى الله مع أهل الكتاب .

١ – وأن طائفة من الناس سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم سوف يتحاملون على الحق ويسوءهم ما أنزل الله على خاتم رسله ﷺ ، بل يزيدهم ذلك طغياناً وكفراً ...

وهؤلاء كأولئك المعاندين ، يجب على الدعاة أن يوضحوا الحق ويقدموا إليهم من الحجج والبراهين ما يقنع به ، وأن تكون دعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعند الاقتضاء يجادلونهم بالتى هى أحسن ،

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

وألا ييأسوا منهم لأن اليأس صفة لا تليق بداعية إلى الله ، إذ هو فى الحقيقة يأس من الرجاء فى الله ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] .

إن ذلك أسلوب معلم فى تربية الدعاة وأصحاب العمل فى الحركة الإسلامية فى أى زمان وأى مكان .

٣ - وأن على الدعاة أن يدركوا أن المنافقين والمسلمين واليهود والنصارى والصابئين الذين يقيمون دين الله هم الناجون حقاً الذين يأمنون الخوف فى الآخرة ، ولا يحزنون على ما قدموا فى الدنيا من عمل ما داموا آمنوا بالله وأقاموا الدين من حياتهم فى مقامه الصحيح ، وما لم يفعلوا هذا فليسوا من الدين على شيء .

ومعنى ذلك أن الدعاة مطالبون بأن يدققوا ويحققوا فيمن يعتبر مؤمناً من الناس إلا من أقام الدين من نفسه ومن حياته مقامه الصحيح ، والمقام الصحيح للدين هو أن يتحاكموا إليه وإلى قيمه ، وأن يبحثوا فيه عن حلول لكل ما يعترض حياتهم من مشكلات .

ومن هذا الفقه يكون التعامل مع المنافقين وعصاة المسلمين وأهل الكتاب ، وجميع الناس حتى من لا دين لهم ، يكون التعامل معهم بمحاولة هدايتهم وتوضيح التدين الصحيح لهم ، وأخذهم بما يجب أن يؤخذ به العصاة والمعاندون ومن لا دين لهم من دعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال - عند الاقتضاء - بالتى هى أحسن .

٤ - وأن على الدعاة وأهل الحركة الإسلامية أن يتعلموا من هذه الآيات الكريمة طبيعة اليهود وأهم ما يتصفون به من صفات ليكون تعاملهم على وفق ما جاء فى التنزيل الحكيم ، وأهم ما أوضحته الآيات الكريمة من طبائع اليهود وصفاتهم مايلى :

---

(١) يوسف : ٨٧ .

● أنهم نقضوا عهد الله وميثاقه فيما أخذ عليهم من ميثاق ، وقد أخذ عليهم عهداً أن يؤمنوا بالله وأن يقيموا التوراة وأن يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ ، فلم يفوا بشيء من ذلك كله .

● وأنهم كانوا يتحدون الرسل الذين أرسلهم الله إليهم ويكفرون بما جاءهم به ، لأنه يخالف أهواءهم ، فيكذبون فريقاً من الرسل ويقتلون فريقا .

● وأنهم غفلوا عن أن الله سبحانه يبتليهم ويختبر إيمانهم ، غروراً منهم وكبراً ، حين عمى كثير منهم عن رؤية الحق ، وصموا عن الاستماع إليه ، وعرضوا أنفسهم لغضب الله عليهم وعقابه لهم .

● وأنهم كفروا بقولهم إن الله هو المسيح بن مريم ، على حين قال لهم المسيح عليه السلام : ﴿ **يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾ .

تلك صفات اليهود وهذه طبائعهم كما سجلها عليهم القرآن الكريم ، على الدعاة أن يعرفوها وأن يتعاملوا معهم على أساسها ، وألا يأمنوا اليهود ولا يطمئنوا إليهم بحال .

وإن كان ذلك ماضيهم ، فإن حاضرهم لا يختلف عن ذلك فى شيء ، والواقع يؤيد ذلك ويقدم عليه الأدلة والبراهين .

● وأن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يتعلموا من هذه الآيات الكريمة أن توبة الله على العصاة والآثمين مكفولة ومستمرة ، لأن ذلك منهج الله فى رحمته بعبادته .

والدعاة إلى الله يجب أن يجعلوا هذا أسلوبهم فى التعامل مع العصاة والآثمين ، بحيث ييسرون للمدعوين طريق التوبة والرجوع إلى الله ، دون تجريح على أحد ولا تنفير ولا تيئيس من رحمة الله .

إن ذلك هو صميم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن .

٦ - وأن على الدعاة أن يعرفوا أن كثيراً من الناس يتبين لهم الحق ، وتتضح لهم

الآيات ، وتقوم أمام أفكارهم الأدلة والبراهين ، ومع ذلك كله ينصرفون عن الحق ويصدفون عنه !!! كأنهم أغلقوا عيونهم وعقولهم وقلوبهم عن الاستجابة فضلاً عن التفكير والتأمل والنظر !!! فعاشوا حياتهم يسيطر عليهم التقليد وتقودهم التبعية للضالين المضلين .

إن الدعاة إلى الله والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية عندما يتعلمون هذه الدروس من آيات القرآن الكريم سوف يراجعون كثيراً من المواقف التى يقفها بعض الدعاة من هؤلاء الغافلين المضَلَّلين الذين ينصرفون عن الحق المبين .

ومعنى ذلك ومقتضاه أن يكف بعض الدعاة عن وصف هؤلاء بأوصاف الكفر والشرك والارتداد عن الدين ، إذ الأجدى على الدعاة وعلى هؤلاء الغافلين أن يحاولوا بل يستمروا فى المحاولة لتفهيمهم وتعليمهم ، ولهم فى رسول الله أسوة حسنة إذ كان يقول فى أحلك المواقف حيث يعانده قومه بل يعرضونه للأذى والمهانة : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » ، ثم ينطلق فى دعوته ما ضياً فى توضيح الحق الذى يدعو إليه ، لا يتخلل نفسه ضيق أو حزن ، فضلاً عن يأس من استجابتهم له ، ﷺ .

* * *

الآيات من السادسة والسبعين إلى الحادية والثمانين

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

- هذه الآيات الكريمة تبكيت وتوبيخ للنصارى وغيرهم ممن عبدوا غير الله تعالى من معبودات لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً .

وتنهى الآيات عن الغلو فى الدين – أى تجاوز الوحى – واتباع هوى الأنفس ، كما فعل من قبلهم فقلدوهم ، فوقعوا بهذا التقليد فى الضلال ، فأضلوا سواهم من الناس .

وقد ضل أهل الكتاب ضلالهم الثانى بالإعراض عما جاء به محمد ﷺ وهو « الإسلام خاتم الأديان » فضلوا بذلك عن سواء السبيل .

وأوضحت الآيات الكريمة لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم وعدوانهم وكونهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، واتخاذهم الذين كفروا أولياء مما لا يتفق مع الإيمان .

- وفى الآيات الكريمة احتجاج وتبكيت لكفار النصارى ،وفيها نهى ، وأكثر من خبر ، وذم على مخالفة الله تعالى واتباع الهوى ، ونعى على اتخاذ الأولياء من الكافرين .

أما الاحتجاج والتبكيت فهو :

أن الله تبارك وتعالى يحتج على النصارى القائلين فى المسيح عليه السلام : « هو الله » أو « هو ثالث ثلاثة » ويبكتهم بعبادتهم من كان بشراً جنيناً فى بطن أمه لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ، تاركين عبادة الله السميع البصير النافع الضار فأى عقول تلك وأى أفهام ﴿ **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع البصير** ﴾ .

وأما النهى :

فقد وقع فى الآيات عن شيئين أخطأ فيهما النَّصَارى وهما :

- غلوهم فى الدين فى أمر المسيح إلى درجة الخروج عن الحق حيث قالوا : إن الله هو المسيح ، أو قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ﴿ **لا تغلوا فى دينكم غير الحق** ﴾ .

- واتباعهم أهواء الضالين من قبلهم وهم اليهود الذين ضلوا وغضب الله عليهم ، حيث بهتوا مريم – وهى صديقة قانتة – فزعموا أن المسيح لغير رَشْدة أى غير صحيح النسب[1] ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ وضلالهم هنا هو زعمهم أن المسيح عليه السلام لم يجىء من نكاح صحيح .

وأما الخبر فى الآيات :

فقد أخبر سبحانه بخبرين :

- **أولهما** : أنه سبحانه وتعالى لَعَن الذين كفروا من بنى إسرائيل على كل لسان ، حيث لعنهم على عهد موسى عليه السلام فى التوراة ، وعلى عهد داود عليه السلام فى الزبور ، وعلى عهد عيسى عليه السلام فى الإنجيل ، ولعنهم

---

(١) يقال : هو ولد رَشدة ولرشدة أى صحيح النسب أو من نكاح صحيح وفى الحديث : « من ادعى ولداً لغير رشدة فلا يرث ولا يورث » .

على لسان محمد ﷺ ، قال قتادة : قوله تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل** ... ﴾ الآية : لعنهم الله على لسان داود فى زمانه فجعلهم قردة خاسئين ، وفى الإنجيل على لسان عيسى فجعلهم خنازير .

- **وثانيهما** : بيان سبب لعن الله لهم ، وهو عصيانهم لربهم وعدوانهم على حدوده ، وأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه وأن كثيراً منهم كانوا يتولون الذين كفروا ، مما أسخط الله سبحانه وتعالى عليهم . روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿ **لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون** ﴾ ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم »

ورواه الترمذى بلفظ آخر وقال حديث حسن .

وأما الذمّ :

فقد ذُموا على مخالفة الله واتباع الهوى ، حيث ارتكبوا ثلاثة أخطاء كل منها يستوجب اللعن والسخط ، وهى :

- عصيانهم لله سبحانه بالعدوان على محارمه ، كعدوانهم فى السبت ، وتجاوزهم حدود الله .

● وعصيانهم لله فى تركهم التناهى عن المنكر ، أى سكوتهم على معاودة المعاصى ، وتعاملهم مع العصاة مما يشجع على الاستمرار فى المعصية .

● وعصيانهم الله فى أنهم تولوا الذين كفروا من مشركى قريش ، وحرضوهم على حرب النبى ﷺ الذى جاءهم بالحق وصدقت بهذا الحق وبهذا النبى كتبهم .

وقد استعمل فى الذم أسلوب بئس ، فى قوله تعالى : ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ وقوله : ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم** ... ﴾ وكلمة « بئس » تستعمل فى جميع المذامّ .

والمخصوص بالذم فى قوله تعالى : ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ عامٌّ يشمل جميع أفعالهم ، والمخصوص بالذم فى قوله تعالى : ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم** ﴾ عامٌّ يتناول كل عمل فعلوه مما حرم الله .

وهذا الذم على تلك المخالفات لأوامر الله تعالى قد وصلوا به إلى حد أن سخط الله عليهم .

وسخط الله تعالى يعنى غضبه سبحانه المستوجب لعقوبتهم ، والمباعد بينهم وبين كل أنواع الخير .

● والمواقف التربوية العامة التى يتعلمها المسلمون من هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن على الناس كل الناس أن يعقلوا ويتدبروا فى كل عمل يقومون به ، وفى كل طاعة يطيعونها ، فضلاً عن أى عبادة يتوجهون بها إلى معبود - ولا معبود بحق إلا الله وحده - عليهم جميعاً أن يتأملوا فى كل هذا متسائلين قائلين :

هل نوجه أعمالنا أو طاعتنا أو عبادتنا لمن لا يملك لنا نفعاً أو ضراً ؟ ومن ذا الذى يملك أن ينفع غيره أو يضره على وجه الحقيقة ؟

إن الله وحده هو النافع الضار السميع لعباده إن هم دعوه أوجدَّفوا - أى كفروا بنعمه - فى حقه ، وفى الحديث الشريف « لا تجدفوا بنعمة الله » أى لا تكفروا بها .

إن تلك دعوة قرآنية للناس أن يستعملوا عقولهم فيما يقولون ويفعلون قبل أن يقولوا أو يفعلوا ...

٢ - ودرس آخر يتعلم من هذه الآيات هو : ترك الغُلُوّ عموماً والغلو فى الدين على وجه الخصوص ، لأن الغلو تجاوز للحد وخروج عن الحق عموماً ، فإن كان الغلو فى الدين فهو تجاوز للوحى المنزَّل من عند الله وإقبال على ما تهوى الأنفس ، وهذا التجاوز للوحى الإلهى له مفردات كثيرة منها ما يلى :

- الغلو فى الدين بإدعاء أن بعض الأنبياء والصالحين أربابٌ من دون الله ، والزعم بأنهم ينفعون أو يضرون .
- ومن الغلو فى الدين اختراع عبادات لم يأذن بها الله ، كالذبح وتقديم القرابيين لبعض الآلهة أو غيرهم من البشر ، أو من الأصنام والأشياء .
- ومن الغلو فى الدين تحريم مالم يحرم الله تعالى ، كتحريم بعض الأطعمة الحيوانية وهى مما أحل الله من الطيبات .
- ومن الغلو فى الدين تحليل ما حرم الله كالخمر والخنزير ونحوهما كالدم والميتة .
- ومن الغلو عموماً أخذ النفس بما لا تطيق وإلزامها بما لا يلزم به الله سبحانه ، كما يفعل المتزهدون والراغبون فى حرمان أنفسهم من أشياء يؤدى الحرمان منها إلى الدخول فى الضيق والحرج . وذاك غلو فى الدين والدنيا معاً .

٣ - ونتعلم من الآيات الكريمة ترك التقليد لمن ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم من الناس ، وذلك بالتشجيع على ترك ما سنّه الأنبياء والمرسلون ، لأن ذلك يؤدى إلى الابتداع فى الدين ، والتقليد فى العقيدة مرفوض ، وكذلك التقليد فى أى باطل أو شر ، فى أى أمر من أمور الدين أو الدنيا ، قال

تعالى : ﴿ **قل يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل ...** ﴾ الآية .

٤ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن نربى أنفسنا على طاعة الله مع يقيننا بأن معصيته سبحانه وتجاوز حدوده وعدم الوقوف عند معصيته سبحانه وتجاوز حدوده وعدم الوقوف عند ما أحل وما حرم ، كل ذلك من الكبائر التى تؤدى إلى غضب الله وسخطه ، ومن أبرز هذه الكبائر ما نشير إلى بعضه فيما يلى :

- معصية الله ورسوله عموماً .
- وترك التقيد بحدود الشرع وأوامره ونواهيه .
- وترك الأمر بالعروف والنهى عن المنكر .
- وموالاة الكفار والمشركين من أهل الكتاب ومن غيرهم دون المؤمنين .

- والمواقف التربوية التى نتعلمها من الآيات فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ – أن الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية عليهم دائماً دعوة الناس إلى إعمال عقولهم وإجالة تفكيرهم فيما حولهم ، حتى يستجيبوا لدعوة الله من إيمان واقتناع ، لأن من استجاب عن طريق إعمال عقله يستمر ويداوم على هذه الاستجابة للحق ، ويجد فى نفسه الدافع للعمل بل الجهاد والتضحية فى سبيل الله .

ومن لم يستجب بهذه الطريقة كان أجدر أن يتكاسل أولاً ثم يتراجع بعد ذلك أو ينتكس .

ومن رحمة الله بالناس أنه ما أمرهم بخير إلا والعقل السليم يقره ، وما نهاهم عن شر إلا والعقل السليم يرفضه ، وقديماً قال أسلافنا من العلماء لا تعارض بين الوحى والعقل .[1]

---

(١) لابن تيمية كتاب موسع سماه : درء تعارض العقل والنقل طبع أكثر من مرة .

٢ وأن يصر الدعاة والعاملون فى مجال الحركة الإسلامية على رفض المغالاة فى الدين أو فى العمل من أجل الإسلام ، وتبصير المغالين فى الدين أو فى العمل من أجله بحقيقة الدين وجوهره ، وطبيعة التدين ووسطيته .

ومن أسوأ ما يغالى فيه بعض المنتسبين إلى الدعوة أو الحركة الإسلامية أن يسارعوا إلى تصنيف الناس إلى مؤمنين ملتزمين - وهم من كانوا معهم وفى صفهم - وإلى كافرين - وهم كل من عطل حداً من حدود الله أو أتى كبيرة من الكبائر -

وهذا التصنيف نابع من سوء فقه بالإسلام ومن سوء فقه للدعوة إلى الله ، وسوء تقدير لعملهم فى مجال الحركة الإسلامية التى ينتسبون إليها .

ولأنّ هذه الأحكام على الناس بالكفر تمثل فى عصرنا هذا ظاهرة من ظواهر الصحوة الإسلامية ، فلا يمكننا أن نتجاهل توضيح الرأى فى ذلك ، فنقول وبالله التوفيق ومنه المدد :

- متى يحكم أحد من المسلمين على أحد من المسلمين بأنه كافر ؟

أولاً : يجب أن يكون مصدر هذا الحكم من أهل العلم بالإسلام أصوله وفروعه عقيدته وشريعته وأن يكون من أهل الصلاح والتقوى .

ثانياً : تكفير المسلم لا يجوز إلا إذا أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو أتى أمراً لا يحتمل وجهاً غير الكفر .. على هذا أجمع فقهاء المسلمين فى مختلف العصور وما شذَّ عن ذلك إلا جاهل بالدين .

ثالثاً : أوسع بعض العلماء هذا الموضوع بحثاً ودراسة وقالوا فيه كلمة الفصل ، ومن هؤلاء العلماء الأثبات الإمام الممتحَن لتمسكه بكلمة الحق أحمد بن تيمية رحمه الله . قال : « فصل ... ولا يجوز تكفير مسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة فإن الله تعالى قال : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

﴿ وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم .

والخوارج المارقون الذين أمر النبى ﷺ بقتالهم وقاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب أحد الخلفاء الراشدين ، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم ، ولم يكفرهم على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وغيرهما ، وأغاروا على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار ، ولهذا لَم يَسْب حريمهم ولم يغنم أموالهم .

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لَمْ يُكَفَّروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق فى مسائل غَلِط فيها من هو أعلم منهم ؟

فلا يحل لإحدى هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ، ولا تستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيهم بدعة محققة .

فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضاً ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، والغالب أنهم جميعاً جُهال بحقائق ما يختلفون فيه .

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعض على بعض ، ولا تحل إلا بإذن الله ورسوله ، قال النبى ﷺ لما خطبهم فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا » . وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وقال ﷺ : « من صَلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله » . وقال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه وقال : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وقال : « إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » .

وهذه الأحاديث كلها فى الصحاح .

ثم يواصل ابن تيمية قائلا : « وإذا كان المسلم متأولاً فى القتال أو التكفير ، لم يَكفّر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبى بلتعة : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وهذا فى الصحيحين ، وفيهما أيضاً من حديث الإفك أن أُسيد بن الحضير قال لسعد بن عبادة : إنك منافق تجادل عن المنافقين .

واختصم الفريقان فأصلح النبى ﷺ بينهم» فهؤلاء البدريون فيهم من قال لآخر منهم : إنك منافق ، ولم يكفر النبى لا هذا ولا هذا بل شهد للجميع بالخير .

وكذلك ثبت فى الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلاً بعد ما قال : لا إله إلا الله . وعظَّم النبى ﷺ ذلك لما أُخبر ، وقال : « يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ » وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة : تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ومع هذا لم يوجب عليه قوَداً ولا دية ولا كفارة ، لأنه كان متأولاً ظن جواز قتل ذلك القائل لظنه أنه قالها تعوذاً .

فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغى بعضهم على بعض إخوة مؤمنون ، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل ، ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضا موالاة الذين لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيَقْبل بعضهم شهادة بعض ، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ سأل ربه : « ألاّ يُهلك أمته بسنة عامة فأعطاه ذلك ، وسأله ألاّ يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطاه ذلك ، وسأله ألاّ يجعل بأسهم

بينهم فلم يُعط ذلك » وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يغلبهم كلهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يَسْبِى بعضاً .

وثبت فى الصحيحين لما نزل قوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك ، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك ، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : هاتان أهون .

هذا مع أن الله تعالى أمر بالجماعة والائتلاف ونهى عن البدعة والاختلاف وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ وقال النبى ﷺ : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة » وقال : « الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد » وقال : « الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم ، وإنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم » .

ثم يواصل الإمام ابن تيمية قائلا : « فالواجب على المسلم إذا صار فى مدينة من مدائن المسلمين أن يصلى معهم الجمعة والجماعة ويوالى المؤمنين ولا يعاديهم ، وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً ، وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان قادراً على أن يوَلّى فى إمامة المسلمين الأفضل وَلّاه ، وإن قدر أن يمنع من يُظهر البدع والفجور منعه ، وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، كما قال النبى ﷺ فى الصحيح : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة – فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سناً » .

وإن كان فى هجره لمظهر البدعة والفجور مصلحة راجحةٌ هجره كما هجر النبى ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم .

وأما إذا وَلّىَ غيره بغير إذنه ، وليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً ، وكان قد رَدَّ بدعة ببدعة .

حتى إن المصلى الجمعة خلف الفاجر ، اختلف الناس فى إعادته الصلاة ، وكرهها أكثرهم ، حتى قال أحمد بن حنبل فى رواية عبدوس : من أعادها فهو مبتدع ، وهذا أظهر القولين ، لأن الصحابة - رضى الله عنهم - لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع ، ولم يأمر الله تعالى قط أحداً إذا صلى كما أُمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة ...

فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند الفاجر ، بل جعل الله لكل شىء قدرا »[1]

٣ - ويتعلم الدعاة وأهل الحركة الإسلامية من هذه الآيات أن يؤكدوا لأنفسهم ولمن يدعونهم من الناس أن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو تقبل من يُنْهى عن المنكر فلا ينتهى ، من العظائم التى تؤدى إلى غضب الله وسخطه وتستوجب عذابه يوم القيامة .

ومعنى ذلك أن يتعلم الدعاة إلى الله ومن يدعونهم من الناس أن الدعوة إلى الله عمل وممارسة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنّ النهى عن المنكر ومقاطعة من نهى عن المنكر فلم ينته واجب شرعى ، لأن محاصرة المرتكب ومقاطعته علاج له ووقاية للمجتمع من شروره وآثامه .

ومن أجل تنقية المجتمع المسلم من الشرور والمعاصى رفض موالاة غير المسلمين — على نحو ما بينا فى توضيح معنى الولاية آنفاً - لأن ذلك هو الذى يحفظ للمجتمع المسلم نقاءه ، ويمكنه من التعاون على البر والتقوى ومن التكافل ، أما غير المسلمين فإن بعضهم أولياء بعض يهوداً كانوا أو نصارى .

إن على الدعاة إلى الله أن يتعلموا من هذه الآيات أن إهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كبيرة من الكبائر تستتبع ضياعاً للمسلمين وتفككاً للمجتمع المسلم وانحلالاً له ، أكدت ذلك سنة النبى ﷺ .

---

(١) ابن تيمية : مجموعة الرسائل : ٥ / ٢٠٠ - ٢٠٤ ط وتوزيع دار الباز بمكة المكرمة دون تاريخ - وأعلم أنه طبع فى مصر .

روى الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » .

وروى الشيخان بسنديهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »

وروى الإمام أحمد بسنده عن عدى بن عميرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بيْن ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله الخاصة والعامة » .

وروى أبو داود بسنده عن ابن عميرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيَها كان كمن شهدها » .

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » قال : فبكى أبو سعيد وقال : قد والله رأينا أشياء فهبنا .

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله يقول : « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقّن الله عبداً حجته قال : يارب رجوتك وفرقت[1] من الناس » .

وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال

---

(١) أى خفت .

رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس ... فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا إن بنى آدم خلقوا على طبقات شتى منهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ، ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ألا إن الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرض الأرض ، ألا إن خير الرجال من كان بطىء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سَريع الغضب بطىء الرضا ، فإذا كان الرجل بطىء الغضب بطىء الفيىء ، وسريع الغضب سريع الفيىء فإنه بها ، ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب ، وشر التجار من كان سيىء القضاء سيء الطلب ، فإذا كان الرجل حسن القضاء سيىء الطلب أو كان سيىء القضاء حسن الطلب فإنها بها ، ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة ، ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه ، ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، فلما كان عند مغيربان الشمس قال : ألا إن مثل ما بقى من الدنيا فيما مضى مثل ما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وبعد ذكر هذه الأحاديث النبوية الشريفة فإن الخلاصة التى يجب أن يتنبه لها الدعاة ويفهموها من مجموع هذه الأحاديث النبوية هى :

أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أبرز إيجابيات الحركة الإسلامية ، وأنه حتى مع عجز المسلمين عن أن يغيروا المنكر بأيديهم أو بألسنتهم لخوف الباطشين من السلاطين ، فإن إنكارهم المنكر بقلوبهم

عمل إيجابى له أهمية فى بناء المجتمع المسلم الراشد .

وإذا كان الرسول ﷺ دعانا إلى تغيير المنكر – والتغيير عمل إيجابى – وجعل من التغيير إنكار القلب ، فهذا يؤكد أن التغيير بالقلب ليس سلبية وليس رضاً بالمنكر ، ولا بأهله ، وكيف يكون من السلبيات وهو تغيير ؟

إن المسلم الذى ينكر المنكر بقلبه – لعجزه عما فوق ذلك – يتحول هذا الإنكار بقلبه إلى رفض إلى طاقة وقوة يحتفظ بها حتى تحين الفرصة لإقامة المعروف مقام المنكر أو لتبديل المنكر باللسان أو باليد ، فهو انتظار مدروس محسوب لارضا بواقع لا بديل عنه .

وإنما سمى الحديث النبوى الإنكار بالقلب أضعف الإيمان لوجوب أن يحتفظ المسلم دائماً وعند الاضطرار – بهذا الحد من الإيمان الذى لا يصح التدين إلا به .

وإذا فات المسلمين فى تغييرهم للمنكر أن يحتفظوا بأضعف الإيمان ، فقد فاتهم الإيمان كله ، لأن الإيمان كما نفهم من الحديث الشريف أعلاه التغيير باليد واقتلاع الشر والفساد من جذوره بالقوة ، وأدنا التغيير بإنكار القلب ومقاطعة المرتكب ورفض مؤاكلته ومشاربته ومجالسته .

وإذا وصل المسلمون فى زمن من الأزمان إلى فقد أضعف الإيمان فإنهم – ونسأل الله العفو والعافية فى الدين والدنيا – لا يختلفون عن أمم قبلهم لعنهم وسخط عليهم لأنهم لم يكونوا يتناهون عن منكر فعلوه !!! .

إن على الدعاة أن ينتبهوا لهذا وأن ينبهوا الناس ، لأنـه مـن معـالم الدعوة الإسلامية ، ومن حوافظ الحركة الإسلامية ، وكل ذلك عند التمسك به ومراعاته هو الذى يحول بين الحركة الإسلامية وبين أن يخترقها أحد من أعدائها والمتربصين بها وما أكثرهم فى كل زمان ومكان .

٤ – ويتعلم الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة أخذ العبرة من تاريخ أهل الكتاب مع الإسلام والمسلمين منذ عهد النبى ﷺ

وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين ، ومهما تنوعت أسماء أهل الكتاب وتعددت ألقابهم من اليهودية إلى الصهيونية ومن النصرانية أو المسيحية إلى الصليبية ، ومن اليساريين أو العلمانيين ، فإنهم جميعاً صف واحد مهما اختلفوا فيما بينهم ما دام العدو هو الإسلام ، وما دام الكيد للإسلام والمسلمين .

إن على الدعاة أن يحذورا الانخداع بهذه الكنى والألقاب وأن يحذروا منها سائر المسلمين ، وأن يتعاونوا فيما بينهم على مواجهة هذا الكيد وهذه الحرب وذلك القتال الذى يشنه هؤلاء الأعداء على الإسلام والمسلمين .

إن تربية الشباب المسلمين والرجال المسلمين على هذه المعانى وتبصيرهم بهذه الحقائق هى التى تعين على أن يعرف المسلم عدوه ، فإذا عرفه عرف إمكاناته واستعداده ، فأعد له ما يناسبه ونازله بمثل سلاحه وآلته وتفوق عليه بالإيمان وبالوعد بنصر الله للمؤمنين .

إن الله تبارك وتعالى طالب المسلمين بالإعداد لأعدائهم كل أنواع الإعداد المادى – الآلة العسكرية – والمعنوى ، بحربهم عن عقيدة ، بحيث يكون الهدف هو إرهابهم وإرهاب كل من تسول له نفسه التعرض للإسلام والمسلمين ، سواء أكان العدو ظاهراً نعرفه ونحس به ، أو كان خافياً علينا اليوم ولا يعلم كيده إلا الله ، وصدق الله العظيم ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[1] .

هذا ما يجب أن يتعلمه الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من القرآن الكريم ومن هذه الآيات الكريمة على وجه الخصوص .

* * *

(١) الأنفال : ٦٠ .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

-●- هذه الآيات الكريمة ترسم أبعاد الحالة النفسية لأهل الكتاب ، وتصور مشاعر الكراهية والضيق عند اليهود والمشركين للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به ، وتوضح أن أقرب أهل الكتاب للمؤمنين أولئك الذين قالوا إنا نصارى ، ثم تعلل هذه الآيات لهذا القرب من المؤمنين على نحو ما سنفصل فيما بعد ، ونحن نشرح الآيات الكريمة ، ثم تحدد الآيات جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين المكذبين بآيات الله .

-●- وفى الآيات الكريمة إخبار وتقرير ، وبيان لصفات المؤمنين وجزائهم ، وتحديد لصفات الكفار المكذبين وتوضيح لما يستحقونه من عقاب .

أما الإخبار فبأمور كثيرة منها :

- إخباره ﷺ بعداوة اليهود والمشركين له وللمؤمنين بما جاء به عداوة شديدة .
- وإخبار له ﷺ بأن أقرب الناس مودة له وللمؤمنين معه هم الطائفة المؤمنة من النصارى الذين إذا سمعوا ما أنزل إليه سالت أعينهم دمعاً لما يعرفون من الحق الذى جاء به محمد ﷺ وبشرت به كتبهم .
- وإخبار له ﷺ بما أعد الله من جزاء للمؤمنين وجزاء للمكذبين المعاندين ،

هؤلاء الذين أحسنوا باتباع محمد ﷺ وأولئك الذى أساءوا بتكذيبه وتحدى ما جاء به .

وأما التقرير ، فإن الآيات قد قررت أموراً منها ما يلى :

- تقرير أن اليهود والذين أشركوا سواء فى عداوتهم للإسلام والمسلمين ، ومعنى ذلك أن اليهود أو هذه العداوة كأنهم تخلوا عن دينهم وصاروا بهذه العداوة كالمشركين ،
- وتقرير أن من النصارى من هم أقرب مودة للإسلام والمسلمين .
- وتقرير أن القسيسين والرهبان أبعد عن الاستكبار وتكذيب الحق ، وأن الصالحين منهم رقيقوا الشعور تفيض أعينهم بالدمع عندما يستمعون إلى الحق الذى جاء به محمد ﷺ .
- وتقرير أن صالحى النصارى من القسيسين والرهبان أهل دعاء وخشوع ، وأهل تعقل وحكمة .
- وتقرير الجزاء العادل للمؤمنين والكافرين .

وأما بيان صفات المؤمنين وجزائهم فهو :

- من صفاتهم أنهم متواضعون لا يستكبرون عن اتباع الحق .
- وأنهم يستمعون إلى ما يقول الرسول ﷺ ولا يصمون آذانهم ويستغشون ثيابهم كما فعل غيرهم .
- وأنهم رقيقوا المشاعر .
- وأنهم يعرفون الحق ويعترفون به .
- وأنهم أهل خشوع ودعاء وأمل فى رحمة الله .
- وأنهم أهل عقل وحكمة يستنكرون على أنفسهم ألاّ يؤمنوا .
- وأن جزاءهم عند الله أفضل جزاء إذ هو جنات تجرى من تحتها الأنهار ومع الخلود فيها ، لأنهم أحسنوا بدخولهم فى الإيمان فأحسن إليهم بإدخالهم جنة الخلد .

وأما توضيح صفات الكافرين المكذبين وبيان ما يستحقون من عقاب فهو فيما يلى :

- عداوة الإيمان والمؤمنين .
- وأنهم أشد عداوة للمؤمنين إذا كانوا من اليهود أو من المشركين .
- وأنهم يكفرون بالله وبكتبه ورسله جميعاً بما فى ذلك كتابهم التوراة .
- وأنهم يكذبون بآيات الله ودلائله وبراهينه .
- وأنهم أهل الجحيم يوم القيامة بل أصحابها المقيمون فيها أبداً .

ـــ وفى الآيات الكريمة فيما يتصل باليهود مصداقية تاريخية إذ كانوا فى الماضى ألد أعداء النبى ﷺ ، واستمروا على هذه العداوة فى مختلف عصور تاريخ المسلمين من أيام الفتنة التى أثاروها فأدت إلى مقتل عثمان ذى النورين رضى الله عنه ، إلى كيدهم الذى أدى إلى إسقاط دولة الخلافة العثمانية ثم تآمر الغرب والشرق معهم لسلب فلسطين من العروبة والإسلام .

فاليهود كذبوا بعض أنبيائهم وقتلوا بعضهم وامتلأ تاريخهم معنا بالغدر والخيانة والدس والإيقاع وإثارة الفتن والقلاقل والعبث بتراث المسلمين وتاريخ أهل الصلاح منهم وفى الحديث النبوى الشريف الذى رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ماخلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله » .

وفى رواية أخرى للحديث : « ماخلا يهودى بمسلم إلا حدثته نفسه بقتله » .

وإذا كان هذا هو عداء اليهود كما وصفه ووصفهم القرآن الكريم ، فإن عداء المشركين للإيمان والمؤمنين يشبه عداء اليهود شبهاً كبيراً ، فالقرآن يصف المشركين بأنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، ويصفهم بأنهم معتدون ، وبأنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين من خير من الله ، وأنهم قتلوا أولادهم ، وبأن الله برىء منهم ، وأنهم يكبر على أنفسهم مايدعوهم إليه الرسول ﷺ . والآيات الدالة على هذه الصفات كثيرة .

ـــ وفى الآيات ما يلقى ضوءاً على تعامل صالحى النصارى مع النبى ﷺ والمؤمنين كما أوضحنا .

وسيرة النبى ﷺ تؤكد ذلك ، فمن المعروف أن رسول الله ﷺ أرسل رسله ومعهم كتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، ويبصرهم بالحق الذى جاء به ، ويحملهم مسئوليتهم عن أنفسهم وعمن وراءهم إن هم لم يستجيبوا لدعوة الحق .

لما فعل الرسول ذلك كان النصارى من هؤلاء أحسن ردًّا ، وعلى سبيل الاستشهاد نذكر ما يلى :

- هرقل ملك الروم فى الشام آنئذ ، لما جاءه رسول النبى ﷺ ، حاول إقناع الشعب بقبول دين الإسلام والدخول فيه ، ولكن طوائف منهم رفضوا وحاصوا وعاندوا ، فسكت وردّ على النبى ﷺ ردًّا حسنا .
- والمقوقس عظيم القبط فى مصر ، ردّ على دعوة الرسول ﷺ إياه بالدخول فى الإسلام ردًّا حسناً وشفع ردّه بأن أرسل للرسل ﷺ هدية معروفة .

وعلى الرغم من أن بشارة موسى بعيسى عليهما السلام مثل بشارة عيسى بمحمد ﷺ ، إلا أن اليهود قوم موسى كانوا أغلظ وأخبث فى التعامل مع النبى ﷺ فى حياته ومع المسلمين حتى يومنا هذا ، كانوا أغلظ وأخبث من النصارى وإن بقى كل منهم على دينه .

ـــ والآيات الكريمة توضح لنا أن النبى ﷺ والمؤمنين رأوا من عداوة اليهود والمشركين ما وصفه الله تعالى بأنه عداوة شديدة ، بينما لم يروا من النصارى القريبين من الإسلام إلا المودة وحسن التعامل ، وتلك حقيقة تاريخية لا يمكن لأحد من المنصفين أن ينكرها .

ولم يتبدل موقف النصارى من المسلمين إلا بعد ذلك بزمن عندما شنوا الحروب الصليبية على المسلمين فى مصر والشام والأندلس وغيرها ... .

والأمر يحتاج إلى توضيح فيما آل إليه أمر اليهود وأمر النصارى فى معاداة المسلمين ،

ونكتفى هنا بالإشارات التالية :

- أصبح اليهود بمضى الأيام أكثر بعداً عن دينهم الذى بشر بمحمد ﷺ ، وصاروا أشد عداوة للمسلمين فعملوا ضد الإسلام والمسلمين على مَرّ تاريخ المسلمين حتى اليوم وكان من أعمالهم المعادية ما هو معروف لكل مراقب لهم – مما نذكر طرفاً منه فيما يلى :

١ – أثاروا الفتن بين المسلمين لكى يفرقوا كلمتهم .

٢ – ودسوا على التراث الإسلامى كثيراً من المفتريات .

٣ – وحاولوا وضع أحاديث نبوية لم تصح نسبتها إليه ﷺ .

٤ – وكان لهم أثر فى شن الحروب الصليبية على المسلمين فى الفترة من ٤٩٢ هـ إلى ٦٩١ هـ .

٥ – وساعدوا فى طرد المسلمين من الأندلس وقتل من بقى منهم فيها أو إجباره على ترك دين الإسلام .

٦ – وبذلوا جهوداً كبيرة فى القضاء على دولة الخلافة العثمانية .

٧ – وتحالفوا مع نصارى الغرب فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ م وقدموا مساعدات للإنجليز مما جعل « بلفور » وزير خارجية « المملكة المتحدة » يعدهم بوطن فى فلسطين .

٨ – وعاونهم العالم المسيحى غربه وشرقه فى تمكينهم من إقامة دولة لهم فى أرض فلسطين .

٩ – وعاونتهم دول الغرب على العدوان على البلاد العربية المحيطة بدولتهم فاحتلوا سيناء والجولان والضفة الغربية وجنوبى لبنان فيما بعد .

١٠ – ولا تزال تعاونهم دول الغرب والشرق على اضطهاد أهل الأرض وتكسير عظامهم ودفنهم أحياء وطردهم من بلادهم والعالم يكتفى بالامتعاض ولا يجرؤ أحد حتى مجلس الأمن على اتخاذ قرار كذلك الذى اتخذه ضد العراق بعد عدوانها على الكويت !!!

● وأما النصارى فقد ازدادوا بعداً عن دينهم الذى بشر بمحمد ﷺ ، وتحولوا من المسيحية السمحة الودود إلى الصليبية المعتدية الظلوم ، واتخذت أعمالهم العادية للإسلام والمسلمين أشكالاً نذكر منها ما يلى :

١ - شنوا الحروب الصليبية الدامية على مدى قرنين من الزمان على مصر والشام .

٢ - وقاموا بأعمال وحشية ضد المسلمين فى الأندلس حيث قتلوا منهم أعداداً عظيمة وطردوا أعداداً مماثلة وأجبروا أعداداً على ترك الإسلام والدخول فى النصرانية .

٣ - وعملوا على إسقاط دولة الخلافة الإسلامية بتركيا .

٤ - واحتلوا بعد عدوان عسكرى مسلح كثيراً من البلدان الإسلامية وأقاموا فيها كأنهم أصحابها عقوداً عديدة من السنين ، وما خرجوا إلا بعد كفاح ، وقد تركوا فيها من ركائزهم فى النظم والرجال ما حال بين معظمها وبين التقدم العلمى أو الحضارى عموماً أو استعادة الهوية العربية الإسلامية .

٥ - اخترعوا أنظمة : « الانتداب » و « الحماية » و « الوصاية » و « الاستعمار » و « سد الفراغ » و « النقطة الرابعة » و « التنمية » و « القوميات » و « العلمانية » و « الاشتراكية » وغيرها ليحولوا بذلك بين المسلمين وبين هويتهم الإسلامية ويعزلونهم عن دينهم ومنهجه ونظامه .

٦ - واستغلوا انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى ليقتسموا العالم الإسلامى ، وظهرت دولة مستعمرة إلى جوار فرنسا وانجلترا وإيطاليا هى الاتحاد السوڤيتى السابق وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وأخيراً وبعد حرب الخليج - عاصفة الصحراء - أمريكا - فأصبح لهم وجود ونفوذ فى معظم بلدان العالم الإسلامى .

٧ - وصنفوا العالم الإسلامى كله فى « العلم الثالث أو النامى أو الفقير أو

الجنوبى » وترتب على هذا التصنيف ما ترتب مما لا مجال للحديث عنه هنا .

٨ – وجندوا كنائسهم وبعثاتهم « التبشرية » التنصيرية لتدخل الناس فى النصرانية رغباً أو رهباً ، كما هو واضح فى آسيا وإفريقيا .

٩ – وجندوا جيشاً من المستشرقين ليضللوا ويفتروا على الإسلام الكذب فى كثير من كتبهم ومؤلفاتهم بل فى دوائر المعارف التى أعدوا من الإسلام .

١٠ – ومسخوا عقولاً كثيرة من عقول العرب والمسلمين تنادى بوجوب اتخاذ الحضارة الغربية « التغريب » بديلاً عن الحضارة الإسلامية ، وزعموا أن ذلك تنويراً وإصلاحاً !!!

١١ – ووضع الغرب الصليبى سياسة للعالم الإسلامى تقوم على ركائز هامة تؤدى فى النهاية إلى أن يظل قابعاً فى ظلام الجهل والفقر والتخلف وفقد الانتماء ، وهذه الركائز هى :

أ – الاستيلاء بالكيد أو بالحرب على موارد العالم الإسلامى وموارده الأولية كالقطن والقمح والنفط والمعادن وسائر خيراته .

ب – وحرمان كثير من البلدان الإسلامية من إنتاج القمح وغيره من المحاصيل ليظل فى حاجة إلى الغرب فى لقمة العيش .

جـ – ومحاربة تصنيع السلاح فى العالم الإسلامى ، لكى يخوض العالم الإسلامى حروبه مع أعدائه من اليهود والصليبيين بأسلحة صليبية !!!

د – والتشجيع على قيام انقلابات عسكرية فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، لتحول بين الناس وبين حقوقهم المشروعة وتقهرهم وتحول بينهم وبين التقدم والخروج من دائرة نفوذ الغرب عليهم .

هـ – واستقطاب عدد من زعماء العالم الإسلامى ليكون ولاؤهم للغرب لا لبلادهم .

و – وإثارة الفتن والخلافات والفرقة بين بلدان العالم الإسلامى .

ز - وترويج المخدرات والمسكرات ، وموجة الانحلال الأخلاق ، للقضاء على شباب العالم الإسلامى .

١٢- وضرب الحركات الإسلامية فى كل مكان وبكل سلاح حتى بالديمقراطية - كما حدث فى الجزائر وغيرها من البلدان التى تستجيب لضرب الإسلاميين لسبب ولغير سبب .

١٣- ومساندة أى دولة أو نظام يضرب الإسلام والمسلمين كما هو حادث فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، وكما هو واضح بالغ الجور والظلم فى البوسنة والهرسك ، وأذربيجان .

١٤- والسيطرة على مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة لتكيل بمكيال للعرب والمسلمين وبمكيال آخر لإسرائيل وأرمينيا والصرب والكروات .

١٥- واختراع ما عرف بالنظام العالمى الجديد الذى تسيطر بمقتضاه أمريكا على العالم وتفعل فيه ما تشاء ضد الإسلام والمسلمين لصالح الصليبية الجديدة والصهيونية العالمية .

ومالا أستطيع أن أحصى هنا من أعمال العداء التى يقوم بها الغرب وحده أو الغرب متحالفاً مع روسيا أو الغرب متحالفاً مع إسرائيل أو الغرب متحالفاً مع الشيطان لتحدى الإسلام والمسلمين وقمع أى حركة إسلامية ، ومحاصرة أى دولة إسلامية محاصرة عسكرية كالصومال أو محاصرة سياسية كإيران أو محاصرة اقتصادية كمعظم بلدان العالم الإسلامى اليوم .

●- والمواقف التربوية العامة التى تتضمنها هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يأخذوا كل الحذر من صنفين من الناس ولا يأمنوا لهم جانباً ولا يصدقوا لهم قولاً أو عهداً ، وهذان الصنفان هما :

● اليهود - لما سبق أن أوضحنا - « ماخلا يهودى بمسلم ... » .

● والذين أشركوا فهم الذين ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ .

٢ – وأن على المؤمنين أن يعلموا أن من النصارى من يؤمن بالمسيحية الحقة – قبل تحريفها – فيكون بذلك أقرب مودة للمؤمنين ، لأن المسيحى الحق يعلم أن دينه قد بشر بمحمد ﷺ وأمره باتباعه[1] وكل من نكل عن ذلك فقد كفر بالمسيحية قبل أن يكفر بالإسلام .

أخرج أبو الشيخ بسنده عن قتادة قال : ذُكر لنا أن هذه الآية ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى** ... ﴾ – نزلت فى الذين أقبلوا مع جعفر – بن أبى طالب – رضى الله عنه – من أرض الحبشة ، وكان جعفر لحق بالحبشة هو وأربعون معه من قريش وخمسون من الأشعريين منهم أربعة من « عكّ » أكبرهم أبو عامر الأشعرى وأصغرهم عامر ، فذُكر لنا أن قريشاً بعثوا فى طلبهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، فأتوا النجاشى فقالوا : إن هؤلاء قد أفسدوا دين قومهم ، فأرسل إليهم فجاءوا فسألهم فقالوا : بعث الله فينا نبياً كما بعث فى الأمم قبلنا ، يدعونا إلى الله وحده ، ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ويأمرنا بالصلة وينهانا عن القطيعة ، ويأمرنا بالوفاء وينهانا عن النكث .

وإن قومنا بغوا علينا وأخرجونا حين صدقناه وآمنا به ، فلم نجد أحداً نلجأ إليه غيرك .

فقال : معروفاً .

فقال عمرو وصاحبه : إنهم يقولون فى عيسى غير الذى تقول ، قال : وما تقولون فى عيسى ؟

قالوا : نشهد أنه عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ، وَلَدتْه عذراء بتول .

---

(١) رأيت بنفسى عدداً من المسيحيين الذين دخلوا فى دين الإسلام فى أكثر من بلد من بلدان أوربا وأمريكا رجالاً ونساء وشيبا وشباباً بل كان من فضل الله علىّ أن شاركت فى إشهار إسلام بعضهم .

قال : ما أخطأتم ، ثم قال لعمرو وصاحبه : لولا أنكما أقبلتما فى جوارى لفعلت بكما - أى عاقبتكما -

وذُكر لنا : أن جعفر وأصحابه إذ أقبلوا جاء أولئك معهم فآمنوا بمحمد ﷺ .

قال قائل : لوقد رجعوا إلى أرضهم لحقوا بدينهم ، فَحُدِّثْنا أنه قدم مع جعفر سبعون منهم ، فلما قرأ عليهم النبى - ﷺ - القرآن فاضت أعينهم » .

٣ - وأن على المؤمنين أن يتعلموا من الآيات الكريمة أن صفات المؤمنين من أهل الكتاب ومنهم المسلمون ، هى الصفات التى أشارت إليها الآيات فيما يلى .

- العلم .
- وعبادة الله وحده .
- وإخلاص كل أمر وكل شيء وكل قول وكل فعل لله وحده .
- والتواضع وترك الاستكبار ، وتلك صفة ملازمة للعلم والعبادة .
- وإعمال العقل والانقياد للحق والعمل للحق وبالحق .
- ورقة القلوب التى تؤدى إلى أن تفيض الأعين بالدمع من خشية الله ومحبته وإيثار الحق والرضا به .
- والتوجه إلى الله فى رحمته وعفوه .
- واستنكار أن يظل الإنسان على غير هدى الله ، بعد ما جاء به محمد ﷺ .
- وأن يكونوا من المحسنين ، وإحسان المحسن كما قال الإمام الطبرى : أن يوحدوا الله توحيداً خالصاً محصناً لا شرك فيه ، ويقر بأنبياء الله وما جاءت به من عند الله من الكتب ، ويؤدى فرائضه ، ويجتنب معاصيه ، فذلك كمال إحسان المحسنين الذى قال الله تعالى فيهم : **﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها**

وذلك جزاء المحسنين ﴾ .

٤ – وأن على المؤمنين أن يوقنوا بأن الله تبارك وتعالى سيجازى الكفار والمكذبين جزاء من جنس عملهم وجزاؤهم هو الاستقرار فى الجحيم كأنهم أصحابها الملازمون لها ، فليس للمؤمنين أن ينخدعوا بصولة الكفار والمكذبين لآيات الله ودلائله ، لأن مصيرهم عند الله أسوأ مصير .

ومن كانت عاقبته كذلك فى دار الخلود فلن تنفعه فى الدنيا دار الفناء صولة ولا جوله ولا سلطان ، بالغا ما بلغ قدر ذلك ، وكائنا ما يكون .

● والمواقف التربوية التى تدل عليها الآيات الكريمة فى مجالى الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ – أن على الدعاة والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية فى أى مكان أن يربوا المدعوين على حقيقة كبرى هى :

أن اليهود والمشركين ألد أعداء الإسلام والمسلمين ، فما ينبغى أن يوثق فيهم ولا أن يصدَّق ما يقولون ، فاليهودى كما أسلفنا ماخلا بمسلم إلا حدثته نفسه بقتله ، والمشرك لا يرقب فى مؤمن إلاً ولا ذمة .

وأن يعلموا من يدعونهم أن اليهود والمشركين يشتركون فى صفات وأخلاق لا يفارقونها أبداً ، ومن أبرز هذه الصفات : الكبر ، والتجبر ، والبغى ، والحسد ، والاستعلاء على الناس ، والتعصب للجنس والعرق ، والمادية ، والأثره ، والقسوة بل الوحشية ، وكل رذيلة إنسانية تباعد بينهم وبين الحق وأهله وتقوى العداء للإسلام والمسلمين .

إن تربية الأمة الإسلامية على وعى هذه الحقائق الثابتة ، تجنب الأمة الإسلامية فى حاضرها ومستقبلها كثيراً من المتاعب وكثيراً من المؤامرات والدسائس والحرب والقتال .

٢ – وأن على الدعاة والحركيين أن يدركوا أن النصارى الذين كانوا أقرب مودة للنبى ﷺ وللذين آمنوا ، إنما كانوا كذلك لأنهم آمنوا بالمسيحية قبل

تحريفها فآمنوا بمحمد ﷺ كما بشرتهم به المسيحية الحقة .

وأما النصارى بعد عهد النبى ﷺ فقد تنكروا للمسيحية وصاروا صليبيين .

إن المسلمين يجب أن يتربوا على ذلك وأن يعوا هذا الدرس ، وأن يتعلموا أن الصليبية المعادية للإسلام تغير زيها وتبدل شكلها ، ولكن العداء هو العداء .

إن ذلك يستوجب على الدعاة والحركيين مزيداً من الوعى والحذر ، وألا يثقوا إلا فيمن تبع دينهم ، وأن يعتمدوا على أنفسهم فيما يحتاجون إليه ، وألا ينخدعوا فى نصائحهم ولا ديونهم لا معوناتهم المشروطة دائماً ، سواء أكانت الشروط منظورة أو غير منظورة .

إن تلك التربية هى التى تصوغ أمة إسلامية قادرة على تحدى أعدائها ومسالمة من يسالمها والتعامل مع الأعداء وغيرهم بأدب الإسلام وأخلاقه .

وبغير هذه التربية سوف يظل العالم الإسلامى متخبطاً لا يعرف عدوه ولا يستطيع أن يفارق دائرة التراجع الحضارى الذى يعيش فيه اليوم .

٣ – وأن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يؤمنوا إيماناً جازماً بأن اليهود والنصارى قد بشرتهم كتبهم بنبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن كتبهم قد أوجبت عليهم الإيمان به ومؤازرته على الحق الذى يدعو إليه ، أى أنهم طولبوا بالدخول فى الإسلام .

ومعنى ذلك أن من كفر منهم بدين محمد ﷺ فى أى زمان وأى مكان فقد كفر بما جاء به موسى وما جاء به عيسى عليهما السلام .

إن تربية أجيال المسلمين على معرفة هذه الحقائق يغيّر كثيراً مما يجب أن يتغير من أفكار المسلمين اليوم وسلوكهم فى التعامل مع اليهود والنصارى ، تغيراً نحو الأحسن والأفضل والأرضى لله تبارك وتعالى ، والذى يعطى

لأهل الكتاب كل حقوقهم فى الإسلام إذا التزموا بواجباتهم فيه .

بل إن ذلك يغير موقف الأمة الإسلامية كلها من أهل الكتاب دون تباين فى مواقف دول الأمة الإسلامية مع أهل الكتاب أو تناقض .

إن أهل الكتاب اليوم هم الصهاينة والصليبيون ، بكل ما تفرزه كل واحدة منهما من أحقاد وشرور موجهة ضد الإسلام والمسلمين .

إن أهل الكتاب بابتعادهم عن كتبهم قبل تحريفها وعن هدى هذه الكتب قد أصبحوا خطراً على المسلمين والإنسانية كلها يجب الحذر منه واتخاذ المواقف الكفيلة برد كيده .

وإن ذلك واجب الأمة الإسلامية من منطلق أنها الأمة الوسط أى أمة العدل والقسطاس وتحريم الظلم والعدوان على إنسان أو حيوان أو شيء .

ولن يوضح هذه الحقائق للأمة الإسلامية إلا الدعاة وأهل الحركة الإسلامية .

٤ - وأن على أهل الدعوة والحركة أن يثبتوا فى نفوس الناس حقيقة كبرى تعد من سنن الله تعالى فى الخلق وهى أن أحسن الجزاء ينتظر المؤمنين المحسنين ، وأن الجحيم ينتظر الذين كفروا وكذبوا بآيات الله ، بغض النظر عما هو دائر فى هذه الحياة الدنيا من سطوة أهل الباطل وسلطانهم .

تلك سنة من سنن الله فى الخلق حتى يميز الخبيث من الطيب وحتى يجد المؤمنون حلاوة الإيمان ، ولكى يكون هناك جهاد للنفس ، وجهاد للشيطان وجهاد للعدو ، فى جولات يتخذ الله فيها الشهداء ، ويكتب لأهل الحق إحدى الحسنيين : النصر على الأعداء على الرغم من تفوقهم عدداً وعدة ، أو الاستشهاد فى سبيل الله حيث يحشرون يوم القيامة مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقا .

إن تربية المسلمين على هذه المعانى هى التى تمكنهم من أن يخوضوا

معاركهم مع أعدائهم مسلحين بالإيمان الصحيح والعقيدة السليمة ، والأخذ بالأسباب الملائمة لهؤلاء الأعداء من اليهود والمشركين والصليبيين الذين خرجوا من المسيحية إلى ما اختاروا هم لأنفسهم من دين ونظام .

* * *

الآيات من السابعة والثمانين إلى الثامنة والتسعين

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

●هذه الآيات الكريمة كلها ، تخاطب الذين آمنوا ، حيث نُودوا أربع مرات فى هذه الآيات الكريمة بـ ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ وبينت للمؤمنين أحكاماً عديدة فى أنواع السلوك الإنسانى وبينت لهم كفارة اليمين .

وتضمنت الآيات النهى عن الخمر والميسر وما تؤديان إليه من تباغض وشحناء ، وأوضحت الآية عفو الله بشرط أن يكون المعفو عنه مؤمناً تقياً محسناً .

وفى الآيات أحكام الصيد للمحرم بحج أو عمرة ، وكفارة من صاد وهو محرم ، وفيها حكم صيد البر والبحر ، وإشادة بمكانة الكعبة والبيت الحرام ، ومكانة الشهر الحرام والهدى والقلائد .

●وقد اشتملت الآيات على أخبار وأوامر ونواه وتحذير وتخويف ، ونستطيع بعون الله أن نوضح ذلك فيما يلى :

أما الأخبار فكثيرة نذكر منها ما يلى :

- أخبرهم بأنه سبحانه لا يحب المعتدين .
- وأخبرهم بأنه سبحانه لا يؤاخذهم باللغو فى أيمانهم ولكن يؤاخذهم على الأيمان المنعقدة .
- وأخبرهم بكفارة اليمن .
- وأخبرهم بأنه سبحانه بين لهم آياته لعلهم يشكرون نعمه .
- وأخبر بأن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان .
- وأخبرهم بأن الشيطان يكيد لهم ليوقع بينهم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة .

ـ وأخبرهم بأن وظيفة الرسول هى البلاغ .

ـ وأخبرهم بأن لا جناح عليهم فيما طعموا إذا ما اتقوا وعملوا الصالحات وأحسنوا .

ـ وأخبرهم بأن الله يحب المحسنين .

ـ وأخبرهم بأنه ابتلاهم بشيء من الصيد تناله أيديهم ورماحهم .

ـ وأخبرهم بحكم جزاء من قتل الصيد وهو محرم .

ـ وأخبرهم بأنه أحل لهم صيد البحر وحرم عليهم صيد البر ماداموا حرماً .

ـ وأخبرهم بأنه جعل الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد أمناً للناس وأماناً - على نحو ما سنفصل إذا أذن الله تعالى .

وأما الأوامر فى الآيات فكثيرة كذلك ، نذكر منها ما يلى :

ـ أمرهم بالأكل من الحلال الطيب .

ـ وأمرهم بتقوى الله .

ـ وأمرهم بحفظ أيمانهم .

ـ وأمرهم باجتناب عمل الشيطان كله - على نحو ما سنفصل .

ـ وأمرهم بطاعة الله ورسوله والحذر من اغتضاب الله .

ـ وأمرهم بتقوى الله فى ممارسة ما أحل الله وما حرم .

وأما النواهى فكثيرة منها ما يلى :

ـ نهاهم عن تحريم ما أحل الله .

ـ ونهاهم عن الاعتداء على منهج الله وحدوده .

ـ ونهاهم عن قتل الصيد أو صيده ما داموا محرمين .

وأما التحذير والتخويف فمنه ما يلى :

ـ خوفهم من الاستجابة لهمزات الشياطين فى الخمر والميسر ونحوهما .

— وحذرهم من التولى عن طاعة الله ورسوله .

ومن أجل توضيح ماتضمنته الآيات الكريمة نقول سائلين الله تعالى التوفيق .

— ينادى الله على المؤمنين وينهاهم عن أن يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم من الطيبات تزهداً أو تنسكاً أو تقرباً إلى الله ، لأن ذلك فى الحقيقة تضييق على النفس وحرمان لها مما أحل الله .

وتنهاهم الآيات عن الاعتداء على ما أحل الله وما حرم أى تطالبهم بالاعتدال أى لايتجاوزون الحلال أو الحرام .

روى ابن جرير الطبرى بسنده عن السدّى قال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم** ... ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكّر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا عشرة منهم على بن أبى طالب وعثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنهم : ما خفنا إن لم نحدث عملاً فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم ، فنحن نحرم !!! فحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون[1] ممن حرم النساء ، وكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه ، فأتت امرأته عائشة رضى الله عنها ، وكان يقال لها – أى لا مرأة عثمان – الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من نساء النبى ﷺ : مابالك ياحولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تطيّبين ؟ .

فقالت وكيف أتطيب وأمتشط وما وقع عَلىّ زوجى ولارفع عنى ثوباً منذ كذا وكذا ، فجعلن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال : ما يضحككن ؟ قالت عائشة : يارسول الله ، الحولاء ،

---

(١) هو عثمان بن مظعون بن حبيب (... — ٢ هـ) أبو السائب الجمحى ، كان من حكماء العرب فى الجاهلية ، يحرم الخمر ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، وهاجر إلى الحبشة مرتين ، وأراد التبتل والسياحة فى الأرض زهداً بالحياة فمنعه رسول الله ﷺ فاتخذ بيتاً يتعبد فيه ، فآتاه النبى ﷺ فأخذ بعضاً وأتى البيت وقال : ياعثمان : إن الله لم يبعثنى بالرهبانية – مرتين أو ثلاثة – وإن خير الدين عند الله الحنيفية السمحة . شهد بدراً ولما مات جاءه النبى ﷺ فقبله ميتاً وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة وأول من دفن بالبقيع منهم ، رضوان الله عليهم .

سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عنى زوجى ثوبا منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : مابالك ياعثمان ؟ قال : إنى تركته لله لكى أتخلى للعبادة وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يَجُبَّ نفسه فقال رسول الله ﷺ : « أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك » فقال : يارسول الله : إنى صائم قال : أفطر ، فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة قد اكتحلت وامتشطت وتطيبت ، فضحكت عائشة فقالت : ما بالك ياحولاء ؟ فقالت : إنه أتاها أمس ، فقال رسول الله ﷺ ، ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ؟ ألا إنى أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ، فنزلت : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا** ﴾ ، يقول لعثمان : لا تجب نفسك فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا أيمانهم ، فقال : ﴿ **لا يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾[1] .

وفى رواية أخرى لابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما : قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ...** ﴾ قال رهط من أصحاب النبى ﷺ ، قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهواتنا الدنيا ، ونسيح فى الأرض كما تفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأرسل إليهم فذكر ذلك لهم فقالوا : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء فمن أخذ بسنتى فهو منى ، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى »

ـ **وأمرهم أن يأكلوا مما رزقهم الله من الطيبات فهذا حلال طيب لهم يستوجب شكر الله على من عبدوه إيماناً به ، والشكر يكون بالعمل أصلاً وقد يكون بالقول : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ والله سبحانه يوسع على عباده بما يُحِلُّ لهم من الطيبات ، بل يطالبهم بالتمتع بهذه الطيبات وينهاهم عن**

(١) ابن جرير الطبرى : جامع البيان ٥ / ١١ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م .

تحريمها على أنفسهم ، لتستقيم حياتهم الدنيا على منهجه القويم وقد أمر الله بهذا التمتع الأنبياء والمرسلين كما أمر به المؤمنين .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له لذلك » .

— وأمرهم بتقوى الله فى الأكل وغيره من تناول أسباب الحياة ، وما يجوز لهم أن يفتاتوا على شرع الله بتحليل ما حرم أو تحريم ما أُحَلّ فهذا اعتداء على منهجه وعلى شرعه وحدوده ، وطالبهم باتقاء سخطه فى ذلك وخوف غضبه ، ﴿ **فاتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ أى بوحدانيته وبربوبيته مقرون مصدقون .

— وتعلمهم الآيات الكريمة أن من كان منهم قد حلف أن يحرم على نفسه بعض ما أحل الله تزهداً وعزوفاً عن الدنيا – كما حدث من أولئك الصحابة رضوان الله عليهم ، فإن الله سبحانه لايؤاخذه بهذا اللغو فى أيمانهم ، وإنما عليهم ماداموا قد حنثوا فى أيمانهم أن يكفروا عنها .

وقد قسم الفقهاء اليمين إلى ثلاثة أقسام :

- يمين تُكفَّر : ومثالها : الرجل يحلف على الأمر لا يفعله ثم يفعله ، أى يحنث فى يمينه ، فعليه الكفارة .
- ويمين لا تُكفَّر : ومثالها : الرجل يحلف على الأمر يتعمد فيه الكذب ، فليس لهذه اليمين كفارة – ويسمونها اليمين الغموس لأنها تغمس صاحبها فى النار .
- ويمين لغو : لا يؤاخذ عليها صاحبها : ومثالها : الرجل يحلف على الأمر يرى

أنه كما حلف عليه ، فلا تكون كذلك ، فليس عليه كفارة .

قال الله تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ .

— وتوضيح الآيات الكريمة ، كيف يكفر الحالف عن يمينه التى حنث فيها ، وتبين أنه مخيَّر بين أن يطعم عشرة مساكين من أوسط طعام أهله أو يكسوا هؤلاء المساكين ، أو يعتق رقبة أى يحررها من العبودية التى فرضت عليها .

والكفارة : سميت كذلك لأنها تكَفُّر بعض الذنوب والمؤاخذات أى تُغطيها وتخفيها ، حتى لا يكون لها أثر فى الدنيا ولا فى الآخرة أى لا يؤاخذ عليها فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وكفارة اليمين المنعقدة هى واحدة من هذه الأعمال التالية :

١ – عتق الرقبة .

٢ – أو كسوة عشرة مساكين .

٣ – أو إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم الحانث أهله .

وقد روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى تفسير ذلك قوله : يغدِّيهم ويعشيهم ، من نحو ما يطعم أهله ويقوتهم ، وفسَّر ذلك ابن عمر رضى الله عنهما بالخبز واللحم ، والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والتمر ، وهو أقلها .

أما الكسوة ، فالمعروف عن العلماء أنهم قالوا : الواجب ثوبان ثوبان ، وهذه رواية الحسن وابن سيرين .

وقال سعيد بن المسيب عمامة يلف بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها ، وقالوا : أدق ما فى الكسوة هو أن يدفع للمسكين ما يجوز أن يصلى فيه من الثياب إن كان رجلاً أو امرأة بحسبه .

وأما عتق الرقبة فيعنى فكاكها من العبودية ، وقد عبر القرآن الكريم

عن ذلك بفك الرقبة ، وقد اشترط مالك والشافعى وأحمد أن تكون هذه الرقبة مؤمنة ، ويرى أبو حنيفة أن الرقبة الكافرة تجزئ لعموم الآية ، وتقييد الرقبة بأنها مؤمنة إنما ورد فى كفارة القتل والظهار ، قال الله تعالى : **﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾**

ـــ ثم أوضحت الآيات كفارة من لم يجد شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة الإطعام أو الكسوة أو فك الرقبة ، وهى : صيام ثلاثة أيام ، متتابعات عند جمهور الفقهاء ، قال مجاهد : كل صوم فى القرآن فهو متتابع إلا قضاء رمضان فإنه عدة من أيام أخر .

وبعض الفقهاء لا يشترط التتابع فى كفارة اليمين .

فإن عجز عن الصوم لمرض ونحوه نوى الصيام عند القدرة ، فإن لم يقدر ، رجى له عفو الله بحسن نيته وصدق عزيمته .

وهذه الأنواع من كفارة اليمين بالله أو بأحد أسمائه أو صفاته إنما تجب على من حلف ثم حنث فى يمينه أو أراد الحنث لأنه رأى خيراً من يمينه .

وأدب الإسلام فى ذلك أن المسلم لا يحلف بالله يميناً صادقة فضلاً عن يمين كاذبة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ ﴾[1] وقال تعالى فى بيان الكفارات : **﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾** .

ـــ ونادت الآيات الكريمة على المؤمنين تخبرهم بأن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس – أى قذر من عمل الشيطان وشر وسخط – وحرمته عليهم بل حرمت الاقتراب منه من أجل الحصول على الفلاح عند الله بترك هذه الأوساخ .

---

(١) البقرة : ٢٢٤ .

فما هذه الأوساخ ؟ هى :

● الخمر وهى معروفة ، وهى كل ما خامر العقل وضيعه وضيع مع العقل المال وكرامة الإنسان .

وتتخذ الخمر من أشياء كثيره ، وليس من العنب وحده كما زعم بعض الغافلين ، وكل خمر ، وكل مسكر حرام وكل خمر حرام ، وما أسكر كثيرة فقليله حرام .

وهذه الآية : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾ من أواخر ما نزل فى تحريم الخمر تحريماً قاطعاً ، بعد أن كانت قد حرمت على التدريج ، مرة فى سورة البقرة ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ** ﴾[1] وحرمت بعد ذلك لمن أراد الصلاة ﴿ **لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ** ﴾[2] ثم حرمت تحريماً مطلقاً فى هذه الآية الكريمة من سورة المائدة .

● **والميسر هو : التقامر بالقداح فى كل شيء ، وهذه القداح هى الأزلام والأقلام والسهام – وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك فى تفسير الآية الثالثة من هذه السورة « المائدة » وتحاول الآية أن توضح المشار إليه هناك بشيء من التفصيل والله المستعان .**

الميسر : قمار العرب فى الجاهلية بالأزلام والقداح ، والمشتركون فى هذا القمار يسمون « الأيسار » ويطلق الميسر على كل ما فيه مخاطرة وجهالة بالعاقبة من ربح وخسارة كالنردو وغيره .

وكان ميسر الجاهلية على « حزوز » بحيث يجتمع الأيسار ويتقاسمون

(١) البقرة : ٢١٩ . (٢) النساء : ٤٣ .

الأزلام ، ولكل زلم نصيب بقدر ما فيه من الحزوز – جمع حزّ وهو علامة – وتوضع الأزلام فى خريطة ويتولى « الضريب » أمين الميسر إخراجها على أسماء من اختاروها ، فإن خرج القدح الذى سماه صاحبه فقد ظفر وغنم بقدر ما فى قِدْحه من حزوز ، ويستمر الأمر كذلك إلى نهاية المقامرة .

وكان لحم الحزوز لا ينال فيه الرابحون وإنما يعطى لفقراء الحىّ . ومن أجل هذا كان الدخول فى الميسر عندهم من أمارات النبل والكرم ، وكان يتمدحون بذلك .

- والأنصاب جمع : نُصُب وهو حجر كان يعبد من دون الله وتذبح عنده الذبائح ، وتصب دماؤها عليه ، وكان حول الكعبة فى الجاهلية أنصاب كثيرة يذبحون عليها لغير الله تبارك وتعالى .

- والأزلام جمع : زلم ، وهو قطع من الخشب مسَوَّاة تصلح أن تكون سهماً .

وكان العرب فى الجاهلية يقترعون بالأزلام .

وكانت الأزلام يكتب على أحدها : أمرنى ربى ، وعلى الثانى : نهانى ربى ، ويكون الثالث غفْلا لا كتابة عليه ، فإذا خرج ما عليه الأمر فعلوا ، وإذا خرج ما عليه النهى امتنعوا ، وإذا خرج الغفل أجالوا الأزلام مرة أخرى .

ويقال : إن الاستقسام بالأزلام هو لمعرفة مقدار الأنصبة فى الميسر .

- والرجس هو : القذر حسيًّا كان أم معنوياً ، ويطلق على ما يستقبح فى الشرع وفى العقل والفطَر السليمة .

وكل من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، حكم عليها القرآن الكريم بأنها رجس من عمل الشيطان ، يجب اجتنابه إذ هو سخط وشر ، حتى يفلح الإنسان فى دنياه وآخرته .

— ثم أخبرت الآيات الكريمة بما للشيطان من تأثير على الناس يمارسوا هذا الرجس فيوقعهم بممارسته فى العداوة والبغضاء ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فتلك أربعة أهداف للشيطان بعضها أضر من بعض وهى :

- التعادى أى عدوان بعضهم على بعض .
- والتباغض أى بغض بعضهم لبعض .

وفى هذين الشرين من تفريق الكلمة وإذهاب الريح ما فيهما ، وحسبهما شراً أنهما يضيعان الإيمان وأخوة الإسلام .

- والصد عن ذكر الله بالانشغال بهذه الشرور والمساخط ، ومن صُدَّ عن ذكر الله فقد خسر دنياه وأخراه .
- والصد عن الصلاة من أقبح الأعمال وأضر الذنوب فالصلاة عماد الدين أو عموده وهى كلها دعاء ، ومن صُد عنها فقد حرم خيراً كثيراً واستحق عقاباً كبيراً .

ويُرغب الله سبحانه وتعالى المؤمنين فى الانتهاء عن هذه الكبائر بأبلغ أسلوب وأجله فى نفوسهم وهو أسلوب الاستفهام الذى يتضمن أمراً إلهيًّا بالانتهاء عن هذه الكَبائر ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ أى انتهوا .

— والآيات الكريمة تأمر بطاعة الله ورسوله ، وتحذر من المخالفة لشىء من أوامر الله ونواهيه ، وتهدد الذين لا يستجيبون للأمر ولا ينتهون عما نهوا عنه بالعقاب على هذا الإعراض وذلك التولى عن الحق أى يقول تعالى : فإن توليتم عن أمرى ونهيى فتوقعوا عقابى واحذروا سخطى ، وما على رسولى إليكم من مسئولية فى ذلك بأكثر من أنه بلغكم ، قال تعالى فى ذلك : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ .

— وتعلمهم الآيات الكريمة حكماً شرعياً سألوا عنه فيما بينهم ، إذ قالوا بعد نزول آية تحريم الخمر والميسر :

ما بال إخواننا الذين ماتوا وكانوا يشربونها ؟

وما بالنا نحن وقد كنا نشربها ؟

وما بال الغائبين عنا اليوم ولم يعرفوا هذا الحكم الأخير القاطع فيها ؟

وقد أخبرتهم الآية الكريمة بأنه لا حرج على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيما شربوا أو تياسروا قبل نزول هذه الآية القاطعة ، لأن الله تعالى لم يكن حرم ذلك ، إذا ما اتقوا الله وآمنوا به وعملوا الصالحات وصدقوا الله ورسوله فيما أمرهم به وما نهاهم عنه فأطاعوا فى هذا وذاك ، ثم خافوا الله وراقبوه باجتنابهم محارمه بعد ذلك التكليف ، فثبتوا على اتقاء الله فى ذلك والإيمان به ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ثم اتقوا الله وخافوه ، فدعاهم خوفهم من الله إلى الإحسان بمعنييه المعروفين وهما : مراقبة الله تبارك وتعالى فى كل عمل ، والإجادة والإتقان لكل عمل ، وأقبلوا بهذا الإحسان على النوافل والقربات ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾ .

قال قتادة : قوله : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ...** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ ، لما أنزل الله تعالى ذكره تحريم الخمر فى سورة المائدة بعد سورة الأحزاب قال فى ذلك رجال من أصحاب رسول الله ﷺ : أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها . فنحن نشهد أنهم من أهل الجنة ، فأنزل الله تعالى ذكره : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾ يقول : شربها القوم على تقوى من الله وإحسان ، وهى لهم يومئذ حلال ، ثم حُرِّمت بعدهم - فلا جناح عليهم فى ذلك ...[1] .

---

(١) انظر : الفيروزبادى : بصائر ذوى التمييز « منازل التقوى » ٥ / ٢٥٨ ط وزارة الأوقاف بمصر ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .

— وتخاطب الآيات الكريمة المؤمنين فتعلمهم أحكاما شرعية تختص بالصيد فى البحر والبر ، فى حالتى الإحرام بحج أو عمرة أو الإحلال .

فتخبرهم بوجوب الامتناع عن الصيد – صيد البر – فى حالة الإحرام بحج أو عمرة ، على الرغم من تعرض أنواع من الصيد لهم بأيسر وسائل الصيد ، لكنهم مطالبون بأن يمتنعوا عن صيده طاعة لله تعالى الذى يبتليهم ويختبرهم بشىء من الصيد تناله أيديهم ورماحهم ولا يجوز لهم أن يقربوه ، ليعلم الله بذلك من يخافه من المؤمنين بالغيب فينتهى عما نهاه الله عنه ، ومن تجاوز حدود الله بعد ابتلائه بتحريم الصيد فصاد وهو محرم ، فله عذاب من الله موجع ، قال تعالى : **﴿ يـٰأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾** .

— وأوضحت لهم الآيات الكريمة جزاء من اعتدى على هذا الصيد متعمداً – وهو محرم – وهو أن يكفِّر عن هذا الخطأ بأن يقدم الهَدْى كفارة عما قتل من أنواع الطير أو الحيوان ، وعند الشبهة أو الاختلاف مثيل ما قتل من الصيد فإنه يحكِّم اثنان ذوا عدل .

وإنما اشترط اثنان لأن التقدير يختلف من واحد إلى آخر فكان لا بد من اثنين ليكون التقدير عادلاً .

وهل يكون أحد الحكمين ممن قتل صيداً ؟ فى ذلك خلاف بين العلماء ، والأحوط لأمر الدين ألا يكون من بينهما .

وفى المثلية بين ما قتل وما يهدى جزاء عنه كلام كثير أجمعه وأوفاه – فيما نعلم وما نعلم إلا القليل – ما رواه الطبرى بسنده عن الضحاك بن مزاحم قال : « فجزاء مثل ما قتل من النعم » .

- ما كان من صيد البر مما ليس له قرن – الحمار أو النعامة – فعليه مثله من الإبل .

- وما كان ذا قرن من صيد البر - وعْل أو أيّل - فجزاؤه من البقر .
- وما كان من ظبى فمن الغنم مثله .
- وما كان من أرنب ففيها ثنية - شاة فى الثالثة من عمرها .
- وما كان من يربوع وشبهه ففيه حمل صغير .
- وما كان من جرادة ونحوها ففيه قبضة من طعام .
- وما كان من طير البر ففيه أن يقدّم ويتصدق بثمنه ، وإن شاء صام لكل نصف صاع يوماً .
- وإن أصاب فرخ طير برية أو بيضها ، فالقيمة فيها طعام أو صوم ، على الذى يكون فى الطير .
- غير أنه قد ذكر فى بيضة النعام إذا أصابها المحرم ، أن يحمل الفحل على عدة ما أصاب من البيض على بكارة الإبل ، فما لقح منها أهداه إلى البيت ، وما فسد منها فلا شيء فيه .

وقال عطاء : فإن أصاب إنسان نعامة كان له - وإن كان ذا يسار - موسعاً ، إن شاء يهدى جزوراً أو عدلها طعاماً أو عدلها صياماً أيتهن شاء ، من أجل قوله : ﴿ **فجزاء** ﴾ أو كذا أو كذا . فكل شيء فى القرآن : أو ، فليختر منه صاحبه ما شاء .

— وقد أوجب الله على قاتل الصيد محرماً ، ما أوجب من الجزاء والكفارة كى يذوق هذا المخالف وبال أمره ، لأن الكفارة عقوبة له وتمحيص « ليذوق وبال أمره » .

— ومن رحمة الله بعبادة أنه لا يؤاخذهم بما ارتكبوه قبل التحريم أو فى جاهليتهم قبل أن يدخلوا فى الإسلام ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، فلا مؤاخذة فى ذلك .

غير أن من عاد إلى قتل الصيد بعد تحريمه وإيجاب الجزاء عليه تعرض لا نتقام من الله تعالى بالجزاء والكفارة فى الدنيا ، وبالعقاب فى الآخرة ،

لأنه خالف أمر الله ، قال تعالى : ﴿ **عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام** ﴾ .

— ومن تشريع الله سبحانه لعباده المؤمنين أن أحل لهم صيد البحر – والمراد بالبحر الماء الكثير ، فيدخل فيه البحار والأنهار والآثار ونحوها ، مما يوجد فيه حيوانات مائية تعيش فى الماء أو فى البحر غالباً وفى البر قليلاً ، فقد أحل الله ما يعيش فى ماء البحر لأنه صيده ، وما لفظه البحر وإن كان ميتاً إذ هو طعامه ، فقد أحل الله ذلك للمحرمين وللمسافرين يتزودون به ، فهو متاع للمسافرين والمقيمين .

روى الطبرى بسنده عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة** ﴾ قال : يصطاد المحرم والمحل من البحر ، ويأكل من صيده .

وقال الطبرى : تأويل الكلام : أحل لكم أيها المؤمنون طرى سمك الأنهار الذى صدتموه فى حال حلكم وحرمكم ، وما لم تصيدوه من طعامه الذى قتله ثم رمى به إلى ساحله[1] .

وقال سعيد بن المسيّب فى قوله : ﴿ **طعامه متاعاً لكم** ﴾ قال : طعامه ما تزودت مملوحاً فى سفرك .[2] قال الله تعالى : ﴿ **أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة** ﴾ .

— وحكم آخر هو أن الله تعالى حرّم صيد البر على المحرم حتى لو لم يقتله ، أى حرم أخذ الصيد على المحرم ، وقد روى الشافعى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم بأسانيدهم من حديث جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « صيد البحر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يُصَدْ لكم » .

وروى أحمد بسنده عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : كنت يوماً جالساً مع رجال من

---

(١) الطبرى : جامع البيان مرجع سابق : ٥ / ٦٦ .

(٢) السابق : ٥ / ٦٩ .

أصحاب رسول الله ﷺ فى منزل فى طريق مكة ورسول الله أمامنا والقوم محرمون وأنا غير محرم عام الحديبية ، فأبصروا حماراً وحشياً وأنا مشغول أخصف نعلى فلم يؤذنونى وأحبوا لو أنى أبصرته ، فالتفت فأبصرته فقمت إلى الفرس فأسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح ، فقالوا : والله لا نُعِينك عليه ، فغضبت فنزلت فأخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمار فعقرته ، ثم جئت به وقد مات فوقعوا فيه يأكلونه ، ثم إنهم شكوا فى أكلهم إياه وهم حُرم ، فَرُحْنا – وقد خبّأت العضد معى – فأدركنا رسول الله ﷺ فسألناه عن ذلك فقال : هل معكم منه شيء ؟ فقلت نعم فناولته العضد فأكلها وهو محرم » قال الله تعالى : ﴿ **وحرم عليكم صيد البَرّ ما دمتم حرماً** ﴾ .

— وتطالبهم الآية الكريمة بخشية الله وحذره وطاعته فيما أمر به وفيما نهى عنه ، فإن مصير الناس جميعاً إليه يحشرون عنده فيجازيهم عما قدموا من عمل صالح يرضيه سبحانه وتعالى . ﴿ **واتقوا الله الذى إليه تحشرون** ﴾ .

— وتحدثت الآيات الكريمة عن نوع من الأمان لا يضمنه رئيس ولا قوة ولا سلطان ، وإنما يضمنه مكان بعينه هو الكعبة المشرفة البيت الحرام كله ، بل الحرم كله بحدوده المعروفة لا يصطاد صيده ولا يختلى خلاه ولا يعضد شجره » ، فقد جعل الله سبحانه الكعبة البيت الحرام قواماً للناس الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم ، فحجز بها بعض الناس عن بعض ، إذ ليس قوام غير هذه الكعبة المشرفة ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس** ﴾ .

— وتحدثت الآيات عن نوع من الأمان ليس نتيجة لسطوة رئيس ولا قوة ولا مكان ، ولكنه بجزء من الزمان ، وبنوع من الحيوان الذى يهدى إلى الله سبحانه وتعالى ، حيث جعل الله ذلك أيضاً قواماً للناس الذين لا قوام لهم ، يحجز بعضهم عن بعض ويعطف بعضهم على بعض ، وفى ذلك قوام للناس أى صلاح لدينهم ودنياهم وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى عطفاً على تحريم الكعبة البيت الحرام : ﴿ **والشهر الحرام والهدى والقلائد** ﴾ أى

جعلها قواماً للناس كالكعبة البيت الحرام .

روى ابن جرير بسنده عن قتادة : قوله : ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد** ﴾ حواجز أبقاها بين الناس فى الجاهلية ، فكان الرجل لوجر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يُقرب ، وكان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه ، وكان الرجل إذ أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من الناس ، وكان إذا نفر تقلد قلادة من الإذخر أو من لحاء السمر ، فمنعته من الناس حتى يأتى أهله ، حواجز أبقاها الله بين الناس فى الجاهلية .[1] .

وهناك معنى لجعل الله سبحانه الكعبة البيت الحرام قياماً للناس غير ما ذكرنا ، وهو جعل تشريعى ، أى شرع الله أن تكون الكعبة البيت الحرام قياماً للناس فى أمر دينهم الذى يهذب أخلاقهم ويزكى أنفسهم بما فرض عليهم من الحج الذى هو جامع للعبادات كلها ، الروحية والبدنية والمالية ، والاجتماعية .

وأوفق الآراء أن يكون الجعل تكوينى تشريعى معاً وهو عام شامل لما تتحقق به مصالح الناس فى دينهم ودنياهم ، وشامل كذلك لزمن الجاهلية والإسلام ، فإذا كان ذلك فى الجاهلية كان المعنى التكوينى التصييرى أوضح ، وإذا كان ذلك فى الإسلام كان المعنى التشريعى أوضح وأظهر .

ـــ وقد فعل الله سبحانه وتعالى كل ذلك ليعلّم الناس أن الله العزيز الذى جعل لهم مصالح دنياهم ممابه قوامهم علماً منه بما ينفعهم وما يضرهم ، وهو سبحانه عليم بجميع ما فى السموات وما فى الأرض مما فيه صلاح دنيا الناس وآخرتهم ، ليوقن الناس أن الله بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء ومن أعمالهم فى الدنيا سواء منها ما أسروا به أو أعلنوا عنه ، بل هو سبحانه يحصى عليهم أعمالهم إحصاء دقيقاً حتى يجازى المحسن على إحسانه والمسيء على

---

(١) الطبرى : جامع البيان ٥ / ٧٩ مرجع سابق .

إساءته ، وأنه سبحانه واسع المغفرة لمن أطاعه شديد العذاب لمن عصاه : ﴿ **ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شيىء عليم ، اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم** ﴾ .

والمواقف التربوية العامة التى نستفيد منها من هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن المسلم مطالب بالالتزام بما أحل وما حرم ، وبالتوازن فى التعامل مع ما أحل الله وما حرم ، فليس من التقوى ولا من الصلاح أن يضيّق إنسان على نفسه فيحرم عليها التمتع بطيبات ما أحل الله ، لأن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه وتعالى لعلمه بما يصلح الإنسان وما قد يفسده فى حاضره أو مستقبله .

وترك الطيبات بتحريمها أو ممارسة المحرمات على سبيل التنسك والتعبد لله خطأ لما فيه من تعذيب النفس وحرمانها مما أحل الله .

ولكن كثيراً من الناس وقعوا فى هذا - هدانا الله وإياهم - كبعض المتصوفة ، فكان ذلك من البدَع التركيّة التى لا تقل ضرراً عن البدع الفعلية ، وهذا وذاك لا يحل لأحد من المسلمين .

وكذلك الشأن فى التجاوز فيما أحل الله فهو منهى عنه لأنه عدوان على شرع الله ، فالاعتداء على شرع الله تارة يكون بتحريم ما أحل الله وتارة يكون بالإسراف فيما أحل ، فهذا اعتداء وذاك اعتداء .

روى الترمذى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوتى ، وإنى حرَّمت علىّ اللحم . فنزلت : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ .

وأخرج عبد الرازق فى مصنفه بسنده عن أبى قلابة رضى الله عنه قال : أراد ناس من أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء

ويترهبوا فقام رسول الله ﷺ فغلظ فيهم المقالة ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وحجوا واعتمروا ، واستقيموا يستقم لكم قال : ونزلت فيهم : ﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ... ﴾الآية .

٢ - وأن المسلمين مطالبون دائماً بالتقوى ، ومعناها أوسع وأعم فائدة من التشدد فى الدين أو الإسراف فى تناول ما أحل الله ، لأن التقوى فى هذا المجال تجمع بين مطالب الروح والجسد فى تلاؤم وانسجام يستجيب لمطالب كل منهما فى حدود ما شرع الله ، ولا يقبل هنا قول من يقول : إن التمتع بالطيبات ينافى تزكية النفس وتطهيرها إنما يكون بأن توقف على حدود الاعتدال ، وحد الاعتدال هو ما جاء به الشرع الشريف ، ولا شك أن التمتع بالطيبات فيه قوة للبدن وقوة للعقل والروح ، ومن حرم بدنه مما أحلّ الله ضعف وعجز عن القيام بما فرض الله عليه من فرائض ، إذ الأصل أن يتناول الإنسان مما أحل الله ما فيه صالح بدنه وروحه وعقله وصلاح آخرته ، وتلك هى التقوى التى طولب بها المسلم فى هذه الآية : ﴿ واتقوا الذى أنتم به مؤمنون ﴾ .

٣ - ومن رحمة الله بالناس أن جاءت الشريعة الإسلامية بالتسامح فى الأقوال والأعمال من غير تقصير ، ورفعت عن الإنسان المؤاخذة والحرج إلا أن يكون قد تعمد التقصير ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ .

ومع هذا التسامح ورفع الحرج ، فإن المتعمد القاصد لعمل شيء أو قول شيء توجد أمامه فرصة ليتوب ويندم ، ويكفّر عن هذه الأعمال أو الأقوال .

والمسلم يتعلم من ذلك رعاية ما أمر به وما نهى عنه مجتهداً ألا يقع فى شيء مما حرم الله ، حتى لا يدخل فى دائرة المذنبين الذين يكفرون عن

سيئاتهم المعرضين لعذاب الآخرة .

٤ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات حفظ الأيمان ﴿ **واحفظوا أيمانكم** ﴾ أى ما ينبغى له أن يحلف فى كل موقف ولأدنى سبب ، ولا يكثر الحلف حتى لو كان صادقاً ، لأن الله تعالى يقول :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾[1] .

كما يتعلم المسلم ألا يحلف بغير الله لو حلف .

فقد روى الشيخان بسنديهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله » .

ومما يدخل فى حفظ اليمين ، ألاّ يحلف المسلم بالكعبة ولا بالقرآن ولا بالنبى ﷺ ، ولا يحلف بأبيه لأن كل ذلك غير جائز شرعاً وفيه مخالفة لقول النبى ﷺ « ... فلا يحلف إلا بالله » .

ومن تمام روعة التشريع فى « الأيمان » أن من حلف بالله على شيء ثم رأى أن غيره خيراً منه فعليه أن يأتى الذى هو خير بحنثه فى يمينه ثم يكفر عنه .

روى الشيخان بسنديهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذى هو خير وكفر عن يمينك » .

٥ - ومن رحمة الله بالناس وعنايته بهم بأبدانهم وعقولهم وأرواحهم وعلاقاتهم الاجتماعية الجيدة أن حرّم عليهم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ؛ وأخبرهم بأن تلك الأشياء وأمثالها رجس من عمل الشيطان يجب على المسلم أن يجتنبه ، لأن الشيطان يريد بإغراء الناس بهذا الرجس أن يوقع

---

(١) البقرة : ٢٢٤ .

بينهم العداوة والبغضاء ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة .

روى الإمام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة إن مات ، مات كافراً وإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قالت : فقلت يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : قال : « صديد أهل النار » .

ورورى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ، ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته » .

٦ - ومن الفقه الذى يتعلمه المسلمون من هذه الآيات التى حرمت الخمر والميسر ، أنه ليس من الميسر المسابقة بين اثنين أو أكثر فى الخيل أو الجمال أو السهام أو الرمى عموماً ، لما رواه أصحاب السنن بأسانيدهم من طريق أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا سبق إلا فى خف أو نصل أو حافر » .

وأجاز الشافعية المسابقة على الأقدام بعوض ، لأن هذا من الرياضة المقوية للأبدان على القتال ، وعلى غيره من الأعمال النافعة الخيرة .

وقد شرط الفقهاء لجواز هذا السبق أن يكون الجعل - أى الجائزة - لمن سبق إما من مال الإمام - أى بيت مال المسلمين - وإما من أحد المتسابقين ، ولا يجوز أن يكون المال من كل منهما ، وبهذا تخرج المسابقة عن معنى الميسر والقمار ، ويتاح للمسلمين كل أنواع الرياضة التى تقوى الأبدان ولا توغر الصدور .

٧ - ويتعلم المسلمون من آيات تحريم الصيد وتحريم قتله أو صيده على المحرم بحج أو عمرة أو بهما - المقرن - أى أن المؤمن معرّض دائماً لأن يختبره ربه بالنعم كما يختبره بالنقم ليعلم الله - وهو بكل شىء عليم - من يخافه بالغيب

حيث لا رقيب على المسلم إلا نفسه ومدى مراقبته لربه سبحانه وتعالى .

ومادام المؤمن عرضة للاختبار ، بالخير أو بالشر ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1] فإن عليه أن يختار لنفسه دائماً جانب الأمن والسلامة ، ولا أمن ولا سلامة إلا فى الالتزام بما أمر الله تعالى والانتهاء عما نهى وأن يكون لدى المسلم استعداد لأن يدور مع القرآن حيث دار .

● ومن المواقف التربوية فى مجالى الدعوة والحركة ما نذكر بعضه فيما يلى :

١ – على الدعاة إلى الله والعاملين فى مجال الحركة الإسلامية أن يلتزموا بعرض الإسلام على الناس دون تشدد أو تعنت فإن ذلك تجاوز لما شرع الله وعدوان على منهجه ، ومعنى ذلك أن الناس يستطيعون أن يستمتعوا بطيبات ما أحل الله لهم ، وأن يحافظوا فى الوقت نفسه على تمسكهم بالإسلام وعملهم وفق منهجه .

والهدف من ذلك هو إزالة الأفكار الخاطئة التى تربط بين التدين وبين التمتع بطيبات الحياة الدنيا التى أحلها الله لعباده .

٢ – وعلى الدعاة والحركيين الإسلاميين أن يفقهوا الناس بالتدين الصحيح ، وبالدين السمح الذى لا يؤاخذ إلا على ماقصده الإنسان وصمم على فعله ، وذلك من أهم ما يميز منهج الإسلام فى تناول الحياة من بين المناهج جميعاً الدينى منها وغير الدينى .

وأن الإنسان إذا قصد وحلف على يمين ، ثم رأى غيرها خيراً منها ، فله أن يكفر عن يمينه ثم يأتى الذى هو خير .

ومعنى ذلك أن يعلم المسلمون ما فى هذا الدين العظيم من مرونة وسعة وحسن تقدير لظروف الإنسان ومواقفه وأعماله ، وإعطائه البدائل التى

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .

تحافظ له على علاقته الجيدة بربه وبمنهج الإسلام فى الحياة .

٣ - وأن يُرَبىّ الدعاة والعاملون فى الحركة الإسلامية من يدعونهم ويعملون معهم على الحقيقة الثابتة الراسخة وهى أن طاعة الله ورسوله والالتزام بمنهجه هى النجاة وهى الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وأن معصية الله ورسوله وتعطيل منهج الإسلام فى الحياة هى الضياع والإخفاق فى الدنيا والآخرة ، عليهم أن يربوهم على ذلك فى ضوء القاعدة العادلة ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[1] وفى ضوء الخطاب القرآنى للرافضين الذى يقول : ﴿ **فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ .

وأن يربوهم على أن كل مسلم مطالب بتقوى الله والإيمان به والعمل الصالح ، وبالثبات على ذلك ، ومطالبون بما هو ضرورى لممارسة الحياة الإنسانية الراشدة وهو : الإحسان والإحسان فوق العدل وأحب إلى الله منه ، والقرآن الكريم يصرح بأن الله أمر بالإحسان وأنه يحب المحسنين .

ومعنى ذلك أن كل مسلم مطالب بالالتزام بمنهج الإسلام ومنه العدل وعلى قمته الإحسان ، أى أن طريق الدعوة إلى الله زاده التقوى والعمل الصالح وراحلته العدل ، وهدفه الإحسان أى الوصول إلى أن يكون المسلم وليًّا لله محبوباً منه .

٤ - وأن يفقه الدعاة والحركيون الناس أن البلاء والابتلاء من الله لعباده المؤمنين سنةٌ من سننه سبحانه وتعالى لا تتخلف فى زمان أو مكان ، ليميز الله الخبيث من الطيب ويعلم من ينصره ورسله ومن يخافه سبحانه بالغيب .

وبهذه التربية وهذا الفقه يَهُوّن على المؤمن كل بلاء يتعرض له فى سبيل دعوته ، بحيث لا يدخل فى قلبه خوف من غير الله مهما كان العدو قوياً

---

(١) المائدة : ٩٩ وسنشرحها فى حينها إذا أذن الله .

غاشماً باطشاً .

وبهذا الإيمان وذلك الصبر على البلاء تؤمّن الدعوة والحركة فى مسارهما دون توقف مهما تعاظم فى طريقها من عقبات وعراقيل .

٥ – وأن يمارس الدعاة والحركيون أعمالهم وهم يؤمنون بأن المدعوين والمجتذبين إلى صفوف الحركة الإسلامية بشر يخطئون ويصيبون ، وأنهم إن أخطئوا لا يطردون من مجالى الدعوة والحركة ، وإنما يفتح لهم باب التوبة والإنابة ، فمن تاب وأناب فقد عفا الله عما سلف ، ومن عاد إلى الخطأ فإن أمره إلى الله ينتقم منه ، والله عزيز ذو انتقام .

ومعنى ذلك أن يقتنع الدعاة والحركيون بأن الخطأ فى مجالى الدعوة والحركة وارد ، وأن التوبة باب مفتوح ، وأن العودة إلى الخطأ تستوجب انتقام الله من المصرين على الخطأ .

وتلك واقعية فى المنهج الإسلامى تستبعد الطرد والحرمان الذى تمارسهما مناهج أخرى .

٦ – وأن يربّى الدعاة والحركيون أنفسهم وغيرهم على أصل أصيل وكبير فى الإسلام وهو أن كل قول أو سكوت وكل عمل أو ترك وكل حركة أو سكون من أجل تبليغ دعوة الله إلى عباد الله أو من أجل جذب العناصر الجيدة إلى صفوف العمل الإسلامى ، وأن كل صبر أو تضحية بوقت أو جهد أو مال فى سبيل الدعوة والحركة يجب أن يراعى فيه وفى ممارسته تقوى الله وخوفه بالغيب ، فإنه سبحانه إليه المرجع والمآب والحشر ، وعنده يكون الحساب على كل شيء وما أسعد الذين اتقوه وخافوه .

إنها قيم تربوية رفيعة القدر قادرة على صناعة حياة إنسانية كريمة جديرة برضى الله سبحانه وتعالى .

٧ – وأن على الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يوضحوا للناس بل يفقهوهم بأن حدود الله وشرائعه هى حواجز بين الناس وبين ما يضرهم

ويسيء إلى حاضرهم ومستقبلهم ، ففي هذه الحدود والشرائع والنظم قوام دين الناس وقوام دنياهم ، جعلها الله كذلك ووكل بها وبتطبيقها الحكام وأولياء الأمور ، كما جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، كما جعل الشهر الحرام كذلك والهدى والقلائد . جعل كل ذلك يحجز بين المتخاصمين والمتعادين تارة بالسلطان وتارة بالمكان وتارة بالزمان وتارة بالرمز والاحترام .

وإنما كان ذلك كذلك لأن الله تعالى يحيط بكل شيء علماً ويعلم ما يصلح الإنسان فى دنياه وأخراه ، فيشرع له ما هو بحاجة إليه .

ومعنى ذلك أن احترام حدود الله وشرائعه ومنهجه ونظامه هو الذى يمكن الإنسان من أن يعايش أخاه الإنسان وسط جو من التكريم والاحترام وتبادل الحقوق والواجبات ، وهو فى الوقت نفسه الذى يتيح للإنسان الملتزم بمنهج الله فرصة الحصول على ثواب الله وحسن جزائه ، ويحول بينه وبين العقاب .

وأن على الدعاة والحركيين أن يربّوا أنفسهم وغيرهم على الإيمان بحقيقة كبرى فى الإسلام هى : أن الله سبحانه غفور رحيم لمن زلت قدمه فتاب وأناب ، وأنه سبحانه شديد العقاب لمن أصر على المعصية ، وأنه سبحانه يضع مغفرته ورحمته أو عذابه وعقابه حيث يلتزم منهجه ويحترم أو يترك وينتهك ، ولا يظلم بذلك أحداً .

* * *

الآيات من التاسعة والتسعين إلى الخامسة بعد المائة

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

- هذه الآيات الكريمة تبدأ ببيان وظيفة الرسول ﷺ وهي : البلاغ عن الله سبحانه وتوضيح ما شرع لهم . والناس من بعد ذلك مسئولون بين يدي الله عن قبولهم لدعوة الله أو رفضهم لها .

وتوضح الآيات الكريمة معياراً دقيقاً لقضية كبرى هي قضية الكم والكيف ، أو الكثرة والنوعية وتحذر من الانخداع بالكم عن الكيف أو بالكثرة عن الجودةوالنوعية ، في مجالات الحياة كلها : الناس والأعمال والأقوال والأشياء ذاتها ، وفي الآيات أدب السؤال وأدب الحوار ووقت السؤال .

وفيها بيان لبعض ما ضل فيه أهل الجاهلية فيما حرموا على أنفسهم وما شرعوا لها بغير إذن الله وبغير وحي إلى رسول منه إليهم ، ونعى على رفضهم ما جاء به محمد ﷺ

تمسكاً بباطل كان عليه آباؤهم ، مع أن آباءهم وأجدادهم كانوا لا يعلمون ولا يهتدون .

وفى الآيات تفسير وبيان لما يجب على المبلغين نحو من يبلغونهم ، وكيف يتعاملون مع المتقبلين للحق والرافضين له تاركين حسابهم لله سبحانه وتعالى .

● وقد اشتملت الآيات على أخبار وأحكام كثيرة ، وتهديد ، وأوامر ونواه ، وتعليم وتنوير ، وتحذير من الأعمال التى لم يأذن الله بها أو لم يشرعها ، ويمكن أن نشير إلى ذلك فيما يلى :

أما الأحكام فكثيرة :

بحيث يمكن القول بأن الآيات السبعة قد تضمن كل منها حكماً شرعه الله ، وسوف نوضحها فى سياق حديثنا عن مضمون الآيات وتفسير هذا المضمون .

وأما الأخبار فهى :

— إخبارهم بوظيفة الرسول ﷺ وعليهم أن يعرفوا من ذلك أن وظيفة الدعاة إلى الله هم مثل وظيفة الرسول ﷺ ، وتلك الوظيفة هى الدعوة والبلاغ والله سبحانه يعلم ما يظهر كل أحد وما يبطن ويحاسبه على ذلك حساباً عادلاً .

قال الإمام الطبرى فى تفسيرها : وهذا من الله تعالى ذكره تهديد لعباده ووعيد يقول تعالى ذكره : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم أيها الناس بإنذاركم عقابنا بين يدى عذاب شديد ، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حججكم إلا أن يؤدى إليكم رسالتنا ، ثم إلينا الثواب على الطاعة وعلينا العقاب على العصية .

﴿ **والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ يقول : غير خفى علينا المطيع منكم القابل رسالتنا العامل بما أمرته بالعمل به من العاصى الأبى رسالتنا التارك العمل بما أمرته بالعمل به لأنا نعلم ما عمل العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق به لسانه ، وما تكتمون : يعنى ما تخفونه فى أنفسكم من إيمان وكفر

أو يقين وشك ونفاق .

يقول تعالى ذكره : فمن كان كذلك لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور وظواهر أعمال النفوس مما فى السموات وما فى الأرض ، وبيده الثواب والعقاب فحقيق أن يُتّقى وأن يطاع فلا يعصى »[1] .

والمعنى الذى نؤكده فى هذه الآية الكريمة ونرجوا الله ألا نخطىء فى فهمه هو : أن وظيفة الرسول ﷺ ووظيفة ورثته من بعده الدعاة والحركيين منحصرة فى البلاغ والتبليغ وبيان شرع الله ومنهجه ، وأن تقصير ورثة النبى ﷺ فى تبليغ الدعوة ، أو نكوص أحد المدعوين عن الحق ورفضه له سراً أو جهراً ، كل ذلك يعلمه الله سبحانه ويحاسب عليه ويجازى .

وليس لأحد الدعاة أن يحاسب أخاه على تقصير ، وليس للدعاة أن يحاسبوا الناس على رفض أو معاندة وإنما يترك كل ذلك لله يحاسب عليه ويجازى كما يشاء ، والله أعلم .

- وإخبارهم بهذا المعيار الدقيق الذى وضعه الحكيم الخبير فى الحكم على الناس والأشياء وهو : ﴿ **لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ .

فالخبيث مهما كثر وتعاظم فهو أقل وأحقر إذا قورن بالطيب مهما قل وتضاءل . وذلك ميزان الله سبحانه للناس والأشياء فلا ينبغى أن يغتر بالكثرة أحد ، ومن اغتر بها فهو من أهل الغفلة والجهل ، إذ الطيب مفضل على الخبيث مطلقاً ، ولا يمكن فى عقل عاقل أن يتساوى الجيد والردىء أو الصالح والطالح أو المطيع والعاصى .

ومن أجل احتمال أن تختل هذه الموازين فقد طالب الله تعالى الناس بتقواه فى تحكيم تلك الموازين وفى الالتزام بكل ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ،

---

(1) الطبرى : جامع البيان : ٥ / ٨٠ مرجع سابق .

ومن اتقى الله فهو من أولى الألباب المفلحين .

— وإخبارهم ببطلان ما حرم الناس على أنفسهم أو على غيرهم فى الجاهلية ، لأنهم أعطوا لأنفسهم حق التشريع وليس ذلك إلا لله وحده .

فقد كان بعض أهل الجاهلية قد بحر البحيرة أى جدع أذنى الناقة – شقها شقاً واسعاً – وحرّم لبنها وظهرها وذلك بعد أن تنتج خمسة أبطن ، وكانوا ينظرون للبطن الخامس فإن كان ذكراً أكله الرجال دون النساء وإن كان أنثى جدعوا أذنيها وقالوا : هذه بحيرة وحرموا لبنها وظهرها .

ومن أهل الجاهلية مَنْ سيّب السائبة أى نذرها للآلهة التى كانوا يعبدون ، والسائبة من الغنم ، ويفعلون بها ما فعلوا بالناقة التى بحروها ، غير أنهم فى السائبة ينتظرون عليها حتى تلد البطن السابع لا الخامس .

وقيل السائبة هى الناقة : إذا ولدت عشر إناث ليس بينهم ذكر ، فإنها تسيّب فلا تركب ولا يجز وبرها ولا يحلب لبنها إلا لضيف .

ومن أهل الجاهلية مَنْ وصل الوصيلة ، والوصيلة الشاة إذا ولدت سبعة أبطن ، فإذا كان السابع أنثى استحيوها ، وكذلك لو ولدت ذكراً وأنثى فى بطن واحد فإنهم يستحيونها ويقولون : وصلته أخته فحرمته علينا .

وقيل الوصيلة هى الشاة التى تصل أنثى بأنثى فى النتاج .

ومن أهل الجاهلية مَنْ حمى الحامى ، والحامى فحل الضراب – أى التلقيح – فإذا أتم تلقيح عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره وتركوه لا يحملون عليه شيئاً .

وقد فسر الإمامان البخارى ومسلم وغيرهما هذه الألفاظ بما روى عن سعيد بن المسيّب رضى الله عنه قال : البحيرة التى يمنح درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة التى كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء ، قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن

عامر الخزاعى يجر قصبة فى النار ، كان أول من سيب السوائب » قال سعيد ابن المسيب : والوصيلة : الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ، ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى وليس بينهما ذكر ، والحامى : فحل الضراب ، يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه - أى تركوه - للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامى .

والمعنى المقصود من ذلك أن أمر الله تعالى لم يشرع لهم تحريم البحائر والسوائب وأخواتهما أى لم يجعله من أحكام الدين ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب بزعمهم أن هذه الأشياء محرمة وذلك بسبب أن أكثرهم لا يعقلون .

ومهما يكن أمر هؤلاء فى تحريم ما لم يحرم الله من قول بعضهم : إنما يتقربون بذلك إلى الله زلفى ، فهم على باطل وضلال لأن الله سبحانه لا يُعبد إلا وفق ما شرع على لسان رسوله ﷺ ، ولم يشرع الله سبحانه شيئاً من ذلك وليس لأحد من خلقه أن يزيد أو ينقص أو يشرع ما لم يأذن به الله سبحانه وتعالى .

- وتخبر الآيات المؤمنين بأن الكفار عندما يصدون عن الحق لا تكون لهم حجة مقبولة ، وإنما يعرضون عنه قائلين : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، مع أن هؤلاء الآباء لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون .

وتؤكد الآية الكريمة : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ تؤكد بطلان التقليد فى الدين ، وتقرر أن تقليد الآباء والأجداد فى جاهليتهم يخالف مقتضى حكم العقل ودلائل العلم وهداية الدين .

فإذا قيل لهؤلاء الذين بحروا البحيرة وسيبوا السائبة ووصلوا الوصيلة وحموا الحامى تعالوا إلى ما أنزل الله وما شرع ، وإلى الرسول الذى بين وهدى ،

وجلب للناس بهديه المصالح ودفع عنهم المفاسد ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وأحكام فرد الله تعالى عليهم أبلغ ردّ إذ قال لهم : ﴿ **أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ أى هل بلغهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الشرائع الإلهية ولا يهتدون إلى مصالحهم الدنيوية ؟

وأما التهديد ففى مواطن عديدة من الآيات منها :

— ﴿ **وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** ﴾ فهذا تهديد للمقصرين والمعاندين .

— ﴿ **أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ فإنها تهديد لكل من قلد فى الدين والشرع إذ لا شرع إلا ما شرعه الله .

— ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فإن هذا تهديد لكل من ضل عن الحق وآثر الباطل عليه .

وأما الأوامر فقد جاءت بأمور كثيرة منها :

— الأمر بتقوى الله ﴿ فاتقوا الله ياأولى الألباب ... ﴾

— والأمر بإصلاح النفس وإلزامها بمنهج الله ﴿ **عليكم أنفسكم ...** ﴾

وأما النواهى فمنها :

— النهى عن السؤال غير الجاد ، أو السؤال الذى لا يتحين فيه السائل وقتاً مناسباً ، ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ...** ﴾ الآية .

فهذه الآية وهى تنهى عن السؤال بهذه الصورة تضع أدباً للسؤال الموجه إلى النبى ﷺ أو إلى أى مسئول بعد ذلك .

روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء ، فيقول الرجل : من أبى ؟ ويقول الرجل

تضل ناقته : أين ناقتى ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ... ﴾ حتى فرغ من الآية كلها .

وروى الطبرى بسنده عن قتادة رضى الله عنه قال : سألوا النبى ﷺ حتى أكثروا عليه ، فقام مغضباً خطيباً فقال : سلونى فو الله لا تسألونى عن شيء ما دمت فى مقامى هذا إلا حدثتكم ، فقام رجل فقال : من أبى ؟ قال : أبوك حذافة ، واشتد غضبه وقال : سلونى . فلما رأى الناس ذلك كثر بكاؤهم ، فجثا عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله رَبا وبالإسلام دينا وبمحمد - ﷺ - رسولا ، فقال رسول الله ﷺ : أما والذى نفسى بيده ، لقد صُوِّرت لى الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم فى الخير والشر قال الزهرى : فقالت أم عبد الله بن حذافة : ما رأيت أعق منك قط ، أتأمن أن تكون أمك قارفتْ ما قارف أهل الجاهلية ، فتفضحها على رءوس الناس !!! فقال : والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته » .

وكان عبد الله يُلاحَى فيُدْعَى لغير أبيه ، فنزلت آية : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ... ﴾[1] .

وقال بعض العلماء : إنها نزلت بسبب سائل سأل عن الحج أفى كل عام هو ؟ .

فقد روى الطبرى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب عليكم الحج ، فقال رجل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه ، حتى عاد - أى الرجل للسؤال - مرتين أو ثلاثا ، فقال : من السائل ؟ فقال فلان ، فقال : والذى نفسى بيده لو قلتُ نعم ، لوجبت ، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ، ولو تركتموه لكفرتم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ... حتى آخر الآية ﴾ »[2] .

---

(١) الطبرى : جامع البيان : ٥ / ٨٢ مرجع سابق .   (٢) السابق : ٥ / ٨٣ .

وهذه الأشياء المنهى عن السؤال عنها ، صنفها العلماء أصنافاً ثلاثة هي :

- أشياء من أمور الدين ودقائق التكاليف .
- والأمور الغيبية والأسرار الخفية المتعلقة بالأعراض .
- والأشياء التى يكون السؤال عنها سبباً فى المساءلة إما بشدة التكاليف وكثرتها ، وإما بظهور حقائق تفضح أهلها .

﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم ﴾ .

قال الإمام الطبرى فى تأويلها : يقول تعالى ذكره للذين نهاهم من أصحاب رسول الله ﷺ عن مسألة رسول الله ﷺ عما نهاهم عن مسألتهم إياه عنه من فرائض لم يفرضها الله عليهم ، وتحليل أمور لم يحلها الله لهم ، وتحريم أشياء لم يحرمها عليهم قبل نزول القرآن بذلك : أيها المؤمنون السائلون عما تسألوا عنه رسولى مما لم أنزل به كتاباً ولا وحياً ، ولا تسألوا عنه فإنكم إن أظهر ذلك لكم تبْيانٌ بوحى وتنزيل ، ساءكم ، لأن التنزيل بذلك إذا جاءكم إنما يجيئكم بما فيه امتحانكم واختباركم ، إما بإيجاب عمل عليكم ولزوم فرض لكم ، وفى ذلك عليكم مشقة ، ولزوم مؤونة وكلفة ، وإما بتحريم مالو لم يأتكم بتحريمه وحى كنتم من التقدم عليه فى فسحة وسعة ، وإما بتحصيل ما تعتقدون تحريمه ، وفى ذلك لكم إساءة لنقلكم عما كنتم ترونه حقاً إلى ما كنتم ترونه باطلاً .

ولكنكم إن سألتم عنها بعد نزول القرآن بها ، وبعد ابتدائكم ببيان أمرها فى كتابى وتأويل تنزيلى ووَحيى ، وذلك نظير الخبر الذى روى عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ الذى جاءتنا به هناد بنت السرى عن أبى معاوية عن داود بن أبى هند عن مكحول عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال : إن الله تعالى ذكره فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

وقد رواه الدارقطنى وغيره ، وهو حديث مرفوع ذكره النووى فى الأربعين حديثاً .

وروى الطبرى بسنده عن عبيد بن عمير رضى الله عنه[1] : « إن الله تعالى أحل وحرم ، فما أحل فاستحلوه وما حرم فاجتنبوه ، وترك من ذلك أشياء لم يحلها ولم يحرمها ، فذلك عفو من الله عفاه ، ثم يتلو : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم** ﴾

— ﴿ **قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين** ﴾ أى سأل الآيات قوم من قبلكم فلما أعطاهم الله إياها جحدوا بها ، كما حدث مع قوم صالح عليه السلام ، سألوا الآية فلما جاءتهم الناقة آيةً عقروها ، وكما حدث لقوم عيسى حين سألوا مائدة تنزل عليهم من السماء فلما أعطوها كفروا ، فحذر الله المسلمين أن يسلكوا سبيل من قبلهم من الأمم التى هلكت بكفرهم بآيات الله لما جاءتهم بعد سؤالهم إياها .

وأما الأوامر فمنها ما يلى :

— ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ ينادى الله على المؤمنين بقوله : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ فأصلحوها واعملوا فى خلاصها من عقاب الله ، وابحثوا لها عما يقربها من خالقها ، أى إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر فلم يقبل منكم ، فعليكم أنفسكم لا يضركم من ضّل وسلك غير سبيل الحق إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، فحرّمتم حرامه وحللتم حلاله .

روى الطبرى فى تأويلها بسنده عن أبى أمية الشعبانى قال : سألت أبا ثعلبة الخشنى رضى الله عنه عن هذه الآية : ﴿ **يٰأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ... ﴾ فقال : لقد سألت عنه خبيرا ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « أبا ثعلبة .. ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، فإذا رأيت دنيا

---

(١) هو عبيد بن عمير بن قتادة بن سعيد ... أبو عاصم قاصُّ أهل مكة وأبوه له صحبة ، فهو من التابعين ثقة ، كان يجلس إليه ابن عمرو ويسمع إليه ويبكى فى مجلسه ويقول : لله دره .

مؤثرة ، وشحاً مطاعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك ، إن من بعدكم أيام الصبر ، للمتمسك يومئذ بمثل الذى أنتم عليه كأجر خمسين عاملاً ، قالوا يارسول الله : كأجر خمسين عاملاً منهم ؟ قال : لا ، كأجر خمسين عاملاً منكم »[1]

وروى الطبرى بسنده عن قيس بن أبى حازم قال : سمعت أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - يقرأ هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه ، والظالم فلم يأخذوا على يديه فيوشك أن يعمهم الله منه بعقاب » .

قال أبو جعفر الطبرى فى تأويلها : يقول تعالى ذكره للمؤمنين من عباده : اعملوا أيها المؤمنون بما أمرتكم به وانتهوا عما نهيتكم عنه ، ومروا أهل الزيغ والضلال ، ومن حاد عن سبيلى ، بالمعروف وانهوهم عن المنكر ، فإن قبلوا فلهم ولكم ، وإن تمادوا فى غيهم وضلالهم فإن إلىّ مرجع جميعكم ، ومصيركم فى الآخرة ومصيرهم ، وأنا العالم بما يعمل جميعكم من خير وشر فآخذ هناك كل فريق منكم بما كان يعمله فى الدنيا ، ثم أجازيه على عمله الذى قدم به علىّ جزاءه حسب استحقاقه فإنه لا يخفى علىّ عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »[2] .

ونتعلم من هذه الآيات الكريمة فى المواقف التربوية العامة أموراً كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - أن وظيفة الرسول ﷺ مقصورة على البلاغ والبيان بتبليغ الناس ما أرسل إليهم ، وليس له علم بجميع ما يبديه المكلفون من الأعمال وما يكتمونه ، فيكون بهذا العلم أهلا لأن يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ، وإنما ذلك العلم

---

(١) الطبرى : جامع البيان : ٥ / ٩٧ مرجع سابق .

(٢) السابق : ٥ / ١٠٠ .

وذلك الحساب والجزاء لله وحده دون سواه .

وتلك هى وظيفة كل الدعاة إلى الله الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، ليس عليهم إلا البلاغ ، أما الحساب والجزاء فلله وحده .

إن ذلك يعلم المسلمين مالهم وما عليهم فيريحوا ويستريحوا .

٢ - ومن قوله تعالى : ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يأولى الألباب لعلكم تفلحون** ﴾ يتعلم المسلمون أن الخبيث والطيب لا يستويان حتى لو كان الخبيث كثيراً كثرة معجبة ، ومعنى ذلك ألا يغتر أحد بالكثرة مهما أدَّتْ إلى مباهاة واعتزاز بالأعراض ، وذلك أن الله تعالى طيب يحب الطيب وجميل يحب الجمال ونظيف يحب النظافة ، ولن يكون الخبيث طيباً أو جميلاً أو نظيفاً مهما زوق وزخرف ، فالخبيث خبيث سواء أكان فى الأشياء أو الأعمال أو الأموال ، أم كان فى الناس .

والخبيث من الأشياء ضار ، والطيب نافع .

والخبيث من الأعمال فاسد ، والطيب صالح .

والخبيث من الأموال حرام ، والطيب حلال .

والخبيث من الناس كافر ، أو فاجر أو مفسد أو ظالم أو جاهل ، وكلها صفات خبيثة لا يحبها الله ، ويجازى عنها بحسب وصفها ، بينما الطيب من الناس مؤمن أو بَرّ أو مصلح أو عادل أو عالم ، وكلها صفات طيبة يحبها الله ويحب المتصفين بها ، ويجزى عليها بحسب صفتها كذلك .

وما يعقل هذه الأمور ويضعها فى موضعها ويزنها بميزانها الصحيح إلا أصحاب العقول الناضجة الراجحة القريبة من النجاح والفلاح .

٣ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم ۞ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين** ﴾ يتعلمون أموراً كثيرة نذكر منها ما يلى :

أ – أن ينتهى المسلمون عن الإلحاق والإلحاح فى السؤال ، أو طرحه لإحراج المسئول ، أو طرحه عن أشياء لم تقع بعد ، فضلاً عن طرحه للاستهزاء والسخرية ، فكل ذلك نهت عنه الآية الكريمة .

ب – وأن ينتهى المسلمون عن طرح الأسئلة التى تتصل بما ظاهره التناقض فى بعض المسائل التى لا يترتب عليها ولا على الإجابة عليها نفع ولا فائدة .

جـ – وأن ينتهوا عن الأسئلة الدالة على الفضول أو التعنت أو المتطلعة إلى الأسرار الخفية التى لا يعلمها إلا الله ، أو الأسئلة المشتملة على تكلف ، ومثال ذلك :

السؤال عن الساعة والروح ومدة عيش هذه الأمة على الأرض ، فكل ذلك مما لا يتعلق به غرض أو نفع .

د – وأن ينتهوا عن طرح السؤال التى تكون الإجابة عنه مسيئة للسائل نفسه أو مسيئة لأحد من المسلمين .

هـ – وأن يتحين السائل الوقت الملائم لسؤاله ، والمكان المناسب ، فذاك أدب الإسلام للسائل .

و – وأن ينتهوا عن السؤال عن الأمور التى سكت الله تعالى عنها ، لأنه سبحانه لم يسكت عنها نسياناً ، وإنما سكت عنها من باب العفو والتخفيف – كما ذكر ذلك فى بعض الأحاديث النبوية التى ذكرها آنفاً .

ز – وألا يتعمد السائل بسؤاله أن يشدد على نفسه ، لأن التشدد منهى عنه ، والذين تشددوا من قبلنا فشدد الله عليهم عادوا فكفروا بما أنزل الله عليهم ، فهلكوا واستحقوا حساب الله وعقابه .

وقد روى الإمام مسلم بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أعظم المسلمين فى المسلمين جرماً ، من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله » ؟

وروى الحاكم بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فأقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن ينسى شيئاً » ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1] .

وروى مسلم بسنده عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : أقمت مع رسول الله ﷺ سنة بالمدينة مايمنعنى من الهجرة إلا المسألة ، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل النبى ﷺ » .

ومراده أنه قدم وافداً فاستمر بتلك الصفة ليُحصِّل المسائل ، خشية أن يخرج من صفة الوافد إلى المهاجر المقيم فلا يليق به السؤال .

وفى ذلك إشارة إلى أن المخاطب بالنهى عن السؤال هم غير الأعراب وفوداً كانوا أو غيرهم .

وروى أبو يعلى بسنده عن البراء رضى الله عنه قال : « إن كان لتأتى علىّ السَّنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيب ، وإن كنا لنتمنى الأعراب – أى مقدمهم – ليسألوا ، فيسمع الصحابة أجوبة سؤالات الأعزب فيستفيدوها .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « ... وإلى ذلك يشير قوله ﷺ فى الحديث الماضى : « فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » فإن الاختلاف يجر إلى عدم الانقياد ...

- وهذا كله من حيث تقسيم المشتغلين بالعلم .
- وأما العمل بما ورد فى الكتاب والسنة والتشاغل به فقد وقع الكلام فى أيهما

---

(1) مريم : ٦٤ .

أولى على النحو التالى :

ـــ الإنصاف أن يقال : كل مازاد على ما هو فرض عين فى حق المكلف ، فالناس فيه على قسمين :

● من وجد فى نفسه قوة على الفهم والتحرير ، فتشاغُله بذلك أولى من إعراضه عنه ، وتشاغله بالعبادة لما فيه من النفع المعتدى إلى غيره .

● ومن وجد فى نفسه قصوراً ، فإقباله على العبادة أولى لعسر اجتماع الأمرين .

فإن الأول لو ترك العلم لأوشك أن يضيع بعض الأحكام بإعراضه ، والثانى لو أقبل على العلم وترك العبادة فاته الأمران ، لعدم حصول الأول له واعراضه به عن الثانى ، والله الموفق »[1] .

٤ - ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ... الآية** ﴾ أشياء كثيرة نذكر منها ما يلى :

أ - أن حق التحليل والتحريم والتشريع لله وحده لا يشاركه فى ذلك أحد .

ب - وأنّ التقرب لغير الله بقول أو عمل هو تقرب للطواغيت لا يجوز أن يصدر من مؤمن .

جـ - وأن من عادة الكفار أن يفتروا على الله الكذب ، لأن أكثرهم لا يعقلون ، ولو كانوا يعقلون لآمنوا .

د - وأن من الكفر والضلال والغفلة ألا يستجيب الناس إلى ما أنزل الله وإلى رسوله المبلغ عنه .

هـ - وأن التشبث بما كان عليه الآباء ضلال فوق ضلال وتقليد للأسلاف لا يصح ولا يجوز وبخاصة إذا كان هؤلاء الأسلاف لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون إلى الإيمان بالله تعالى .

---

(١) الحافظ ابن حجر : فتح البارى بشرح صحيح البخارى : ١٣ / ٢٨١ ط دار الريان للتراث القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

و – وأن التقليد في الدين باطل ، وأن شبهات المقلدين لا نستطيع أن تقف على قدمين ولا أن تواجه الحق أو الضوء .

ز – وأن المسائل الشرعية الفرعية والتقليد فيها محل خلاف بين العلماء :

● فذهب جماعة من أهل العلم إلى أن ذلك لا يجوز مطلقاً .

● ومذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد ، ومن كلام الإمام مالك رحمه الله : أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا فى رأيى فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه .

● وادعى ابن حزم الإجماع على النهى عن التقليد .

● وقالت طائفة من العلماء : إن التقليد واجب على العامى حرام على المجتهد .

٥ – ويتعلم المسلمون من قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم .... الآية** ﴾ أموراً كثيرة نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة نذكر منها ما يلى :

أ – أن المسلم مطالب بأن يلزم نفسه إصلاح نفسه وتزكيتها بما شرع الله له ، وهو مسئول عن ذلك أمام الله ومحاسب عليه ، فإن ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ تعنى : الزموا إصلاح أنفسكم .

ب – وأن المسلم المهتدى الذى لا يضره الضالون من الناس ، هو المسلم الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجاهد فى سبيل الله لأن هذا العمل من أصول الهداية وأركانها ولا يكون الإنسان مهدياً وهو لايدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن لمنكر ، بمعنى أنه لا يعد مهتدياً إلا إذا بلّغ دعوة الحق والخير ، ومن بلاغها تعليم الجاهل وإرشاد الحائر وهداية الضال والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا .

جـ – وأن المسلم الذى لا يلزم نفسه الصلاح والاستقامة على شرع الله ومنهجه والعمل على هداية الضال ، فإنه ومعه من لم يستجب مطلقاً

لدعوة الله يرجعون إلى الله تعالى يوم القيامة فينبئهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من خير أو شر ويجازيهم على ذلك ، وفى هذا تهديد لمن لم يلزم نفسه الصلاح من المؤمنين ، وتهديد لمن لم يستجب من المدعوين .

د – وأنّ المؤمن الملتزم الصالح المصلح إذا أدى ما وجب عليه فى نفسه فالتزم منهج الله مع غيره فدعا إلى الحق والخير وجاهد ما وسعه الجهاد ، ثم لم يستجب له أحد ، بل بقى من دعاهم على ضلالهم ، فليس عليه فى ذلك لوم أو مسئولية ، لأن ضلال الضالين لا يضر الدعاة ولا يحملهم تبعة ، وهذا من رحمة الله بالذين يتصدون للأمر بالعروف والنهى عن المنكر .

هـ – ويتعلم المسلمون أن مرجع الناس جميعاً إلى الله يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ، فليضع كل امرئ نفسه فى المكان الذى يريد .

● ومن المواقف التربوية التى يتعلمها المسلمون فى مجالى الدعوة والحركة ، مانشير إلى بعضه فيما يلى :

١ – التعرف الدقيق الواعى على وظيفة الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية وهى البلاغ وما يجب أن يحاط به من ظروف وملابسات تحبب الناس فى الدين والعمل الصالح .

ولا يكون البلاغ على وجهه الصحيح إلا إذا كان شاملاً على مفردات الإسلام من عقيدة إلى شريعة ومن علم وعمل ومن فقه لقضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مع إخلاص لله فى كل ذلك ابتغاء رضوانه ، هذه الوظيفة إذا أديت على وجهها فليس على الدعاة أو الحركيين من حرج فى ضلال الضالين ولا فى رفض المعاندين .

إن ذلك من فقه الدعوة وفقه الحركة وفقه النظام ، وكل إخلال بشىء منه يعرض المقصر للمساءلة والجزاء بين يدى حكيم خبير ، ويعوق تقدم الحركة الإسلامية ويحول بين المسلمين وبين أن يعلوا كلمة الله .

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات ما هى الموازين الصحيحة للناس والأشياء ، حيث لا يستوى لديهم الخبيث والطيب ، ولا ينخدعون بكثرة الخبيث وقلة الطيب ، فإن القرآن قد أورد الكثرة فى مواطن الذم ، وأورد القلة فى مواطن المدح والثناء فى عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾[1] وقوله جل شأنه: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3] فهذه فى مواطن ذم الكثرة وعدم غنائها ، وفى مدح القلة جاء قوله تعالى ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[4] وقوله سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[5] وقوله جل وعلا : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[6] فالعبرة بالجوهر لا بالعرض وبالصفة الحميدة لا بالعدد وذلك درس عميق يحتاج إليه الدعاة والحركيون دائماً .

ومن مفردات هذا الدرس ما نسوقه فيما يلى :

أ - لا يجوز للدعاة والحركيين أن يعملوا على تكثير الأعداد دون إنضاج وفهم وتبصر ، فإن خطر ذلك الاتجاه قد عانت منه الحركة الإسلامية فى تاريخها ولا تزال تعانى .

ب - ويجب رفض الكثرة الخبيثة من كل شيء :

● مـن الرجال .

● ومن الأعمال .

---

(١) التوبة : ٢٥ .
(٢) يونس : ٩٢ .
(٣) هود : ١٧ .
(٤) هود : ٤٠ .
(٥) ص : ٢٤ .
(٦) البقرة : ٢٤٩ .

● ومن الأموال .

فلا يغتر بذلك إلا جاهل ، إذ مع الكثرة - فى الغالب - يكون الاضطراب وسوء الانضباط والخطأ ، ومع القلة يكون الهدوء والتربية المتعمقة والانضباط مع إيقاع العمل ومتطلبات الحركة .

جـ - ومع الكثرة يكون العنت والمشقة فى التنظيم وفى التخطيط والمتابعة ، وتكون المشقة فى توفير القيادات الصالحة لتوجيه هذه الكثرة وتربيتها تربية إسلامية .

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات كثيراً من أصول التربية الإسلامية التى تهتم بتحديد العلاقة بين المعلم والمتعلم أو بين المسئول والسائل ، فإن الآيات الكريمة تضع لذلك أدباً رفيعاً ، ما أحوج المربين والمتربين إلى أن يتمسكوا به دائماً .

ونستطيع أن نشير إلى بعض مفردات هذا الأدب فيما يلى :

أ - ترك كثرة الأسئلة وترك الإلحاح فيها .

ب - ورفض طرح السؤال الذى قد يحرج المسئول .

جـ - والبعد عن التكلف والتنطع فى السؤال وبخاصة عما لم يكن .

د - وترك السؤال عن المعميات ومالا يمكن الإجابة عنه .

هـ - واختيار الزمان والمكان والشخص الذى يطرح عليه السؤال .

٤ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات ترك التشدد فى أى أمر من أمور الدين أو الدنيا أو الغلو فيه ، لأن المبادئ الإسلامية المعروفة ، أن من شدد شدد عليه ، وأنه لن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، ويسروا ولا تعسروا ، وإن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . وكلها مبادئ جاءت فى سنة النبى ﷺ .

وعلى الدعاة والحركيين أن يتعاملوا مع أنفسهم ومع من يدعونهم

ويتحركون فيهم وفق هذه المبادئ الإسلامية الحكيمة ، وعليهم أن يأخذوا في ترك التشدد من قصص القرآن الكريم في مواقف منها :

- موقف بني إسرائيل في ذبح البقرة[1] .
- وموقف ثمود في طلب الناقة[2] .
- وموقف النصارى في طلب المائدة[3] .

٥ - ويتعلم الدعاة وأهل العمل في الحركة الإسلامية أن الذين يزعمون أنهم يشرعون للناس أو يستوردون لهم تشريعات تخالف ما شرع الله ضالون مضلون ، ما ينبغي أن يصدقوا ولا أن يتركوا في غيهم هذا ، وإنما يبصرون ويدعون إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

والأصل الأصيل في ذلك أن أحداً من الناس لا يملك أن يشرع بحيث يخالف ما أمر الله به أو نهى عنه أو حبب فيه أو كرّه فعله .

٦ - ويتعلم أهل الدعوة وأهل الحركة الإسلامية أنهم لا بُدّ أن يواجهوا بمن يرفض دعوة الحق تمسكاً بالعادات والتقاليد أو ما كان عليه الآباء والأجداد ، وأن هؤلاء الرافضين قد يتهمون الدعاة بأنهم يخالفون ما ساد من تقاليد أحياناً ، وبأنهم رجعيون غيبيون أحياناً ، ولا يشعرون لغفلتهم بما بين هذين الاتهامين من تناقض .

وتاريخ المعاندين حافل بمثل هذه التناقضات ، وتاريخ الدعاة إلى الله حافل بألوان الصبر على هؤلاء الغافلين ، وفي قصص الأنبياء في القرآن الكريم مما يوضح للدعاة أبعاد هذا الصراع وما يوقفهم على أن العاقبة دائماً للمتقين ، وأن الله سبحانه قال : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أنا ورسلي إن الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[4] وقال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] .

---

(١) البقرة : ٦٧ - ٧٤ .
(٢) هود : ٦٤ - ٦٨ .
(٣) المائدة : ١١٢ - ١١٥ .
(٤) المجادلة : ٢١ .
(٥) الروم : ٤٧ .

٧ – ويتعلم الدعاة والحركيون من الآيات الكريمة أن التقليد فى الدين باطل ، وأن الإسلام حارب التقليد فى الدين عقائده وعباداته ومعاملاته ، وأن أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون لم يكونوا يقلدون ، وإنما حدثت بدعة التقليد بعدهم ، عندما ابتعد المسلمون عن أحكام الإسلام وأخلاقه لكثرة اختلاطهم بغير المسلمي .

وليعلم الدعاة أن شر التقليد ما أدى إلى تفريق كلمة المسلمين بتحزب الأمة وجعلها شيعاً ، كل شيعة منها تناصر رجلاً أو مذهباً وتعد نفسها من أتباعه ومريديه وتسعى وراءه حتى لو خالف بعض نصوص الكتاب والسنة ، وما كان عليه جمهور الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

٨ – وعلى الدعاة والعاملين فى الحركة الإسلامية أن يقفوا طويلاً أمام قوله تعالى : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ أى أصلحوها وفق منهج الإسلام وأخلاقه .

وأن ينطلقوا فى هذا المجال يعدون أنفسهم ويؤهلونها لحمل أعباء العمل من أجل الإسلام .

والإعداد – كما أوضحنا ذلك فى بعض ما كتبنا[1] أنواع كثيرة من أهمها :

- إعداد الروح بالعبادة فرضها ونفلها لتزداد بذلك قرباً من خالقها سبحانه وتكون أهلاً لتنزل الرحمة والنصر عليها .
- وإعداد العقل بمده بمصادر العلم والمعرفة ، وأوثق هذه المصادر كتاب الله

---

(١) انظر للمؤلف : أ – فقه الأخوة فى الإسلام الفصل الثانى من الباب الأول .
ب – وفقه الدعوة الفردية الفصل الأول من الباب الثالث .
جـ – وفقه الدعوة إلى الله الفصلين الثانى والثالث من الباب الثالث .
د – ووسائل التربية عند الأخوان المسلمين ص ١٥٨ وما بعدها .

وسنة نبيه ﷺ وسيرته ، وسير الأعلام من السلف الصالح ، وتاريخ الإسلام ، والثقافة النافعة الصحيحة عن العالم الإسلامى كله .

- وإعداد البدن ، بحيث يصبح قوياً قوة توظف لطاعة الله ونشر دعوته ومنهجه ، وإنما يكون ذلك بأمرين :

— الابتعاد عن أسباب ضعف البدن .

— والأخذ بأسباب قوة البدن المادية والمعنوية .

- والإعداد الوظيفى باستيعاب المهارات الفنية لمن يتصدى للدعوة والحركة ، وهى مهارات كثيرة تحدثنا عنها فى تلك الكتب التى أشرنا إليها آنفا .
- والإعداد الخلقى بالصبر على المدعو والحرص عليه والتخلى عن كل ما يخدش الداعى من صفات ، والتحلى بكل مايحببه إلى الله والناس من صفات .

٩ – وعلى الدعاة والحركيين أن يوقنوا بأنّ عليهم أن يبذروا البذرة الصالحة فى التربية التى توسموا فيها أنها صالحة وأن يتعهدوها بأسباب النماء وصنوف الرعاية ، ولا عليهم من حرج فى أن تتوقف هذه البذرة عن النمو أو تنموا وتورق وتثمر ، فإن ذلك من عمل الله تعالى وفضله على المخلصين من عباده ، فمن اهتدى من المدعوين فبهدى الله وتوفيقه ، ومن ضل فلن يسيء ضلاله إلى الدعاة والحركيين فى شيء .

١٠– ويتعلم الدعاة إلى الله والعاملون فى الحركة الإسلامية من هذه الآيات أن يتقوا الله ويخافوه فى عملهم هذا ، لأنه عمل جليل يعد امتدادا لعمل الرسول ﷺ .

إن على الدعاة أن يبذلوا فى سبيل الدعوة إلى الله قصارى جهدهم وأن يدخروا على ذلك الأجر والثواب عند الله ، ومن تطلع منهم إلى أجر دنيوى جاه أو منصب أو مال فقد خسر حتى وإن حصل على ما يريد !!!

إن تقوى الله تستدعى أن يعملوا من أجله ، ومن أجل الحياة الأبدية

الباقية عندما يجازيهم الله على صالح أعمالهم أحسن الجزاء .

إنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا إذا أخلصوا النية والعمل لله تعالى في كل أمر .

* * *

الآيات من السادسة بعد المائة إلى الثامنة بعد المائة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

الآيات الكريمة تطالب المسلم إذا حضره الموت أن يشهد على وصيته ، وقت الوصية اثنان ذوا عدل أي عقل وحجي من المسلمين ، أو يشهد آخران من غير المسلمين إذا لم يوجد مسلمون لمن على سفر عندما حضره الموت .

فإذا أوصيتم إليهما أو دفعتم إليهما ما كان معكم من مال أو متاع لورثتكم ، ثم أديا ذلك إلى الورثة فقد قاما بواجبهما .

فإذا ادعى الورثة عليهما خيانة في أداء الأمانة فإن الحكم في ذلك يكون بالتالي :

- يحبس هذان الوصيان بعد الصلاة فيحلفان بالله أنهما ما كذبا ولا خانا ، ولا كتما شهادة الله ، فإن كانا غير صادقين في ذلك فقد استحقا الإثم من الله تعالى .
- فإذا تبين – على الرغم من الأيمان التي حلفاها – أنهما قد خانا الأمانة فاستحقا الإثم ، فإن الواجب حينئذ أن يحلف اثنان من أولياء المتوفى أن شهادتهما أحق وأصدق من أيمان الحالفين المستحقين للإثم ، على أن يقول الحالفان من أولياء الميت : ما اعتدينا في هذه الأيمان ، ولو اعتدينا لنحن من الظالمين .

- هذه الأحكام إذا التزمت فإنها تؤدي إلى أن تكون الشهادة على وجهها ، وفي ذلك تقوى الله وسماع أوامره ، ومن كذب في يمين أو خان فهو فاسق والله لا يهدي الفاسقين .

● وفي الآيات الكريمة ، حكم خاص بالوصية عند الموت ، وفيها أمران اثنان ، وخبر .

● أما الحكم بالوصية عند الموت فهو وجوبها ، ووجوب أخذ الاحتياطات لتصل الحقوق إلى أصحابها ، على نحو ما أوضحنا آنفاً .

●وأما الأمران :

فأحدهما : بتقوى الله ، وقد طلوب بهذه التقوى من حضره الموت وهو الموصي ، ومن شهد على وصيته .

والآخر : أمر بسماع ما أمر الله به في ذلك الشأن أي الالتزام به .

●وأما الخبر فهو :

أن من خان أمانة أو كتم شهادة فقد فسق ، والله سبحانه لا يهدي الفاسقين ، فقد خسر أخراه مسلماً كان أو غير مسلم لأن جميع الناس مجموعون عند الله يوم القيامة .

– ومن المواقف التربوية العامة في الآيات ما يلي :

١ – الحث على الوصية وتأكيدها لأن الموت قريب من كل أحد ولا يجوز التشاغل عنها بالسفر ونحوه أو السكوت عنها في السفر إذا لم يجد مسلمين يشهدان .

وهذا يعلمنا أن مظلة النظم الإسلامية تمتد من إصلاح الحاضر وعلاج مشكلاته إلى تأمين المستقبل للورثة ، وذلك هو النظام المحكم الشامل لكل شعب الحياة .

٢ – ونتعلم من اختيار أوقات بعينها لحلف اليمين عمل مشروع بل مطلوب ، وذلك أن النبي ﷺ استحلف المستحلفين بعد صلاة العصر ، وهو وقت فاضل لقربه من غروب الشمس ، والشمس آية من آيات الله وفي شروقها وغروبها تفكر وتأمل

في عظيم خلق الله تبارك وتعالى .

٣ - ويتعلمون من هذه الآيات الكريمة التدقيق في وجوب أن يصل الحق إلى أصحابه، كما حدث ذلك أثناء حياة النبي ﷺ ، وحكم بين المتخاصمين بما أمره الله في هذه الآية .

وقد نزلت آية الوصية والإشهاد عليها كما قال علماء التفسير وعلماء أسباب النزول في تخاصم ورثة وشاهدين ، فقد أخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة قال : « كان تميم الداري وعَدِيّ بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبي ﷺ حولا متجرهما إلى المدينة .

فخرج بديل بن أبي ماربة – مولى عمرو بن العاص رضي الله عنه – تاجراً حتى قدم المدينة .

فخرجوا جميعاً تجاراً إلى الشام ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه وأوصى إليهما .

فلما مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئاً ثم حجراه كما كان وقدما المدينة على أهله ، فدفعا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به ، وفقدوا شيئاً – في رواية جاماً[1] – فسألوها عنه ، فقالا : هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا ، فقالوا لهما : هذا كتابه بيده فقالا ما كتمنا له شيئاً ، فترافعوا إلى النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت** ... ﴾ إلى قوله ﴿ **إنا إذا لمن الآثمين** ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر : بالذي لا إلٰه إلا هو .. ما قبضنا له غير هذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموه بالذهب .

فقال أهله هذا متاعه ؟ قالا نعم ولكنا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا ، فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبي ﷺ ، فنزلت الآية

(١) الجام : الإناء للطعام أو الشراب من فضة أو غيرها ، وينسب استعماله في قدح الشراب .

الأخرى : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً .. ﴾ الآية - فأمر النبي ﷺ رجلين من أهل البيت - أي بيت الميت - أن يحلفا على ما كتما - أي كتم الرجلان - ويستحقان .

ثم إن تميم الداري أسلم وبايع النبي ﷺ وكان يقول : صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء ، ثم قال : يارسول الله ، إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لي قريتين من بيت لحم - لعل الصواب قرية حنون كما جاء في الإصابة أنه ﷺ أقطعه إياها - وهي القرية التي ولد فيها عيسى عليه السلام ، فكتب له بها كتاباً ، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله ﷺ فقال عمر : أنا حاضر ذلك فدفعها إليه »[1] .

ورويت هذه القصة بأسانيد متعددة ولكن فحواها في كل سند واحد ، والاختلاف في الألفاظ بزيادة أو نقص أو تبديل لفظ مكان آخر .

٤ - ويتعلم المسلمون من تلك الآيات تغليظ اليمين على الحالف في صيغته ردعاً للكذب وزجراً عن أكل الحقوق ، وأن الأصل في الناس أن يكونوا أمناء صادقين ، ولا نلجأ إلى تحليفهم الأيمان فضلاً عن تغليظها إلا عند الارتياب والشك .

وفي هذا الأسلوب من التعامل مع الناس غرس للثقة في المجتمع كله حتى غير المسلمين الذين يعيشون فيه، كي لا تفسد علاقات الناس بالشك والارتياب لأدنى سبب .

٥ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات جواز شهادة غير المسلم على المسلم ، وجواز إجراء الحلف على غير المسلم مادام يعيش في كنف المجتمع المسلم .

● وفي مجالي الدعوة والحركة نجد في الآيات الكريمة ملامح تفتح أمام الدعاة والحركيين أبواب خير في العمل من أجل الإسلام يمكن أن نشير منها إلى ما يلي :

١ - على الدعاة إلى الله تبصير الناس ببعض الأحكام الشرعية التي ينساها المسلمون ،

---

(١) ابن جرير الطبري : جامع البيان : ٥ / ١١٦ مرجع سابق .

متجاهلين أثرها العظيم في تأمين المجتمع ، كهذه الوصية فهي من العبادات التي جاءت بها السنة النبوية ، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » .

إن الوصية في شريعة الإسلام تأمين للمجتمع كله ، إذ هي تشريع يتيح للمسلم أن يوصي بثلث ماله لغير وارث له – فلا وصية لوارث – لمن شاء من عباد الله الصالحين أو لما شاء من مشروعات خيرية تعود على المسلمين بالنفع والفائدة .

تُرى كم من المسلمين اليوم يتعبدون إلى الله بهذه العبادة ؟

٢ – ومن توثيق الوصية الإشهاد عليها بشاهدين من المسلمين فإذا تعذر وجودهما لاغتراب أو سفر فمن غير المسلمين .

وهذا يعلم الدعاة وأهل العمل في الحركة الإسلامية حسن التعامل مع غير المسلمين وحسن الثقة فيهم حتى يتبين خلاف ذلك .

إن الإسلام يتعايش مع غير المسلمين باحترام وتقدير يؤكدان احترامه لكافة ما يسمى اليوم بحقوق الإنسان .

٣ – وعلى الدعاة والحركيين أن ينظروا لمن يعملون معهم بثقة ، وأنه لا ينبغي أن تهتز هذه الثقة فيسرع بعض الدعاة إلى تصنيف الناس على أنهم ليسوا أهل ثقة ، ويرتبوا على ذلك تجاهلهم أو إهمالهم .

إن القرآن الكريم جاء ليعلمنا الصبر والأناة وعدم التسرع والثقة في الناس كل الناس حتى يظهر ما ينفي هذه الثقة .

٤ – ويتعلمون من هذه الآيات الكريمة أن مفتاح النجاح والفلاح في العمل الإسلامي كله دعوة وحركة وتربية وتنظيماً هو كلمتان :

تقوى الله والامتثال لما أمر به والانتهاء عما نهى عنه .

وأن الخروج عنهما فسق لا يهدي أصحابه ، ولا يهديهم هنا تعنى لا يوفقهم ، ولعمري ماذا يفعل الدعاة والحركيون في عملهم إذا فقدوا توفيق الله ، لأنهم لم يتقوه ولم يمتثلوا أمره ولم يجتنبوا نهيه ؟

اللهم إنا نعوذ بك من كل شر وكل إخفاق ونسألك التوفيق والفلاح .

* * *

الآية التاسعة بعد المائة

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.

– تصف الآية الكريمة موقفا عظيماً في يوم عظيم ، موقف الرسل جميعاً عليهم الصلاة والسلام بين يدي الله سبحانه يوم القيامة ، يسألهم – وهو أعلم بما كان وما سيكون – قائلا لهم : ماذا أجابكم أقوامكم حين دعوتوهم إلى الإيمان بي ، وإلى طاعتي ؟ وماذا فعلوا بعدكم ؟ .

فيجيب الرسل عليهم السلام قائلين : لا علم لنا .. إنك أنت علام الغيوب .

وفي هذا السؤال وجوابه تخويف للذين لم يستجيبوا لما دعاهم إليه رسل الله ، وتحذير لكل من جاءوا بعد موت الرسل أن يخالفوا ما جاءتهم به رسلهم ، وبخاصة خاتمهم محمد ﷺ ، الذي أوجب الله اتباعه على أتباع كل رسول سابق عليه .

– والآية الكريمة : خبر صادق عن الله تبارك وتعالى يقول فيه للناس : تذكروا يوم أجمع الرسل فأسألهم عن استجابتكم لهم فيما دعوكم إليه فيقولون : لا علم لنا بهم بعد موتنا ، فأجازيكم على معصية الرسل بعد أن تكون قد قامت عليكم الحجة .

● ومن المواقف التربوية العامة في هذه الآية الكريمة ما يلي :

١ – يتعلم المسلمون من هذه الآية في كل زمان ومكان أن الله تبارك وتعالى لما طالبهم بتقواه والاستماع لمنهجه في الآية السابقة حذرهم من يوم القيامة وما يكون فيه ، فكأنه سبحانه قد قال لهم : احذروا يوم أجمع الرسل فأسألهم عنكم ماذا عملتم معهم وبعدهم ؟ فيقول الرسل : ليس لنا علم أنت سبحانك تعلمه ، فكأنه سبحانه يشهد الرسل على أقوامهم ليجازي المحسن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته وفي هذا درس عميق لمن أحسن ولمن أساء .

٢ – ويتعلم المسلمون من هذه الآية الكريمة أنهم محاسبون أمام الله يوم القيامة عن استجابتهم أو تركها لما دعاهم إليه محمد ﷺ من توحيد لله وعبادة له وفق

ما شرع واتباع منهجه في كل شعب الحياة ، يفهم ذلك من أن محمداً ﷺ سوف يجمعه الله إلى سائر ويسألهم جميعاً ماذا أجبتم ؟ فيشهده بعد إخباره بما فعل المسلمون بعده ثم يكون الحساب .

٢ - ويتعلم المسلمون جميعاً في حياة النبي ﷺ وإلى يوم الساعة أن الله تبارك وتعالى مطلع على ما قدموا من عمل وما أحيوا من سنة النبي ﷺ فمحاسبهم ومجازيهم على ذلك .

إن على المسلمين جميعاً أن يوقنوا بأن الله علام الغيوب سوف يحاسب ويجازي .

• ومن المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة ما يلي :

١ - أن الدعاة والمدعوين جميعاً مسئولون بين يدى عزيز حكيم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[1] غير أن الرسل عليهم السلام لا يسألون عن أمر قصروا فيه إذ هم معصومون وإنما يسألون عن إبلاغ رسالاته وما أحدث الناس بعدهم .

وإذا كان ذلك شأن الرسل فما بالنا بالدعاة ؟ والمدعوين ؟

٢ - وأن سؤاله سبحانه للدعاة والمدعوين ليس سؤال من يطلب العلم لأنه سبحانه بكل شيء عليم، ولكنه السؤال الذي يلزم الحجة ﴿**ويعلم مايبدون وماتكتمون**﴾ : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2] .

---

(١) سورة الأعراف : ٦ - ٩ .
(٢) سورة يونس : ٦١ .

- وأن على الدعاة وأهل الحركة الإسلامية أن يوقنوا أن الله تعالى سائلهم عما قدموا في مجالي الدعوة والحركة ومحاسبهم عليه ، وأن المخرج من هذا هو الجد والعمل المتواصل مع الإخلاص ، والتجرد ، والحرص على المدعوين والصبر عليهم فإن ذلك وحده هو المعفى من الحرج أمام الله تعالى .

* * *

الآيات من العاشرة بعد المائة إلى الخامسة عشرة بعد المائة

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (110) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (112) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (113) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (114) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ .

في هذه الآيات الكريمة يمتن الله على نبيه ورسوله عيسى بن مريم بما أنعم عليه وعلى والدته من نعم عظيمة ، حيث أعانه بجبريل عليه السلام في حال تكلمه مع الناس في المهد وكهلاً ، وعلمه الكتاب أي الخط والحكمة وهي الفهم لمعاني الكتاب الذي أنزل الله عليه وهو الإنجيل ، وإذ يعمل ويصنع من الطين كصورة الطير بمعونة الله له فينفخ في هذه الصورة فتكون طيراً بإذن الله ، ويشفي الأعمى المطموس البصر والأبرص ، وكف عنه أذى بني إسرائيل إذ هموا بقتله عندما جاءهم بالبينات فقال الجاحدون منهم إن هذا إلا سحر مبين ، وأنعم الله عليه بأن قذف في قلوب حوارييه الإيمان فآمنوا وخضعوا ، كل ذلك من نعم الله على المسيح عيسى بن مريم .

واذكر يا عيسى إذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فقلت لهم : اتقوا الله أي راقبوه وخافوه أن ينزل عليكم عقوبة لقولكم هذا؛ فإن الله لا يعجزه شيء أراده ، وفي شككم في قدرته كفر به .

فقال له الحواريون إنما طلبنا ذلك لنأكل من المائدة فنعلم يقينا قدرته على ما أراد ونعلم أنك لم تكذبنا في خبرك إنك رسوله .

وقد طلب عيسى عليه السلام من ربه أن ينزل المائدة فيتخذ يوم نزولنا عيداً يعظمونه ومن بعدهم وعلامة وحجة من الله على عباده فأجاب الله سبحانه وتعالى مطلبه قائلاً : **﴿ إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾** وقد جحدوا وكفروا بعد ما أنزلت عليهم فعذبوا بأن جعل منهم قردة وخنازير .

– وفي الآيات الكريمة تعديد لنعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم ، وسرد للحوار الذي دار بينه وبين الحواريين ، الذي أراد الحواريون فيه أن يجربوا الله سبحانه فقال لهم عيسى اتقوا الله فليس لكم هذا، ولكنهم أخذوا يسردون الفوائد من نزول المائدة، فطلب عيسى من الله أن ينزل مائدة فأنزلها عليهم فكفروا فمسخهم الله قردة وخنازير .

- ومن المواقف التربوية العامة في الآيات ما نشير إليه فيما يلي :

١ – أن يتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الله سبحانه قد مَنَّ على عبده ونبيه ورسوله عيسى بن مريم بتلك النعم التي كان كثير منها خوارق ومعجزات ، وأنه سبحانه قد مَنَّ على سائر الناس بنعم لا تعد ولا تحصى وأنه أوجب علينا شكر هذه النعم ، ومن هذه النعم :

أ – نعمة الحياة نفسها فهي هبة منه سبحانه

- وشكرها أن نقدم هذه الحياة لواهبها حين يطلبها منا في إحقاق حق أو جهاد عدو لتكون كلمة الله هي العليا .

ب – ونعمة الروح وهي نفخة من روحه سبحانه

● وشكرها إنما يكون بوصل هذه الروح بخالقها وإقبالها على عبادته والتقرب إليه بالطاعات وحبه والرضا بقضائه .

ج - ونعمة الإسلام وهي أكبر النعم

● وشكرها إنما يكون بأن يسلم الإنسان وجه لله وهو محسن ويحقق شروط الإيمان وأركان الإسلام ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويجاهد في سبيل الله .

د - ونعمة العقل والتفكير

● وشكرها يكون بالتأمل والتدبر في عظمة خلق الله ، والسير في الأرض لأخذ العبرة والعظة والنصح والحكمة من النظر في مخلوقاته وملكوته .

هـ - ونعمة السمع والبصر وسائر الحواس .

● وشكرها إنما يكون بأن يستعملها الإنسان فيما أحل الله ويبتعد بها عن كل ما حرم ، فكل جارحة منها يسأل عنها الإنسان وعما فعلت .

و - ونعمة تكريم الإنسان وتفضيله على كثير من خلق الله .

● وشكر هذه النعمة إنما تكون بالمحافظة على هذا التكريم بحيث لا يعرض الإنسان نفسه للإهانة ولا إهانة أبلغ من أن يضع الإنسان نفسه حيث نهى الله .

روى الطبري بسنده عن زيد بن أسلم العدوي قال : قالت الملائكة ياربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون و لم تعطنا ذلك فأعطناه في الآخرة ، فقال : وعزتي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له : كن ، فكان » .

ز - ونعمة خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة

● ويكون شكر هذه النعمة أن يسخر هذا البدن لطاعة الله وسجود هذه الوجوه الجميلة له سبحانه وتعالى .

ح – ونعمة الكلام والبيان .

- ويكون شكرها بأن ينطق اللسان بالحق ويمتنع عن الباطل وأن يحاسب الإنسان نفسه على كل كلمة تخرج من بين شفتيه وأن يختار كلماته وأن تكون مرضية لربه سبحانه .

ط – ونعمة القدرة على الصمت والتأمل .

- ويكون شكر هذه النعمة بالنظر والتأمل والتفكر والتدبر والاهتداء بكل هذا إلى قدرة الله وعظمته والوصول بذلك إلى تقواه وطاعته .

ي – ونعمة الأهل والولد .

- ويكون شكرها بالعمل على أن ينقذ أهله وولده النار التي وقودها الناس والحجارة ، بإلزامهم طاعة الله وتشجيعهم على العمل الصالح وحب الخير للناس ، والتحلي بما أمر الله به والتخلي عما نهى الله عنه .

ك – ونعمة الرزق والمال .

- ويكون شكرها بإنفاقه فيما أحل الله وفيما يحب وإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم منه وعدم كنزه أو الإسراف في إنفاقه .

ل – ونعمة الإرادة والاختيار والقدرة على الحركة .

- ويكون شكرها بتوظيف هذه الطاقات في فعل الخير وفي مقاومة الشر ، وفي تسخيرها لإرضاء الله تعالى .

م – ونعمة النظام الاجتماعي المحكم الذي يقوم على الأسرة وما يحكمها من آداب بالغة الدقة والحكمة .

- وشكرها يكون بالعمل على تكوين هذه الأسرة وحسن اختيار الزوج وحسن تربية الولد ، وصلة الأرحام والبر بالوالدين والمحافظة على الأسرة من كل ما يباعد بينها وبين منهج الله ونظامه في الحياة .

ن – ونعمة التمتع بالطيبات وتحريم الخبائث .

- ويكون شكرها بالانضباط في التعامل مع الطيبات بحيث لا يكون هناك سرف ولا مخيلة ، والبعد عما حرم الله دون تجاوز أو تساهل .

س - ونعمة عبادة الله وفق ما شرع وهي وصلنا به سبحانه وتعالى .

● وإنما يكون شكر هذه النعمة بالإقبال على العبادات فرائضها ونوافلها ليزداد الإنسان بذلك قرباً من الله فيحفظه الله ويزيده من نعمه ، ويرى فيه عبداً مؤمناً أهلاً لأن ينزل عليه نصره وتأييده .

ع - ونعمة فتح باب التوبة أمام من أخطأ .

● وشكر هذه النعمة بالإسراع إلى التوبة عند وقوع الخطأ واستيفاء شروط التوبة النصوح على نحو ما بينا فيما سلف .

٢ - ويتعلم المسلمون من حوار الحواريين لعيسى بن مريم وطلبهم نزول المائدة عليهم لتطمئن قلوبهم .. إلخ أن مثل هذه الطلبات غير لائقة وغير ملائمة للإيمان ولا يحق لهم أن يجربوا الله كما قال لهم المسيح عليه السلام ، فإن مثل هذا يورط صاحبه ويدخله تجربة مرة لابد أن يخفق فيها ويستحق العقاب .

٣ - ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن الناس عموماً والحواريين الذين قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون عرضة للخطأ والشك والريبة ، وأن على من اعتراه ذلك أن يسرع إلى التوبة وإلى تقوى الله : ﴿ **اتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

● ومن المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة ما نشير إلى بعضه فيما يلي :

١ - على الدعاة والحركيين أن يدركوا أن المدعوين قد يواجهونهم بما يكروهون ، بل ذلك هو الأعم الأغلب ، حتى لو كان الداعية رسولاً من رسل الله ، فتلك سنة الله في الدعوة والدعاة يجيء الدعاة بالأدلة والبراهين فيقول المدعوون هذا سحر مبين .

إن الدرس الذي يجب أن يستفاد من ذلك ألا ييأس الدعاة ولا يتراجعوا أو يقعدوا عن العمل ، وإنما عليهم تقبل هؤلاء المدعوين والتعامل معهم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

٢ - وعليهم أن يدركوا أن من المدعوين من يطالبون بمزيد من الأدلة والبراهين وأن منهم

من أوتي جدلاً وقدرة على التحدي وقد يكونون راغبين في مزيد من الاطمئنان وقد يكونون من المتعنتين أو الراغبين في المنفعة الدنيوية ، وأن التعامل مع كل هذه الأصناف هو الصبر والنفس الطويل والبحث عن كل ما يذهب ما في نفوسهم من قلق واضطراب وطمع وعناد ، لأن ذلك كان ولا يزال شأن الدعاة إلى الله من يوم جاء خاتم الأنبياء محمد ﷺ وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

٣ – وعليهم أن يدركوا أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن بعض الناس قد يصبح مؤمناً ويمسى كافراً فالحواريون قالوا « آمنا واشهد بأننا مسلمون » ثم أصبحوا يقولون : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » ، إن المدعوين عرضة لهذا التقلب بل بعض الدعاة أنفسهم ...

ولا علاج لهذا إلا بالصبر والتقوى والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

٤ – وعليهم أن يتعلموا أن كل زمان وكل مكان قل أن يخلوا ممن يجحدون الحق ويكذبون به على الرغم من وضوح الآيات ونصاعة الحجج ، ولقد ذكرت بأصحاب البقرة وأصحاب الناقة وأصحاب المائدة .

وليعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية أن الذين يتحدونهم في الحق ويقيمون في طريقهم العقبات والعراقيل ، بل الذين يمتحنونهم ويفتنونهم عدد منهم ويحاولون إيقاف عمل الدعوة والحركة ، كل هؤلاء يحتاجون إلى جهد كبير وجهاد متواصل ، وتوسل إلى الله بالعمل الصالح ودعاء لهم أن يهديهم الله فيخرجوا من دائرة التحدي للحق وأهله ولدعوة الله ودعاتها والساهرين عليها .

* * *

الآيات من السادسة عشرة بعد المائة إلى العشرين بعد المائة

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾ .

– في هذه الآيات الكريمة يسقط الله سبحانه وتعالى حجج النصارى الذين عبدوا المسيح وعبدوا أمه عليهما السلام ، زاعمين أن المسيح أمرهم بذلك ، فيسأل الله سبحانه المسيح : أأنت قلت للناس هذا؟ فيقول المسيح: سبحانك وكيف لي أن أقول ما ليس لي بحق ، وأنت أعلم بما قلت فأنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن يعبدوا الله ربي وربهم ، وقد شهدتُ على ذلك ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وعلى ما أتوا من أعمال بعضها صالح وبعضها غير صالح ، وأنت القادر على تعذيبهم على كفرهم أو المغفرة لهم .

ولقد صدق المسيح فيما قال ، وأخبر الله سبحانه أن هذا اليوم الذي حدث فيه التساؤل هو اليوم الذي ينفع الصادقين صدقهم ، ويستحقون أحسن الجزاء ، جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، وقد نالوا رضا الله تعالى لصدقهم ، ورضوا هم عن ربهم ، بوفائهم له بما وعدهم على طاعته من جزيل ثوابه ، وذلك هو الفوز

العظيم .

وتختم السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ **لله ملك السموات والأرض** ﴾ وسلطانه عليها وعلى من فيهن بما في ذلك عيسى بن مريم وأمه الذين تزعمون أنهما آلهة لكم ، وما هما إلا عبدان مملوكان لله تعالى وهو سبحانه قادر على إفناء السموات والأرض ومن فيهن لأنه سبحانه على كل شيء قدير .

– وفي الآيات تساؤل وردّ على التساؤل ، وإخبار ، وإعلاء لشأن الصدق وبيان نفعه ، وإبطال الأكاذيب التي زعمها من عبدوا المسيح بن مريم وأمه ، وتأكيد لملكية الله تعالى للسموات والأرض وما فيهن ، وتأكيد آخر لقدرته على إفناء ذلك كله .

● وفي الآيات الكريمة من المواقف التربوية العامة ما نشير إلى بعضه فيما يلي :

١ – أن الله تبارك وتعالى بهذا السؤال – وهو بكل شيء عليم – قد برّأ ساحة المسيح عليه السلام مما نسبه إليه النصارى من عبادته وعبادة أمه ، ومن القول بالتثليث عموماً ، فهذا ليس سؤالاً للتعنيف وإنما هو سؤال للتشريف .

ونتعلم من هذا وجوب المصارحة والمكاشفة في الدنيا بحكمة وحسن تعامل ، فتجنب هول المصارحة في الآخرة بين يدي عليم خبير عزيز حكيم .

٢ – ونتعلم من الآيات الكريمة أدب مخاطبة الله تبارك وتعالى ، حيث بدأ المسيح عليه السلام إجابته على السؤال بأن نزّه الله تعالى وقدسه قبل أن يجيب قائلاً : ﴿ **سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق** ﴾ والمعنى أنك خصصتني بالرسالة ، وشرط الرسالة العصمة ، فكيف يجوز لي أن أفعل ما لا يجوز ؟

ثم أكد المسيح عليه السلام نفى قوله لشيء من ذلك بقوله : ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته** ﴾ ومعنى ذلك ثقته في علم الله سبحانه بأن المسيح لم يفعل ولم يقل لأحد : اتخذوني وأمي إلٰهين كما زعم الكذابون .

ثم يؤكد مرة أخرى نفيه قول هذا الباطل بقوله : ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ .

٣ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى شهيد على كل قول أو عمل ، لأنه لا تخفى عليه خافية ، فهو الرقيب الحفيظ على الناس وحده دون نبي أو رسول ، لأن الرسول إنما يشهد بما رأى ، وطالما هو بين قومه أما بعد موته فإنه لا يعلم عن أمر قومه شيئاً .

ومعنى ذلك أن يتعلم المسلمون أن كل ما يصدر منهم من قول أو عمل فإن الله سبحانه مطلع عليه ومحاسب ومجاز ، وهو سبحانه إن شاء عذب المقصر المخطيء فكان في ذلك العدل ، وإن شاء تسامح وغفر وفي ذلك الفضل .

٤ - ونتعلم من الآيات أن أنفع شيء للإنسان هو الصدق أمام الله تبارك وتعالى ، لأن الصدق هو الذي ينجي من عذابه ، مع الاعتقاد بنفع الصدق لصاحبه في الدنيا ، وجزاء الصدق هو أحسن جزاء لأنه رضا الله تبارك وتعالى وما يترتب عليه من الثواب والتفضل ، ورضا الإنسان عن ربه في الآخرة بوصوله إلى الفوز العظيم والنجاة الكبرى .

ونتعلم منها كذلك قدرة الله الشاملة ، وأنه سبحانه لا نظير له ولا عديل ولا وزير ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا إلٰه غيره ولا رب سواه .

● وفي الآيات الكريمة من المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة ما نذكر بعضه فيما يلي :

١ - على الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يعلموا ويعلّموا الناس أن الله سبحانه وتعالى يسأل جميع الناس يوم القيامة وسؤاله إياهم على نوعين :

- سؤال لإلزام الحجة ثم توقيع العقاب .
- وسؤال لإظهار كذب دعوى ادعاها قوم ثم توقيع العقاب .

فالأول مناقشة وحوار وإقناع والثاني كشف وفضح للكذب ، والذي يناقش الحساب يهلك فقد روى أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها : « من حوسب يوم القيامة عذب ، قالت عائشة رضي الله عنها أوليس يقول الله : ﴿ **فسوف يحاسب حساب يسيراً** ؟ ﴾ قال : ليس ذلك بالحساب إنما ذلك العرض ، ولكن

من نوقش الحساب يهلك » .

ويحدث في مجالي الدعوة والحركة لغط كثير وادعاءات وافتراءات من الرافضين والناكصين ، فليتعلم الدعاة من ذلك طرح تساؤلات على هؤلاء الرافضين للحق ، تارة لإقناعهم وإلزامهم الحجة ، وتارة لإظهار ما يتضمنه موقفهم من ادعاءات كاذبة ، ولكن ليس للدعاة في أي من الموقفين أن يعاقبوا أحداً وإنما يكشفون الحقائق ، والعقاب بعد الحساب لله وحده ، ولكنها إشارات وإيماءات لهم ، لعلها تكشف عنهم الغشاوة وتردهم عن الضلالة .

٢ – وعليهم أن يوقنوا بأن كل مقولة يتوجه بها الدعاة إلى المدعوين محصاة معروفة – يعلم ما في أنفسنا ولا نعلم ما في نفسه ، فليتق الله كل داعية وكل حركي فيما يقول أو يعمل في المجال الذي يعمل فيه ، ليتقوا الله في صغير ما يقولون وفي كبيره فإنهم مسئولون أمام رب العالمين .

وليس أسلم لهم من أن يلتزموا بقول ما أمر الله به أو ندب إليه ، وأن يمتنعوا عن قول نهى عنه أو كره فيه ، إن ذلك هو العصمة من الحساب والمناقشة بين يديه سبحانه وتعالى .

٣ – وأن يدرك الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية أن واجبهم هو التبليغ وبذل الجهد في هداية الناس إلى الله وإلى منهجه ونظامه وجذبهم نحوه ، وليس عليهم وراء ذلك واجب .

روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ﴾ .. الآية ، وقول عيسى – عليه السلام – ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى ، وقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله – ﷺ – بما قال –

وهو أعلم - فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

وروى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم** ... ﴾ إلى قوله : ﴿ **الحكيم** ﴾ قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم » .

تلك سنة الله في حساب عباده ، فعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يستوعبوه ويستوعبوا مقتضياته في إطار من تقوى الله .

٤ - وأن يتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية أن أنفع ما ينفعهم في الدنيا والآخرة هو الصدق ، والصدق مع الله بطاعته وحسن عبادته ، والصدق مع نبيه وكتابه بالأخذ بكل ما في الكتاب والسنة ، والصدق مع النفس بإلزامها بمنهج الله واتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، والصدق مع الناس بحسن التعامل معهم وحبهم وحب الخير لهم .

ذلك الصدق هو الفوز العظيم ، والفوز هو الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده ، أو مما يحول دونه .

قال الراغب الأصفهاني : « الفوز : الظفر بالخير مع حصول السلامة ، فمعنا مركب من سلب وإيجاب ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[1] .

وإطلاقه على الظفر بالمطلوب وحدهُ مراعي فيه المعنى السلبي بالقرائن الحالية .

---

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن باختصار .

والفوز العظيم في الآية الكريمة منظور فيه إلى النعيمين نعيم الجسد ونعيم الروح اللذين يحصلان بعد النجاة من أهوال يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، ونسأله العفو والعافية في الدين والدنيا ونستغفره ونتوب إليه .

* * *

الخـــاتمـة

آخر دعائنا أن الحمد لله رب العالمين على ما وفق وأعان وأسأله تعالى لي ولوالدي وللمسلمين أن يتجاوز عن سيئاتنا وأن يغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان وألا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا .

كما أسأله أن يعفو عني فيما يمكن أن أكون قد قصرت فيه في تفسير هذه السورة الكريمة فالكمال لله وحده وأن ينفع بما كتبت الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية وفي مجال التربية الإسلامية وسائر المسلمين ، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وسبحانك اللهم وبحمدك نستغفرك ونتوب إليك .

القاهرة في عصر يوم السادس عشر من شهر رمضان الكريم ١٤١٣ هـ - ٩ / ٣ / ١٩٩٣ م

* * *

ثبت الموضوعات

الموضوع	الصفحة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أعمال المؤلف المنشورة

أولاً : في الفكر الإسلامي وقضاياه :

١ ــ مع العقيدة والحركة والمنهج — نشر دار الوفاء بمصر
٢ ــ الغزو الفكرى والمجتمع الإسلامى — نشر دار المنار بمصر
٣ ــ الغزو الصليبى والعالم الإسلامى — دار التوزيع والنشر الإسلامية
٤ ــ المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى — نشر دار المنار بمصر
٥ ــ التراجع الحضارى وطرق التغلب عليه — نشر دار الوفاء بمصر
٦ ــ التعريف بسنة الرسول ﷺ — نشر مطبعة السعادة بمصر
٧ ــ السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب — نشر دار عكاظ بالسعودية
٨ ــ نحو منهج بحوث إسلامى — نشر دار الوفاء بمصر

ثانياً : فى التربية الإسلامية :

٩ ــ تربية الناشىء المسلم — نشر دار الوفاء بمصر
١٠ــ فقه الأخوة فى الإسلام — نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية
١١ــ منهج التربية عند الإخوان المسلمين — نشر دار الوفاء بمصر
١٢ ــ وسائل التربية عند الإخوان المسلمين — نشر دار الوفاء بمصر

ثالثاً : فى فقه الدعوة الإسلامية :

١٣ ــ فقه الدعوة إلى الله — نشر دار الوفاء بمصر
١٤ــ فقه الدعوة الفردية — نشر دار الوفاء بمصر
١٥ــ المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله — نشر دار الوفاء بمصر
١٦ــ التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة — نشر دار الوفاء بمصر
١٧ــ عالمية الدعوة الإسلامية — نشر دار الوفاء بمصر

رابعاً : فى الأدب الإسلامى :

١٨ ــ مصطفى صادق الرافعى
والاتجاهات الإسلامية فى أدبه — نشر دار عكاز بالسعودية
١٩ ــ جمال الدين الأفغانى
والاتجاهات الإسلامية فى أدبه — نشر دار عكاز بالسعودية

خامساً : فى الدراسات الأدبية :

٢٠ ــ القصة العربية فى العصر الجاهلى — نشر دار المعارف بمصر
٢١ ــ النصوص الأدبية – تحليلها ونقدها — نشر دار عكاز بالسعودية

سادساً : كتب معدة للنشر :

٢٢ ــ المدخل إلى التربية الإسلامية .
٢٣ ــ التربية الإسلامية فى المدرسة .
٢٤ ــ التربية الإسلامية فى المجتمع .
٢٥ ــ فقه العقيدة الإسلامية .
٢٦ ــ فقه تولى المسئولية وأداء واجباتها .

سابعاً : التربية فى القرآن الكريم :

٢٧ ــ التربية القرآنية فى سورة المائدة .
٢٨ ــ التربية القرآنية فى سورة النور .
٢٩ ــ التربية القرآنية فى سورة آل عمران .
٣٠ ــ التربية القرآنية فى سورة النساء .
٣١ ــ التربية القرآنية فى سورة الأنفال .
٣٢ ــ التربية القرآنية فى سورة الأحزاب .



رقم الإيداع ١٠٦١٠ / ١٩٩٣ م

الترقيم الدولي
I . S . B . N . 977 - 265 - 096 - 7



مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت . ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسي ت ٦١٨١٣٧